*

190129

*

كتاب

تحفة الزائر

في مآثر الامير عبد القادر واخبار الجزائر

الجزء الاول

﴿ سيرته السيفية ﴾

قال ابو تمام

مَنِ النَّاسِ مَيْتٌ وَهْوَ حَيٌّ بِذِكْرِهِ * وَحَيٌّ سَلِيمٌ وَهوَ فِي النَّاسِ مَيِّتُ

بالمطبعة التجارية ــ غرزوزي وجاويش ــ بالاسكندرية
سنة ١٩٠٣

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي احاط بكل شيء علما . وانفذ في كل مخلوق قضاء ازليا وحكما . له الملك الذي ليس له ابتداء . ولا لمدده وامده انقطاع وانتهاء . وله الخلق والامر وبيده النفع والضر . والصلاة والسلام على سيدنا محمد الناهض باعباء الرسالة . ومالك ازمة المجد والجلالة قائد جيوش النبوّة . وعاقد لواء البسالة والفتوّة . وعلى آله واصحابه الذين اتبعوه فيما شرعه وسنه . وناضلوا من حاد عن سنته بالسيوف والاسنة . وبذلوا نفيس الانفس في محبته . ومن اقتفى آثارهم في نصرة دينه من امته . الى يوم الدين آمين . (اما بعد) فيقول الفقير الى مولاه الغنيّ . ﴿محمد ابن الامير عبد القادر الحسني﴾ . سدد الله عمله . و بلغه ما رامه واملّه . بينما شمس سماء سيادتنا في افق المغرب الأوسط طالعة . واشعة انوارها على رياض اقطاره ساطعة . وربوعنا باهل الفضل معمورة . وقصادنا بانواع المواهب مغمورة . اذ فاجأتنا طوارق الدهر . وجاءتنا جنود فرانسا من البحر كالذر . فطفقنا ندافع عن الوطن بكل حمية . ونبذل النفوس في حماية سكانه من كل بلية . واتصلت بيننا حروب للظهور قاصمة . ولعرى الحزم والعزم فاصمة . ثم كاثرونا بالخيل والرجل . وساورونا في الحزن والسهل . فقابلنا اعمالهم بالمثل . حتى استولى على قلوب الرعية الاضطراب . واستحكم الوهن فيها بتمكن الاسباب . ولقي ربحنا اعصارا . واشرب صفونا اكدارا .

وثم امور تشيب الوليد * وترجع بالاشيب القهقرا

ومع ذلك لم نترك المدافعة الى انقضاء المدّة . واستكمال الامارة من ايامها العدّة . فاحاطت بنا جيوش تعدو اوتناوش . من دولتي فرانسا ومراكش . ولله في خلقه علم الغيب . وليس في الغلب بعد بذل الوسع عيب . ومن شان الدوائر ان تدور . ولابد من اعتراء الخسف للبدور .

وفي السماء نجوم لا عداد لها * وليس يكسف الا الشمس والقمر

ولما اراد الله تعالى ان لا نثبت في وجوههم . ولا نقوم بدفع صدماتهم وهجومهم . راينا التسليم

الاقدار اولى . وان النصر ليس الا بيد المولى . فالقينا السلاح للفرنساويين بشروط مقرّرة . وعهود بيننا محرّرة . و بالقدر فارقنا البلاد . وارتحلنا عن محل الطارف والتلاد . فعبثت بها ايدي النوائب . و رشقتها المحن بالسهام الصوائب . وغودرت منازلها صماء عمياء . وصودرت معاقلها بداهية دهماء . وامست من كرام اهلها خالية . واصبحت عاطلة بعد ان كانت حالية . وانمحت رسوم ذلك القطر العزيز واندثرت . وانفصمت عقود ايامه وانتثرت . ولا غرو فان الدهر ذو غير . وكل شيء بقضاء وقدر .

هذا الذي سبق القضاء به * والدهر بين الناس ذو دول

فلبثنا في فرانسا خمسة اعوام . صابرين على القدر صبر الكرام . نستنجز من الحكومة سالف عهدها . ونترقب منها وفاء وعدها . الى ان سلك الله بنا للنجاة منهجا . وجعل لنا من امرنا فرجا ومخرجا . ومنّ علينا بالانطلاق من ذلك الاعتقال . والانتقال على مطايا الراحة مع الصحب والآل .

لا تيأسن من انفراج شديدة * قد تنجلي الغمرات وهي شدائد

ثم خرجنا من فرانسا ممتطين غارب البحر الى ان وصلنا اسلامبول المحمية . دار السعادة ومقر الخلافة الاسلامية . فمكثنا بها سبعة ايام . لا زالت منهلا للخاص والعام . وتشرف سيدي الوالد بمقابلة حضرة ساكن الجنان . مولانا (السلطان الغازي عبد المجيد خان) . فخلع عليه خلع اللطف والاحسان . ثم توجهنا الى بروسة بقصد الاقامة . فاقمنا بها عامين وستة اشهر في عز وكرامة . وكان سبب خروجنا منها زلزلة عظيمة . مست اهلها بمصائب جسيمة . فيممنا البلاد الشامية . ونزلنا بالديار الدمشقية . والقينا فيها عصا الترحال . وحللنا عقدة الرحال . فائزين بكمال التبجيل والاحترام . حائزين اعلا منزلة وارقى مقام . ملحوظين بانظار الدولة العلية . مشمولين بصنوف مواهبها السنية . لا يتقدم علينا احد في المحافل . ولا يرد وارد قبلنا للمناهل . منزلنا ملجأ العموم . ومنجأ لكل مظلوم . فيه الري لكل صادى . سواء العاكف فيه والبادي . ومع ما انا فيه من السرور . وكمال العز والحبور . كان يغلب عليّ في اغلب الاحيان . تذكر الأهل والاوطان . فتحرك مني السواكن . وتنبعث منها الاشواق الكوامن . سيما اذا مررت بنظر بروق . واومضت من ناحية المغرب بروق

ذاك الزمان هو الزمان وغيره * لافرق بين فنائه ووجوده

وما عسى ان اذكر في اقليم وقع على فضله الاتفاق . وحاز قصب السبق على غيره بالاستحقاق . فهيهات ان تنقطع له مني المدائح . ولو قطعت تغريدها الحمائم الصوادح . فان شوقي اليه شوق البلبل الى الورد . وامرؤ القيس الى الابلق الفرد .

لا الجزع يسليني ولا وادي الغضا * عنها ولا نجد ولا الدهناء

لا رامة رومي ولاحزوى ولا * وادي النقا والخيف والخلصاء

كيف لا وهي كما قيل ٠

بلاد بها ميطت عليّ تمائمي * واول ارض مس جلدي ترابها

وعن سيد ولد عدنان ٠ حب الوطن من الايمان ٠ وقالوا يحن اللبيب الى وطنه ٠ كما يحن النجيب الى عطنه ٠ وقيل لبعض الحكماء بم يعرف وفاء الرجل و زمام عهده قال بحنينه الى اوطانه ٠ وتشوّقه الى اخوانه ٠ وكانت ترد علينا بعض الوفود ٠ فيذكرو ننا بسالف العهود ٠ ثم نتجاذب أعنة الحديث ٠ وناخذ في القديم منها والحديث ٠ فتوءدينا المناسبة الى ذكر احوال سيدي الوالد ٠ الصافية موارد بره للصادر والوارد ٠ ناصر الدين ٠ امير الغزاة والمجاهدين

اذا قيل سميه اقول مكنيا * هو الغاية القصوى هو الآية الكبرى

فكنت اخبرهم عما وقع له من الوقائع الجسيمة ٠ والحروب الهائلة العظيمة ٠ التي عرف بين الناس قدرها ٠ واشتهر على الالسنة ذكرها ٠

وسارت مسير الشمس في كل بلدة * وهبت هبوب الريح في البر والبحر

وكثيرًا ما كنت احدثهم عنها بما يستغرب و يستبدع ٠ و يحفظ في خزانة النفوس و يستودع ٠ مما يرقص الجماد منه طربا ٠ و يقضي السامع من غرائبه عجبًا ٠ فيشنفون بذلك مسامعهم ٠ و يعطرون به محافلهم ومجامعهم ٠ يرتاحون اليه ارتياح الكريم الى الوفود ٠ و يتعطشون اليه تعطش الصادي الى الورود ٠ ويودون تدوينه في كتاب ٠ ليبقى ثابتًا مدى الازمان والاحقاب ٠ يبلغه الشاهد للغائب ٠ ويسير ذكره في المشارق والمغارب ٠ فيتلقاه بحسن القبول من كان الادب مطمح نظره ٠ ويرويه رواية الحديث الصحيح من رام ان يقبض قبضة من اثره ٠ فيجعله لصحائف الشمائل عنوانًا ٠ ويرتب له في عجائب المآثر ديوانا ٠ لانه من اهم ما تتعلق الهمم العلية بجمعه وتاليفه ٠ وانفس ما تتعشق النفوس الزكية حسن تدوينه وتصنيفه ٠ فحرضوني على القيام بهذا المندوب ٠ والتصدي لامعان النظر فيه حسب المطلوب ٠ وقالوا لا يخفى ان تحرير احوال الاكابر ٠ وتسطير مزاياهم في صفحات الدفاتر ٠ لمن سنة الكرام التي مضى عليها عملهم ٠ وطريقة اهل العرفان التي نيط بها املهم ٠ لاسيما هذا الامير الشهير ٠ والسيد الجليل الخطير ٠ من تحلت بثنائه العاطر ٠ ألسنة اعاظم الاكابر ٠ وتشنفت اسماع الورى

في سائر الاطراف . بحسن سيرته وما حازه من بديع الاوصاف . وتهادت اخباره كافة الدول . تهادي لذيذ الكرى للمقل . حيث اشبه من السلف عمر بن عبدالعزيز في زهده ورشاده . ومن الخلف يوسف صلاح الدين في حركاته وغزواته وجهاده . وحكي الشيخ الاكبر فيما يؤثر عنه ويذكر . بل الاحرى ان يقال . كان لجده الكرّار مثال . في الجمع بين الاضداد . واحرز مناقب العلماء والامراء والابطال والعباد . وهو الجدير بان تنشر احاديثه وتحرر . وتتلى آياته مدى الدهر وتكرر . بل حريٌ بان ترقم بالتبر جميع احواله واموره . وتضبط وقائع ايامه واعوامه وشهوره . فقلت لعمري قد اصبتم فيما ذكرتم . وحق ان تجابوا الى ما به اشرتم . ولكن اين الطرق والأسباب . الموصلة لفتح هذا الباب . فلم يقبلوا مني عذرًا . بل كرروا ذلك عليَّ المرة بعد الاخرى . وقالوا لا يعزب عنك شيء من ظاهر حاله وخافيه . فانك ابنه ومحل سره ورب البيت ادرى بما فيه . فقلت لقد حملتموني شيئًا ادّا . وكلفتموني احصاء نجوم السماء عدّا . فان حال هذا الامير لاتفي به عبارتي . ولا تحيط ببعض معانيه اشارتي .

وماذا عسى بالوصف يبلغ مقولي * ولو مدت الاقلام من مدد البحر

ويكفيه ان الخصم الالدّ . تكلم فيه بلسان الخل الأودّ . بل صار كالمثل السائر . وخلد في بطون الصحف والدفاتر * حكى مسيو اسكندر بالمار في تاريخه عن المارشال سوليت الفرنساوي انه قال لبعض اصحابه سنة الف وثمانمائة واربعين لايوجد الآن احد في العالم يستحق ان يلقب بالاكبر الا ثلاثة اشخاص كلهم مسلمون وهم الامير عبد القادر ومحمد علي باشا والشيخ شامل .

ومليحة شهدت لها ضراتها * والفضل ما شهدت به الاعداء

وحيث لم اجد بدًّا عن اجابتهم . ولا مندوحة عن اطاعتهم . استخرت الله تعالى وشمرت عن ساعد الجد والاجتهاد . لجمع ما استعين به من المواد . فجلبت تواريخ وقائعه المدونة باللغة الافرنجية . وتكلفت ترجمتها الى العربية . وبعد مطالعتها وامعان النظر فيها وجدت بعض موءلفيها قد اصاب . والبعض اخطاء جادة الصواب . وحافظ فريق على انتصارات قومه . ونسي الآخر احوال امسه وذكر وقائع يومه . قال لويس فاليوت كاتب اسرار المارشال بيجو في تاريخه المسمى الفرنساويين في الجزائر كانت قواد الجيش تحرر لوزارتها . خلاف ما كانت تحرره كتاب الجرائد لادارتها . فلذا

وضعت الاخبار في ميزان واحد . وجعلت الحكم العدل فيها شهادة سيدي الوالد . فانه رب تلك المشاهد . ولا يستوي الغائب والشاهد . وقد استخرجت من آثار مولاي خبرًا يدل عليه دلالة اللفظ على المعنى . و يتعطر بعبير نشره العاطر كل مغنى . ولما رايت افاضل الوقت متشوقين الى اخبار بلاد الجزائر وما فيها . متشوفين الى من يدلهم على جلي احوالها وخافيها . ظهر لي ان اذكر في المقدمة جملة كافية من جغرافية المغرب لاسيما المغرب الاوسط الذي هو موطن اسلافي . ومألف آلافي . وابين ما اشتهر فيه من المدن والامصار . والجبال والانهار . ثم اذكر طرفًا من اخبار المبدا اساسًا لما اثبته . وتمهيدًا لتفصيل ما اجملته .واذكر ما سلف في اقسامه الثلاثة من الدول . ومن عمرها من الامم الاول . وما جرى فيها من عظائم الحروب . وتعاورها من غرائب النوائب والخطوب . واختصر ذلك على وجه يستحسنه السامع . و يبتهج به المطالع . ولما فرغت من ترتيبه . وامعنت النظر في تحريره وتهذيبه . حصرته في قسمين الاول في سيرته السيفية . والثاني في سيرته العلمية وسميته ﴿ تحفة الزائر في مآثر الامير عبد القادر واخبار الجزائر ﴾فسطت عليه يد من لا بارك الله باصله ونسله . وسرقته عمدًا من حرز مثله .جزاه الله على ما ابداه من حسده . في نفسه وماله وولده . ثم شمرت عن ساعد الاجتهاد . لجمع ما تفرّق من المواد. بعد ان فقد منها الاكثر . وبقي من المسودة ما لا يذكر . فجاء مطابقًا الاصل . وخاب من الحاسد والمنة لله الامل

﴿ المقدمة في ذكر جغرافية اقسام المغرب ﴾

قد تقرر عند علماء هذا الفن ان حدود قارة افريقية غربًا البحر المحيط الغربي وشرقًا بحر الهند وبرزخ باب المندب والبحر الاحمر و برزخ السويس وشمالاً البحر الابيض واما حدود افريقية الشمالية مع المغرب فغربًا البحر المحيط الغربي وشرقًا ارض النوبة و بلاد مصر ومن الجنوب صحراء نيسر وهي متصلة من المغرب الى المشرق ذات مفاوز يسلكها تجار المغرب الى السودان الغربي وفيها مجالات لقبائل الملثمين وعلى سمت هذه المفاوز شرقًا ارض فازان و يلي صحراء نيسر الى جهة الشمال منها العرق الممتد من اولها الى آخرها وفي جهة المشرق منه بلاد السودان الشرقي ويحدها شمالاً البحر الابيض وفي الجزء من حدها الغربي الى جهة الجنوب جبل دَرَن معترضًا في المغرب كله من غربيه عند البحر المحيط الى انتهائه شرقًا وفي القطعة الغربية التي بالقرب منه وعلى البحر المحيط رباط ماسا و يتصل به بلاد سوس وعلى سمتها شرقًا لجهة الجنوب بلاد درعة ثم بلاد سجلماسا ثم

قطعة من صحراء نيسر وفي آخرها مواطن زناتة ثم ان جبل درن من جهة الغرب مطلّ على بلاد المغرب الاقصى وهي في جوفه ففي الناحية الجنوبية منها بلاد مراكش واغمات وتادلا وعلى البحر المحيط منها مدينة الرباط وسلا والعرايش وفي الجوف من بلاد مراكش بلاد فاس ومكناس وتازا وقصر كتامة وقد كانت في عرف اهلها تسمى بالمغرب الاقصى وفي سمت هذه البلاد شرقا بلاد المغرب الاوسط وتسمى الواسطة وتعرف الآن ببلاد الجزائر وقاعدتها قديمًا مدينة تلمسان واما الآن فمدينة الجزائر وفي سواحل هذه البلاد على البحر الرومي مدينة وهران ومستغانم وتنس وشرشال والشوبك والجزائر وفي شرقي بلاد الجزائر مدينة بجاية ثم قسنطينة في الشرق منها وفي الجنوب منها بلد مسيله ثم بلاد الزاب وقاعدتها قديمًا بسكره وهي تحت جبل آوراس المتصل بجبل درن الذاهب في افريقية الشمالية غربًا وشرقًا . وينقسم الى قطعتين جنوبية وجوفية فالقطعة الجنوبية غربيها كله مناوز وفي الشرق منها بلاد غدامس وفي سمتها شرقًا بلاد فازان واما القطعة الجوفية ففي غربيها تبسه وعلى ساحل البحر بونه وهي عنابه وفي سمت هذه البلاد شرقًا بلاد افريقية في عرف مؤرخي الاسلام فعلى الساحل مدينة تونس ثم سوسه ثم المهدية وفي جنوب هذه البلاد تحت جبل درن من جهة الشرق بلاد الجريد وتوزر وقفصه ونفزاوه وفيما بينهما وبين السواحل مدينة القيروان وعلى سمت هذه البلاد كلها بلاد طرابلس على البحر وبازائها في الجنوب جبل دمر ومنازل قبائل هوّاره متصلة بجبل درن وفي مقابلة غدامس في القطة الجنوبية بلدة صغيرة تعرف بسويقة ابن مشكور وفي جنوبها ارض فازّان ثم رمال وقفار وبين الجبل والبحر في الجهة الغربية بلداجدابية ثم برقة ثم منعطف الجبل ثم طلمسا وهي بلدة صغيرة على البحر واعلم ان المغرب في عرف قدماء الجغرافيين قطر واحد يحده غربًا البحر المحيط ويسميه المتاخرون الاقيانوس الاتلانتيكي وشمالاً البحر الرومي يخرج من خليج متضايق بين طنجة وطريف من بلاد الاندلس وجنوبًا جبال هائلة حاجزة بين بلاد السودان وبلاد البربر وتعرف عند اهل البادية بالعرق وهو سياج على المغرب من جهة الجنوب مبتدئًا من البحر المحيط ذاهبًا الى جهة الشرق على سمت واحد الى ان يعترضه النيل الهابط من الجنوب الى ارض مصر وبه ينقطع وللمغرب ايضًا سياج آخر من الجبال مما يلي التلول تعرف بالاطلس وهي تخوم تلك التلول ممتدة من لدن البحر المحيط في المغرب الى بلاد برقة شرقا وهنالك ينقطع ويسمى مبدؤها من المغرب

فوجده اقلع عنها وبعد ان اراح بشرشال خرج منها غازيًا على ثغور اسبانيا فظفر بعدة مراكب لهم ولدولة فرنسا وقفل الى الجزائر واستمر يغزو بلاد الافرنج ويعظم النكاية فيها الى ان استحضره السلطان الغازي سليم خان الى دار الخلافة فاستخلف مستشاره حسن آغا على الجزائر المرة الثانية وتوجه في اربعين مركبًا ومرّ على سواحل ايطاليا وسردينيا وجينوا نعاث فيها واستمر في مروره يخرب الحصون ويستلب الاموال والانفس الى ان دخل العاصمة فاكرم السلطان نزله واكبر شانه وقلده وزارة البحر وكان وقتئذٍ اندريا دوريا الجينوي رئيسًا على عمارة اسبانيا وكثيرًا ما يجول في بحر الارخبيل فاخذ خير الدين يترصده ويذيقه نكل الحرب الى ان اعجزه ولحق بثغور اسبانيا وخلا البحر لخير الدين فقصد جزائر الموره ففتحها ورتب امورها ثم سار الى افريقية فارسى على بنزرت واستولى عليها ثم مد عينه لاخذ تونس فسار منها الى حلق الواد فامتلأت قلوب اهل الحضرة رعبًا منه وفر صاحبها ابو محمد الحسن ولحق بالقيروان وندب الناس الى نصرته فخذلوه وبعث صريخه الى ملك اسبانيا فبادر الملك الى نصرته وجمع قوته وصدرت اوامر البابا من رومية الى كافة دول الافرنج يحثهم على اعانة ملك اسبانيا على شانه فامدوه بالمراكب والجنود والمهمات ثم سار الجمع في عمارة اسبانيا الى تونس وحاصروها اياما ثم خرجوا الى البرّ وزحفوا اليها فالقيهم خير الدين بجنوده في خربة الكلخ خارج البلد واقتتلوا وكان في قلعة تونس ما يزيد على خمسة وعشرين الف اسير من الافرنج فانتهزوا الفرصة حين القتال وخرجوا من القلعة وحملوا على خير الدين من خلفه فاختل مصافه وانهزمت جيوشه ولحق خير الدين ببونه ثم بالجزائر واستولت جيوش الافرنج على تونس فعاثوا فيها واستباحوها ثلاثًا وقتلوا نحو ستين الف نفس صبرًا وشنوا نفوسهم من المسلمين وجاء الحفصي من القيروان راجعًا الى دار ملكه تحت حماية دولة اسبانيا وفرضت عليه ضرائب متنوعة يؤديها اليها على رأس كل سنة واشترطت عليه اباحة السكنى للافرنج في تونس والتملك بها واتخاذ الكنائس والاديرة ثم رجعت الجيوش الى اوطانها وتمكن ابو محمد الحسن الحفصي من امره واقام على ذلك الى ان ثارت العامة ونقموا عليه وطيروا الخبر الى ولده ابي العباس احمد وكان واليًا لابيه على بونه فاسرع السير الى تونس وفر والده الى القيروان فقبض عليه ابو الهول شيخ العرب فسمل عينيه واشخصه الى القيروان فاعتقل فيها الى ان مات واستقل ابنه احمد في الملك ولما رجع خير الدين الى الجزائر عقب انهزامه من تونس اخذ يتاهب لغزو اسبانيا فاعد المراكب واستكمل تعبيتها وانتقى

العساكر وسار غازيًا ثغور اسبانيا صادف في طريقه عدة مراكب للافرنج فاستولى عليها واستاقها الى الجزائر ثم غزى بلد ماهوب من بلاد اسبانيا فدمر اهلها واضرمها نارًا وانكفا راجعًا ولم يزل يتابع غزو الثغور الافرنجية الى ان استدعاه السلطان الغازي سليمان خان الاول فاستخلف على الجزائر مستشاره حسن آغا المرة الثالثة وسار باهله الى الاستانة فاكرم السلطان وفادته وقلده وزارة البحر فجرى خير الدين على عادته في غزو ثغور العدو من الاستانة والرجوع اليها بالغنائم الكثيرة الى ان مات في قصره بظاهرها سنة خمس وخمسين وتسعمائة وقبره قرب مرسى بشكطاش مشهور واقر السلطان الغازي سليمان خان حسن آغا مستشار خير الدين على امارة الجزائر وارسل اليه الفرمان والخلعة وعلى قيادة البحر في الجزائر حسن بن خير الدين فاقتفى اثر والده في الشدة والحزم والاجلاب على الثغور الافرنجية وضايقهم حتى اثخنوا امر والده وغزا جبل طارق واستباحه واستاق امواله ومراكبه ورجع الى الجزائر فتزلزلت بلاد اروبا وامتلات القلوب منه رعبًا وايقنوا بخراب ثغورهم وجزائرهم فارسلوا صريخهم الى ملك اسبانيا كارلوس الخامس وكانت دول اروبا ترجع اليه في ازماتها فجهز كارلوس نحو خمسمائة مركب وشحنها بالعساكر والمهمات وسار بها الى الجزائر وعدل عن مرفاها الى فرضة وادي الحراش وانزل جيوشه الى البر وابقى في المراكب معه من يقوم بها وعسكرت جنوده في القرب من محل سيدي يعقوب وكتب الى حسن باشا انا ملك اسبانيا الذي استولى على تونس واخرج منها خير الدين باربروس الثاني وتونس اعظم من الجزائر وخيرالدين اعظم منك فاجابه حسن باشا ان اسبانيا غزت الجزائر في مدة عروج باربروس الاول مرة وفي مدة خير الدين مرة ولم تحصل على طائل بل انتهبت اموالها وفنيت عساكرها وهذه المرة الثالثة كذلك ان شاءالله وفي اليوم الثاني من هذه المراسلة حدث نوء شديد برًا وبحرًا فلعبت الرياح بالمراكب والقت منها ما يزيد على مائة مركب الى البر فانقضت عليها حشود العرب والبربر وانتهبوا ما فيها واستاصلوا من لم يدركه الغرق وانتهز الفرصة والي الجزائر فخرج بجيشه وحمل على المعسكر فانهزم الافرنج وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون حتى اتوا على آخرهم ولحق كارلوس في عدد قليل من مراكبه ببلاده ورمى بتاجه الى الارض واقسم ان لا يضعه على راسه الا بعد استيلائه على الجزائر فلم يساعده القدر الالهي على ذلك وفي اثناء هذه المحن انتقض اكثر قبائل البربر ونبذوا الطاعة ولما فرغ حسن باشا مما دهمه من امر اسبانيا وانتصر

على جيوشها وجه وجهته الى تدويخ البلاد وقطع شافة الثوار منها فتأهب لذلك ولم يزل يجول في الانحاء ويبث السرايا في الجهات الى ان دان الناس لطاعته واسترد مستغانم من يد صاحب تلمسان ووصلت جيوشه في الجهة الشرقية الى ما وراء بسكره والزيبان ثم رجع الى الجزائر وتوفي بها وتولى حسن بك ابن خير الدين وكان بنو وطاس بطن من بني مرين استولوا على المغرب الاقصى بعد بني عمهم عبد الحق واستفحل امرهم فيه فدعتهم نفوسهم الى الاستيلاء على تلمسان دار ملك بني زيان فنهضوا اليها من فاس في جموعهم سنة ثمان وستين وتسعمائة واستولوا عليها في فترة موت حسن باشا فلما افضى الامر الى حسن باشا ابن خير الدين استفرغ لقتالهم ونهض من الجزائر واتصل الخبر ببني وطاس فخرجوا من تلمسان وانقلبوا راجعين الى فاس واستمر حسن باشا سائرًا الى ان دخل تلمسان فاصلح شأنها وولى عليها رجلاً من بني زيان اسمه حسن وقفل الى الجزائر ثم عزل وتولى اخوه صالح باشا ابن خير الدين فارتاح الناس الى توليته وكانت اسبانيا استولت على بجايه فابتدر صالح باشا اليها ونازلها برًا وبحرًا ثم اقتحمها بجيوشه واستأصلها ثم سار الى قسطنطينة فاستولى عليها واقتطعها ثم انقلب الى تلمسان وطرد منها حسن الزياني مع بقايا بني عمه فتفرقوا اوزاعًا في الجهات وابقاء لله تعالى وانتظم المغرب الاوسط كله لصالح باشا من حدود وجده من بلاد المغرب الاقصى الى الكف من بلاد افريقية وبعد ان رجع الى الجزائر توفي وتولى اخوه حسن باشا ابن خير الدين مرة ثانية وفي ايامه خرج حاكم وهران بجنوده الى مستغانم وكان حسن باشا في تلك النواحي فتعرض له وانتشب الحرب بين الفريقين فانهزم جيش اسبانيا وقتل حاكمهم ثم ان الدولة العلية حملت اهل الجزائر على العمل بقوانينها وانها تعين عليها حاكمًا من قبلها وتمده بما يلزمه من الجنود والذخائر وعزلت حسن باشا ابن خير الدين وبعثت محمد باشا كرداوغلي ثم عزل محمد باشا وتولى علي باشا وكان اهل تونس سئموا من ملكهم ابي العباس احمد الحفصي ولحقهم الضجر من ظلمه فدس وزيره ابو الطيب الخضار الى علي باشا في النهوض الى تونس ووعده بتمهيد الطرق الموصلة الى الاستيلاء عليها فجهز علي باشا جيوشه واحتشد قبائل العرب والبربر من النقاصية ونهض من الجزائر سنة سبع وسبعين وتسعمائة فالتقى الجمعان بباجه ووفى الخضار بوعده فخذل صاحبه والقى الرعب في قلوب عساكره فتفرقوا اشتاتًا وفر ابو العباس الى تونس ثم خرج باهله وامواله ولحق بالقيروان وتقدم علي باشا بجموعه الى

الحضرة فدخلها وقتل ابن الخضار وولى حيدر باشا على تونس وانقلب راجعاً الى الجزائر واستجاش ابو العباس بملك اسبانيا فاجابه واشترط عليه مقاسمة الملك فامتنع ابوالعباس من قبول هذا الشرط فركب البحر الى صقلية ولم يزل بها الى ان مات ثم قام اخوه محمد بن الحسن واثار الفتنة على حيدر باشا وبعث الى ملك اسبانيا بقبول ما اشترطه على اخيه فانجده الملك بعساكره وعند وصولها في المراكب الى حلق الواد فرّ حيدر باشا وحاميته من الاتراك ولحقوا بالقيروان وتقدم محمد بن الحسن الى عساكر اسبانيا فدخل بها الى تونس وعاثوا فيها واهانوا المساجد والمدارس واتخذوا جامع الزيتونة اصطبلاً لدوابهم وقاسمهم محمد بن الحسن البلاد والجباية وفي سنة احدى وثمانين وتسعمائة تولى رمضان باشا على الجزائر وفي سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة جهزت الدولة الوزير المشهور سنان باشا فسار في جيش كثيف لانقاذ تونس من يد اسبانيا واوعزت الى والي الجزائر ووالي طرابلس الغرب بمظاهرته فاستعد كل واحد منهما وسار من ولايته وخرج حيدر باشا من القيروان بحاميته ومن انقاد اليه من العرب والبربر وتكاملت الجيوش في خارج تونس واحاطوا بها من كل جانب فدخلها المسلمون عنوة واستأصلوا عساكر اسبانيا واسروا محمد بن الحسن ثم اشخصه سنان باشا الى الاستانة فاعتقل فيها الى ان مات وتم استيلاء الدولة العلية على افريقية وانقرضت دولة بني حفص منها بعد ان ملكوها ثلاثمائة ونيفاً واربعين سنة والبقاء لله تعالى وحده وثبتت قدم سنان باشا في تونس واستفحل امره وقطع دعوة بني حفص فيها واستلم الثوار ومن عهده صارت الولاة تختلف على تونس من قبل السلطنة السنية كاختلافهم على الجزائر ثم وقع النزاع بين حكومة الجزائر وحكومة تونس بعد استيلاء سنان باشا عليها في الحدود واستمر الى ان تولى حسن باشا على الجزائر سنة اثنتين وعشرين والف فاتفق مع يوسف داى والي تونس علي تعيين نهر سراط حداً بين الحكومتين وفي سنة ثلاث وثلاثين والف تولى خسرو باشا على الجزائر ونازعه يوسف داي في الحدود ثم رجعا لما وقع عليه الاتفاق اولاً بين الامارتين في الاحكام والجباية وفي سنة اربع وخمسين والف انتقضت جزيرة كريت على الدولة واستبدوا بامرهم فاوعزت الى محمد باشا ابي ريشة والى الجزائر بغزوها فسار اليها في اسطوله وفتحها وقفل الى الجزائر وكان الملك فرنسيس الاول عقد الصلح مع السلطان الغازي سليمان خان سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة هجرية وخمس وعشرين وخمسمائة والف ميلادية واباح له السلطان حرية مراكب فرانسا في البحر الابيض تسافر فيه حيث شاءت

واذن له في تعاطي التجارة في الجزائر وغيرها ثم ان حكومة الجزائر اخذت مراكبها تغزو ثغور فرانسا وتخرب حصونها الى ان آل امر فرانسا الى الملك لويس الرابع عشر فجهز نحو ستة آلاف جندي في ستة عشر مركبًا لنظر القائد الدوك دي بوفور فاقلع من طولون في مراكبه سنة اربع وسبعين والف من الهجرة مترصدًا مراكب الجزائر فلم يصادف نجاحًا وفي سنة ست وسبعين وقع الصلح ولما تولى بابا حسن على الجزائر سنة اثنتين وتسعين والف اغزى مراكبه الى الثغور الفرنساوية وفي سنة اربع وتسعين خرج الاميرال تورفيل من طولون في عمارة فرنسا وسار الى الجزائر واناخ عليها ثلاثة اشهر يغاديها القتال ويراوحها ثم سئم الاقامة من غير طائل واقلع عنها وفي سنة خمس وتسعين عاد اليها في قوة اكثر من الاولى ولما علم بابا حسن انه عاجز عن مدافعته مال الى السلم وبعث الى رئيس العمارة في ذلك فاجابه اليه واشترط عليه امورًا انف اهل الجزائر من قبولها وعارضوا حاكمهم في اجازتها ثم عدوا عليه فقتلوه وولوا عليهم الحاج حسن آغا من مشاهير القواد فاشهر الحرب على المراكب الفرنساوية ورماها بالقنابل فاستشاط تورفيل غضبًا وارسل على البلد صواعق المدافع فعمد اهل الجزائر الى اسارى الافرنج يوثقونهم ويدسونهم في افواه المدافع ثم يرسلونها فتتطاير اشلاؤهم مع القنابل في الهواء وارتكبوا في ذلك ما لا يسوغ شرعًا ولا مروءة ثم لما طال الامر على الاميرال تورفيل اقلع عن الجزائر الى بلاده وفي سنة ست وتسعين عاد اليها فدعاه اهلها الى الصلح فبادر الى ذلك وانعقد الصلح الى ان تولى خوجه ابراهيم باشا فاغزى ثغور فرانسا ورجع بالغنائم وفي سنة مائة والف جمعت دولة فرنسا قوتها واكثرت من الحشود الافرنجية وبعثها لنظر المارشال دي سترى فنازل الجزائر والح عليها برمي القنابل واقام على ذلك خمسة عشر يومًا حتى دكت اطراف البلد ثم جنح خوجه ابراهيم باشا الى السلم فانعقد الصلح وفي سنة اربع ومائة والف تولى على الجزائر خوجه شعبان باشا فنهض الى تونس بجيوشه فدخلها بمداخلة ابن شكر وزير محمد باي واليها وفر محمد باي الى داخلية افريقية وتم الامر لشعبان باشا ثم فوض امر تونس الى ابن شكر باي وقفل الى الجزائر وكان شعبان المذكور يبغض العرب ولما رجع من تونس امر جنده بقتل كافة العرب القاطنين في مدينة الجزائر فقتلوا خلقًا كثيرًا وكثر تعسفه واشتدت وطأته فقبض عليه الجند وقتلوه خنقًا وتولى الحجه احمد باشا ثم عزل وتولى عمر باشا وكان محمد باي انتصر على ابن شكر باي وعاد الى تونس ولحق ابن شكر بالمغرب الاقصى

ثم توفي محمد باي والي تونس وتولى اخوه رمضان باي فثار عليه مراد باي بن علي باي وتداول تونس من يده واستفحل امره فيها واجمع على غزو قسنطينة ثم الجزائر ونهض من تونس على طريق الكاف فلقيه علي خوجه باي حاكم قسنطينة بالقرب منها وناجزه الحرب فكانت الدبرة على علي خوجه باي واتصل الخبر بعمر باشا فخرج من الجزائر وزحف الى مراد باي وهو محاصر لقسنطينة وانتشب الحرب بينهما فانهزم مراد باي ولحقه عمر باشا الى الحدود ثم انكفا راجعاً الى الجزائر وبقي مراد باي في مرض من الايام الى ان ثار الشريف ابراهيم وقتله واستولى على تونس ثم لما تولى مصطفى باشا على الجزائر جهز جيشاً وبعثه لقتال الشريف ابراهيم المتغلب على تونس ونهض الشريف من الحضرة فالتقوا بالقرب من الكاف واقتتلوا اياماً ثم وقع الخلل في عسكر الشريف فانهزم وقبض على الشريف وسارت عساكر الجزائر الى تونس فدخلوها ثم رفع الى مصطفى باشا في رئيس ديوان التحريرات الجزائرية الخوجه محمد بكداشي امر نقمه عليه نعزله ونفاه الى قاصية البلاد فاقام بكداشي مكانه يترصد الفرص الى ان تمكن منها فتلطف في رجوعه الى الجزائر ثم دخل على مصطفى باشا في منزله ليلاً وقتله وتولى مكانه سنة ثمان عشرة ومائة والف ثم قبض على الاخوين العالمين السيد احمد والسيد علي ولدي العلامة المؤلف الشهير الشيخ سعيد قدوره وكان الاول مفتياً للمالكية والثاني قاضياً لهم نقتلهما في محبسهما خنقاً وقد انتقم الله منه بمثل فعله فسلط عليه ابراهيم آغة العرب فدخل عليه وخنقه وتولى مكانه ثم تولى بعده علي باشا ثم محمد باشا ثم عبدي باشا وكانت اسبانيا استولت على وهران سنة خمس عشرة وتسعمائة اخذتها من يد ابي كلون آخر ملوك بني زيان ولم تزل حكومة الجزائر تبعث بالجيوش اليها وتنازلها براً وبحراً فلم تات بطائل الى ان تولى محمد بكداشي على الجزائر وكان شديد الرغبة في استرجاعها فجهز جيشاً عظيماً وبعثه اليها واوعز الى حاكم معسكر مصطفى باي ابي الشلاغم بظاهرة الجيش والنظر في امره فنازلوها اول يوم من ربيع الاول سنة تسع عشرة ومائة وضيقوا على حاميتها واحجروهم في داخلها وفي سادس شوال من تلك السنة فتحوا البلد عنوةً وفر اهلها الى برج المرسى وتحصنوا فيه فلحقهم المسلمون وفي ثالث عشر المحرم سنة عشرين اتخذوا الحصن واستاصلوا اهله واستقر ابو الشلاغم والياً عليها ولم يزل يدافع جيوش اسبانيا عنها مرة بعد اخرى الى ان تغلبوا عليها واخذوها من يده سنة ثلاث واربعين ومائة والف وخرج منها

ابو الشلاغم باهله ومن كان فيها من المسلمين الى معسكر ونواحيها وكان والي الجزائر عبدي باشا فجهز ولده محمدا في عدة مراكب وبعثه الى وهران فنازلها ثم توفي عبدي باشا واقلع ولده محمد راجعًا الى الجزائر وكان حسن بن علي والي تونس ظاهر جيوش اسبانيا على اخذ وهران وامدهم بالذخيرة لحفظها له ابراهيم الخزناجي مستشار عبدي باشا ولما افضى امر الجزائر اليه اخرج يونس ابن اخي حسين بن علي وكان معتقلاً في الجزائر وامده بالجيش والمهمات واوعز الى حاكم قسنطينة بمظاهرته فنهض يونس من الجزائر واجتمع بحاكم قسنطينة وانضم اليهما ابو عزيز شيخ الحنانشة وابو رنان شيخ عرب البنيان ومحمد ابن ابي الضياف شيخ جبل اوراس بجموعهم واتصل الخبر الى حسين بن علي فزحف اليهم والتقى الفريقان على نهر سراط وانتشبت الحرب فكانت الدبرة على حسين بن علي فانهزمت جيوشه ولحق هو واولاده بالقيروان واستولى يونس على الحضرة وانقلبت الجيوش راجعة الى مراكزها ثم نهض يونس باي الى قتال عمه وهو بالقيروان فخام عمه عن اللقاء واقام يونس محاصرًا للقيروان احد عشر شهرًا ثم خرج منها حسين بن علي واولاده ولحقوا بقسنطينة متنصلين مما وقع منهم وتوجه محمد بن حسين بن علي الى الجزائر وقدم الطاعة للخزناجي باشا نيابةً عن والده فقبل طاعتهم ووعدهم بالعود الى دار ملكهم ثم بعد وصول محمد الى الجزائر توفي والده بقسنطينة ولحق محمود وعلي باخيهما محمد واقاموا ينتظرون انجاز الوعد الى ان مات الخزناجي باشا وتولى خوجه ابراهيم باشا وكان الخزناجي عهد اليه عند موته بمساعدتهم فلما تمكن من امره سيرهم في الجيوش الجزائرية وامر حاكم قسنطينة بمظاهرتهم وقبل وصولهم الى حدود تونس حصل الخلل في العسكر وتفرقت الكلمة بين حاكم قسنطينة واحمد آغا رئيس العسكر الجزائري فانقلبوا راجعين الى قسنطينة ثم توفي علي بن حسين ابن علي واقام اخواه محمود ومحمد بقسنطينة وفي سنة ستين ومائة والف توفي الخوجه ابراهيم باشا وتولى محمد باشا المعروف بالاعور وفي سنة ثمان وستين ومائة والف عدا عليه جندي فقتله وتولى علي باشا ابو اصبع وكان حسن باي المعروف بازرق العينين ابن اخت علي باشا المذكور واليًا على قسنطينة فاتفق رايه مع خاله على اخذ تونس من يد يونس باي وردها الى اولاد عمه حسين بن علي ثم ان ازرق العينين عمل الحيلة على يونس باي واظهر له المودة فركن اليه والقى اليه بمقاليد اموره ولم يزل يدبر له المكائد الى ان تمكن منه وقبض عليه واستصفى امواله وبنى عليه حائطًا من خشب

فبقي في عذابه الى ان مات ورجع امر تونس الى اولاد حسين بن علي يرثونه خلفاً عن سلف لهذا العهد وفي سنة تسع وسبعين ومائة والف توفي علي باشا وتولى محمد باشا المعروف بالمجاهد وكان صالحًا زاهدًا حسن السيرة محبًا للجهاد منصور الراية شيد عدة ابراج وحصون في الجزائر منها برج سردينيا والبرج الجديد وبرج راس العين واصلح قناة الحامة واجرى ماءها الى سقايات اتخذها على ابواب المساجد والابراج والحصون وخوابي من رخام في شوارع البلد واوقف اوقافًا جارية وانشأ جملة مراكب بحرية للغزو وهو اول من اتخذ الشخون في الجزائر وهو مركب صغير وفي سنة ثلاث وثمانين ومائة والف انتقض الصلح بين الدولة العلية ودولة روسيا فجهز مراكبه واكمل استعدادها لنظر القبطان ابن يونس وبعثه اجابة لأمر الدولة وتكرر منه هذا عند ما تدعوه الدولة لاعانتها وكان قوم من اليونان يقال لهم الزنبطوط اتخذوا قرصانًا وانقطعوا فيه في البحر يترصدون المراكب فلا يصادفهم مركب الا اخذوه بما فيه وقتلوا اهله وكانت الدولة العلية تامر حكامها في الجزائر بقطع عاديهم فجهز محمد باشا المجاهد القبطان الحاج سليمان وارسله اليهم فاستولى عليهم وساقهم في مراكبهم الى الجزائر وقد قسموا بلاد المغرب الاوسط الى اربع ولايات ولاية الجزائر وولاية تيطرى بكسر التاء وسكون الطاء المهملة وولاية قسنطينة بضم القاف وفتح السين وسكون النون وولاية وهران بفتح فسكون ولكل ولاية حاكم يسمى باي اي بك الا حاكم الجزائر فيسمى باشا وهؤلاء البايات متساوون في الرتبة والعمل ويرجعون في امورهم الى والي الجزائر ولما تولى بابا علي باشا بانتخاب اهل الشورى رفع الى حضرة السلطان احمد عريضة تنبيء بان وجود واليين في الجزائر موجب للفساد مستلزم للنزاع فقبل ذلك وامر بان يكون انتخاب الولاة وعزلهم الى مجلس الشورى وان يكون التصديق على ذلك من السلطنة وقد تقدم ما كان للحكومة الجزائرية في سالف امرها من سمو المنزلة وباهر السطوة وكانت الدول الافرنجية على كثرتها تدفع لها اموالاً مضروبة عليها كل سنة لدفع عاديتها عن ثغورهم ما عدا دولة اسبانيا فانها كانت تتلون فتارة تدفع ضريبتها وتمتنع اخرى والحكومة الجزائرية تعاملها على حسب تلونها ولما تولى محمد باشا المجاهد اكثر من غزو ثغورها حتى الجأ اهلها الى الجلاء عنها والفرار الى الداخلية وقد اجتمع في الجزائر منهم عشرة الآف اسير فجمع ملك اسبانيا قوته واستجاش بقية الدول وجهز خمسمائة مركب مشحونة بالعساكر والذخائر وبعثها الى الجزائر سنة تسع وثمانين ومائة والف فنزلت

بني صالح وفي الجنوب من هذه الجبال جبل اوراس وكل هذه الجبال منبتة تحتوي على احراش من الاشجار مختلفة الانواع والاجناس واما انهارها وجداولها فكثيرة لا يأتي عليها الحصر ومن اشهرها واكبرها في الجهة الغربية نهر تافنا يمر في شمال بلاد الغسل وفيما بين ترارة وولهاصة ويصب في البحر الرومي في ساحلهم ونهر المقطع ونهر سيك في بلاد الغرابه ويصب قرب قرية بطيوه ونهر مكرّه وعليه مدينة بلعباس التي احدثها الفرنسيس ونهر وادي الحمام وعليه بلدتنا التي اختطها اسلافنا ولم تزل معمورة الى ان اضرمها الفرنسيس نارًا وخرب رسومها وفي الجهة الشرقية من البلاد السيبوس ينتهي الى البحر الرومي قرب عنابه ونهر بوجيمه ونهر بني ملكي ومصبهما في البحر ايضًا قرب سكيكده ونهر بوبرك ونهر الهرش ونهر تطرغان ونهر شلف وهو نهر كبير يمر في معظم ارض المغرب الأوسط منبعه من بلاد بني راشد في جنوبي وادي مزاب من الصحراء ويدخل الى المتل ثم يمر مغربًا ويجتمع فيه اودية كثيرة كوادي مينه ووادي ارهيو ووادي يلل بتشديد اللام الى ان ينصب في البحر بين كلمه ومستغانم واما بحيراتها فاشهرها بحيرة الحوت في ولاية قسنطينه وبحيرة الوطا في ولاية الجزائر وبحيرة السبخه في ولاية وهران ينعقد ماؤها ملحًا واغلبه يستهلك بتلك الولاية منها واشهر بحيرات الصحرا بحيرة زاعق في ارض اولاد نائل وبحيرة شوط وبحيرة شكا واما اشجارها وانواع فواكهها وحبوبها ونباتاتها فكثيرة جدًا وبالجملة فبلاد الجزائر كريمة البقعة طيبة التربة مخصبة الجبال والبسائط منبجسة العيون والانهار متصلة مادة الخيرات وفيها من انواع الفواكه البورتقال والتفاح واللوز والجوز والموز والعنب والمشمش والانجاص والليمون بانواعه والزنبوع وهو الفرسكين والاترج والفستق والزيتون والعناب والخرنوب والبلوط الحلو المعروف بابي فروه والصنوبر البري الا انه صغير اسود يعرف في بلاد المغرب بالزنين بتفخيم الزاي وتشديدها والمزاح وهو المشمله والتوت المعروف بالشامي وقصب السكر واللنج وحب الملوك وهو الكرز ويخرج في جبل هواره المعروف بجبل بني شقران التين الشقراني وقلّ ان يوجد له نظير يجلب منه كثير الى اقطار المغرب ونوع منه يسمى الباكور ينضج في آخر الربيع وفيها شجر البطم وهو شجر ضخم كبير وصمغه كحصى اللبان رائحة وطعمًا وفيها الشجر الذي يستعمل منه الفلين وشجر الزرو وصمغه يشبه المصطكي لونًا وطعمًا وريحًا وينزل المنّ من السماء على شجر البلوط فيجمعه الناس بعد انجماده ويصبغون به فيخرج منه اللون الاحمر الثابت الذي لا تفوقه حمرة ولا يؤثر فيه ما يؤثر في غيره من ادوات الصبغ ويسمونه القرمز ويعرف في بلاد المشرق بالدوده

يجلبه اليها التجار من بلاد المغرب والاندلس وفي صحرائها انواع اثمار النخل فمنها الحرّ الذي لا يوجد لثمره نظير الا في بلاد الجريد من بلاد تونس وذلك لقوة حلاوته وحسن لونه وضخامته ومنها ما يقال له تينهود ولعزته لا يجلب الا لبلاد فاس وبلاد المغرب الاوسط أخبرني والدي انه لم يرَ مثله في الحجاز ولا في العراق ولم يذق لذة فاكهة تشبهه طعماً ونكهةً منذ فارق الوطن ومن زروعها الحنطة والشعير والحمص والعدس والفول والارز والذره والدخن وانواع البقول والنباتات ذات الخواص لكثير من الامراض وعلى الاجمال محاسنها لا تستوفى بعبارة. فاراء كمن سمعا. واما معادنها فالذهب والفضة والالماس والحديد والنحاس والرصاص والزرنيخ والخيلدون وهو نوع من العقيق الجيد وحجر البلور هذا ما اكتشفه اصحاب الصنائع والاستخراجات من الافرنج واما صنائعها فاجود ما يتنافس فيه اهلها ويفتخرون به صناعة السلاح بانواعه على الشكل القديم ولهم اعتناء كبير باستخراج جوهر الحديد والفولاذ ومن نفيس مصنوعاتهم نسج اقمشة الحرير ومنسوجات الصوف كالبرانس والاكسية وغيرها من انواع الملبوسات والبسط والسجادات وغيرها من المفروشات ويساعدهم على ذلك نعومة الصوف ولطافته ولهم براعة في طرز المناطق والسروج المذهبة والمفضضة على وجه لا يهتدي اليه غيرهم وكذلك في صناعة الخزف الملون بانواع الادهان وفي صناعة السفن الصغيرة التي يستعملونها للتجارة والصيد والغزو واخشابها من احراش بلادهم ودباغة الجلد وقد برع اهل المسيله من اعمال الزاب في اتقان صنعة الدباغة على وجه اتعب غيرهم تقليده في حسن نعومة الجلد وجودة اتقانه وبالجملة فمصنوعات بلاد الجزائر ومنسوجاتها بلغت في الحسن والاحكام ما يبهر الرائي ويستحسنه السامع وناهيك بها ان تجارتها منحصرة في نتائج اراضيها وصنائعها فلا يحتاج الى جلب البضائع من الخارج الا ما قلّ وربما يستغنى عنه وفيها من جياد الخيل ما يروق منظراً ويبهر خصالاً ولكثير من اهل البادية معرفة تامة بشياتها وعيوبها وامراضها وعلاجاتها ويوجد عندهم من هذا العلم ما لا يوجد عند احذق البياطرة في الحاضرة وفيها البغال الفارهة واغلب مشايخ البلاد وعلمائها واهل وظائفها الدينية يركبونها دون الخيل لسرعة مشيها ولين ظهورها وفيها انواع الانعام والهجن المشهورة بسرعة السير والقوة وفيها من صنوف الصيد الغزال والارنب والكثينة وهو نوع اصغر من الارنب وفي صحرائها النعام والحمار والبقر وفيها من صنوف الحيوان المفترس الاسد والنمر والفهد والخنزير والذئب والضبع وفيها من الطيور الجوارح وغيرها ما يطول شرحه واهل الصحراء ومن قاربهم يعتنون كثيراً باقتناص الجوارح وتعليمها واستعمالها

واما اعتدال هوائها وحسن مزاجها فقد ذكر علماء الجغرافية قديمًا وحديثًا ان هذه البلاد معتدلة الهواء لا يزيد حرّها ولا بردها زيادة مضرة وفصولها في جميع السنين تأتي على قدر من الاعتدال ووسطة من الحال وعلى حسب اعتدالها اعتدلت امزجة اهلها وقلت امراضهم ودآتهم ولذا لم يعتنوا بتحصيل علم الطبّ ولا باهله وقصارى امرهم فيما يعرض لهم من الامراض انهم يتطببون بادوية يستعملها غالبًا عجائزهم من الحشائش وغيرها ويسكن هذه البلاد قبائل كثيرة وشعوب وافرة من العرب والبربر ولاختلاطهم في الصهر والسكن عسر تمييزهم ويوجد بينهم في المدن وبعض القرى اتراك واولاد المماليك من بنات الوطن ويسمونهم كور اوغلان والسبب في ذلك ان السلطان يقول لاهل كلّ اوجاق من العسكر قوللرم يعني مماليكي فحرفها اهل الجزائر وقالوا كور اوغلان

﴿ ذكر ابتداء عمران المغرب ﴾

« وحوادث دول الاشراف والعرب والبربر فيه »

اعلم ان هذا الاقليم منذ دخل في حيز العمران مأوى الفتن . وعش الاهوال والمحن . ومنتزى الملوك والثوار . ومطمح نظار الكبار منهم والصغار . فما هدأت لاهله روعة ولاطابت لهم فيه هجعة . ولا خيم بساحته امن . ولا فارقه الروع والوهن . ولا خلا منه زمان من قراع الكتائب . ومفاجأة المصائب والنوائب . ومع هذا ترى مساجده ومدارسه بالعباد والعلماء عامرة . ومجالسه بالاذكار وانواع العلوم زاهرة . ذلك تقدير العزيز العليم وتدبير العلي العظيم . وقد اختلفت اقوال المؤرخين من الاسلام وغيرهم في اول من سكن المغرب وعمره من هذا النوع البشري لكني اقتصرت على ما نقله العلامة ابن خلدون الحضرمي في تاريخه وذو الوزارتين ابن الخطيب في شرح منظومته المسماة رقم الحلل في نظم الدول لتقدمهما في مضمار هذا الفن واحرازهما قصب السبق فيه وسلوكهما مسالك التحقيق في النقل وملخصه ان الله سبحانه وتعالى لما اهبط آدم الى الارض عمرها به وبنسله فهو الاول للخليقة على الاطلاق وانبث بنوه في نواحي الارض وتناسلوا فيها جيلاً بعد جيل الى زمن نوح عليه السلام وكانت ولادته سنة اثنين واربعين وستمائة والف من هبوط آدم وكان في تلك الاجيال ملوك ودول كثيرة وملل ونحل متعددة وكان فيهم انبياء ورسل آخرهم نوح عليه السلام ارسله الله تعالى الى قومه وكانوا عبدة اوثان فلبث فيهم الف سنة الا خمسين عامًا يدعوهم الى عبادة الله كما اخبرنا الله تعالى ولما اعياه تعنتهم وتماديهم على

الكفر اوحى اليه انه لن يؤمن من قومك الامن قد آمن فقال رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارًا فاستجاب الله دعآءه لما سبق في علمه انه ليس فيهم ولا في اولادهم من يؤمن فارسل عليهم الطوفان فاخذهم وذهب بعمران الارض اجمع بحيث لم ينج من بني آدم ومن كافة انواع المخلوقات الا من كان في السفينة مع نوح عليه السلام وكان ذلك بعد مضي الفين ومائتين واثنين واربعين سنة للهبوط باتفاق المفسرين والمؤرخين ثم مات المؤمنون الذين كانوا مع نوح عليه السلام في السفينة ولم يعقبوا فصار جميع اهل الارض من نسل نوح . قال الله تعالى وجعلنا ذريته هم الباقين فكان عليه السلام ابًا ثانيًا للخليقة واتفق المفسرون والنسابون على اولاد نوح الذين تفرعت منهم الامم ثلاثة . سام وحام . ويافث . وقد وقع ذكرهم في التوراة وروى الطبري في ذلك احاديث مرفوعة الى النبي صلى الله عليه وسلم . وعن ابن المسيب ووهب بن منبه . مثل ذلك واتفقوا على ان سامًا ابو العرب والفرس والروم . وحامًا ابو القبط والبربر والسودان . ويافثًا ابو الترك والصقالبة وياجوج وماجوج . ولما افترق بنو نوح عليه السلام صار لولد حام الجنوب مما يلي مصر على النيل . وصار لولد سام الحجاز والعراق الى حدود الهند . وصار لولد يافث نواحي بحر الخزر الى الصين . وكانت شعوب هؤلاء الثلاثة عند تبابل الالسنة اثنين وسبعين شعبًا . واتفقوا على ان اول عمران المغرب كان بالجيل المعروف بالبربر اخوان السودان والقبط فهم الذين عمروه من البشر واستوطنوه . قال الطبري وزعم هشام بن الكلبي ان الغلّ من الكنعانيين من اولاد عيصو بن اسحاق عليه السلام . وبعد يوشع عليه السلام احتملهم افريقش بن قيس بن صيفي من سواحل الشام في غزاته الى المغرب وتركهم بافريقية . فمنهم البربر وترك معهم صنهاجة وكتامة من قبائل حمير . وقيل انه وجدهم فيها . وانه لما سمع رطانتهم سماهم البربر . وفي التورية من ذرية حام احدى عشر ولدًا منهم صيدون . ولهم ناحية صيدا . وكانوا بالشام وانتقلوا لما غلبهم يوشع الى افريقية والمغرب واقاموا بهما . وقد مرّ آنفًا ان اولاد حام صار لهم الجنوب ولم تزل السودان منهم في اقطار الجنوب من مبدا بحر الهند شرقًا الى اقصى المغرب الى هذا العهد . واخوانهم القبط في مصر وجهاتها الى الآن . وهؤلاء البربر يجاورونهم ويقابلون السودان في ارياف المغرب وتلوله من حدود مصر مما يلي برقه الى اقصى المغرب حيث البحر المحيط فلا يبعد انهم كانوا مع السودان والقبط في مواطنهم الاولى ثم افترقوا فتوغل السودان في الجنوب وانحدر البربر الى برقه ونواحيها ثم توغلوا في بلاد المغرب الى اقصاه

وبقي القبط في منازلهم القديمة من مصر وبهذا تشهد القرائن والمواطن وذكر ابن سعيد في اخبار القبط انّ شدّاد بن بدّاد بن هدّاد بن شدّاد بن عاد حارب القبط وغلب على اسافل مصر حيث الاسكندرية وبنى بها مدينة مذكورة في التوراة يقال لها ارَنّ ثم هلك في حروبهم وجمع القبط اخوانهم من البربر والسودان واخرجوا العرب من ملك مصر ولما استولى افريقش على المغرب بنى فيه مدينة فسميت افريقية ثم غلب هذا الاسم على ذلك القطر بحدوده المعروفة قديماً وحديثاً

﴿ ذكر البربر وشعائرهم ﴾

اعلم انّ النسابين قد اختلفوا في نسب البربر واطالوا البحث فيه والذي ذهب اليه المحققون كابن حزم وابن خلدون وغيرهما انهم من بني كنعان بن حام بن نوح عليه السلام واتفقوا على ان شعوبهم وبطونهم يجمعهم اصلان عظيمان وهما برنس وماد غيس ويلقب بالابتر فيقال لشعوبه البتر كما يقال لشعوب برنس البرانس وهما على الاصح اخوان لاب وهو بربر بن تملا بن مازيغ بن كنعان بن حام وشعوب البرانس يجمعهم سبعة اصول وهي ازداجه ومصموده واوربه وغجيسه وكتامه وصنهاجه وريغه ويجمع شعوب البتر اربعة اصول وهم اداسه ونفوسه وضريسه ولواء الاكبر والكلام على هذه الشعوب وماتناسل منها من الامم طويل الذيل قد افرده علماء هذا الفنّ بالتأليف وجميع ما ذكروه غاية ما وصل اليه علمهم واطلاعهم . واحصاء امم البربر واجيالهم غير ممكن لتطاول الاحقاب وتداول الازمنة ولم تزل بلاد المغرب من اقصى سوس الى الاسكندرية وما بين بحر الروم والسودان عامرة بهم منذ قرون لا يعلمها الا الله تعالى . واعلم ان دين البربر في القديم المجوسية وفي بعض الاحيان يدينون بدين من تغلب عليهم كالرومان واليونان وغيرهما وقد صبحهم الاسلام وهم على دين النصرانية وبعضهم في افريقية على دين اليهودية عند استفحال ملك بني اسرائيل وقربهم منهم واما شعائرهم فالاكثر منهم آخذون بشعائر العرب يسكنون الخيام ويتنازلون حللاً ودوائر متفرقة ويظعنون لانتجاع المرعى ويتخذون الخيل للركوب والنتاج ويعتنون بالانعام للكسب يقومون عليها ويقتاتون من البانها ويتخذون البستهم واثاثهم وخيامهم من اصوافها واوبارها وشعورها ومنهم من يبتغي الرزق من الاقتناص والنهب والاختطاف من السابلة ومنهم اهل مدائن وقرى وامصار شانهم الفلاحة واغتراس الجنات المتنوعة والتجارة والحرف النافعة الى غير ذلك من الامور التي يتوقف عليها العمران

ولا يتمّ الاّ بهاوا كثر لباسهم من الصوف بانواعه وفي الغالب يكشفون رؤسهم ويحلقونها ولغتهم العجمية متميزة بنوعها عن سائر رطانة العجم ثم اختصت شعوب زناته وبطونها برطانة تخالف رطانة اخوانهم كما اختصوا بالعمائم ومن شاهد آثارهم وما شيدوه من الحصون والمعاقل والامصار وطالع اخبارهم وحروبهم وسيرهم علم انهم قوم لا يرامون بذلّ ولا ينالهم من استطال عليهم بسوء وقد اعتنى الفحول من العلماء والمؤرخين بذكر سيرهم وتدوين اخبارهم فملاؤا كتبهم بنقل ما كانوا عليه من الاخلاق الحميدة كعزّ الجوار وحماية النزيل ورعاية الذمة والوفاء بالعهد وصدق القول والصبر على المكاره والثبات في الشدائد وجودة الملكة والاغضاء عن العيوب والتجافي عن الانتقام ورحمة المساكين وتوقير اهل العلم وحمل الكلّ وكسب المعدوم وقرى الضيف والاعانة على النوائب وعلوّ الهمم واباءة الضيم والشقاق مع الدول ومقارعة الخطوب والتغلب على الملك وغيرها من الخلال التي اكسبتهم الثناء من الخلق وبُعد الصيت ومن مشاهيرهم بعد تمسكهم بالاسلام من الطبقة الاولى بلكين بالباء الموحدة التحتية ابن زيرى الصنهاجي عامل افريقية للعبيديين ومحمد بن خزر وعروبه بن يوسف الكتامي القائم بدعوة عبدالله الشيعي ويوسف بن تاشفين اللمتوني وعبد المؤمن ابن علي امير الموحدين ومن الطبقة الثانية يعقوب بن عبد الحق المريني ويغمراسن سلطان بني زيان ومحمد بن عبد القوى صاحب تاهرت ووزمار امير بني توجين وثابت بن منديل امير مغراوه وزمّار بن ابراهيم زعيم بني راشد فهؤلاء كانوا من ارسخهم في الخلال الحميدة قدمًا واطولهم فيها يدًا واكثرهم لها جمعًا وسنذكر طرفًا من اخبارهم على وجه الايجاز ان شاء الله تعالى

﴿ ذكر فتح المغرب وما جرى في ذلك من الوقائع بين المسلمين والبربر ﴾

اعلم ان قبائل البربر بافريقية والمغرب كانت قبل الاسلام تحت سلطة الروم وعلى دين النصرانية ولم تزل على ذلك الى ان فتحت مصر في خلافة امير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وسار عمرو بن العاص رضى الله عنه منها الى برقه سنة اثنتين وعشرين فصالحه اهلها على الجزية ثم سار منها الى طرابلس فحاصرها وفتحها عنوةً وولى عليها وعلى برقة حكامًا من قبله ورجع الى مصر وفي خلافة عثمان رضى الله عنه عُزل عمرو بن العاص وتولى عبدالله بن سعيد بن ابي سرح العامري عليها فامره عثمان رضى الله عنه بالتوجه الى افريقية فزحف اليها سنة تسع وعشرين فجمع لهم جرجير ملك افريقية وبلاد المغرب

من بامصارها من الروم وبضواحيها وقراها من البربر وملوكهم وكان ملكه ما بين طرابلس
وطنجه ودار ملكه سبيطله ولقي بهم المسلمين فوقعت الهزيمة في جيشه وشدَّ عليه عبدالله
ابن الزبير رضي الله عنه فقتله واتبعهم المسلمون يقتلون ويسبون الى ان وصلوا الى سبيطله
ففتحوها ثم خربوها ولم تزل خرابًا وهي في تخوم تونس مما يلي ارض الجزائر معروفة لهذا
العهد ونقل الله المسلمين اموال جرجير وجموعه وبناتهم واختصت ابنة جرجير بقاتله عبدالله
ابن الزبير وكان هو الرسول بخبر الفتح الى الخليفة ثم انساح المسلمون في البسائط والضواحي
بالغارات ووقع بينهم وبين البربر حروب انتصر المسلمون في جميعها واسروا من ملوكهم
وَزمارْ بن صقلابْ جدّ بني خزرْ وهو يومئذٍ امير مغراوه وسائر زَناته ورفعوه الى عثمان
رضي الله عنه فاسلم على يده ومنّ عليه واطلقه وعقد له على قومه وقيل انما وصله وافدًا
ثم لاذ الروم بالسلم وشرطوا لابن ابي سرح ثلاثمائة قنطار من الذهب على ان يرحل عنهم
ففعل ورجع المسلمون الى المشرق وشغلوا بما كان من الفتن الاسلامية ولما آل الامر الى
معاوية بن ابي سفيان بعث ابن خديج السكوني من مصر لافتتاح افريقية سنة خمس واربعين
فسار اليها وكان في جيشه عبدالله بن عمر بن الخطاب وعبدالله بن الزبير رضي الله عنهم
وعبد الملك بن مروان فلما وصل الى افريقية ارسل عبد الملك بن مروان الى جَلولا
ففتحها وارسل جيشًا في البحر في مائتي مركب الى جزيرة صَقليه ففتحوها وغنموا وارسل
رُوَيفعْ بن ثابت الانصاري رضي الله عنه الى جِربه ففتحها وارسل ملك الروم اثناء ذلك
من القسطنطينية عساكره لمدافعتهم فتلقتهم المسلمون وردّوهم على اعقابهم ثم قفل ابن خديج
راجعًا الى مصر وتولى بعده عقبة بن نافع رضي الله عنه سنة سبع واربعين فاختطّ
القيروان وافترق امر الرّوم فصاروا الى الحصون وبقي البربر بضواحيهم وفي سنة احدى
وخمسين استعمل معاوية على مصر وافريقية مسلمة بن مخلد فعزل عقبة عن افريقية وولّى
مولاه ابا المهاجر دينارًا وفي ايامه فتحت جزيرة شريك على يد حنش بن عبدالله الصاغاني
وكانت رئاسة البربر يومئذٍ في اوربه لكسيلة بن لَمزَمْ رئيس البرانس ومرادفه سكرديدْ
ابن رومي من اوُربه وكانا على دين النصرانية فاسلما لاوّل دخول الاسلام الى المغرب ثم
ارتدّا قبل ولاية ابي المهاجر واجتمع اليهما البرانس وزحف اليهم ابو المهاجر حتى نزل عيون
تلمسان فهزمهم وظفر بكسيله فاسلم واستبقاه عنده واحسن اليه ثم جاء عقبة بن نافع في
الولاية الثانية ايام يزيد بن معاوية سنة اثنين وستين فنكب كسيله واعتقله وتقدم اليه
ابو المهاجر في اصطناعه فلم يقبل وزحف الى المغرب وعلى مقدمته زهير بن قيس البلوى

فدوّخه واستفتح حصون الروم وبقية ملوك البربر بالزاب وتاهرت بجموعهم ففضهم جمعاً بعد جمع ودخل المغرب الاقصى واطاعته غماره ثم نازل المصادمه في جبل درن فقوى امرهم ونهضت اليهم جموع زناتة وكانوا خالصة للمسلمين منذ اسلام مغراوه فاعتز بهم عقبة وقوى امره عليهم فاثخن فيهم وحملهم على الطاعة والاسلام ثم اجاز الى السوس الاقصى لقتال من بها من صنهاجة وكانوا على دين المجوسية فاثخن فيهم وقفل ظافراً وكسيله اثناء ذلك في اعتقاله ثم سرح عقبة العساكر الى القيروان وبقي في شرذمة منهم وتراسل كسيله وقومه فاجتمعوا اليه وانتهزوا الفرصة في عقبة رضى الله عنه فقتلوه ومن معه وكانوا زهاء ثلاثمائة من كبار الصحابة رضى الله عنهم واستشهد في مصرع واحد جم غفير من التابعين فيهم ابو المهاجر وقد ابلى عقبة رضى الله عنه في ذلك اليوم بلاء حسناً واشتهر قبره وعليه مسجد معروف باسمه واسر من الصحابة يومئذ محمد بن أوس الانصاري ويزيد بن خلف العبسي ونفر معهم ففداهم صاحب قفصه وكان زهير بن قيس قد رجع من المغرب الى القيروان فلما بلغه الخبر خرج هارباً وارتحل المسلمون معه ونزلوا برقة واقام بها ينتظر امر الخليفة نقارن ذلك اضطراب الخلاف بحروب ابن الزبير والضحاك بن قيس مع المروانيين واضطرم المغرب ناراً وفشت الردة في البربر واجتمعت كلمة البربر والروم على كسيله فنزل القيروان واعطى الامان لمن بقي بها من العرب وعظم سلطانه على البربر ومن معهم من الروم فملكهم خمس سنين ولما استقل عبد الملك ابن مروان بامر الخلافة بعث الى زهير بن قيس بالمدد وولاه حرب البرابره والاخذ بثار عقبة رضى الله عنه فزحف في آلاف من العرب سنة سبع وستين وجمع كسيله سائر البربر ولقيه في نواحي القيروان فاشتد القتال بينهم وانهزم البربر وقتل كسيله واتبع جيشه المسلمون الى نهر ملوية وتلاشى امر البربر وفنيت فرسانهم واضمحل حال الروم وضعفوا عن اغاثتهم واضطرمت افريقية والمغرب ناراً وامتلأت قلوب البربر من زهير رعباً فلجئوا الى الحصون ثم قفل زهير الى المشرق فاعترضه اسطول صاحب القسطنطينية في سواحل برقة فقاتل الروم حتى استشهد هناك وبعث عبد الملك بن مروان الى حسان بن النعمان عامله علي مصر ان يخرج الى افريقية وبعث اليه بالمدد فزحف اليها سنة تسع وسبعين ودخل افريقية واسترجع قرطاجنه من يد الروم والبربر ثم خربها فذهب من بقي بها من الروم والافرنج الى صقلية والاندلس والذي انشأ قرطاجنه ديدون ابن البشار من نسل عيصو بن اسحق عليه السلام ثم صار ملك افريقية الى

ملغار انيبال من ملوكهم فهاجت الحرب بينه وبين الرومانيين واهل الاندلس ثم ولى بقرطاجنة فاجاز البحر الى بلاد الفرنجة وهم الجلالقة وزحف اليه قواد رومة فوالى عليهم الهزائم وبعث اخاه اسد ربال الى الاندلس فملكها وخالفه قواد الرومانيين الى افريقية فملكوها وقتلوا غثول خليفة انيبال فيها وخرج قواد آخرون من رومة الى الاندلس فملكوها وقتلوا اسد ربال وفر اخوه انيبال وتبعه قواد رومة الذين اجازوا الى افريقية فحاصروه بقرطاجنة حتى صار الصلح بينهم ثم ظاهر بعد ذلك انيبال صاحب افريقية ملوك السريانيين على حرب رومه وبعد ان تخلص اهل رومه من ذلك رجعوا الى الاندلس ثم اجازوا البحر الى قرطاجنة ففتحوها وقتلوا ملكها انيبال وذلك لتسعمائة سنة من بنائها وسبعمائة من بناء رومه ثم بعد ذلك اجتمع قواد رومه على بناء قرطاجنة وتجديدها لاثنتين وعشرين سنة من خرابها فعمرت واتصل بها لأهل رومه ملك واللذان اختطا مدينة رومه روملش ورامالش وذلك لعهد اربعة الآف وخمسمائة سنة من مبدا الخليقة ثم توجه حسان بجيوشه الى الكاهنة دهيا بنت ماريه ملكة البربر بمعقلها من جبل اوراس وقد انضم اليها بنو يفرن ومن كان بافريقية من زناتة وسائر البتر فلقيتهم بالسهل امام جبلها فانهزم المسلمون واسر خالدبن يزيد القيسي واتبعت آثار حسان وجيوشه بجموعها حتى اخرجتهم من افريقية وانتهى حسان الى اعمال طرابلس فاقام بها وبنى قصوره ولم تزل اطلالها موجودة لهذا العهد مشهورة به ثم رجعت الكاهنة الى مكانها من اوراس واستقل ملكها في افريقية واستمرت ملكة على البربر خمس سنين ثم بعث عبد الملك الى حسان بالمدد وامره بالرجوع الى افريقية فزحف اليها سنة اربع وثمانين وكانت الكاهنة عتت واشتد ظلمها وامرت بتخريب جميع المدن والضياع وقطع الاشجار بعد ان كان الراكب يسير من طرابلس الى طنجة في عمارة متصلة وظل ممدود فشق ذلك على البربر وحصلت الوحشة بينهم وبين ملكتهم فلما وصل حسان الى افريقية زحفت اليه بجموعهم فخذلوها واختل نظامهم وشد معها قومها جراوه من البتر فانفض جيوشهم وقتل الكاهنة ثم ان البربر استأمنوا اليه فامنهم على الاسلام والطاعة فاجابوا واسلموا وعقد الاكبر من اولاد الكاهنة على قومه جراوه وانصرف حسان الى القيروان ثم في سنة ثمان وثمانين في خلافة الوليد بن عبد الملك قدم موسى بن نصير واليًا على افريقية فدوخ المغرب واثخن في البربر حتى ادت اليه الطاعة وولى على طنجه مولاه طارق بن زياد وانزل معه سبعة وعشرين الفًا من مسلمي العرب الاولين واثني عشر الفًا من البربر وامرهم ان يعلموا

البربر القرآن وامور الدين وسرت كلمة الاسلام في جميع احياء البربر وبطونهم ومن بقي منهم اسلم على يد اسماعيل بن عبدالله بن ابي المهاجر سنة احدى ومائة ونقل ابن خلدون عن ابي محمد بن زيد الامام المشهوران البربر ارتدّوا اثني عشر مرة من طرابلس الى طنجة ولم يستقر اسلامهم حتى اجاز موسى بن نصير الى الاندلس واجاز معه كثيرين من رجالات البربر برسم الجهاد ووقع فتح الاندلس فحينئذٍ استقر الاسلام في المغرب وازعن البربر لحكمه ورسّخت فيهم كلمة الاسلام وتناسوا الردّة واستوثقت الامور لموسى بن نصير في المغرب والاندلس و بلغ فيها ما لم يبلغه غيره وحصل في يده من المغنم والسبي ما لم يحصل في يد سواه من الملوك قال الصفدي في تاريخه لم يسمع بمثل سبايا موسى بن نصير وغنائمه فانه استصحب عند قدومه الى الوليد بن عبد الملك ثمانية وسبعين تاجًا مكللاً بالدرّ والياقوت وكلها تيجان ملوك الاندلس من اليونان ومائة وثلاثين عجلة مشحونة بالذهب والفضة واللؤلؤ ومنهٔ ابنا الملوك وغيرهم من الاسرى ما يقرب من ثمانين الف اسير ومن الرقيق ثلاثون الف شخص واستخلف ولديه عبدالله على افريقية والمغرب وعبد العزيز على الاندلس وفي خلافة سليمان بن عبد الملك عزل عبدالله بن موسى بن نصير عن افريقية والمغرب وتولي محمد بن يزيد مولى قريش وذلك سنة ست وتسعين وفي خلافة عمر بن عبد العزيز عزل عبدالله وتولى مكانه اسماعيل بن عبدالله ابن ابي المهاجر سنة سبع وتسعين ثم نبضت عروق الخارجية في رؤس كثير من البربر وسارت اليهم من سواد العراق فدانوا لها وتعددت طوائفهم وتشعبت طرقها فيهم من الاباضية والصفرية وفشت هذه البدعة في المغرب فوقع الاختلال في كل جهة منه وفي خلافة يزيد بن عبد الملك تولى يزيد بن ابي مسلم فقتله الخوارج لشهرٍ من ولايته فتولى بعده بشر بن صفوان الكلبي فقدمها سنة ثلاث ومائة وغزى جزيرة صقلية سنة تسع ومائة ومات في مرجعه عنها وتولى عبيدة ابن عبد الرحمن القيسي سنة عشر ومائة وعزل في خلافة هشام وتولى مكانه عبيدالله بن الحجاب مولى ابن سلول سنة اربع عشرة ومائة وبنى جامعًا بتونس ويعرف لهذا العهد بجامع الزيتونة واتخذ فيها دار الصناعة لانشاء المراكب البحرية ووطيء بعسكره بلاد سوس واثخن في البربر فجمعوا امرهم وانتقضوا عليه وثار ميسرة المظفري بطنجة على عمرو بن عبد الله المرادي وكان واليًا عليها لابن الحجاب نقتله

وبايع لعبد الاعلى بن جريج الافريقي الرومي الاصل ثم خلعه وبايع لنفسه ثم ساءت سيرته فنقم عليه البربر ما جاء به وقتلوه وقدموا على انفسهم خالد بن حميد الزناتي فقام بامرهم وجمع كلمتهم وزحف بجموعه الى العرب وسرح اليهم عبدالله بن الحجاب العساكر في مقدمته ومعهم خالد بن حبيب النهري فالتقوا بوادي شلف فانهزم العرب وقتل خالد بن حبيب ومن معه وتسمى هذه الواقعة بواقعة الاشراف لكثرة من حضرها من وجوه قريش والانصار وانتقضت البلاد ومرج امر الناس وانتهى الخبر الى هشام بن عبد الملك فعزل ابن الحجاب وولى كلثوم بن عياض القشيري سنة ثلاث وعشرين ومائة فخرج الى افريقية حتى بلغ وادي طنجة فزحف اليه خالد بن حميد الزناتي بمن معه من البربر ولقوا كلثوم بن عياض بعد ان هزموا مقدمته وعليها بلخ بن بشير القشيري فاشتد القتال بينهم وقتل كلثوم وانهزم جيشه وتحيز اهل الشام الى سبتة مع بلخ بن بشير ومضى اهل مصر وافريقية الى القيروان وطار الخبر الى هشام بن عبد الملك فبعث حنظلة بن سفيان الكلبي فقدم القيروان سنة اربع وعشرين ومائة وهوارة يومئذ خارجون عن طاعة الدولة ومنهم عكاشة بن ايوب وعبد الواحد بن يزيد فثارت هواره ومن تبعهم من البربر فهزمهم حنظلة في ظاهر القيروان بعد قتال شديد وقتل عبد الواحد واخذ عكاشة اسيرًا وكتب حنظلة بذلك الى هشام ولما سمعها الليث بن سعيد رضي الله عنه قال ما غزوة كنت احب ان اشهدها بعد غزوة بدر احب اليَّ من هذه الغزوة واجاز عبد الرحمن بن عقبة بن نافع لما مات ابوه الى الاندلس يحاول ملكها ولما يئس منها رجع الى تونس ودعا لنفسه سنة سبع وعشرين واستقل بملك افريقية واقره مروان بن محمد عليها لما تولى الخلافة ولما آلت الخلافة الى بني العباس بعث عبد الرحمن بطاعته الى السفاح ثم الى ابي جعفر المنصور من بعده ولم يزل عبد الرحمن واليًا على افريقية الى ان قتله اخوته سنة سبع وثلاثين لعشر سنين من امارته وانتهى خبر افريقية الى أبي جعفر المنصور فارسل محمد بن الاشعث الخزاعي واليًا عليها سنة اربع واربعين ومائة فلقيه ابو الخطاب الخارجي بجموعه بسرت فهزمه ابن الاشعث وقتل عامة اصحابه وافتتح طرابلس وقام بامر افريقية وضبطها ثم قفل الى المشرق فوليها بعده الاغلب بن سالم التميمي فخرج عليه ابو قرة اليفرني في جموع البربر فهرب ونقم عليه الجند وخلعوه ولحقوا بالحسن بن حرب

الكندي بكابس واقبل بهم الى القيروان فملكها ولحق الاغلب بكابس واستعد لقتال الحسن سنة خمسين فهزمه الى القيروان فكرّ عليه الحسن دونها واقتتلوا فقتل الأغلب ثم رجعت اصحاب الاغلب على الحسن فقتلوه في الموقف الذي قتل فيه الاغلب ولما بلغ المنصور قتل الاغلب بعث الى افريقية عمر بن حفص اخا المهلب ابن ابى صفرة فقدمها سنة احدى وخمسين ومائة فاستقام امره ثلاث سنين ثم ثار البربر عليه وحاصروه بطبنة فداخلهم وفرق كلمتهم بالمال ثم انتقضوا عليه وحاصروه بالقيروان ولما اجهده الحصار خرج مستميتاً الى قتالهم فقتل آخر سنة اربع وخمسين ومائة ثم تولىّ مكانه ابن عمه يزيد بن ابي حاتم بعثه المنصور في ستين الف مقاتل فهزم جموع البربر وقتل ابو حاتم احد رؤسائهم في ثلاثين الفاً من اصحابه وتتبع يزيد جموع البربر بالقتل بثار ابن عمه عمر بن حفص ثم دخل القيروان سنة خمس وخمسين ومائة ولم يزل والياً على افريقية والمغرب الى ان توفى سنة سبعين ومائة وكان روح بن ابي حاتم اخو يزيد على فلسطين فاستقدمه الخليفة هارون الرشيد وولاه على افريقية فقدمها ثم توفى سنة اربع وسبعين ومائة وولى مكانه ابنه الفضل فخرج عليه عبدالله بن الجارود واقتحم عليه القيروان واعتقله ووكل به وباهله من يوصلهم الى كابس ثم ردّه من الطريق وقتله فتولى بعده هرثمة بن اعين سنة سبع وسبعين ومائة فأمن الناس وسكنهم وبنى القصر الكبير بالمنستير وبنى السور على طرابلس ولما رآى كثرة الثوار بافريقية استعفى الرشيد من ولايتها فاعفاه وولى محمد بن مقاتل الكعبي من صنائعه فقدمها سنة احدى وثمانين ومائة وكان سيء السيرة فخلعه الجند وقدموا مخلد بن مرة الأسدي وبعد ان قتل مخلد ثار تمام بن تميم التميمي على محمد بن مقاتل واخرجه من القيروان فلحق بطرابلس وبلغ الخبر الى ابراهيم بن الاغلب بمكانه من الزاب فانتصر لمحمد وسار بجموعه الى القيروان وهرب تميم بين يديه الى تونس وملك افريقية واستقدم محمد بن مقاتل من طرابلس واعاده الى امارته ولما استقرّ الامر لمحمد ابن مقاتل كره اهل البلاد ولايته وداخلوا ابراهيم بن الاغلب في ان يطلب من الرشيد الولاية عليهم فكتب ابراهيم الى الرشيد بذلك فكتب له بالعهد سنة اربع وثمانين ومائة فقام بامر الولاية وابتنى مدينة العباسية قرب القيروان وانتقل اليها وتوارثها بنوه خلفاً عن سلف الى سنة ست وتسعين ومائتين ثم خرج اهل افريقية

عن طاعتهم وقاموا بدعوة الشيعة وفر آخرهم واسمه زيادة الله قاتل ابيه الى المشرق وفي هذه المدّة كلها لم يتجاوز ملكهم افريقية لمكان الدولة الادريسية في المغرب وبانقراض دولة بني الأغلب من افريقية انقطعت دعوة بني العباس منها ومن المغرب . ولنذكر دول المغرب على الترتيب ووقائعها وما آل اليه امرها مبتدئين بدولة الادارسة لانها اول دولة ظهرت فيه حتى نتوصل الى ذكر ما كان في ايام سيدي الوالد من الوقائع الهائلة والايام المشهورة مع دولة فرانسا وما جرى بينه وبين دولة مراكش بوجه الاختصار على حسب الامكان وبالله المستعان

ذكر دولة الادارسة في المغرب الاقصى

لما آلت الخلافة العباسية للهادي خرج الحسين بن علي بن حسن المثلث بن الحسن المثنى بن الحسن السبط عليهم السلام الى المدينة المنوّرة وبويع في ذي القعدة سنة تسع وستين ومائة ثم سار منها الى مكة المكرمة وكتب الهادي الى محمد بن سليمان بن علي العباسي حين قدم حاجًا من البصرة فولاه حربه فاستعد محمد بن سليمان لقتاله وانضمّ اليه من حضر من شيعتهم ومواليهم وخرج لقتال الحسين فالتقى الفريقان بوج موضع على ثلاثة اميال من مكة الى جهة الطائف واقتتلوا فوقعت الهزيمة في جيش الحسين وقتل هو في جماعة من اهل البيت وافترق الباقون وكان فيهم عمه ادريس بن عبدالله الكامل فافلت مع من افلت منهم ولحق بمصر نازعًا الى المغرب وعلى بريد مصر يومئذٍ واضح مولى صالح بن المنصور وكان يتشيع فعلم بشان ادريس وحمله على البريد الى المغرب ومعه راشد مولاه فنزل بوليلي بجانب جبل زرهون سنة اثنين وسبعين وبها وقتئذٍ اسحاق بن محمد بن عبد الحميد امير اوربة من قبائل البربر فاجاره وجمع البربر على ادريس وبايعوه وقاموا بامره وخطب الناس يوم بويع فقال ايها الناس لا تمدّنّ الاعناق الى غيرنا فان الذي تجدونه من الحق عندنا لا تجدونه عند غيرنا ولما استوثق له الامر زحف الى البرابرة الذين كانوا بالمغرب واكثرهم على دين اليهودية والنصرانية فاسلموا على يده وخرّب حصونهم وفتح تامسنا ومدينة شالة وتادلاَ ثم زحف الى تلمسان سنة ثلاث وسبعين وامن اميرها محمد بن خزر المغراوي واقرّه على امارته كما امن سائر زناته وبنى مسجد تلمسان وكتب اسمه على منبرها ثم رجع الى مدينة

وَلِيلى وقد طبق الآفاق ذكره واهتز له الرشيد ببغداد واهمه شانه واطلع على ما كان من واضح مولاهم من دسيسة التشيع واعمال الحيلة في نجاة ادريس الى المغرب فقتله ومن ذلك العهد وقع الفشل لبني العباس بالمغرب وقصرت قوتهم عن ان تسمو اليه وقد استعمل الرشيد الحيلة على قتل ادريس فدسّ اليه الشماخ من مواليهم للتحيل على قتله فلحق به واظهر النفور من بني العباس مواليه فصدقه ادريس وقربه منه ثم انتهز الفرصة فيه في بعض خلواته فناوله سماً فقتله به سنة خمس وسبعين ومائة ودفن بوَليلى وفر الشماخ ولحقه راشد مولى ادريس بوادي ملويه فاختلفا بضربتين نقطع راشد يد الشماخ واجاز الوادي فاعجزه ونما خبر ادريس الي بني العباس ببغداد فوقع ذلك احسن موقع لما رجوه من قطع اسباب الدعوة الادريسية من المغرب وكانت ايام خلافة ادريس خمس سنين وستة اشهر وخلف جاريته كنزة حبلى فقام بامر الملك مولاه راشد بالاتفاق وبعد ستة اشهر من موته وضعت جاريته كنزة ولداً فاجتمع البربر وعرضه راشد عليهم فرأوه شبيهاً بابيه ففرحوا به وسموه ادريس الأصغر وكفلهُ راشد الى ان قتله بعض البربر باغراء بني الاغلب امراء افريقية سنة ست وثمانين ومائة ثم قام بكفالة ادريس من بعده ابو خالد بن يزيد بن الياس العبدي الى ان بايعوه بجامع وليلى سنة ثمان وثمانين ومائة وهو ابن احدى عشر سنة وقاموا بامره وحددوا لانفسهم رسوم الملك بتجديد طاعته وكان ادريس الاصغر اجمل الناس خلقاً وخلقا قال داوود بن القاسم البربري خرجت مع ادريس الاصغر الى قتال الخوارج من البربر فلقيهم وكانوا اكثر منا عدداً فاخذني العجب يومئذ من ثبات جأشه وشدة اقدامه على العدو مع صغر سنه فجعلت اطيل النظر فيه فكلمني في ذلك فقلت انما اطلت النظر اليك لخصال رايتها فيك منها انك تبصق بصاقاً مجتمعاً وانا اطلب قليلاً منه أبل به حلقي فلا اجده ومنها حركتك في سرجك فقال اما اجتماع بصاقي فلاجتماع قلبي واما ذهاب بصاقك فلذهاب قلبك واما حركتي فلاستشرافي الى القتال ثم قال

أليس ابونا هاشم شد ازره * واوصى بنيه بالطعان وبالضرب

فقلت بلى انتم اهل لذلك . ولما استوثق له الملك استوزر مصعب بن عيسى الازدي ونزع اليه كثير من قبائل العرب والاندلس واجتمع اليه منهم عدد كثير

فاختصهم وكانوا له حاشية وبطانة وعظم سلطانه بهم وقوي ملكه واختط مدينة فاس سنة اثنين وتسعين ومائة وبنى فيها مساكنه وانتقل اليها من وليلى واسس جامع الشرفا واستقام له الامر وتوطد له الملك ثم خرج غازيًا المعامد سنة سبع وتسعين ومائة فافتتح بلادهم ودانوا بدعوته ثم غزى تلمسان وجدد بناء مسجدها واقام فيها ثلاث سنين وانتظمت كلمة البرابرة وزناتة ومحوا دعوة الخوارج منهم واستولى على المغربين من سوس الاقصى الى وادي شلف وضايق ابرهيم بن الاغلب بافريقية ثم استراب ادريس بالبرابرة فصالح ابن الاغلب وسكن من غربه ثم عجزت الاغالبة عن مدافعة الادارسة ودافعوا حلفاء بني العباس فتارة باحتقار المغرب واهله وتارة بالارهاب بشان ادريس ثم رجع ادريس من تلمسان الى عاصمة ملكه فاس وعزم على الجواز الى الاندلس فادركه الاجل وتوفي سنة ثلاث عشرة ومائتين عن ثمان وثلاثين سنة وخلف اثني عشر ولدًا ذكرًا اكبرهم جدنا محمد وهو ولي عهده فاشرك اخوته في ملكه باشارة جدته كنزة فقسم المغرب بين الكبار منهم وابقى الباقين في كفالته وكفالة جدتهم كنزة لصغرهم ولم يزل امره جاريًا على احسن الوجوه واعدلها الى ان توفي في ربيع الاول سنة احدى وعشرين ومائتين بعد ان عهد لابنه عليّ وهو ابن تسع سنين فقام بامره الحاشية من العرب واوربة وسائر البربر وبايعوه غلامًا مترعرعًا وقاموا بامره وطاعته فكانت ايامه خير ايام وتوفي في رجب سنة اربع وثلاثين ومائتين لثلاث عشرة سنة من ولايته وعهد لاخيه يحيى بن محمد فقام بالامر واشتد سلطانه وحسنت سيرته واستجدت فاس في العمران وبنيت الحمامات والفنادق للتجار ورحل اليها الناس من الآفاق والقاصية وبنى في ايامه جامع القرويين اختطته امراة من القيروان من مالها سنة خمس واربعين ومائتين وانتقلت اليه الخطبة من جامع الشرفا المعروف بجامع مولاي ادريس ثم اوسع في خطة المنصور بن ابي عامر وبنومرين ثم توفي يحيى وبويع ولده يحيى بن يحيى فساءت سيرته وكثر عبثه وثارت به العامة فاخرجوه من عدوة القرويين الى عدوة الاندلسيين فتوارى ليليتين ومات اسفًا وبلغ الخبر الى ابن عمه علي بن عمر صاحب الريف فاستدعاه اهل الدولة من العرب والبربر فجاء الى فاس وبايعوه واستولى على اعمال المغرب فثار عليه عبد الرزاق الخارجي وزحف على فاس وغلب على عدوة الاندلس منها وامتنعت عليه عدوة القرويين

وفرّ علي الى اعماله من الريف فاستحضر اهل فاس يحيى بن قاسم بن ادريس فحضر اليها بجنوده وقتل عبد الرزاق وتم له الامر واستقل به الى ان اغتاله الربيع ابن سليمان سنة اثنين وتسعين ومائتين وقام بالامر بعده احسن قيام يحيى بن ادريس بن عمر بن ادريس صاحب الريف فملك جميع اعمال الادارسة وخطب له على سائر منابر المغرب وكان اعلا بني ادريس مكانًا واعظمهم سلطانًا واكثرهم عدلاً وكرمًا ذا علمٍ وصلاح ولم يزل على ذلك الى ان عقد الشيعة اصحاب افريقية لمصالة بن حبوس صاحب تاهرت على محاربة ملوك المغرب فزحف الى فاس في عساكر مكناسة وكتامة وبرز اليه يحيى بن ادريس بجموعه والتقوا على مكناسة فكانت الدائرة على يحيى ورجع الى فاس فحاصره بها ثم صالحه على مال يدفعه اليه وان يبايع لعبدالله المهدي فقبل وخلع نفسه وانفذ بيعته الى عبدالله المهدي وعقد له مصالة على فاس وعملها خاصة وعقد لموسى بن ابي العافية المكناسي على جميع المغرب ورجع الى افريقية وفي سنة تسع وثلاثمائة عاد مصالة الى المغرب فدسّ اليه ابن ابي العافية في يحيى فقبض عليه واستصفى امواله وغرّبه الى الريف وولى على فاس ريحان الكتامي فثار عليه الحسن بن القاسم بن ادريس الملقب بالحجام سنة عشرة وثلاثمائة واخرج ريحان منها وملكها عامين ثم زحف للقاء موسى بن ابي العافية وكانت بينهما حروب شديدة قتل فيها ابنه موسى وانجلت المعركة على اكثر من الف قتيل وخلص الحسن الى فاس منهزمًا فغدر به حامد بن حمدان البربري الاوربي واعتقله وبعث به الى موسى فوصل موسى الى فاس فملكها وطالب حمدان باحضار الحسن ندافعه واطلق الحسن فخرج من معتقله متنكرًا وتدلى من السور فسقط ومات وفرّ حامد بن حمدان الى المهدية بافريقية وتولى ابن ابي العافية على جميع المغرب واجلى من بقي من الادارسة في فاس الى الريف واجتمعوا الى اكبرهم ابرهيم بن محمد بن القاسم اخي الحسن المذكور وولوه عليهم واختط لهم الحصن المعروف بحجرة النسر ثم اظلم الجوُّ بين الشيعة واميرهم موسى بن ابي العافية فمال ابن ابي العافية الى المروانيين اصحاب الاندلس وخطب موسى لهم على منابر سائر اعماله وقطع خطبة العبديين فطار الخبر اليهم فجهزوا له جيشًا تحت قيادة مولاهم ميسور الفتى وكتبوا الى الادارسة بالريف ان يكونوا في نصرته حتى اذا فرغوا من موسى بن ابي العافية يرجع ميسور ويترك لهم ولاية المغرب

فكان من الادارسة في محاربة ابن ابي العافية عجائب ثم انحاز الى ملوية فلحقوا به وقتلوه بعد ان ملك المغرب ثمانية وعشرين سنة ورجع بنو ادريس الى بلادهم ما عدا فاس وتمسكوا بدعوة الشيعة وتولى القاسم بن محمد بن القاسم بن ادريس الملقب بكنون ثم توفي سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة وتولى مكانه ولده احمد بن القاسم وكان عالمًا فقيهًا يميل الى بني مروان فقطع دعوة الشيعة ودخل الاندلس بقصد الجهاد فمات هنالك سنة ثلاث واربعين وثلاثمائة وخلفه اخوه الحسن بن كنون الى دخول جوهر الشيعي المغرب فبايع الحسن الشيعة ولما رجع جوهر نكث ورجع للمروانيين الى ايام بلكين قائد الشيعة وقوي امرهم وضاق النطاق على الحسن حتى مات شريدًا ثم تغلب المروانيون على بلاد الريف واجازوا اكثر الادارسة المترشحين للملك الى الاندلس ثم اجازوهم الى الاسكندرية وبعث العزيز العبيدي صاحب مصر وافريقية من اختاره من بني كنون لطلب ملكهم بالمغرب فغلبهم عليه المنصور بن ابي عامر وقتلهم وكان انقراض دولة الادارسة من المغرب بعد ان ملكوه نحو مائتي سنة ثم تمكن بنو يفرن وزناتة وخطبوا فيها للمروانيين وبقيت في ايديهم يتوارثونها الى ان غلبهم عليها المرابطون والبقاء لله تعالى

﴿ ذكر بني الاغلب امراء تونس ﴾

وهم من اولاد الاغلب بن سالم قدم مع محمد بن الاشعث الخزاعي حين تولى على مصر وتونس سنة اربع واربعين ومائة فولاه على الزاب ولما رجع ابن الاشعث الى بغداد بعث الخليفة ابو جعفر المنصور الاغلب بن سالم واليًا على تونس فقدمها وسكن القيروان ثم خرج عليه ابوقرة اليغرني في جموع من البربر وقتل الاغلب في حروبه وفي ايام هارون الرشيد عهد بالولاية لابراهيم بن الاغلب وكان الرشيد يغضه مكانة ادريس في المغرب فاحتال عليه ابرهيم حتى قتله واشار لذلك ابن الخطيب بقوله .

واستوثق الملك لآل الاغلب * بعد رجال من بني المهلب
فاوَّل الاقوام ابراهيم * وهو الهمام الملك العظيم
قلده هارون امر المغرب * وهولطيف الحدماذي المضرب
لم يدع في ارضه رئيسا * واعمل الحيلة في ادريسا

ودام ابراهيم في الولاية الى ان توفي . فوليها بعده ابنه العباس واستعمل الجور في رعيته فانتدب جماعة من الصالحين الى وعظه فلم يقبل واستمرّ على حاله فتوجهوا الى الله بان يريحهم منه فمات لخمسة ايام مطعونًا بعد ان اسودّ لونه وتغير جماله وحسنه فوليها اخوه زيادة الله المشهور بابن شكلة وكان اميرًا جليلاً وفيًّ في امارته للمأمون وابراهيم من المهدي ومات سنة ثلاث وعشرين ومائتين فتولى مكانه اخوه عقال وسار سيرته في الخير الى ان مات فولى بعده ابو العباس بن محمد ابن الاغلب وكان جاهلاً وولي بعد وفاته ابن اخيه احمد بن العباس وكان حسن الاخلاق متجنبًا الظلم والاعتساف بنى المساجد في تونس والمآجل ببابها وتوفي سنة تسع واربعين ومائتين فوليها اخوه ابو محمد زيادة الله بن محمد بن الاغلب وكان عاقلاً حسن السيرة وكانت ولايته ستة اشهر ثم وليها ابن اخيه محمد بن احمد ابن محمد الملقب بابي الغرانيق لشغفه بصيدها وكان غايةً في الجود وايامه في اليمن يضرب بها المثل توفي سنة احدى وستين ومائتين وولى بعده اخوه ابو اسحاق ابراهيم ابن احمد وهو الذي نقل انقصور الى ركادة وكان في ابتداء امره حسن السيرة ثم غلب عليه خلط سوداوي فتغير حاله واسرف في القتل وقتل اصحابه وحجابه وثمانية من اخوته صبرًا بين يديه وقتل بناته ثم اظهر النسك مات سنة تسع وثمانين ومائتين وولى بعده ابنه ابو العباس عبدالله على عهد المعتصم بالله فرد المظالم وتنسك ولبس الصوف وقتل بتدبير ابنه زيادة الله وكان في سجنه وبادر بقتل من شارك في دمه واظهر التبري من ذلك وفي ايام زيادة الله ظهر امر بني عبيد ولقيت جيوشه جيوش الشيعة فلم تقم لهم قائمة ففر الى المشرق وترك البلاد

﴾ ذكر دولة الادارسة بالاندلس ﴿

كان لبني محمد وبني عمر من ولد ادريس رئاسة على البربر في بلاد غمارة من الريف فلما قام سليمان بن الحكم الملقب بالمستعين على المهدي محمد بن هشام في جنود البربر وزناتة كان عليّ بن حمود بن ميمون بن احمد بن عليّ بن عبيدالله بن عمر بن ادريس واخوه القاسم في جملتهم واشتد امر البربر وزناتة انصار المستعين على اهل الاندلس وحاصروا المهديَّ في قرطبة فخشي اهلها على انفسهم من اقتحام البربر عليهم فقتلوا المهديَّ بن هشام واجتمعوا على تجديد البيعة لهشام المؤيد واستمرّ

البرابرة على حصار قرطبة والمستعين بينهم الى ان دخلوها عنوة سنة ثلاث واربعمائة وفتكوا بهشام المؤيد ثم لما افترق شمل جماعة قرطبة وتغلب البربر على الامر قام عليُّ بن حمود واخوه القاسم ودعوا لانفسهم وتعصب لهم الكثير من البربر وملكوا قرطبة سنة سبع واربعمائة وقتلوا المستعين وتم الامر لعليّ وتمكن سلطانه واتصلت دولته عامين وتلقب بالمأمون ثم قتله صقالبته في الحمام سنة ثمان واربعمائة فولي مكانه اخوه القاسم والى ذلك يشير ابن الخطيب في منظومته بقوله

ثم سليمان الى الملك رجع * نبهه الدهر وما كان هجع
وكان شاعرًا ومن اهل اللسن * وقيض الله له أبا الحسن
وهو ابن حمودٍ اتى من سبتة * وسبب العز له قد ثبته
صال عليه طالبًا دم هشام * وقلّ من وفى عن الثار ونام
فخذل الابن وثنى بالأب * بيده مبينًا للسبب
واستوثق الامر قليلاً وانتظم * وانتصر الدهر به ممن ظلم
واغلظ الاحكام في بربره * وغالب الناس على سيره
واغتاله الصقالب في حمامه * فجرعوه الصرف من حمامه
وقام بالامر اخوه القاسم * فوضعت في ملكه المراسم

ثم بعد اربع سنين من سلطنة القاسم نازعه ابن اخيه يحيى بن علي بسبتة وكان اميرًا على تلك النواحي وولي عهد ابيه فزحف الى قرطبة فملكها سنة ثنتي عشرة واربعمائة وتلقب بالمعتلي وفرّ عمه المأمون الى اشبيلية وبايع له قاضيها ابن عباد واتجاش بعض البربر ورجع الى قرطبة سنة ثلاث عشرة ولحق المعتلي بمالقة وتغلب على الجزيرة الخضراء وتغلب اخوه ادريس على طنجة ولم يزل امر المعتلي ينمو وسلطانه يعلو الى ان قتله محمد بن عبدالله البرزالي البربري بداخلة ابن عباد ثم استدعى اهل مالقة اخاه ادريس بن علي من طنجة وبايعوه فتم امره واتسعت دولته ومات سنة احدى وثلاثين واربعمائة وبويع بعده لابن اخيه حسن بن يحيى المعتلي ولقب المستنصر ثم مات مسمومًا سنة ثمان وثلاثين وبويع لاخيه ادريس ابن يحيى ولقب العالي ثم ثار السودان عليه بدعوة ابن عمه محمد بن ادريس بن علي وتلقب المهدي واقام في ملكه بمالقة واطاعته غرناطة وجيان واعمالها الى ان مات سنة اربع واربعين ورجع العالي فبويع بمكانه بغمارة وكان فرّ اليها لما ثار

عيله السودان ثم مات سنة سبع واربعين وبويع محمد الاصغر ابن ادريس بن علي وتلقب المستعلي ثم قام عليه باديس فتغلب على مالقة وسار محمد المستعلي منها الى المرية مخلوعاً ثم استدعاه اهل مليلية وكلعية من وراء البحر وبايعوه سنة تسع وخمسين واربعمائة وهو آخر من ملك في الاندلس من الادارسة ثم اقتسمت ملوك الطوائف جزيرة الاندلس الي ان تغلب عليهم المرابطون بعد تغلبهم علي المغرب كله والبقاء لله وحده . واعلم ان هذا القطر الاندلسي تسميه الافرنج اندلش بالشين المعجمة وكان يسكنه امم من افرنجة المغرب واكثرهم الجلالقة وكان الغوط قد تملكوه المئين من السنين قبل الاسلام بعد حروب موصوفة مع السريانيين وذلك لعهد ابراهيم الخليل عليه السلام وحاربوا الاتينيين وحاصروا رومة ثم عقدوا معهم السلم على ان ينصرف الغوط الى الاندلس فساروا اليها وملكوها وهؤلاء الغوط من الامم العظيمة وكانوا يعرفون في الزمن القديم باسبين نسبة الى الارض التي كانوا يعمرونها بالمشرق فيمابين الفرس واليونان ولماأخذ الروم واليونان بالملة النصرانية حملوا عليها من ورائهم من المغرب من امم الفرنجة والغوط فدانوا بها وكانت دار ملوك الغوط طليطلة وملكهم لذلك العهد يسمى لزريق وهو سمة لملوكهم وكان ملك البرابرة بجبال غمارة يسمى بليان يدين بطاعتهم وملتهم وموسى بن نصير امير المغرب اذ ذاك عامل على افريقية من قبل الخليفة الوليد بن عبد الملك واستنزل بليان بطاعة الاسلام وكان بليان ينقم على لزريق ملك الغوط فلحق بطارق بن زياد الليثي وهو يومئذ والي طنجة فانتهز طارق الفرصة واجاز البحر باذن اميره موسى بن نصير بثلاثمائة من العرب واحتشد معهم البربر وصيرهم عسكرين احدهما على نفسه ونزل بهم جبل الفتح فسمي جبل طارق والآخر على طريف بن مالك النخعي ونزل بمكان مدينة طريف فسميت به وحصل لهما الفتوحات العظيمة

﴿ ذكر دولة العبيديين وهم الفاطميون ﴾

واصلهم من الشيعة المعروفين بالامامية وكان محمد بن حبيب والد عبيد الله المهدي منهم وهو من ولد اسماعيل الامام ومنازله بالسليمية من ارض حمص في الشام وكانت شيعتهم يتعهدونه بالزيارة فجاء محمد بن الفضل الشيعي العدني من اليمن لزيارته فبعث معه رستم بن الحسن بن الحوشب لاقامة دعوته باليمن فساروا واظهروا الدعوة واستولى

محمد بن الفضل الداعية على اكثر اليمن وفرّق الدعوة في اليمامة والبحرين والسند والهند ومصر والمغرب وكان ابو عبدالله المعروف بالمحتسب الشيعي من اهل صنعاء وقيل من الكوفة سمع بقدوم ابن حوشب وانه يدعو الناس الى المهدي فسار اليه واتصل به وكان ابن حوشب ارسل دعاة الى المغرب واجابتهم كتامة من البربر . فلما راى علم ابي عبدالله ودهاءه ارسله اليهم ثم جاء ابو عبدالله مكة واجتمع بجماعة منهم قدموا حجاجاً فرآهم مجيبين الى مطلوبه فسار معهم الى بلادهم من افريقية سنة ثمانين ومائتين وانثال البربر عليه من كل جهة وعظم شانه وبلغ الامر الى بني الاغلب امراء افريقية فاستصغروه ثم مضى الى تاهرت واتته قبائل المغرب الاوسط واستمرّ يطاول بني الاغلب على مملكتهم الى ان تولى زيادة الله قاتل ابيه وكان منهمكاً في لذاته فضعف امره وانتقضت عليه كافة افريقية فهرب الى المشرق ونهب البربر قصوره واحتل ابو عبدالله ركادة ومنها ذهب الى القيروان فدخلها ولما رأى ابو عبدالله امره في الزيادة وامر بني الاغلب في النقصان بعث جماعة من كتامة الى عبيدالله المهدي بعد موت والده محمد الحبيب فوصلوا اليه وهو في السلمية واخبروه بما فتح الله عليهم وان الناس في انتظاره وشاع خبر عبيدالله المهدي في الشام والعراق ومصر واتصل الخبر بالخليفة المكتفي بالله العباسي فطلبه ففرّ الي العراق ثم لحق بمصر ومعه ابنه وخاصته فبلغه ما احدث بها محمد بن الفضل من بعد ابن حوشب وانه اساء السيرة فخرج من مصر بمن معه في زيّ التجار وسار حتى وصل قسنطينة ثم عدل الى طريق الصحراء الى سجلماسا وبها اليسع بن مدرار فاكرمه ثم حبسه وبقي في حبسه الى ان فرغ ابو عبدالله من امر افريقية واستمر على سيره حتى اتى سجلماسا فخرج اليسع لقتاله فانتقض معسكره وفرّ هو وخاصته ومن الغد خرج اهل البلد الى الشيعي وذهبوا معه الى مجلس المهدي وابنه فاخرجهما وبايع للمهدي ومشى مع رؤساء القبائل بين يديه حتى انزلهم بالمخيم وبعث في طلب اليسع فادركوه وقتلوه ثم ارتحلوا الى افريقية ونزلوا بركادة سنة سبع وتسعين فحضر اهل القيروان وبويع المهدي البيعة العامة واستقام امره وقسم الاموال في رجال كتامة واقطعهم الاعمال ودوّن الدواوين وجبى الاموال واستبدّ بامره والى ذلك اشار ابن الخطيب بقوله

وظهر الشيعي في كتامه * فاختار فيهم كونه واعتامه
وغرهم في رايه ومذهبه * ووعدهم ملك الورى بسببه
وصير الدعوة بعض قصصي * الى عبيد الله من آل الوصي

وهو الذي لقب بالمهدي * أي همام حازم ابيّ

واخر المهدي ابا عبد الله واخاه ابا العباس عن مباشرة الاحكام فاظلم الجو بينهما واظهر ابو عبد الله واخوه الطعن فيه وقالوا لهم ليس هذا هو المهدي الذي دعونا اليه فاسترابت كتامة واتفقوا على قتله ونمى الخبر الى المهدي فتلطف في امرهم وولى رؤساء كتامة على البلاد وفرّق كلمتهم ثم امر عروبة بن يوسف بقتل ابي عبد الله واخيه فحمل على ابي عبد الله عند باب القصر فقال له لا تفعل فقال الذي امرتنا بطاعته امرنا بقتلك ثم اجهز عليه وعلى اخيه ابي العباس وخلا الجو للمهدي فبنى المهدية وانتقل اليها من ركادة وزال بملكه ملك بني الاغلب وملك بنى مدرار اصحاب سجلماسا . وايامهم فيها مائة وثلاثون سنة وزال ملك بني رستم اصحاب تاهرت وايامهم فيها مائة وستون سنة ثم توفي المهدي سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة بالمهدية لاربع وعشرين سنة من ولايته وولى بعده ابنه ابو القاسم محمد ويقال له نزار ولقب بالقائم بامر الله فخرج عليه ابو يزيد الاعور ولم يزل مشتغلاً بحروبه مدة امارته وتوفي القائم محصورًا في سوسة بعد ان عهد لولده اسماعيل ولقبه المنصور سنة اربع وثلاثين وثلاثمائة فكتم المنصور موت ابيه القائم حذرًا ان يطلع عليه ابو يزيد وهو بمكانه من حصار سوسة فلم يسمّ بالخليفة ولا غير السكة ولا الخطبة ولا البنود الى ان مات ابو يزيد مأسورًا عنده سنة ست وثلاثين وثلاثمائة فحينئذٍ اظهر موت ابيه وبويع بالخلافة وضبط الملك والبلاد ثم توفي سنة احدى واربعين وثلاثمائة لسبع سنين من خلافته وعهد الى ابنه معد ولقب بالمعز لدين الله فاستقام امره وعظم ملكه ولما بلغه اختلال احوال مصر بعد موت كافور الاخشيدي جهز اليها جوهرًا في جيوش البربر والعرب نهربت العساكر الاخشيدية قبل وصوله ودخل مصر في سابع عشر رمضان سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة واقيمت دعوة الفاطميين فيها وخطب باسم المعز ابو محمد عبد الله الشمشاطي في الجامع العتيق في شوال وفي جمادى الاولى دخل جوهر جامع ابن طولون وامر بزيادة حي على خير العمل في الاذان وجهر في الصلاة بسم الله الرحمن الرحيم وبعث الهدايا والاموال الى افريقية صحبة الوفد من مشيخة مصر وقضاتها وعلمائها وانقرضت دولة الاخشيدية من بني طغج . ولما استقر جوهر بمصر شرع في

بناء القاهرة وسير جيشاً الى الشام مع جعفر بن فلاح . فجاز الى دمشق وافتتحها بعد قتال شديد ونهب بعضها وكف عن بعض واقام الخطبة فيها يوم الجمعة للمعز الفاطمي في المحرم سنة تسع وخمسين وثلاثمائة ولما توالت البشائر على المعز بفتح مصر والشام عزم على المسير الى مصر وبدأ في تمهيد المغرب وقطع شواغله ثم استدعى بلكين بن زيري واستخلفه على افريقية والمغرب وانزله القيروان وسماه يوسف وكناه ابا الفتوح ثم سار باهله وعساكره الى مصر فتلقته اعيانها بالاسكندرية فاكرمهم وساروا معه الى مصر فدخلها خامس شهر رمضان سنة اثنتين وستين وثلاثمائة وكانت منزله ومنزل الخلفاء من بنيه بعده الى انقراض دولتهم بموت العاضد ابي محمد عبد الله وكانت وفاته يوم عاشوراء سنة سبع وستين وخمسمائة وعلى وزارته يوسف صلاح الدين تقلدها بعد موت عمه شيركوه فتمكن صلاح الدين في مصر وحكم علي القصر وكان قبل موت العاضد بايام وهو في شدة المرض قطع خطبته وخطب لبني العباس بامر نور الدين الشهيد محمود بن زنكي صاحب الشام وهو الذي بعث شيركوه وابن اخيه صلاح الدين الى مصر باستدعاء من العاضد وكانت ايام ملك الفاطميين مائتين وثمان سنين بمصر واثنتين وخمسين بالمغرب وافريقية وعدة خلفائهم اربعة عشر اولهم عبيد الله المهدي وآخرهم العاضد محمد بن عبد الله وبانقراض دولتهم انقرضت دولة العرب من مصر ومن المغرب وافريقية وانتقل ملك مصر الى يوسف صلاح الدين واهل بيته ثم الى الجراكسة ثم الى الدولة العلية وانتقل ملك افريقية والمغرب الى البربر يتداولونه طائفة بعد طائفة وجيلاً بعد جيل تارةً يدعون لبني امية بالاندلس وتارة لبني العباس واخرى لبني ادريس ثم استقلوا بالدعوة لانفسهم فقامت دولة صنهاجة بافريقية واولهم ابو الفتوح بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي استخلفه المعز على افريقية والمغرب عند مسيره الى مصر واستمرت امارة افريقية في ولده يتوارثونها خلفاً عن سلف الى ان انقرضت باستيلاء الافرنج على المهدية سنة ثلاث واربعين وخمسمائة وفرّ الحسن بن يحيى بن تميم آخر امراء افريقية الى بجاية فاجاره صاحبها يحيى بن العزيز من بني حماد ثم لحق بالجزائر ونزل على سبع بن العزيز اخي يحيى فاكرم نزله وجاوره الى ان فتح الموحدون الجزائر سنة سبع واربعين وخمسمائة بعد استيلائهم على المغرب والاندلس فخرج الحسن الى عبد المومن امير الموحدين فاكرمه ولحق به وصحبه الى افريقية في غزوتيه

الاولى والثانية فنازل المهدية فافتتحها سنة خمس وخمسين واسكنها الحسن وعين له اقطاعاً في خارجها ثم استدعاه يوسف بن عبد المومن في ولايته بعد ابيه عبد المومن فارتحل باهله قاصداً مراكش فمات بتماسا والبقاء لله تعالى وحده

ذكر دولة المرابطين

وهم من الطبقة الثانية من صنهاجة ويقال لهم الملثمون وقد استوطنوا القفر وراء الرمال الصحراوية بالجنوب منذ دهور لا يعرف اولها ايثاراً للانفراد والبعد عن غلبة الملوك وتناسلوا في تلك البلاد فكثروا وتعددت قبائلهم. ذكر غير واحد من المورخين انهم كانوا لاول الاسلام سبعين قبيلة منها لمتونة وجدالة ومسوفة ولمطة ومزيلة . ومواطنهم ما بين البحر المحيط بالمغرب الى غدامس من جنوب طرابلس وبرقه الى ريف الحبشة واتخذوا اللثام شعاراً ليلاً ونهاراً والسبب في ذلك ان طائفة من لمتونة خرجوا غائرين على عدوّ لهم فخالفهم العدوّ الى بيوتهم ولم يكن بها الا المشايخ والصبيان والنساء فلما تحقق المشايخ انه العدوّ امروا النساء ان يلبسن ثياب الرجال و يتلثمن ويضيقنه حتى لا يعرفن ويلبسن السلاح وتقدم المشايخ والصبيان امامهن واستدار النساء بالبيوت فلما اشرف العدوّ راى جمعاً عظيماً فقال هولاء عند حرمهم يقاتلون عنهن قتال الموت والرأي ان نسوق النعم ونمضي فان لحقونا قاتلناهم خارجاً عن حريمهم فبينما هم في جمع النعم من المراعي اذ اقبل رجال الحي فبقي العدو بينهم وبين النساء فاكثروا القتل من العدو وكان ممن قتله النساء اكثر فمن ذلك الوقت جعلوا اللثام سنة يلازمونه ومما قيل فيهم

قوم لهم درك العالي في الحمى * وان انتموا صنهاجة فهم هم
لما حووا ادراك كل فضيلة * غلب الحياء عليهم فتلثموا

وكانوا على دين المجوسية ولم يزالوا مستقرين بتلك المجالات حتى كان اسلامهم في المائة الثالثة وكانت الرئاسة فيهم للمتونة ولهم ملك ضخم في تلك الصحارى وجاهدوا جيرانهم من امم السودان وحملوهم على الاسلام فدان به اكثرهم ومن بقي منهم على المجوسية اعطى الجزية ولم تزل كلمتهم مجموعة الى ان قتل صنهاجة اميرهم تميم بن بلتان فتفرق امرهم وصارت رئاسة كل بطن منهم في بيت مخصوص فكانت رئاسة لمتونة في بني ورتاطق ولما افضت رئاستهم الى يحيى بن ابراهيم خرج في جماعة الى الحج سنة اربعين واربعمائة فلقوا في

منصرفهم الامام ابا عمر الفاسي المالكي فطلبوا منه ان يرسل معهم من يعلمهم امر دينهم فبعث معهم الفقيه عبد الله بن يس الجزولي ولما مات الامير يحيى افترق امرهم وتركوا الاخذ عن عبد الله بن يس فاعرض عنهم وتنسك معه يحيي بن عمر واخوه ابو بكر بن عمر رؤساء لمتونة وانتبذوا عن الناس في جزيرة يحيط بها بحر النيل ولحق بهم من كان في قلبه ميل الى الاسلام ولما كمل معه الف رجل قال لهم عبد الله قد تعين علينا القيام بالحق والدعاء اليه ولن يغلب الف من قلة فخرجوا من الجزيرة وقاتلوا من استعصى عليهم حتى انابوا ورجعوا الى الحق وسماهم المرابطين وامر عليهم يحيي بن عمر فتخطوا الرمال الصحراوية الى بلاد درعة وسجلماسا فأدوا لهم الزكاة الشرعية ورجعوا ثم بلغهم ما نال المسلمين من ظلم بني وانودين امراء سجلماسا من مغراوة فخرجوا اليهم سنة خمس واربعين واربعمائة في عدد كبير من الفرسان وعمدوا الى درعة فنهض اليهم امير مغراوة وصاحب سجلماسا ودرعة فانهزمت جيوش مغراوة وقتل اميرهم واستلحم عسكره ودخلوا سجلماسا وقتلوا من كان بها من مغراوة وبعد اصلاح احوالها استعملوا عليها بعض رؤسائهم ورجعو الى مواطنهم ثم مات يحيي بن عمر سنة ثمان واربعين واربعمائة وولي اخوه ابو بكر بن عمر نغزى بلاد سوس ومات الفقيه عبد الله بن يس في بعض حروبهم مع برغوطة واستمر ابو بكر في جهادهم حتى استأصل شأفتهم ثم بلغه ما وقع بين قومه من الخلاف فخشي افتراق الكلمة وارتحل راجعاً الى قومه بعد ان استعمل على المغرب ابن عمه يوسف بن تاشفين ورفع ما كان بينهم من الخلاف وشغلهم في جهاد السودان فاستولى على نحو تسعين مرحلة من بلادهم واقبل يوسف على شأنه فدوخ اقطار المغرب واختط مدينة مراكش سنة اربع وخمسين واربعمائة ثم انتقضت عليه فاس وقبائل زناتة فنهض اليهم سنة اثنتين وستين ونازل فاس فافتحها عنوة واصلح شأنها وارتحل منها الى ملوية فافتتح حصونها وحصون غمارة وتازة وبلاد غياثة وفي سنة ثلاث وسبعين نهض الى الريف فافتتح سائر بلاده وافتتح مدينة تلمسان واستلحم من كان بها من مغراوة وقتل اميرها العباس بن يحيى واختط بها تاكروات وهو اسم للمحلة بالبربرية ثم افتتح وهران وتنس ومليانه والمديه وغيرها وانتهى الى الجزائر ثم رجع الى مراكش سنة خمس وسبعين واربعمائة وعظم امره واستفحل ملكه وتلقب امير المسلمين وكاتبه اهل الاندلس كافة من العلماء والخاصة وملوك الطوائف

مستنجزين وعده في صريخ الاسلام فاهتز للجهاد ثم اجاز البحر بعساكر المرابطين وقبائل المغرب ونزل الجزيرة الخضراء سنة تسع وسبعين واربعمائة وجمع ملك الجلالقة امّا لقتاله ولقيه بالزلاقة من نواحي بطليوس وكان للمسلمين عليه اليوم المشهور سنة احدى وثمانين ثم رجع الى مراكش واجاز ثانية سنة ست وثمانين فلقيه ابن عباد بجيوشه فبطش بهم ورجع الى مراكش واجاز ثالثةً سنة تسعين فزحف اليه ملك الجلالقة فانهزمت جيوشه ثم رجع الى مراكش واجاز ابن ابنه الامير يحيى بن ابي بكر بن يوسف سنة ثلاث وتسعين واربعمائة وانضمت اليه جيوش المرابطين بالاندلس فتقوّى بهم واخذ عامة الاندلس من يد ملوك الطوائف واستولى على العدوتين ولم يبق منها الا سرقسطة في يد صاحبها ابن هود معتصمًا بالافرنج وخاطب المستنصر العباسي الخليفة ببغداد وجاءه التقليد منه على ما لديه من الاقاليم وخاطبه الامام الغزالي يحضه على العدل والتمسك بالشريعة ثم اجاز رابعةً سنة سبع وتسعين واربعمائة وتوالت غزواته في بلاد الافرنج الى ان مات على رأس المائة الخامسة فقام بالامر بعده ابنه علي واجاز الى الاندلس فاثخن فيها قتلاً وسبيًا ثم اجاز ثانيةً سنة ثلاث وخمسمائة ونازل طليطلة فعظم شانه وقسم شرقي الاندلس على اعيان المرابطين وعقد لابنه تاشفين على غربية سنة ست وعشرين وخمسمائة ورجع الى مراكش ولاربع عشرة سنة من دولته كان ظهور الموحدين ثم مات سنة سبع وثلاثين وخمسمائة وقام بالامر ابنه تاشفين حين عظم امر الموحدين ثم اخذ امر المرابطين الضعف وغزى عبد المؤمن بن علي في جموع الموحدين غزواته الكبرى الى جبال المغرب فخرج تاشفين بعساكر المرابطين لمقابلته وبعث البعوث الى الجهات فرجعوا منهزمين وتوالت الوقائع عليه فاجمع الرحلة الى وهران وبعث ابنه وولي عهده ابراهيم الى مراكش وزحف عبد المؤمن الى وهران في جيوش الموحدين وضايقوا تاشفين في داخلها فخرج الى الجبل المطل عليها فتردى به فرسه في بعض شعابه فمات سنة احدى واربعين وخمسمائة ثم بويع لابنه ابراهيم بن تاشفين وخلع فبويع عمه اسحاق ابن علي بن يوسف ثم زحف الموحدون اليها وقد ملكوا جميع بلاد المغرب الاقصى والاوسط فخرج اليهم عسكر اسحاق فقتلهم الموحدون وفر اسحاق وخاصته الى القصبة ثم نزلوا على حكم الموحدين فاحضر اسحاق بين يدي عبد المؤمن فقتله الموحدون وقتلوا خاصته ودخلوا مراكش وانقرضت دولة المرابطين بعد ان ملكوا المغرب الاقصى

والاوسط وعدوة الاندلس ثمانين سنة وخطب لهم على ازيد من الفي منبر وكانوا اهل ديانة وصيانة لم يجروا في اعمالهم مكسًا ولا خراجًا ولا ما يخالف الشريعة المطهرة قال ابن الخطيب

قد طلعت بغرب لمتونه * دولتها عزيزة ميمونه
تجمع دينًا وعفافًا وكرم * لم يدر قدرفضلهاحق انصرم
فاذعنت لحربهاالطوائف * وظهرت من قومها خلائف

والملك لله وحده لا شريك له يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير

﴿ذكر دولة الموحدين﴾

كان القائم بامر هذه الدولة محمد بن عبدالله تومرت الشهير بالمهدي واختلف النسابون فيه فقيل انه ينتمي الى الحسن السبط رضي الله عنه وانكر ابن مطروح ذلك في تاريخه وقال انما هو من هرغة من بطون المصامدة من البربر ارتحل في اول الخمسمائة الى المشرق لطلب العلم ولقي جماعة من مشاهير العلماء فاستفاد علمًا واسعًا ثم انطلق راجعًا الى المغرب سنة خمس عشرة وخمسمائة واخذ بالانكار على الناس والزمهم اقامة الصلوات واجتناب المنكرات وكان على مذهب الاشعري في تأويل المتشابه من الآيات والاحاديث وانكر على اهل المغرب اخذهم بمذهب السلف في اقرار المتشابه كما جاء وكفرهم بذلك وكان يقول بعصمة الامام وينتحل القضايا الاستقبالية ويشير الى الحوادث الآتية وفي ايام اقامته بنواحي بجاية اتصل به عبد المؤمن الكومي التراري فاستصحبه الى المغرب الاقصى واستمر على ما هو عليه في زعمه من الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ودخل مراكش فكثرت اتباعه ولما اشتهر امره استحضره امير المسلمين عليُّ بن يوسف ابن تاشفين الى مجلسه وناظره الفقهاء بين يديه فغلبهم فاخرجه من مراكش فلحق بجبال المصامدة ونزل على هرغة وبنى رباطًا للعبادة واجتمع عليه خلق كثير فجعل يعلمهم التوحيد بلسانهم على مذهب الاشعري ثم دعاهم الى بيعته على التوحيد وقتال المرابطين وانه المهدي المنتظر فبايعوه على ذلك ثم كثرت جيوشه فارسل امير المسلمين عليُّ بن يوسف جيشًا لقتاله فهزمهم وقويت نفوس اتباعه ووفدت اليه قبائل المصامدة وغيرهم من البربر يبايعونه وعظم امره وترددت اليه عساكر

المرابطين مرات ففضهم ثم ارتحل الى جبل تينملل واستوطنه وبنى فيه دارًا ومسجدًا وسمى عامة اصحابه الموحدين ولم يزل امره يعلو فلم تهزم له راية الى سنة اربع وعشرين وخمسمائة فجهز جيشًا لنظار صاحبيه الونشريسي وعبدالمؤمن وسيرهم الى مراكش فحصروا امير المسلمين فيها عشرين يومًا ثم خرج اليهم واقتتلوا فقتل الونشريسي وانهزم عبد المؤمن بجيشه الى الجبل . ولما بلغ المهدي خبر هزيمة عساكره وكان مريضًا اوصى اصحابه باتباع عبدالمؤمن وعرفهم انه هو الذي يفتح البلاد وسماه امير المؤمنين ولما توفي دفنه اصحابه في داخل مسجده وكتموا موته وعهده بالخلافة الى عبد المؤمن خوفًا من تفريق الكلمة واقاموا يدبرون الامور ثلاث سنين ثم تقدم الشيخ ابو حفص الهنتاتي رئيس قبيلته الى عبد المؤمن وقال له نقدمك كما كان الامام يقدمك واعلنوا بيعته وامضوا عهد الامام بخلافته وحملوا القبائل على طاعته فاقام عبد المؤمن في تينملل يؤلف القلوب ويأخذ في الاستعداد الى ان استكمل امره فخرج الى تادلة ودرعة فاستولى عليها وانتقض البربر وسائر المغرب على المرابطين وفي سنة اربع وثلاثين غزى ولم يرجع الى تينملل حتى استولى على المغربين الاوسط والاقصى واحتل مراكش سنة احدى واربعين وفي سنة ثلاث واربعين استولى على قرطبة وقرمونة وجيان من الاندلس وفي سنة ست واربعين فتح افريقية باسرها وفتح مدينة المرية ووابرة وبياسة من الاندلس وفي سنة خمسين فتح غرناطة وفي سنة اربع وخمسين رجع الي افريقية واجلى جميع الثوار منها ونازل المهدية وكانت في يد الافرنج فاخرجهم منها سنة خمس وخمسين ووصلت جيوشه الى سرت وبرقة فيما وراء طرابلس ثم رجع الى المغرب وفي سنة سبع وخمسين خرج من مراكش الى سلا قاصدًا الجواز الى الاندلس فمرض بها ومات وكانت مدته ثلاثًا وثلاثين سنة وخمسة اشهر وثلاثة عشر يومًا وهو الذي جمع اهل المغرب كافة على مذهب الاشعري في الاصول وعلى مذهب الامام مالك في الفروع قال ابن الخطيب

ونجم المهدي وهو الداهيه * فاصبحت تلك المباني واهيه
لم يال فيها ان دعي لنفسه * وكان في الحزم فريد جنسه
وعنده سياسة وعلم * وجراة وكرم وحلم
ووافقت دولته في الناس * لدولة المسترشد العباس

واوصى بالخلافة لولده يوسف فبويع ولقب بامير المؤمنين واستقامت له الامور لحسن تدبيره ومتانة دينه واجاز الى الاندلس مرات وكانت له فيها عدة غزوات استظهر في جميعها على الافرنج وافتتح امصارًا وحصونًا وفي سنة ثمانين وخمسمائة اجاز الى الاندلس اجازته الاخيرة فاحتل بجبل الفتح وسار الى اشبيلية فوافته فيها حشود الاندلس ووصل الى شنترين لحاصرها وخرج النصارى من الحصن فوجدوه في غير اهبة فحملوا عليه فابلى هو ومن حضر معه ثم اصابه سهم فحمله ابنه يعقوب وانصرف الى اشبيلية فمات في الطريق وكانت مدته اثنتين وعشرين سنة وبويع ولده يعقوب وتلقب بالمنصور ثم اجاز الى مراكش وباشر الاحكام واقام راية الجهاد وحصن الثغور والبلاد واحسن بالمرتبات على العلماء وبنى المساجد والمدارس في جميع ايالات المغرب وافريقية والاندلس وانشأ بها عدة مارستانات واوقع بالافرنج عدة وقعات منها وقعة الأرك في نواحي بطليوس وبالجملة فقد كان اجلّ ملوك الموحدين وابعدهم صيتًا واعلاهم همةً وكانت ايامه ايام خير وامن توفي سنة خمس وتسعين ودفن بداره في مراكش وقد كذب من قال انه ولع وساح ومات بالبقاع العزيز من اعمال دمشق الشام ودفن بقرية في راس الجبل وقد سميت القرية باسمه واكثر اهالي تلك البلاد يعتقدون بذلك ولذا اكثر حجاجهم يقصدون زيارته عند مرورهم على الشام وكانت مدته اربع عشرة سنة واحد عشر شهرًا وولي بعده ابنه محمد وليّ عهده وتلقب بالناصر لدين الله وفي ايامه قوى امر ابن غانية اللمتوني في افريقية وتغلب على جميع اعمالها وخطب للخليفة العباسي فاتصل خبره بالناصر فنهض من مراكش سنة احدى وستمائة فشتت شمل ابن غانية واقام بافريقية الى سنة ثلاث وستمائة فاستناب ابا محمد ابن الشيخ ابي حفص الهنتاتي عليها ورجع الى مراكش ثم اجاز الى الاندلس فكانت وقعة العقاب المشهورة التي كانت الدبرة فيها على المسلمين ثم رجع الى مراكش ومات سنة عشر وستمائة وبويع لولده يوسف وتلقب بالمستنصر فتغلب عليه ابن جامع وزير ابيه لصغر سنه وفي ايامه دخل الوهن على دولة الموحدين وانثالت الامور وظهر امر بني مرين وكان المستنصر مولعًا بالخيل والبقر فخرج في سنة عشرين وستمائة الى بستانه وجعل يمشي بين البقر فطعنته بقرة بقرنها فمات وبويع عم ابيه عبد الواحد عن كرهٍ منه في سن الشيخوخة ثم خلع وقتل لتسعة اشهر وبويع ابن اخيه عبدالله وتلقب بالعادل ثم خلع وقتل ونهب البربر قصره

واستباحو حريمه ثم بويع لاخيه ادريس بن يعقوب وتلقب بالمامون وهو يومئذ وال على اشبيلية فزاحمه يحيى بن الناصر وكان الموحدون بايعوه في مراكش يوم قتل العادل ثم اختلفت الكلمة على يحيى فلحق بالجبل واجاز المامون الى مراكش فدخلها ثم اشاع النكير على امامهم المهدي في العصمة ووضع العقائد والنداء في الصلاة بلسان البربر وتغيير رسوم الدعوة واصول الدولة واسقاط اسم المهدي من الخطبة والسكة واعلان لعنه وقتل من خالفه في ذلك من الموحدين فنكثوا بيعته وقطعوا خطبته واستبد الامير ابو زكريا فيها وتلقب بالامير وفي ايام المامون استولى ابن هود على الاندلس واخرج سائر الموحدين وامر بقتلهم ثم انتقض على المامون اخوه ابو موسى ودعا لنفسه بسبتة فخرج اليه وكان يحيى بن الناصر بالمرصاد فخالفه الى مراكش فافتحها بجيوش العرب وعاث فيها واقلع المامون عن سبتة يريد مراكش فمات في طريقه سنة ثلاثين وبويع ولده عبد الواحد ولقب بالرشيد وفي سنة احدى وثلاثين خرج من مراكش الى الجبل واوقع بيحيى بن الناصر وجموعه ولحق يحيى بسجلماسا وانكفأ الرشيد راجعًا الى حضرته واستامن له كثير من الموحدين فامنهم ثم اساء الظن فيهم فقتلهم وبذلك فسدت قلوب الرعايا عليه واخذ اكثرهم بطاعة يحيى واحضروه من الصحراء وزحفوا به لمراكش فخرج الرشيد الى جبال المصامده وسار منها الى سجلماسا فملكها ودخل يحيى وجموعه الى مراكش وفي سنة ثلاث وثلاثين خرج الرشيد من سجلماسا الى مراكش فبرز اليه يحيى بجموعه فانهزمت جموع يحيى ودخل الرشيد الى مراكش وانتقض الخلط على يحيى فنكثوا بيعته ولحق يحيى بعرب المعقل بنواحي تازا فاجاروه ثم غدروا به وفي سنة خمس وثلاثين بايع اهل اشبيلية الرشيد ونكثوا بيعة ابن هود وفي سنة ست وثلاثين وصلت اليه بيعة ابن الاحمر الثائر بالاندلس على ابن هود وفي سنة سبع وثلاثين اشتدت الفتنة بالمغرب وانتشر بنو مرين في بسائطه وزحف اليهم الرشيد فهزموه ثلاث مرات ثم رجع الى مراكش واشتد عدوانهم في نواحي مكناسه وفي سنة اربعين توفي الرشيد بمراكش غريقًا في بعض صهاريج القصر وقام بالامر بعده اخوه ابو الحسن السعيد واستخلص لنفسه رؤساء العرب وانتقض عليه اهل سبتة واشبيلية وسجلماسا وعقد المهادنة مع بني مرين وفي سنة خمس واربعين خرج من مراكش قاصدًا تلمسان فتعرض له بنو مرين لجوعه في طريقهم فامتلأت ايديهم من اموالهم وقتل عبدالله بن

السعيد فيمن قتل منهم ولحق الفل بمراكش فبايعوا ابا حفص عمر بن اسحاق اخا المنصور وتلقب بالمرتضى وفي سنة سبع واربعين استولى ابو يحيى بن عبد الحق وقومه بنو مرين على تازة وفاس وسياتي تفصيل اخبارهم انشاء الله تعالى وسار في سبتة ابو القاسم العزفي وفي سوس علي بن يدر وتفاقم امر بني مرين وتلاشى امر الموحدين وضعف المرتضى عن الدفاع وفي سنة اثنتين وستين اقبل يعقوب بن عبد الحق في جموع بني مرين فنازلوا مراكش واتصلت الحرب بينهم وبين الموحدين اياما وقتل فيها عبدالله بن يعقوب بن عبد الحق فبعث المرتضى الى ابيه يعزيه ويلاطفه وارتحل عنهم ثم فرّ ادريس ابو دبوس ابن عم المرتضى ولحق بيعقوب بن عبد الحق صريخا به واشترط له المقاسمة في العمل والذخيرة فامده بالمال واوعز الى الخلط بمظاهرته وزحف ابو دبوس الى مراكش ووفد عليه جماعة من بني عمه في جيش من الموحدين والنصارى فدخلها على حين غفلة وفر المرتضى الى جبال هنتاتة فبلغه انهم بعثوا بيعتهم الى ابي دبوس نعدل عنهم الى ازمور وكان صهره ابن عطوش واليا عليها من قبله فقبض عليه وطير الخبر الى ابي دبوس فاستلمه منه وقتله وفي سنة خمس وستين بلغ ابا دبوس خبر انتقاض بني مرين فارسل الى عدوهم يغمراسن صاحب تلمسان يستعين به عليهم فلما اتصل الخبر بيعقوب بن عبد الحق جمع جيوشه ونهض الى تلمسان فاوقع ببني زيان وقعة تلاع التي قتل فيها يغمراسن وشتت شمله ثم رجع الى فاس ونهض الى مراكش وخرج اليه ابو دبوس فكر عليه يعقوب بجموعه ففرّ فادركوه وقتلوه فدخل يعقوب مراكش سنة ثمان وستين وستمائة وفرّ الموحدون منها الى جبالهم بعد ان كانوا بايعوا عبد الواحد بن ابي دبوس ولقبوه بالمعتصم مدة خمسة ايام وخرج في جملتهم وانقرض امر بني عبد المؤمن والموحدين والبقاء لله تعالى وحده

﴿ ذكر دولة بني مرّين ﴾

وهم حي من زناتة في اطراف المغربين ينتجعون الصحارى ويعطون الدول حق الطاعة فلما رأوا اختلال المغرب الاقصى ايام المستنصر بن الناصر خامس خلفاء الموحدين وعلموا ان الدولة قد تلاشت وخلت الثغور من الحامية انتهزوا الفرصة فيه فدخلوه وتفرقوا في جهاته واوجفوا عليه بخيلهم ورجلهم واكتسحوا سائر بسائطه بالغارة والنهب فلجأ الناس الى الجبال والمعاقل وآذنوا الدولة بالحرب

وكان رئيسهم عبد الحق بن محيو بن ابي بكر بن حمامة ولم يزل على امارته ومطاولة الموحدين على الملك الى ان قتله عرب رياح من اولياء الموحدين في حرب جرت بينه وبينهم بمداخلة بني عمه اولاد عسكر سنة اربع عشرة وستمائة وقام بالامر بعده ولده عثمان فاثخن في عرب رياح لثار ابيه وتغلب على الضواحي ومد يده لاطراف البلاد يتحرى مسالكها ويضع المغارم على اهلها حتى دخل اكثر القبائل في امره وبايعوه وفرّق فيهم العمال ثم فرض على امصار المغرب الاقصى ومدنه ضريبة يؤدونها على راس كل سنة ليكف الغارة عنهم ويصلح سابلتهم ولم يزل على ذلك الى ان اغتاله علجة سنة سبع وثلاثين وستمائة فولى اخوه محمد بن عبد الحق واخذ الضريبة وجباية المغارم من سائر الرعايا وبقي عبد المؤمن في ضعف وقصور الى ان توفى الرشيد بن المامون امير الموحدين وولى اخوه علي الملقب بالسعيد فجمع الجيوش ونهض سنة اثنتين واربعين وستمائة من مراكش وزحف اليه بنو مرين والتقوا بوادي ماش فقتل الامير محمد بن عبدالحق رئيس بني مرين وانكشف قومه ولحقوا بجبال غياثة فاعتصموا بها ثم خرجوا الي القفر وولوا عليهم ابايحيي بن عبد الحق فقام بامرهم ورجع الى المغرب وقسم البلاد بينهم وانزل كل بطن منهم في ناحية وبعثوا يبعتهم الى ابن زكريا الحفصي صاحب افريقية ثم جنح الامير ابو يحيي ابن عبد الحق الى الاستبداد فاتخذ آلة الحرب واستعمل شعائر الملك وبلغ خبره الى الخليفة السعيد فوجم لها وخطب على اعيان دولته فقال هذا ابن ابي حفص اقتطع افريقية ويغمراسن امير بني زيان اقتطع تلسان والمغرب الاوسط وابن هود اقتطع الجانب الغربي من الاندلس وابن الاحمر اقتطع الجانب الشرقي منه وهؤلاء بنو مرين تغلبوا على ضواحي المغرب الاقصى ثم سموا الى تملك امصاره فاغتاظ قومه لذلك فجهز السعيد عسكره واحتشد عرب المغرب ونهض من مراكش ولما علم ابو يحيى انه لا طاقة له على محاربته افرج عن البلاد ولحقه بنو مرين واجتمعوا اليه بتاظوطا من بلاد الريف ثم انتقلوا الى جبل بني يزناسن ونزلوا بعين الصفا ولم يزل ابو يحيى على شأنه في فتح البلاد الى ان توفي بفاس سنة ست وخمسين وستمائة وتصدى للقيام بالامر بعده ابنه عمر واهل الحل والعقد مائلة الى عمه يعقوب بن عبد الحق وكان يومئذ في تازه فبقي الامر في اضطراب الى ان اجتمعت الكلمة على يعقوب فدخل فاس وملكها

سنة سبع وخمسين واستجمع للاستيلاء على مراكش ولم يزل ينازلها الى ان تمكن من دخولها سنة ثمان وستين وستمائة واستقام له امر المغرب الاقصى كله وهو اول من تلقب بامير المسلمين من ملوك بني مرين ثم اشتغل بالجهاد فاجاز الى عدوة الاندلس مرات وكان له فيها الظفر العظيم ولما راى ملكه قد استوثق اختط المدينة الجديدة لصيق فاس بساحة الوادي المخترق وسطها من اعلاه وشرع في تاسيسها سنة اربع وسبعين وستمائة ولما كمل تشييدها نزلها ثم اوعز ببناء قصبة مدينة مكناسة ولم يزل قائماً بامر الجهاد واصلاح امر رعاياه الى ان مات سنة خمس وثمانين وستمائة وبويع ولي عهده ابو يعقوب يوسف ففرق الاموال وقبض ايدي العمال عن المظالم ورفع المكوس وصرف اعتناءه الى اصلاح السابلة واتبع سنن والده في الجهاد وقهر بني زيان وراسلته ملوك المشرق واوفدت عليه اعيانها وامتدت مملكته من سوس الاقصى الى بجاية في حدود افريقية من الجهة الغربية ولم يزل في عظمة سلطانه الى ان قتله خصيٌّ من خصيانه سنة ست وسبعمائة وهو محاصر لتلمسان وبالجملة فهذه الدولة من اعظم دول المغرب واقواها واحسنها سيرة ذكرها ابن الخطيب بقوله

واورث الله بلاد المغرب * للسادة الغر الكرام النجب
اولي الخيول والرماح والهمم * اقوى بني الدنيا واوفى بالذمم
وادرب الخلق بركض الخيل * وخوض احشاء الفلا والليل
قاموا وقد بان اختلال الطاعه * لمذهب السنة والجماعه
واستخلصوا المغرب بالسيوف * في خبر مستظرف معروف
فشمل الاقصى به والادنى * امرهم وقام منه المبنى

ولم يزل امرهم منذ دخلوا المغرب مستقياً وحماهم منيعاً وكلمتهم متحدة الى ان مات سلطانهم ابو سالم ابراهيم بن علي بن عثمان بن عبد الحق سنة اثنتين وستين وسبعمائة وتولى تاشفين وتغلب الوزير عمر بن عبد الله على الامر فتفرقت الكلمة وانتزى الثوار من اعيانهم بقاصية الملك وانقسمت الدعوة بينهم في مراكش وسجلماسا وسبتة وانحصرت السلطة في فاس واعمالها وفي ايام ابي فاس ابن العباس سنة سبع وتسعين وسبعمائة اخذ الفشل يدب في اعضاء الدولة واستمروا على اخذ الناس باللين الى ان قام الامير السيد محمد بن علي بن عمران الادريسي على عبد الحق

ابن ابي سعيد بفاس فبايعه اهلها وتم له الامر وبانتهاء ايامه انقرضت دولة بني عبد الحق الاول بن محيو بن ابي بكر مؤسس دولة بني مرين ولله الامر من قبل ومن بعد

﴿ ذكر دولة بني وطاس وهم فرقة من بني مرين ﴾

ولما اقتسم بنو مرين الاعمال كانت بلاد الريف لبنى وطاس وكان بنو الوزير ابي زكريا يحيى بن زيان الوطاسي يتشوفون الى الرئاسة والخروج على بنى عبد الحق ويرون ان نسبهم دخيل في بني مرين لانهم من اعقاب يوسف بن تاشفين فلحقوا ببني وطاس وفر ابو عبدالله محمد الشيخ ابن الوزير الى الصحراء خوفًا من السلطان عبدالحق بن ابي سعيد حين قتل جماعة من عشيرته وبقي يتردد في الصحراء الى ان ملك اصيلا واستفحل امره بها فكاتبه اعيان فاس ورؤساؤها يدعونه للقدوم عليهم ويعدونه بالنصرة فنهض من اصيلا الى فاس وحاصرها وفر صاحبها الامير محمد بن علي الادريسي ودخلها محمد الشيخ فبايعه اهلها سنة ست وسبعين وثمانمائة وفي ايامه تم استيلاء الاسبانيول على عدوة الاندلس وغرناطة ولحق سلطانها ابو عبدالله ابن الاحمر بفاس واستوطنها تحت كنف السلطان محمد الشيخ فبالغ في احترامه وبقي بها الى ان توفى سنة اربعين وتسعمائة في حرب الوطاسيين مع السعديين ثم استولى البرتقال على اكثر سواحل المغرب وفي سنة عشر وتسعمائة توفي محمد الشيخ وبويع لابنه محمد المشهور بالبرتقالي ولما تم له الامر نهض الى مراكش وحاصر بها اباالعباس السعدي ولما بلغه ان بني عمه قد نبذوا طاعته ارتد الى فاس وعهد الى اخيه ابي حسون المعروف بالبادسي فقام عليه ابن اخيه ابو العباس احمد بن احمد البرتقالي فخلع سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة وبويع ابو العباس احمد وجرت بينه وبين السعدي قرب مراكش حروب عظيمة دامت اياما ثم تصالحا على ان للسعديين من تادلا الى سوس و للوطاسيين من تادلا الى المغرب الاوسط وبعده انعقد الصلح بينه وبين البرتقال وتحسنت الاحوال ثم ان السلطان محمد الشيخ السعدي نقض ما جرى من الصلح بين الوطاسيين والسعديين وقام على اخيه ابي العباس الاعرج واستولى علي مراكش ونهض الى فاس وحاصرها سنة ثم استولى عليها سنة ست وخمسين وتسعمائة وقبض على ابي العباس وارسله مع الوطاسيين مصفدين الى مراكش وفر ابو حسون الوطاسي الى الجزائر

مستصرخًا بالاتراك على من تغلب على ملكه وملك آبائه ووعدهم بالاموال الجزيلة ان نصروه عليه فاجابوه لذلك وشيعوا معه جيشًا كثيفًا تحت راية صالح باشا التركاني فانقلب بهم الى فاس ودخلها بعد حروب عظيمة وفر محمد الشيخ السعدي الى مراكش ولما استقر ابو حسون دفع للاتراك ما وقع عليه الاتفاق ورجعوا الى الجزائر وتخلف عنده منهم نفر يسير ولما وصل محمد الشيخ الى مراكش صرف عزمه للانتقام من ابي حسون فاستنفر القبائل ونهض بها الى فاس فخرج اليه ابو حسون وكانت الهزيمة عليه فانقلب الى فاس وتحصن بها وحاصره محمد الشيخ الى ان ظفر به وقتله واستولى على فاس سنة احدى وستين وتسعمائة وصفا له الامر وبهلاك ابي حسون انقرضت الدولة المرينية من ارض المغرب والملك لله الواحد القهار

﴿ ذكر دولة السعديين ﴾

واصلهم من اشراف ينبع النخل استوطن اسلافهم درعة ولما نشأ فيهم ابو عبد الله محمد القائم بامر الله على عفاف وصلاح بايعته اهل سوس حين احتاطت بهم جيوش البرتقال من كل جهة فنهض الى تاورنت واستولى عليها ثم زحف الى اكادير وقاتل البرتقال مدة لم ينجح بها فندب الناس لبيعة ولده الاكبر ابي العباس المعروف بالاعرج فبايعوه سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة ولما تم له الامر ندب الناس الى جهاد البرتقال واخراجهم من ثغور المغرب فحصل له النصر والظفر واخرجهم من احواز ماسة واسفى وغيرها فبعد صيته وانتشر ذكره وكاتبه امراء هنتاتة ملوك مراكش للدخول في طاعته فاجابهم وانتقل الى مراكش واستقر بها ثم حدثت بينه وبين اخيه ووزيره ابي عبدالله محمد الشيخ نفرة ادت الى حروب استفحل بها امر محمد الشيخ فقبض على اخيه واولاده واودعهم السجن واصبح ملكًا بعد ان كان وزيرًا ثم استولى على فاس وغرب الوطاسيين الى مراكش وقتل ابا حسون الوطاسي ولما تم له امر المغرب الاقصى تاقت نفسه الى الاستيلاء على المغرب الاوسط فنهض من فاس الى تلمسان ودخلها بعد ان حاصرها تسعة اشهر ونفى الاتراك منها واتسعت خطة مملكته ودانت له البلاد ثم كرت الاتراك عليه واخرجوه من تلمسان فعاد الى فاس ثم ارتد الى تلمسان وحاصرها ايامًا واقلع عنها وفي سنة خمس وستين وتسعمائة اغتيل وقتل وكان اديبًا متفننًا عالمًا بالتفسير والحديث يخالف القضاة ويرد عليهم فتاويهم فيجدون الصواب معه وكان

يحض على المشاورة لا سيما في حق الملوك ويقول ينبغي للملك ان يكون طويل الامل ولا يحسن ذلك الا منه لان رعيته تصلح بطول امله ومن مآثره اختطاط مرسى اكادير واجلاء البرتقال من نونتي ولما قتل كان ولده عبدالله الغالب بالله بفاس فبايعه اهلها ووافقهم عليها اهل مراكش وبادر خليفته بمراكش القائد ابو الحسن علي بقتل ابي العباس الاعرج المخلوع واولاده ولما استوثق الامر للغالب بالله وتمهد له ملك ابيه نهض حسن بن خير الدين باشا صاحب تلمسان في جيش كثيف الى فاس فخرج اليه الغالب بجيوشه والتقيا بوادي اللبن من احواز فاس فانهزم حسن باشا ولما قفل الغالب بالله امر بقتل اخيه عثمان لامر نقمه عليه وارسل ابن اخيه الوزير اباعبد الله محمد بن عبد القادر لحصار مدينة شفشاون فاستولى عليها وخرج صاحبها الامير ابو عبدالله فيمن اليه من اهله واولاده الى ترعة وركب البحر الى المدينة المنورة واستقام بها الى ان توفي وبه انقرض امر بني راشد امراء شفشاون ثم جهز جيشا كثيفا عقد عليه لابنه محمد المعروف بالمسلوخ وارسله لحصار البريجة المسماة بالمدينة الجديدة التي بناها البرتقال فحاصرها ستين يوما ولم يتيسر له فتحها وفي سنة احدى وثمانين وتسعمائة توفي الغالب بالله بمراكش ومن مآثره بناء جامع الاشراف بمراكش والمارستان واوقف عليهما اوقافا عظيمة ولما توفي كان ولي عهده ولده محمد المتوكل على الله بفاس فارسلت البيعة له من مراكش واستمر امره منتظما الى اواخر سنة ثلاث وثمانين وتسعمائة وكان عمه عبد الملك واخوه احمد المنصور في سجلماسا ثائرا ايام ابيهما ولما تولى الغالب بالله فرّا الى تلمسان واستنصرابصاحبها حسن باشا ابن خير الدين وذهبا الى القسطنطينية وتوقعا على حضرة السلطان الغازي سليم خان بان ينجدهما بجيش يسترجعان به ما كان بيد ابيهما ثم توجه عبد الملك مع عمارة الدولة العلية الى تونس ورجع بعد فتحها الى القسطنطينية وطلب من حضرة السلطان سليم خان ما طلبه سابقا فاجاب طلبه وكتب الي والي الجزائر ان يعينه بما يحتاج اليه فاصحبه الوالي بجيش من الاتراك ولما وصل لاحواز فاس خرج المتوكل على الله لقتاله فبلغه وهو في القتال ان بعض جنده قد اسرّ على الغدر به فاوقد النار في خزائن البارود وفر من المعركة الى مراكش واستولى عبد الملك على فاس وطمحت نفسه الى اتباع ابن اخيه الى مراكش ولما عزم على المسير طلب الاتراك رجوعهم الى بلادهم فاعطاهم ما اتفق معهم عليه من المال وزادهم من التحف والطارف الغوال وودعهم بنفسه الى نهر سيبوا ثم نهض الى مراكش لمنازلة ابن اخيه ولما سمع المتوكل على الله بخروج عمه

اليه تهيأ لملاقاته والتقى الفريقان بخندق الريحان من احواز سلا فانهزم المتوكل وفر الى سوس ودخل عبد الملك الى مراكش ولم يزل المتوكل على الله يجول في جبال سوس الى ان اجتمعت عليه طائفة فجاء بها الى مراكش فخرج عبد الملك للقائه وخالفه المتوكل في طريقه ودخل مراكش باتفاق اهلها فرجع عبد الملك وحاصره بها وكتب الى اخيه احمد الخليفة بفاس ان ياتيه فاتاه بجيشه وفر المتوكل الى سوس فتبعه احمد المنصور ووقعت بينهما مواقع توالت الهزائم فيها على المتوكل وفر الى باديس ومنها الى سبتة ثم دخل طنجة مستصرخًا بحاكمها فاجابه بشرط ان تكون سائر السواحل للبرتقال وله ما وراء ذلك ثم خرج قائد البرتقال بمائة وعشرين الف مقاتل وكان مع المتوكل ثلاثمائة من اصحابه ولم يزالوا سائرين الى ان عبروا وادي المخازن فزحف عليهم السلطان عبد الملك بجيوش المسلمين وامر بهدم القنطرة ليقطع عليهم خط الرجعة ولما التقى الجيشان واشتد الحرب توفى السلطان عبد الملك عند الصدمة الاولى وكان مريضًا يقاد به في محفة ولم يطلع على وفاته الا حاجبه وقائد المحفة فصاروا يقدمون المحفة امام الجيش ويقولون للجند ان السلطان يامركم بالتقدم اليهم الى ان منح الله المسلمين النصر وركبوا على اكتاف العدو يقتلون ويأسرون وقتل قائد البرتقال غريقًا في الوادي وبحث عن المتوكل فوجد غريقًا ايضًا فاخرجوه وسلخ وحشى جلده تبنًا وطيف به في مراكش وغيرها وهذه الوقعة من اعظم الوقائع دامت خمسة واربعين ساعة وكانت سنة ست وثمانين وتسعمائة ثم بويع لاخيه ابي العباس احمد المنصور بالله المعروف بالذهبي ولما تم له الامر كتب البشائر الى حضرة السلطان مرادخان بما حباهم الله من النصر فوردت عليه الوفود والهدايا من حضرة السلطان مرادخان ومن حاكم الجزائر وملك البرتقال والاسبانيول وعقد العهد لابنه محمد الشيخ الملقب بالمأمون ثم سار عليه ابن اخيه داود بن عبد المؤمن في جبل سكسيوه ودعا لنفسه فبعث اليه المنصور جيشًا فقاتله الى ان فر واستقر عند عرب الودايا الى ان مات واستولى المنصور على صحراء توات والسودان وبايعه صاحب برنو وفتح مدينة كاغو وقتل سلطانها اسحاق ثم سار الناصر بن الغالب بالله ببلاد الريف فاقلق المنصور جنده وبعث اليه جيشًا وافرًا فهزمه الناصر واستفحل امره فامر المنصور ولي عهده المأمون بمنازلته فخرج اليه من فاس وكانت الدبرة على الناصر فقبض عليه واحتز راسه وبعث به الى مراكش ثم ثار المأمون على ابيه بفاس فنصحه والده ولما اصرّ ولم يقبل النصيحة خرج اليه والده من مراكش في اثني عشر الف مقاتل قاصدًا

فاس ولما بلغ المامون ذلك فر الى فشتالة فقبض عليه وارسل الى المنصور فبعثه الى مكناسة وسجن بها وفي سنة اثنتي عشر والف توفي المنصور بالوباء في فاس ومن مآثره بناء القصر البديع بمراكش وحصن ثغر العرايش ومعامل السكر واعتنائه بالمولد النبوي والاعياد وكان حسن السياسة حازمًا مشاورًا في المهمات وكان يكاتب اولاده وعماله بكتابة مخصوصة وتعرف الآن بالشفره وكان موادعًا لسلاطين بني عثمان يهاديهم ويهادونه وكتب اليه حضرة السلطان مرادخان لك على العهد ان لا امدّ يدي اليك الا للمصالحة وان خاطري لا ينوي لك الا الخير والمسامحة وبعد دفنه بايع اهل فاس ولده ابا المعالي زيدان وبايع اهل مراكش اخاه ابا فارس ولما بلغ زيدان ذلك خرج من فاس لقتال اخيه فانتحل له اخوه مكيدة عادت عليه وهي اطلاق اخيه المامون من السجن وارساله في جيش كثيف لاقاته ولما التقى الجيشان بجواتة فر عن زيدان اكثر جيشه فارتد الى فاس وتحصن بها ولما وصلها المأمون فرح به اهلها وبايعوه وفر زيدان الى تلمسان مستصرخًا بحاكم الجزائر ولما استقل المأمون بفاس جهز جيشًا لقتال اخيه ابي فارس تحت راية ولده عبدالله ووقعت الهزيمة على ابي فارس فنجا بنفسه ودخل عبدالله مراكش واباحها واستقربها وساءت سيرته ولما قطع زيدان الامل من امداد حاكم الجزائر رجع الى سوس فكاتبه اهل مراكش ولما حضر اليها فرعبدالله الى ابيه في اسوء حال فجهز له ابوه جيشًا وارجعه الى مراكش والتقى الجمعان براس العين وكانت الهزيمة علي زيدان ففر ودخل عبدالله مراكش ثم سار ابو حسون محمد بن عبد المؤمن من اولاد ابي العباس الاعرج وخرج من جبل جليز قاصدًا مراكش فخرج اليه عبدالله وكانت الهزيمة عليه ودخلها ابو حسون واستولى عليها ثم كتب اهل مراكش الى السلطان زيدان فنزل بجيشه خارج المدينة وخرج ابو حسون الى لقائه فكانت الدبرة عليه واستولى زيدان على مراكش وارسل قائد جيشه مصطفى باشا الى فاس فدخلت في طاعته وفر عبدالله الى القسطنطينية مستصرخًا ولما دخل زيدان الى فاس واستقام بها بلغه قيام بعض الثوار في ناحية مراكش فنهض اليها ثم بلغه قتل مصطفى باشا فرجع الى فاس واستولى الاسبانيول على العرايش بدسيسة عبدالله ثم فتك ابو الليف بعبدالله وقتله مع بعض اولاده ثم ثار الفقيه احمد بن عبدالله السجلماسي المعروف بابي محلّي واستولى على سجلماسا ودرعة ومراكش وكثرت جموعه ولما علم زيدان ضعفه عن مقاومته استغاث بالفقيه زكريا الحاجي صاحب جبل درن فلباه وخرج بجيوشه سنة اثنين وعشرين والف قاصدًا مراكش فبرز اليه ابو محلّي ولما

النجم القتال قتل ابو حلي وعلق راسه على سور مراكش ثم ارتحل زكريا الى بلاده مظهراً العفة عن الملك بعد ان استقر بمراكش اياماً واتصلت بينه وبين زيدان المراسلات الى ان مات زيدان بمراكش سنة سبع وثلاثين والف وبويع لابنه عبد الملك فثار عليه اخوه الوليد واحمد ووقعت بينه وبينهما حروب انجحت هزيمتهما ودخل فاس بسمة السلطان وضرب السكة باسمه ثم عدا عليه ابن عمه محمد بن الشيخ المعروف بزغودة وقتله غدراً وبويع لاخيه الوليد ولم يتجاوز سلطانه مراكش واعمالها على ما كان لاخيه وابيه وفي زمنه ظهر ابو عبد الله العياشي بسلا واستولى على فاس وسائر ثغور المغرب وظهر ابو حسون السملالي المعروف بابي دميعه بسوس واستولى على درعة وسجلماسا وكان الوليد يتظاهر بالديانة ولين الجانب غير انه كان يقتل الاشراف من اخوته وبني عمه وفي سنة خمس واربعين والف عدا عليه بعض جنده وقتله غدراً وبويع لاخيه محمد الشيخ وكان في سجن الوليد فسار سيرة حميدة وثار عليه رجل من هشنوكة ولم يزل يناوشه القتال حتى فرق جمعه ثم ظهر اهل زاوية الدلاء بجبال تادلا وقويت شوكتهم ولما احس محمد الشيخ بالضعف من مقاومتهم ارسل الي قاضيه الفقيه محمد الزوار المراكشي ان يطلب منهم اجتماع الكلمة فلم يلتفتوا اليه فصرف عنانه عن مقاومتهم ومال الى مسالمتهم وبقي بمراكش الى ان قتل ثم بويع ابنه ابو العباس احمد فقام مقام ابيه في جميع ما كان بيده وقويت في ايامه شوكة اخواله وهم حي من الشبانات فوثبوا عليه وحاصروه بمراكش ولما رات والدته ان الامر لا يزداد الا شدة اشارت عليه بالذهاب الى اخواله وازالة ما في نفوسهم ولما وصل اليهم قتلوه غيلة ودخلوا مراكش وبايعوا فيها لاميرهم عبد الكريم بن ابي بكر سنة تسع وستين والف وبابي العباس ختمت دولة السعديين والبقاء لله وحده

﴿ ذكر امارة الشبانات من عرب المعقل ﴾

اولهم الرئيس عبد الكريم المعروف عند العامة بكروم الحاج ابن القائد ابي بكر الشباني بويع له بعد قتل ابي العباس السعدي وسار في الناس سيرة حميدة فانتظمت مملكة مراكش ونواحيها ثم انتقضت عليه اسفي واعمالها نغزاهم ورجع مغلولاً الى مراكش فسطا عليه بعض جنده وقتله وبويع لولده ابي بكر واستمرّ بها الى ان بويع المولى رشيد السجلماسي فاخذ منه مراكش وقبض عليه واتبع عشيرته بالقتل حتى افناها واخرج عبد الكريم سنة تسع وسبعين والف واحرقه وانقرضت امارة الشبانات والملك لله وحده

ذكر دولة السجلماسيين

اصلهم من ينبع النخل دخل المغرب جدهم الاعلا حسن بن قاسم في القرن السابع واستوطن سجلماسا وتوفي عن ولده محمد وتوفي محمد عن حسن وتوفي حسن عن عبد الرحمن وعلي وتوفي علي عن خمسة اولاد منهم علي وتوفي علي عن ثلاثة اولاد منهم محمد وتوفي محمد عن علي الشريف وفي سنة خمسين والف هجرية بايع اهل سجلماسا محمد ابن علي الشريف المذكور في حياة والده وهو اول من بويع له منهم ولم يزل ملك المغرب الاقصى بايدي اعقابه يتوارثونه الى زمننا هذا والسلطان فيه سنة الف وثلاثمائة وخمسة عشر عبد العزيز

ذكر دولة بني زيان وهم بنو عبد الواد

ويجمعهم مع بني مرين اصل واحد ولم تزل الحرب بينهم قائمة على ساق منذ كانوا في القفر واستمروا على ذلك بعد دخولهم الى تلول المغرب وكان اميرهم لاول خروجهم عن طاعة الموحدين ابا عزه زكراز بن زيان بن ثابت ولما مات تولى بعده اخوه ابو يحيى يغمراسن فاستمر على ما كان عليه اخوه وقومه من الخروج عن الدولة ثم تغلب على تلمسان والمغرب الاوسط وانتزعها من يد بني عبد المؤمن وحسن السيرة واستمال عشيرته واخلافهم عن عرب زغبه بحسن السياسة والاصطناع واتخذ آلة الملك وجند الاجناد ومحي آثار الدولة المؤمنية ولم يترك من رسومها الا الدعاء على المنبر للسلطان بمراكش وتقليد العهد من يده وكانت له مع ملوك الموحدين ومن يليهم من آل حفص ملوك افريقية مواطن في التحرش به ومنازلة بلده وحروب دائمة وبالجملة فقد كان يغمراسن هذا صاحب سياسة عجيبة وقوة دهاء وهو اول ملوك بني زيان قال ابن الخطيب

اول ملاك لهم يغمور * ليث الشرى والبطل المشهور
تثني عليه حومة الميدان * ما لامرء ببأسه يدان
لاقى الجيوش من بني مرين * كالليث يحمي جانب العرين

ولما تم له ملك المغرب الاوسط اثار ما كان بين قومه بني زيان وبين بني مرين من العداوة القديمة فاضرم نار الحرب وركب اخطارها واشد ما كان بينهم في ايام السلطان يعقوب بن عبد الحق المريني واشهر وقائعه وقعة وادي تلاغ سنة ست وستين وستمائة ثم وقعة يسلي قرب وجده ثم وقعة خرزوزه ثم وقعة وادي تافناو تاسولت

وكانت الدبرة في جميعها على يغمراسن ونازله يعقوب في دار ملكه تلمسان مرات فامتنع عليه بالاسوار ثم قتل يغمراسن سنة احدى وثمانين وستمائة وبويع ولده عثمان ولي عهده ثم توفي السلطان يعقوب بن عبد الحق سنة خمس وثمانين وقام بالامر ابنه يوسف بن يعقوب وطالب عثمان بن يغمراسن في ابن عطو فابى عثمان ان يسلمه فتحركت حفيظة يوسف وعزم على غزوهم فارتحل من مراكش الى فاس ثم نهض منها حتى نزل تلمسان فانحصر عثمان وقومه داخلها ولاذوا بالاسوار فاقلع عنها وسار في نواحيها يخرب العمران ثم عاودها سنة سبع وتسعين واحاط بها ثم افرج عنها لثلاثة اشهر ومر سيف دريقه بوجده وقد اخربها بنو زيان فامر بتجديد بنائها واستعمل اخاه ابا يحيى بن يعقوب عليها ولحق بالمغرب الاقصى وجمع شأنه ثم عاود منازلة تلمسان سنة ثمان وتسعين واحاط بها من جميع جهاتها واختط لنفسه الى جانب الاسوار بلدة سماها المنصورة واقام سنين يغاديها ويراوحها بالقتال وسرح عسكره لافتتاح المغرب الاوسط فملك بلاد مغراوه ونواحي شلف وتاهرت ثم نيم بكنانه محاصرًا لتلمسان ومات عثمان سلطان بني زيان سنة ثلاث وسبعمائة وقام بالامر بعده ابنه ابوزيان محمد وبلغ الخبر الى يوسف ابن يعقوب فتفجع له وعجب من صرامة بني زيان من بعده ومات ابوزيان اثناء الحصار وقام بالامر بعده اخوه ابو حمو موسى بن عثمان واستمر حصاره اياهم ثمان سنين وثلاثة اشهر ولحقهم فيها جهد شديد حتى اكلوا اشلاء الموتى وهلكت اموالهم وضاقت احوالهم واستفحل ملك يوسف بن يعقوب حتى ادركه اجله على يد خصي من خدمانه وكان قتله فرجًا عظيمًا على ابي حمو ووقع الفشل في عسكر بني مرين لما قتل سلطانهم واختلفت كلمتهم وا تحلوا عن تلمسان راجعين الى المغرب الاقصى واقبل ابو حمو على لم شعثه وكان يقوم بحق ليلة مولد المصطفى صلى الله عليه وسلم ويحتفل لها بما هو فوق سائر المواسم يقيم مدعاة بشوره من تلمسان يحشر لها الاشراف والسوقة فما شئت من نمارق مصفوفة وزرابي مبثوثة وبسط موشاة ووسائد بالذهب مغشاة وشمع كالاسطوانات ومباخر منصوبة كالقباب يخالها الناظر تبرًا مذابًا واعيان الحضرة على مراتبهم وقد علت الجميع ابهة الوقار والاجلال تطوف عليهم ولدان قد لبسوا اقبية الخز الملون وبايديهم مباخر ومرشات ينال كل منها بحظه وخزانات بها الساعات ذات تماثيل لجين محكمات الصنعة باعلاها ايكة تحمل طائرًا فرخاه تحت جناحيه ويختله فيها ارقم خارج من كوة بجذر الايكة صاعدًا وبصدرها ابواب بعدد ساعات الليل الزمانية يصاقب طرفيها بابان كبيران وفوق جميعها قرب

راس الخزانة قمر تام يسير علي خط الاستوآء سير نظيره في الفلك ويسامت اول باب كل ساعة بابها المرتج فينقض من البابين الكبيرين عقابان في يد كل واحد منهما صنجة صفر يلقيها الى طست من الصفر تجوف بوسطه ثقب يفضي بها الى داخل الخزانة فيرن وينهش الارقم احد الفرخين فيصفر له ابوه وهناك يفتح باب الساعة الذاهبة وتبرز منه جارية محتزمة كاظرف ما انت راء بيمناها ورقة فيها اسم ساعتها منظومًا ويسراها موضوعة على فيها والمسمع قائم ينشد امداح سيد المرسلين وخاتم النبيين صلى الله عليه وسلم ثم يؤتى آخر الليل بموائد كالهالات دورًا والرياض نورًا اشتملت من انواع المطاعم على الوان تشتهيها الانفس وتستحسنها الاعين وتستلذ بسماع اسمائها الآذان ويسر مبصرها للقرب منها والتناول وان لم يكن جيعان والسلطان لم يفارق مجلسه الذي ابتدأ جلوسه فيه يرى ذلك ويستمعه الى ان يصلي صلاة الصبح هناك وعلى هذا تمضي ليلة المولد الشريف في جميع ايام دولته الى ان عدا عليه ابنه تاشفين نقتله واستقام له الامر وشيد القصور والمصانع والمنتزهات وساعده الوقت بمسالمة بني مرين ثم طمحت نفسه الى تملك افريقية فخرج اليها من تلمسان بجيوشه ودخل تونس فاستغاث اهلها بسلطان المغرب ابي حسن المريني فراسله في الاقلاع عنها فلم يرجع وتمادى على شأنه فاستشاط السلطان غيظًا وامر بجمع الجيوش وخرج من فاس قاصدًا تلمسان فطار الخبر الى تاشفين وهو بتونس فاسرع السير الى دار ملكه وسار السلطان بعساكره الى ان وصل اليها واحاط بها فركب عليها المنجنيق من كل جهة واقام محاصرًا لها ثلاث سنين واثر المنجنيق فيما حواه السور من القباب والقصور ثم دخلها عنوة وقتل تاشفين وولده بازاء القصر واستولى ابو الحسن على تلمسان بما اشتملت عليه وانتقض امر بني زيان وعقد لابنه ابي عنان على تلمسان واقبل على فتح البلاد فدخل افريقية وامعن في نواحيها وحاصره العرب في القيروان فلما بلغ ذلك ولده ارتحل من تلمسان الى فاس ودعا لنفسه فاستقام له الامر ورجع بنو زيان الى دار ملكهم تلمسان واقرهم السلطان ابو عنان على ذلك واتخذهم سدًا بينه وبين ابيه ولما تخلص السلطان ابو الحسن ولحق بالجزائر ناهزوه القتال واوقعوا به في نواحي مليانه ففر الى جبال المصامده فتشاغل ابو عنان عنهم بما دهمه من جواز ابيه وبعد ان مات ابوه وخلص له الامر خرج اليهم بجيوشه فاوقعوا به ثم كانت الكرة عليهم فقتل اميرهم وتفرق عسكرهم واستولى ابو عنان على تلمسان وولى بعده ولده السعيد فاضطرب امر بني مرين وتراجع الزيانيون الى وطنهم وقام بامرهم

ابو حمو الثاني موسى بن يوسف بن عبد الرحمن بن يحيي بن يغمراسن فتحرك اليهم ابو سالم ابراهيم بن علي الذي آل اليه امر بني مرين من فاس بجيوشه فخرجوا من تلمسان واتحروا ولم يركنوا الى ما ركن اليه اسلافهم من الانحصار داخل السور فسار ابو سالم الى ان خيم بساحة تلمسان وعاث في نواحيها ثم انكفأ راجعًا الى المغرب ورجع ابو حمو بقومه الى كرسي مملكتهم وكفاهم الله امر بني مرين باختلاف الكلمة وانتزاء الثوار على الاعمال وفي سنة خمس عشرة وتسعمائة استولى الاسبانيول على وهران وعلى بجاية وذلك في ايام ابي محمد عبدالله وفي سنة ست عشرة وتسعمائة استولوا على الجزائر وبنوا فيها حصنهم المشهور ببرج النار وقوى امرهم على المسلمين واشتهر امر باربروس الاول واسمه عروج باسطوله في سواحل افريقية والجزائر واخذ امر بني زيان يتلاشى الى ان انقرضت دولتهم من المغرب الاوسط واستولت الدولة العثمانية على الضواحي والاسبانيول على السواكل وسنفصل ذلك في اخبار الدولة العثمانية انشاء الله تعالى والى الله عاقبة الامور

﴿ ذكر دولة الحفصيين امراء تونس ﴾

اول من وليها منهم ابو محمد عبد الواحد بن ابى بكر ابن الشيخ ابي حفص ابن عمر بن يحيى الهنتاني احد اصحاب المهدي بن تومرت رئيس الموحدين ومنتاته وقد اوصل نسبه ابن نخيل الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه وذكر ابن سابقة ابن سليمان نسابة البربر انه من ولد صنهاج بن عسال البربري وكانت ولايته على تونس من قبل محمد الناصر بن يعقوب المنصور سنة ثلاث وستمائة قال ابن الخطيب

اول هذا البيت عبد الواحد * وفضله ليس له من جاحد
قدمه الناصر فيها آمرًا * ثم علا وصار ملكاً قاهرًا
وكان حازمًا شديد اليقظه * لايهمل التافه الا لحظه
ونال ابكار المنى وعونه * لكنه لم يستبد دونه

ومات سنة ثمان عشرة وستمائة فتولى مكانه العلاء من بني عبد المؤمن وعادت بعد وفاته الى بني حفص وقويت شوكتهم في ايام ابي زكريا ابن ابي محمد عبد الواحد بن ابي حفص وهو الذي اسقط اسم عبد المؤمن من الخطبة وابقى اسم المهدي واستبد بملك افريقية وخطب لنفسه وتلقب بالامير المرتضى واتسع نطاق ملكه فتغلب على تلمسان

وكافة المغرب الاوسط وبلاد الجريد والزاب وانشأ في تونس الابنية العظيمة ثم توفي في ساحة بونة سنة سبع واربعين وستمائة وتولى ابنه ابو عبد الله محمد بن ابي زكريا فقام عليه عمه ابو ابراهيم اسحاق وسعى في خلعه وبايع لاخيه محمد اللحياني على كره منه فجمع ابو عبد الله محمد بن ابي زكريا اصحابه يوم خلعه وشد على عميه ابي ابراهيم ومحمد اللحياني وقتلهما واستقر في ملكه وتلقب بالمستنصر بالله امير المؤمنين وخطب لنفسه وفي سنة ثمان وستين وستمائة رحل الملك افرنسيس ملك فرنسا الى افريقية بجموعه فعاجله الموت وتفرقت جيوشه واستمرت دولة الحفصيين مع بني زيان وبني مرين والدولة العلية والافرنج تارة لها وتارة عليها ثم انقرضت دولة الحفصيين على عهد ابي محمد الحسن المتولي سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة وهو آخر ملوكهم وسياتي الكلام على بعض وقائعهم مع الاسبانيول والدولة العلية وما آل اليه امرهم والى الله ترجع الامور

﴿ ذكر الدولة العلية في المغرب الاوسط وافريقية ﴾

اول من اسس امر الدولة في الجزائر رجل من قرية آجى آباد انتقل الى جزيرة متلين المعروفة لهذا العهد بالمدلى واسمه عروج بن يعقوب ولقبه بار بروس الاول اي صاحب اللحية الشقراء وبه اشتهر وكان ابوه فاخوريًا وفي ايام ساكن الجنان حضرة السلطان الغازي محمد خان الثاني صار جنديًا فنشا عروج نوتيًا في مراكب الجزيرة ثم اتخذ لنفسه قرصانًا واستكمل تعبيته واخذ يغزو ثغور الافرنج ويتوغل في سواحلهم ويرصد مراكبهم ويرجع بالغنائم فشاع ذكره واشتهر امره وفي بعض غزواته اخذ اسيرًا وقتل اخوه الياس ثم تفلت من اسره ولحق ببلاده ثم اتصل بخدمة قائد مراكب الدولة الامير نور قندا بن السلطان الغازي بايزيد خان فاستعمله مستشارًا له وكان ميمون النقيبة لا يؤم بلدة من بلاد العدو الا فتحها ولا صادف مركبًا الا غنمه او اتلفه ولما مات السلطان الغازي بايزيد خان وتولى ولده السلطان الغازي سليم ياووز خان سنة ثمان عشرة وتسعمائة سافر باربروس في قرصانه ولحق بجربة من اساكل افريقية فحط اثقاله فيها واقلع غازيًا سواحل الافرنج نغنم ورجع قاصدًا تونس وسلطانها يومئذ ابو عبدالله محمد بن الحسن الحفصي فاهداه باربروس جميع ما غنمه في غزوته واستاذنه في الاقامة ببلاده فاذن له على ان يدفع له خمس ما يقع في يده من المغانم فقبل ثم توجه الى جربه فوجد اخاه خير الدين فيها لاحقًا به فحمل اثقاله وقفل الى تونس واستمر على غزواته فبعد صيته

واشتدت على الافرنج سطوته وكان الاسبانيول مستوليًا على بجاية فغزاهم من تونس وغنم مركبين فارسلهما مع خير الدين الى تونس ونزل باربروس بجيشه الى البر وزحف بهم على المدينة فبرز اهلها لمدافعته واشتد القتال بينهم فتقهقر جيش باربروس وقفل الى تونس فاقام بها وبعث خير الدين في الاسطول الى الاندلس وكان ملك الاسبانيول قد اذن للمسلمين بالمهاجرة فاقام خير الدين فيها ثلاثة اشهر يحمل المهاجرين الى اسا كل المغرب ثم انكفا راجعًا الى تونس وكان عروج قد برىء من جراحه وانشا فيها عدة مراكب حربية واستكمل عدتها ثم اقلع من تونس وارسى على جيجل وكان اهل جينوا من ايتاليا قد استولوا عليها فاذاقهم نكال الحرب برًّا وبحرًا واستولى عليها ثم ان سالم بن تومي رئيس بني مزغنه اهل مدينة الجزائر كتب اليه يستنجده على الاسبانيول الواضعين يدهم على قلعة بتيون خارج المدينة فاجابه الى ذلك وجهز جيشًا من الاتراك والبربر واكمل عدتها وقبل ان يبارح جيجل ارسل الى اخيه خير الدين بتونس يخبره بعزمه ويامره بجمع كافة الاتراك المقيمين في تونس ويلحقه بهم الى الجزائر ثم اقلع من جيجل في المراكب وسار قاصدًا الجزائر فمال في طريقه الى اسكلة شرشال واستولى عليها ثم جاء الى الجزائر فتلقاه سالم بن تومي واعيان البلدة واقام نحو العشرين يومًا محاصرًا قلعة بتيون وبعد وصول خير الدين بجنده استولى على القلعة وتم له فتح الجزائر وبذلك اظلم الجوّ بينه وبين سالم بن تومي فقبض عليه وقتله وطير خبر الفتح الى حضرة السلطان الغازي سليم ياووزخان وكان وقتئذٍ في مصر فسر بذلك وبعث اليه بالخلعة ومنشور التولية على الجزائر وبلادها والتجا ابو حمو صاحب تلمسان الى اسبانيا فجهزوا الجنود وزحفوا الى عروج والتقى الفريقان بحسن داي اسم موضع قريب من الجزائر واشتعلت بينهما نار الحرب وكانت الدبرة على جيوش اسبانيا فانهزموا وتركوا في ميدان القتال ثلاثة آلاف قتيل فقوى عزم عروج ودانت له قبائل متيجه وجبال البربر القريبة من الجزائر بالطاعة ثم سار بجيشه من الجزائر قاصدًا تلمسان وفي طريقه استولى على اسكلة تنس وخيم في ساحة تلمسان فخرج اليه ابو حمو ودارت بينهما رحى الحرب فانكسر عسكر تلمسان وفر ابو حمو الى ملك اسبانيا يستغيث به واما عروج فانه ولى على تلمسان ابازيان مسعودا اخا ابي حمو واقام يتنقل في نواحي المغرب الاوسط ثم ان ملك اسبانيا انجد ابا حمو بالعساكر والذخائر وامر حاكم وهران المركيز غومارس بالمسير الى تلمسان واخراج عروج منها وطار الخبر الى عروج فقتل ابا زيان وبني عمه ودخل قلعة المشور وتحصن فيها فحاصره حاكم وهران

ستة وعشرين يوماً ثم تمكن عروج من الخروج من القلعة باموالهِ واتباعهِ فاتبعته الجيوش الى الوادي المالح قرب نهر شكنف ووقع المصاف بينه وبينهم فقتلوه واستولوا على امواله واستأصلوا جميع ما كان معه من جنده ولما بلغ خبر عروج الى اخيه خير الدين في الجزائر انحلت عرى عزمه وازمع على ترك الجزائر والرجوع الى الغزو في القرصان وبينما هو يستعد لذلك اذ ورد على الجزائر جند من الانكشارية بعثهم السلطان الغازي سليم ياووز خان نجدة لعروج فلما رآهم خير الدين رجع عما عزم عليه واستعد الاخذ بثار اخيه من اعدائه ولما بلغ ملك اسبانيا انتصار جيشه وقتل عروج ومن معه طمع في الاستيلاء على الجزائر فجهز اساطيله وشحنها بالجيوش والذخائر وسيرها للجزائر تحت نظر الجنرال بسوادي مونغا وعند وصوله كتب الى خير الدين الملقب بباربروس الثاني يتهدده ويذكره بما وقع باخويه ويدعوه الى تسليم البلد او الحرب فاجابه الى الحرب وبعد ايام نزل بجيوشه الى البر وخيم بالقرب من وادي الحرَّاش على مسافة ساعة ونصف من البلد فخرج خير الدين بجنوده واوقع به واستولى المسلمون على المعسكر واستلحموه وحدث في البحر زوبعة شديدة فشتتت شمل المراكب وغرق اكثرها فاخذ خير الدين بثار اخويه وشفى نفسه من عدوه وطارت البشائر الى الدولة العلية بهذا الانتصار وجاءت التهاني الى خير الدين من لدن السلطان واعيان الدولة مع فرمان امارة الجزائر واستفحل امره في المغرب الاوسط واهتزت له اركان دولة بني زيان بتلمسان ودولة بني حفص في تونس فاوعز ابو عبدالله الحفصي الى صاحب تلمسان بالتظاهر على خير الدين وكان خير الدين لما تم له الاستيلاء على جبال زواوه وصنهاجة وسهول متيجه فوض امرها الى احمد ابن القاضي الصنهاجي لشهرته وقوة عصبته وسماه خليفة الشرق فرأى صاحب تونس انه لا يتم له ما اراده الاَّ بمداخلة ابن القاضي فاتخذ الوسائل في استمالته اليه والخروج من طاعة خير الدين واشترط له المقاسمة في الجيش والذخيرة على حربه فارتاح ابن القاضي لذلك واسرها في نفسه واقام يترصد الفرصة واقبل صاحب تلمسان بحشوده الى الجزائر فتلقاه خير الدين بجنوده واتصلت الحرب بينهما اياماً ثم كانت الدبرة فيها على صاحب تلمسان فانهزمت جموعه وتاخر صاحب وهران عن اغاثة حليفه ثم توغلت جيوش خير الدين في الجهة الغربية وزحف اليها ابو محمد الزياني مرتين فانهزم واشتدت شوكة خير الدين وتلاشى امر بني زيان وكان ابو محمد اشخص اخاه مسعوداً الى المغرب الاقصى ثم بدا له في رجوعه واستدعاه فعدل مسعود عن تلمسان ولحق بالجزائر صريخاً بخير الدين واشترط

له الطاعة ومالاً يحمله اليه كل سنة والخطبة للسلطان الغازي سليم ياووزخان فاجابه الى ذلك وامدّه بالجيش والذخيرة واوعز الى رؤساء البربر في تلك الجهة بظاهرته فرحف مسعود بعساكره الى تلمسان فدخلها وفر اخوه الى وهران واستقر الامر لمسعود في تلمسان ورجع جيش خير الدين الى الجزائر ثم ان مسعوداً خرج عن طاعة خير الدين فبعث اليه خير الدين يدعوه الى الوفاء فاستنكف واساء الخطاب فتجهز اليه خير الدين براً وبحراً وسار في مراكبه الى مستغانم فدخلها من غير مقاومة وجاءه ابو محمد من وهران نازعاً اليه معتذراً عما سلف منه في حادثة عروج وجنده فعفا عنه واذن له في الاقامة عنده ورحلت العساكر البرية الى قلعة بني راشد وفيها حامية لمسعود ففرّت منها ودخلتها العساكر الجزائرية ثم ان ابا محمد طلب الرجوع واشترط لخير الدين ما اشترطه مسعود فاجابه خير الدين وسيره في العساكر الى تلمسان فلقيهم مسعود بجموعه فوقعت الهزيمة في جيشه وسار ابو محمد في اثرهم حتى شارف تلمسان ودسّ لاشياعه فيها ففتحوا له الابواب ودخلها وفرّ مسعود منها واستقر ابو محمد في دار ملكه وكان ابن القاضي الصنهاجي انتهز الفرصة في غيبة خير الدين ودعا الناس لبيعته فقام بنصرته قومه من صنهاجة وغيرهم من البربر وزناتة فاطلق فيهم الاموال وخاطب صاحب تونس الحفصي في انجاز وعده فامده بالرجال والاموال وقفل خير الدين الى الجزائر وقد قوي امر ابن القاضي فسير الجيوش لحربه فانتصر ابن القاضي عليها وردّها على اعقابها ثم آل الامر الى المصالحة ورجع ابن القاضي الى ما كان عليه من الطاعة والولاية اربعة اشهر ثم نقض العهد واشهر الحرب فعقد خير الدين لقائد جيشه قره حسن على حربه فنهض اليه من الحضرة ووقع الرعب في قلوب البربر ولاذوا بالطاعة وانفرد ابن القاضي في قومه ثم خاطب قره حسن في الخروج عن طاعة خير الدين واشترط له المقاسمة في العمل والرعية فمال اليه قره حسن والتحم معه وعززهما الحفصي صاحب تونس بجيشه ودسوا الى اهل الجزائر في القبض على خير الدين وضمنوا لهم جميل النظر فاجابوهم الى ذلك واتصل الخبر بخير الدين فوجم لها وقبض على الاعيان وقتل من ثبتت مداخلته وثار مسعود على اخيه صاحب تلمسان فاستغاث بخير الدين فامده في الجيش والذخيرة وانجلت الفتنة بالقبض على مسعود ولما رأى خير الدين اختلال الاحوال وكثرة الثوار داخل الجزائر وخارجها اجمع على الرحيل منها والعود الى الغزو على ثغور الافرنج فاستخلف مستشاره حسن آغا على الجزائر وما يليها وفوض اليه امورها ثم سار باهله واتباعه ومن اختاره من الجنود البحرية الى جيجل فانزل

بها اهله واقبل على الغزو فتزلزلت اقطار الافرنج منه وتناذروا به من عواقبهم وزحف ابن القاضي الى الجزائر بجنوده فدخلها وتمكن من الاستيلاء عليها ولحق حسن آغا بخير الدين ثم انتقض صاحب تلمسان ونبذ الطاعة وخطب لنفسه واستمر خير الدين على غرواته ثلاث سنين واتفق انه اغزى بعض قواده في القرصان الى الثغور الافرنجية فالجأته الرياح الى الجزائر فمنعه ابن القاضي من دخول المرفأ فرجع الى خير الدين واطلعه على ما كان من ابن القاضي فعظم عليه ذلك وحركه الى العود الى دار امارته واستدعى انصاره من كل ناحية وسيرهم في البروسار في مراكبه بحرًا واستعد ابن القاضي لحربه واقتتلوا برًا وبحرًا وفي اثناء الحصار عدا على ابن القاضي بعض اتباعه فقتله وتقدم خير الدين الى الجزائر فدخلها واعظم النكاية في اتباع ابن القاضي وكان قره حسن عندما استولى ابن القاضي على الجزائر عدل عنه الى شرشال ودعا لنفسه فنهض اليه خير الدين بعد فراغه من ابن القاضي ففرق جموعه ثم قبض عليه وقتله وسكنت عواصف ابن القاضي وبقي اولاده في الجزائر على اسوء حال وله عقب فيها لهذا العهد ولما تمهدت البلاد لخير الدين اقبلت عليه الوفود من آفاق المغرب الاوسط ونواحيه يطلبون العفو فعفا عنهم واذعن له صاحب تلمسان فعفا عنه واقره على ما كان عليه من المشارطة ثم سار في المغرب الاوسط يتقرى مسالكه وشعوبه ويفرض المغارم على اهله وفرق فيهم العمال من قومه وشن الغارات على ظواعن زناتة والعرب واثخن فيهم حتى اذعنوا له وكان للاسبانيول حصن على جزيرة صغيرة تجاه الجزائر فلما فرغ من شواغل الداخلية اعتزم على تخريبه واتفق ان بعث ملك اسبانيا ثمانية مراكب مشحونة بالجنود والذخيرة مددًا للحامية فلما دنت من الحصن وتراءت لاهل الجزائر سار اليها قائد البحر وحال بينها وبين الحصن ثم غنمها وساقها بما فيها الى المرفأ وكان ذلك اليوم يومًا مشهورًا وبعد ايام نهض خير الدين الى ذلك الحصن واقتحمه بجيشه واثخن حاميته قتلاً واسرًا واستولى على مهماته وخربه وبنى باحجاره جسر باب الجزيرة احد ابواب الجزائر واتصل خبر الحصن والمراكب بكارلوس ملك اسبانيا فجهز اساطيله وجنوده لنظر القائد اندريه المشهور وامده ملك فرانسا بعشرين مركبًا وطار الخبر الى خير الدين فجهز قرقته وسار في البحر مترصدًا لاندريه في طريقه فلم يصادفه واستمر غازيًا على الثغور فاثخن فيها وخرب حصونًا كثيرة وامتلأت مراكبه وايدي جنوده من المغانم وانقلب راجعًا فبلغه ان اندريه محاصرًا لاسكلة شرشال فسار اليه على هيئته

فوجده اقلع عنها و بعد ان اراح بشرشال خرج منها غازياً على ثغور اسبانيا فظفر بعدة مراكب لهم ولدولة فرنسا وقفل الى الجزائر واستمر يغزو بلاد الافرنج ويعظم النكاية فيها الى ان استحضره السلطان الغازي سليم خان الى دار الخلافة فاستخلف مستشاره حسن آغا على الجزائر المرة الثانية وتوجه في اربعين مركباً ومرّ على سواحل ايطاليا وسردينيا وجينوا نعاث فيها واستمر في مروره يخرب الحصون ويستلب الاموال والانفس الى ان دخل العاصمة فاكرم السلطان نزله واكبر شانه وقلده وزارة البحر وكان وقتئذٍ اندريا دوريا الجينوي رئيساً على عمارة اسبانيا وكثيراً ما يجول في بحر الارخبيل فاخذ خير الدين يترصده ويذيقه نكال الحرب الى ان اعجزه ولحق بثغور اسبانيا وخلا البحر لخير الدين نقصد جزائر الموره ففتحها ورتب امورها ثم سار الى افريقية فارسى على بنزرت واستولى عليها ثم مد عينه لاخذ تونس فسار منها الى حلق الواد فامتلأت قلوب اهل الحضرة رعباً منه وفر صاحبها ابو محمد الحسن ولحق بالقيروان وندب الناس الى نصرته فخذلوه وبعث صريخه الى ملك اسبانيا فبادر الملك الى نصرته وجمع قوته وصدرت اوامر البابا من رومية الى كافة دول الافرنج يحثهم على اعانة ملك اسبانيا على شانه فامدوه بالمراكب والجنود والمهمات ثم سار الجمع في عمارة اسبانيا الى تونس وحاصروها اياماً ثم خرجوا الى البرّ وزحفوا اليها فلقيهم خير الدين بجنوده في خربة الكاخ خارج البلد واقتتلوا وكان في قلعة تونس ما يزيد على خمسة وعشرين الف اسير من الافرنج فانتهزوا الفرصة حين القتال وخرجوا من القلعة وحملوا على خير الدين من خلفه فاختل مصافه وانهزمت جيوشه ولحق خير الدين ببونه ثم بالجزائر واستولت جيوش الافرنج على تونس بما فيها واستباحوها ثلاثاً وقتلوا نحو ستين الف نفس صبراً وشنوا نفوسهم من المسلمين وجاء الحفصي من القيروان راجعاً الى دار ملكه تحت حماية دولة اسبانيا وفرضت عليه ضرائب متنوعة يؤديها اليها على رأس كل سنة واشترطت عليه اباحة السكنى للافرنج في تونس والتملك بها واتخاذ الكنائس والاديرة ثم رجعت الجيوش الى اوطانها وتمكن ابو محمد الحسن الحفصي من امره واقام على ذلك الى ان ثارت العامة ونقموا عليه وطيروا الخبر الى ولده ابي العباس احمد وكان والياً لابيه على بونه فاسرع السير الى تونس وفر والده الى القيروان فقبض عليه ابو الهول شيخ العرب فسمل عينيه واشخصه الى القيروان فاعتقل فيها الى ان مات واستقل ابنه احمد في الملك ولما رجع خير الدين الى الجزائر عقب انهزامه من تونس اخذ يتاهب لغزو اسبانيا فاعد المراكب واستكمل تعبيتها وانتقى

العساكر وسار غازياً ثغور اسبانيا صادف في طريقه عدة مراكب للافرنج فاستولى عليها واستاقها الى الجزائر ثم غزى بلد ماهوب من بلاد اسبانيا فدمر اهلها واضرمها ناراً وانكفا راجعاً ولم يزل يتابع غزو الثغور الافرنجية الى ان استدعاه السلطان الغازي سليمان خان الاول فاستخلف على الجزائر مستشاره حسن آغا المرة الثالثة وسار باهله الى الاستانة فاكرم السلطان وفادته وقلده وزارة البحر فجرى خير الدين على عادته في غزو ثغور العدو من الاستانة والرجوع اليها بالغنائم الكثيرة الى ان مات في قصره بظاهرها سنة خمس وخمسين وتسعمائة وقبره قرب مرسى بشكطاش مشهور واقر السلطان الغازي سليمان خان حسن آغا مستشار خير الدين على امارة الجزائر وارسل اليه الفرمان والخلعة وعلى قيادة البحر في الجزائر حسن بن خير الدين فاقتفى اثر والده في الشدة والحزم والاجلاب على الثغور الافرنجية وضايقهم حتى استخفوا امر والده وغزا جبل طارق واستباحه واستاق امواله ومراكبه ورجع الى الجزائر فتزلزلت بلاد اروبا وامتلات القلوب منه رعباً وايقنوا بخراب ثغورهم وجزائرهم فارسلوا صريخهم الى ملك اسبانيا كارلوس الخامس وكانت دول اروبا ترجع اليه في ازماتها فجهز كارلوس نحو خمسمائة مركب وشحنها بالعساكر والمهمات وسار بها الى الجزائر وعدل عن مرفاها الى فرضة واديالحراش وانزل جيوشه الى البر وابقى في المراكب معه من يقوم بها وعسكرت جنوده في القرب من محل سيدي يعقوب وكتب الى حسن باشا انا ملك اسبانيا الذي استولى على تونس واخرج منها خير الدين باربروس الثاني وتونس اعظم من الجزائر وخيرالدين اعظم منك فاجابه حسن باشا ان اسبانيا غزت الجزائر في مدة عروج باربروس الاول مرة وفي مدة خير الدين مرة ولم تحصل على طائل بل انتهبت اموالها وفنيت عساكرها وهذه المرة الثالثة كذلك ان شاءالله وفي اليوم الثاني من هذه المراسلة حدث نوء شديد براً وبحراً فلعبت الرياح بالمراكب والقت منها ما يزيد على مائة مركب الى البر فانقضت عليها حشود العرب والبربر وانتهبوا ما فيها واستاصلوا من لم يدركه الغرق وانتهز الفرصة والي الجزائر فخرج بجيشه وحمل على المعسكر فانهزم الافرنج وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون حتى اتوا على آخرهم ولحق كارلوس في عدد قليل من مراكبه ببلاده ورمى بتاجه الى الارض واقسم ان لا يضعه على راسه الا بعد استيلائه على الجزائر فلم يساعده القدر الالهي على ذلك وفي اثناء هذه الفتن انتقض اكثر قبائل البربر ونبذوا الطاعة ولما فرغ حسن باشا مما دهمه من امر اسبانيا وانتصر

على جيوشها وجه وجهته الى تدويخ البلاد وقطع شافة الثوار منها فتأهب لذلك ولم يزل يجول في الانحاء ويبث السرايا في الجهات الى ان دان الناس لطاعته واسترد مستغانم من يد صاحب تلمسان ووصلت جيوشه في الجهة الشرقية الى ما وراء بسكره والزيبان ثم رجع الى الجزائر وتوفي بها وتولى حسن بك ابن خير الدين وكان بنو وطاس بطن من بني مرين استولوا على المغرب الاقصى بعد بني عمهم عبد الحق واستفحل امرهم فيه فدعتهم نفوسهم الى الاستيلاء على تلمسان دار ملك بني زيان فنهضوا اليها من فاس في جموعهم سنة ثمان وستين وتسعمائة واستولوا عليها في فترة موت حسن باشا فلما افضى الامر الى حسن باشا ابن خير الدين استفرغ لقتالهم ونهض من الجزائر واتصل الخبر ببني وطاس فخرجوا من تلمسان وانقلبوا راجعين الى فاس واستمر حسن باشا سائرًا الى ان دخل تلمسان فاصلح شانها وولى عليها رجلاً من بني زيان اسمه حسن وقفل الى الجزائر ثم عزل وتولى اخوه صالح باشا ابن خير الدين فارتاح الناس الى توليته وكانت اسبانيا استولت على بجايه فابتدر صالح باشا اليها ونازلها برًا وبحرًا ثم اقتحمها بجيوشه واستاصلها ثم سار الى قسطنطينة فاستولى عليها واقتطعها ثم انقلب الى تلمسان وطرد منها حسن الزياني مع بقايا بني عمه فتفرقوا اوزاعًا في الجهات وانقراضهم تعالى وانتظم المغرب الاوسط كله لصالح باشا من حدود وجده من بلاد المغرب الاقصى الى الكاف من بلاد افريقية وبعد ان رجع الى الجزائر توفي وتولى اخوه حسن باشا ابن خير الدين مرة ثانية وفي ايامه خرج حاكم وهران بجنوده الى مستغانم وكان حسن باشا في تلك النواحي فتعرض له وانتشب الحرب بين الفريقين فانهزم جيش اسبانيا وقتل حاكمهم ثم ان الدولة العلية حملت اهل الجزائر على العمل بقوانينها وبما تعين عليها حاكمًا من قبلها وتمده بما يلزمه من الجنود والذخائر وعزلت حسن باشا ابن خير الدين وبعثت محمد باشا كرداوغلي ثم عزل محمد باشا وتولى علي باشا وكان اهل تونس سئموا من ملكهم ابي العباس احمد الحفصي ولحقهم الضجر من ظلمه فدس وزيره ابو الطيب الخضار الى علي باشا في النهوض الى تونس ووعده بتمهيد الطرق الموصلة الى الاستيلاء عليها فجهز علي باشا جيوشه واحتشد قبائل العرب والبربر من القاصية ونهض من الجزائر سنة سبع وسبعين وتسعمائة فالتقى الجمعان بباجه ووفى الخضار بوعده فخذل صاحبه والقى الرعب في قلوب عساكره فتفرقوا اشتاتًا وفر ابو العباس الى تونس ثم خرج باهله وامواله ولحق بالقيروان وتقدم علي باشا بجموعه الى

الحضرة فدخلها وقتل ابن الخضار وولى حيدر باشا على تونس وانقلب راجعاً الى الجزائر واستجاش ابو العباس بملك اسبانيا فاجابه واشترط عليه مقاسمة الملك فامتنع ابوالعباس من قبول هذا الشرط فركب البحر الى صقلية ولم يزل بها الى ان مات ثم قام اخوه محمد بن الحسن واثار الفتنة على حيدر باشا وبعث الى ملك اسبانيا بقبول ما اشترطه على اخيه فانجده الملك بعساكره وعند وصولها في المراكب الى حلق الواد فرّ حيدر باشا وحاميته من الاتراك ولحقوا بالقيروان وتقدم محمد بن الحسن الى عساكر اسبانيا فدخل بها الى تونس وعاثوا فيها واهانوا المساجد والمدارس واتخذوا جامع الزيتونة اصطبلاً لدوابهم وقاسمهم محمد بن الحسن البلاد والجباية وفي سنة احدى وثمانين وتسعمائة تولى رمضان باشا على الجزائر وفي سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة جهزت الدولة الوزير المشهور سنان باشا فسار في جيش كثيف لانقاذ تونس من يد اسبانيا واوعزت الى والي الجزائر ووالي طرابلس الغرب بمظاهرته فاستعد كل واحد منهما وسار من ولايته وخرج حيدر باشا من القيروان بحاميته ومن انقاد اليه من العرب والبربر وتكاملت الجيوش في خارج تونس واحاطوا بها من كل جانب فدخلها المسلمون عنوة واستأصلوا عساكر اسبانيا واسروا محمد بن الحسن ثم اشخصه سنان باشا الى الاستانة فاعتقل فيها الى ان مات وتم استيلاء الدولة العلية على افريقية وانقرضت دولة بني حفص منها بعد ان ملكوها ثلاثمائة ونيفاً واربعين سنة والبقاء لله تعالى وحده وثبتت قدم سنان باشا في تونس واستفحل امره وقطع دعوة بني حفص فيها واستلم الثوار ومن عهده صارت الولاة تختلف على تونس من قبل السلطنة السنية كاختلافهم على الجزائر ثم وقع النزاع بين حكومة الجزائر وحكومة تونس بعد استيلاء سنان باشا عليها في الحدود واستمر الى ان تولى حسن باشا على الجزائر سنة اثنتين وعشرين والف فاتفق مع يوسف داى والي تونس على تعيين نهر سراط حدّاً بين الحكومتين وفي سنة ثلاث وثلاثين والف تولى خسرو باشا على الجزائر ونازعه يوسف داي في الحدود ثم رجعا لما وقع عليه الاتفاق اولاً بين الامارتين في الاحكام والجباية وفي سنة اربع وخمسين والف انتقضت جزيرة كريت على الدولة واستبدوا بامرهم فاوعزت الى محمد باشا ابي ريشة والي الجزائر بغزوها فسار اليها في اسطوله وفتحها وقفل الى الجزائر وكان الملك فرنسيس الاول عقد الصلح مع السلطان الغازي سليمان خان سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة هجرية وخمس وعشرين وخمسمائة والف ميلادية واباح له السلطان حرية مراكب فرانسا في البحر الابيض تسافر فيه حيث شاءت

واذن له في تعاطي التجارة في الجزائر وغيرها ثم ان حكومة الجزائر اخذت مراكبها تغزو ثغور فرانسا وتخرب حصونها الى ان آل امر فرانسا الى الملك لويس الرابع عشر فجهز نحو ستة آلاف جندي في ستة عشر مركبًا لنظر القائد الدوك دي يوفور فاقلع من طولون في مراكبه سنة اربع وسبعين والف من الهجرة مترصدًا مراكب الجزائر فلم يصادف نجاحًا وفي سنة ست وسبعين وقع الصلح ولما تولى بابا حسن على الجزائر سنة اثنتين وتسعين والف اغزى مراكبه الى الثغور الفرنساوية وفي سنة اربع وتسعين خرج الاميرال تورفيل من طولون في عمارة فرنسا وسار الى الجزائر واناخ عليها ثلاثة اشهر يغاديها القتال ويراوحها ثم سئم الاقامة من غير طائل واقلع عنها وفي سنة خمس وتسعين عاد اليها في قوة اكثر من الاولى ولما علم بابا حسن انه عاجز عن مدافعته مال الى السلم وبعث الى رئيس العمارة في ذلك فاجابه اليه واشترط عليه امورًا انف اهل الجزائر من قبولها وعارضوا حاكمهم في اجازتها ثم عدوا عليه فقتلوه وولوا عليهم الحاج حسن آغا من مشاهير القواد فاشهر الحرب على المراكب الفرنساوية ورماها بالقنابل فاستشاط تورفيل غضبًا وارسل على البلد صواعق المدافع فعمد اهل الجزائر الى اسارى الافرنج يوثقونهم ويضعونهم في افواه المدافع ثم يرسلونها فتتطاير اشلاؤهم مع القنابل في الهواء وارتكبوا في ذلك ما لا يسوغ شرعًا ولا مروءة ثم لما طال الامر على الاميرال تورفيل اقلع عن الجزائر الى بلاده وفي سنة ست وتسعين عاد اليها فدعاه اهلها الى الصلح فبادر الى ذلك وانعقد الصلح الى ان تولى خوجه ابراهيم باشا فاغزى ثغور فرانسا ورجع بالغنائم وفي سنة مائة والف جمعت دولة فرنسا قوتها واكثرت من الحشود الافرنجية وبعثها لنظر الماريشال دي سنرى فنازل الجزائر والح عليها برمي القنابل واقام على ذلك خمسة عشر يومًا حتى دكت اطراف البلد ثم جنح خوجه ابراهيم باشا الى السلم فانعقد الصلح وفي سنة اربع ومائة والف تولى على الجزائر خوجه شعبان باشا فنهض الى تونس بجيوشه فدخلها بمداخلة ابن شكر وزير محمد باي واليها وفر محمد باي الى داخلية افريقية وتم الامر لشعبان باشا ثم فوض امر تونس الى ابن شكر باي وقفل الى الجزائر وكان شعبان المذكور يبغض العرب ولما رجع من تونس امر جنده بقتل كافة العرب القاطنين في مدينة الجزائر فقتلوا خلقًا كثيرًا وكثر تعسفه واشتدت وطأته فقبض عليه الجند وقتلوه خنقًا وتولى الجه احمد باشا ثم عزل وتولى عمر باشا وكان محمد باي انتصر على ابن شكر باي وعاد الى تونس ولحق ابن شكر بالمغرب الاقصى

ثم توفي محمد باي والي تونس وتولى اخوه رمضان باي فثار عليه مراد باي بن علي باي وتداول تونس من يده واستفحل امره فيها واجمع على غزو قسنطينة ثم الجزائر ونهض من تونس على طريق الكاف فلقيه علي خوجه باي حاكم قسنطينة بالقرب منها وناجزه الحرب فكانت الدبرة على علي خوجه باي واتصل الخبر بعمر باشا فخرج من الجزائر وزحف الى مراد باي وهو محاصر لقسنطينة وانتشب الحرب بينهما فانهزم مراد باي ولحقه عمر باشا الى الحدود ثم انكفا راجعًا الى الجزائر وبقي مراد باي في مرض من الايام الى ان ثار الشريف ابراهيم وقتله واستولى على تونس ثم لما تولى مصطفى باشا على الجزائر جهز جيشًا وبعثه لقتال الشريف ابراهيم المتغلب على تونس ونهض الشريف من الحضرة فالتقوا بالقرب من الكاف واقتتلوا اياماً ثم وقع الخلل في عسكر الشريف فانهزم وقبض على الشريف وسارت عساكر الجزائر الى تونس فدخلوها ثم رفع الى مصطفى باشا في رئيس ديوان التحريرات الجزائرية الخوجه محمد بكداشي امر نقمه عليه نعزله ونفاه الى قاصية البلاد فاقام بكداشي مكانه يترصد الفرص الى ان تمكن منها فتلطف في رجوعه الى الجزائر ثم دخل على مصطفى باشا في منزله ليلاً وقتله وتولى مكانه سنة ثمان عشرة ومائة والف ثم قبض على الاخوين العالمين السيد احمد والسيد علان ولدى العلامة المؤلف الشهير الشيخ سعيد قدوره وكان الاول مفتياً للمالكية والثاني قاضياً لم نقتلهما في محبسهما خنقاً وقد انتقم الله منه بمثل فعله فسلط عليه ابراهيم آغة العرب فدخل عليه وخنقه و تولى مكانه ثم تولى بعده علي باشا ثم محمد باشا ثم عبدي باشا وكانت اسبانيا استولت على وهران سنة خمس عشرة وتسعمائة اخذتها من يد ابي كبون آخر ملوك بني زيان ولم تزل حكومة الجزائر تبعث بالجيوش اليها وتنازلها برًا وبحرًا فلم تات بطائل الى ان تولى محمد بكداشي على الجزائر وكان شديد الرغبة في استرجاعها فجهز جيشًا عظيماً وبعثه اليها واوعز الى حاكم معسكر مصطفى باي ابي الشلاغم بمظاهرة الجيش والنظر في امره فنازلوها اول يوم من ربيع الاول سنة تسع عشرة ومائة وضيقوا على حاميتها والجروهم في داخلها وفي سادس شوال من تلك السنة فتحوا البلد عنوةً وفر اهلها الى برج المرسى وتحصنوا فيه فلحقهم المسلمون وفي ثالث عشر المحرم سنة عشرين اقتحموا الحصن واستاصلوا اهله واستقر ابو الشلاغم والياً عليها ولم يزل يدافع جيوش اسبانيا عنها مرة بعد اخرى الى ان تغلبوا عليها واخذوها من يده سنة ثلاث واربعين ومائة والف وخرج منها

ابو الشلاغم باهله ومن كان فيها من المسلمين الى معسكر ونواحيها وكان والي الجزائر عبدي باشا فجهز ولده محمدا في عدة مراكب وبعثه الى وهران فنازلها ثم توفي عبدي باشا واقلع ولده محمد راجعًا الى الجزائر وكان حسن بن علي والي تونس ظاهر جيوش اسبانيا على اخذ وهران وامدّهم بالذخيرة فحفظها له ابراهيم الخزناجي مستشار عبدي باشا ولما انفض امر الجزائر اليه اخرج يونس ابن اخي حسين بن علي وكان معتقلاً في الجزائر وامده بالجيش والمهمات واوعز الى حاكم قسنطينة بمظاهرته فنهض يونس من الجزائر واجتمع بحاكم قسنطينة وانضم اليهما ابو عزيز شيخ الحنانشة وابو رنان شيخ عرب البنيان ومحمد ابن ابي الضياف شيخ جبل اوراس بجموعهم واتصل الخبر الى حسين بن علي فزحف اليهم والتقى الفريقان على نهر سراط وانتشبت الحرب فكانت الدبرة على حسين بن علي فانهزمت جيوشه ولحق هو واولاده بالقيروان واستولى يونس على الحضرة وانقلبت الجيوش راجعة الى مراكزها ثم نهض يونس باي الى قتال عمه وهو بالقيروان فخام عمه عن اللقاء واقام يونس محاصرًا للقيروان احد عشر شهرًا ثم خرج منها حسين بن علي واولاده ولحقوا بقسنطينة متنصلين مما وقع منهم وتوجه محمد بن حسين بن علي الى الجزائر وقدم الطاعة للخزناجي باشا نيابةً عن والده فتقبل طاعتهم ووعدهم بالعود الى دار ملكهم ثم بعد وصول محمد الى الجزائر توفي والده بقسنطينة ولحق محمود وعلي باخيهما محمد واقاموا ينتظرون انجاز الوعد الى ان مات الخزناجي باشا وتولى خوجه ابراهيم باشا وكان الخزناجي عهد اليه عند موته بمساعدتهم فلما تمكن من امره سيرهم في الجيوش الجزائرية وامر حاكم قسنطينة بمظاهرتهم وقبل وصولهم الى حدود تونس حصل الخلل في العسكر وتفرقت الكلمة بين حاكم قسنطينة واحمد آغا رئيس العسكر الجزائري فانقلبوا راجعين الى قسنطينة ثم توفي علي بن حسين ابن علي واقام اخواه محمود ومحمد بقسنطينة وفي سنة ستين ومائة والف توفي الخوجه ابراهيم باشا وتولى محمد باشا المعروف بالاعور وفي سنة ثمان وستين ومائة والف عدا عليه جندي فقتله وتولى علي باشا ابو اصبع وكان حسن باي المعروف بازرق العينين ابن اخت علي باشا المذكور واليًا على قسنطينة فاتفق رايه مع خاله على اخذ تونس من يد يونس باي وردها الى اولاد عمه حسين بن علي ثم ان ازرق العينين عمل الحيلة على يونس باي واظهر له المودة فركن اليه والقى اليه بمقاليد اموره ولم يزل ينصب له المكائد الى ان تمكن منه وقبض عليه واستصفى امواله وبنى عليه حائطًا من خشب

فبقي في عذابه الى ان مات ورجع امر تونس الى اولاد حسين بن علي يتوارثونه خلفًا عن سلف لهذا العهد وفي سنة تسع وسبعين ومائة والف توفي علي باشا وتولى محمد باشا المعروف بالمجاهد وكان صالحًا زاهدًا حسن السيرة محبًا للجهاد منصور الراية شيد عدة ابراج وحصون في الجزائر منها برج سردينيا والبرج الجديد وبرج راس العين واصلح قناة الحامة واجرى ماءها الى سقايات اتخذها على ابواب المساجد والابراج والحصون وخوابي من رخام في شوارع البلد واوقف اوقافًا جارية وانشأ جملة مراكب بحرية للغزو وهو اول من اتخذ الغجون في الجزائر وهو مركب صغير وفي سنة ثلاث وثمانين ومائة والف انتقض الصلح بين الدولة العلية ودولة روسيا فجهز مراكبه واكل استعدادها لنظر انقبطان ابن يونس وبعثه اجابة لأمر الدولة وتكرر منه هذا عند ما تدعوه الدولة لاعانتها وكان قوم من اليونان يقال لهم الزنبطوط اتخذوا قرصانًا وانقطعوا فيه في البحر يترصدون المراكب فلا يصادفهم مركب الا اخذوه بما فيه وقتلوا اهله وكانت الدولة العلية تامر حكامها في الجزائر بقطع عاديهم فجهز محمد باشا المجاهد القبطان الحاج سليمان وارسله اليهم فاستولى عليهم وساقهم في مراكبهم الى الجزائر وقد قسموا بلاد المغرب الاوسط الى اربع ولايات ولاية الجزائر وولاية تيطرى بكسر التاء وسكون الطاء المهملة وولاية قسنطينة بضم القاف وفتح السين وسكون النون وولاية وهران بفتح فسكون ولكل ولاية حاكم يسمى باي اي بك الا حاكم الجزائر فيسمى باشا وهؤلاء البايات متساوون في الرتبة والعمل ويرجعون في امورهم الى والي الجزائر ولما تولى بابا علي باشا بانتخاب اهل الشورى رفع الى حضرة السلطان احمد عريضة تنبيء بان وجود واليين في الجزائر موجب لفساد مستلزم للنزاع نقبل ذلك وامر بان يكون انتخاب الولاة وعزلهم الى مجلس الشورى وان يكون التصديق على ذلك من السلطنة وقد تقدم ما كان للحكومة الجزائرية في سالف امرها من سمو المنزلة وباهر السطوة وكانت الدول الافرنجية على كثرتها تدفع لها اموالاً مضروبة عليها كل سنة لدفع عاديتها عن ثغورهم ما عدا دولة اسبانيا فانها كانت تتلون فتارة تدفع ضريبتها وتمتنع اخرى والحكومة الجزائرية تعاملها على حسب تلونها ولما تولى محمد باشا المجاهد اكثر من غزو ثغورها حتى الجأ اهلها الى الجلاء عنها والفرار الى الداخلية وقد اجتمع في الجزائر منهم عشرة الآف اسير فجمع ملك اسبانيا قوته واستجاش بقية الدول وجهز خمسمائة مركب مشحونة بالعساكر والذخائر وبعثها الى الجزائر سنة تسع وثمانين ومائة والف فنزلت

الجيوش الى البر وخيمت بوادي الحراش وكان محمد باشا المجاهد مستعداً لمدافعتهم واستنهض حاكم قسنطينة وحاكم معسكر بجموعهم الى حضرته فاجتمعت الجيوش الاسلامية وكانت مراكب اسبانيا سبقتهم الى الجزائر فخيم صاحب قسنطينة في جهة الجنوب من معسكر العدو وخيم صاحب معسكر في الجهة الغربية وخرج محمد باشا بجنوده ودارت الجيوش بالمعسكر ثم هجمت عليه دفعة واحدة فاشتعلت نار الحرب من كل جهة وجاس المسلمون خلال الخيام واستحوذوا المعسكر بتمامه واستولوا على ذخائره ومهماته ولما راى من بقي في المراكب من الجيش ما وقع باخوانهم رفعوا الرايات السود على صواري المراكب اعلاناً بالحزن واقاموا على تلك الحال راجعين الى بلادهم وفي سنة ثلاث وتسعين ومائة والف توفي ابرهيم باي حاكم معسكر وتولى مكانه الشهم الهمام محمد باي بن عثمان الكردي وفي سنة ثمان وتسعين عادت عمارة اسبانيا لمنازلة الجزائر واناخوا عليها اربعة ايام يرسلون عليها القنابل فرجعوا من غير طائل ثم نازلوها في السنة التي بعدها وانقلبوا خائبين وقد احسوا من انفسهم بالعجز وراوا ان جنودهم قد فنيت وثغورهم خربت فجنحوا للسلم وضرعوا الى محمد باشا المجاهد في كف عاديته عنهم ثم اوفدوا عليه رئيس العمارة يطلب الصلح فرده خائباً ثم اعادوه اليه على ان يشترط عليهم ما شاء فاجابهم الى مرغوبهم وانعقد الصلح بينهم على شروط منها ان تدفع دولة اسبانيا لحكومة الجزائر مليوناً ونصف مليون فرنك في كل سنة وان تجري المبادلة في الاسارى راساً براس والذي يبقى الف ريال شينكو عن كل راس وان وهران خارجة عما انعقد عليه الصلح وتم الامر على هذا سنة مائتين والف

﴿ ذكر فتح مدينة وهران ﴾

قد امتدت العمارة الاسلامية بمدينة وهران الى سنة خمس عشرة وتسعمائة ثم استولت عليها دولة اسبانيا من يد ابي كلدون الزياني ثم لما تولى محمد باشا المجاهد على الجزائر كان يميل الى محمد باي الكردي حاكم معسكر لمتانة دينه واستقامة احواله كتب اليه في الجهاد وحرضه على منازلة وهران فكان محمد باي ينازلها وياخذ بخنقها واستمر على ذلك من سنة ثلاث وتسعين ومائة والف الى سنة خمس ومائتين فجاءه الامر في ملازمتها والاقامة عليها فشمر الباي عن ساعد الجد وجمع الآلة والمهمات الحربية وجمع اوزاعاً من القبائل وانزلهم على السبل المؤدية اليها ليقطعوا مواصلة بني عامر وغيرهم

من المتنصرين للاسبانيول ثم انتقى طالبة العلم من المدارس وانزلهم في جبل المائدة المطل على البلد ليمنعوا اهلها من الاعتصام به واخذ في حفر الخنادق واللغوم وبناء الاستحكامات ولما بلغ ملكهم الخبر ارسل المدد الى حاميتها وقد استشهد سيدي الجد السيد محمد المجاهد في معركة حرب بساحتها فحمل منها الى غريس مع بعد المسافة ودفن في مقبرة اسلافه ثم وقعت زلزلة عامة في جميع المغرب الاوسط واشتدت في وهران فسقط اكثر دورها على اهلها وهلك الحاكم وعائلته وتوالت المصائب عليها فرفعوا امرهم الى ملكهم فبعث الى والي الجزائر في الهدنة مدة شهر لينظر في امره فاجابه الوالي الى ذلك وجاء الامر لمحمد باي بتوقيف الحرب فتاخر في معسكر وضرب الاجل لحاكم وهران ثلاثين يوماً وقبل تمامها غدروا بالمسلمين ورفعوا رايات الحرب وطار الخبر الى محمد باي فسار واناخ على وهران وجاءه المدد من الجزائر فاعظم النكاية في الاسبانيول واحجرهم في منازلهم وزحف الى السور ووضع المدافع والهواوين في الاستحكامات وعكف الرماة يرسلون عليها القنابل حتى اندكت اكثر ابراجها ودورها واشتد الامر على اهلها وعجزوا عن الذب عنها ثم توفى محمد باشا المجاهد وتولى مكانه مستشاره بابا حسن فطير الخبر الى محمد باي في مكانه من حصار وهران وبعث اليه بالامر المؤذن بتجديد امر الولاية له ثم ان ملك اسبانيا لما علم ان محمود باي قوي العزيمة عظيم الرغبة في فتح وهران كتب الى بابا حسن باشا والي الجزائر في تسليمها واشترط ان يسلمها على ما كانت عليه حين دخلتها جيوشهم وان يخربوا جميع ما احدثوه فيها من الابراج والقلاع فاجابه الوالي الى ذلك على ان يدفع مصاريف الحرب نقبل الملك وبعث الوالي الى محمد باي يامره بالافراج عن البلد فارتحل الباي وجيوشه واخذ الاسبانيول ينتقلون منها الى ان فرغت وخربوا ما وقع الاتفاق على تخريبه فتقدم الباي الى ساحتها وارسل في المدائن والضواحي للحضور في دخولها فهرع الناس اليه ودخلها واخذ في ترميم ما تثلم من سورها واما كنها وفي اقرب مدة عمرت دورها واسواقها ومساجدها وانتقل الباي اليها من معسكر باهله واعيان حكومته وأرخ فتحها العلامة السيد الحاج عبد القادر بن السنوسي بن دح بقوله

بشرى لنا قد بلغنا غاية الارب * بفتح وهران ذات العجب والعجب
ارخت للقوم ذاك العام مبتدراً * قالوا فما الشهر منه يا اخا العرب
نقلت في نظم ما راموا اوٌرخه * وهران طار لها الاسلام في رجب

ثم توجه الباي الى الجزائر لتأدية التهنئة للباشا بفتح هذه المدينة التي طالما اهتمت الحكومة بشانها واجتهدت في فتحها فابى الله الا ان يكون على يديه وفي ايامه فاكرم الباشا نزله واكبر وفادته ثم قفل من الحضرة شاكيًا وبوادي مينة اشتد وجعه ومات فحمل ودفن بوهران فارتج المغرب الاوسط لفقده وعم الحزن اقطاره وكان يحب العلماء والصالحين ويعظمهم واخذ الطريقة القادرية عن العلامة الجد سيدى السيد مصطفى ولم يزل قائمًا بخدمته ساعيًا في مرضاته الى ان توفى وتولى على وهران ابنه عثمان باي

ذكر غير ذلك

وفي سنة سبع ومائتين والف تاخر اداء الضريبة المفروضة على دولة امريكا للحكومة الجزائرية نغضب الباشا واخرج قناصلها من الجزائر وسائر الولايات وجهز القبطان الشهير الحاج محمد في اسطوله ليترصد مراكبهم نغنم نحو العشرين مركبًا واغزاه مرة اخرى فظفر بغيرها ثم ان دولة امريكا بحثت للسلم فاجابها الباشا على ان تؤدي له مليونين ونصف مليون من الريال الشينكو فادت له ذلك ورجعت قناصلها الى الجزائر وفي سنة اثنتى عشرة توفى الباشا بابا حسن وتولى مكانه ابن اخته مصطفى الخزناجي وفي سنة ثلاث عشرة كانت حادثة نابليون الاول في مصر واوعزت الدولة العلية الى مصطفى باشا باشهار الحرب عليها ليشغلها عن مصر فاحضر الباشا قنصل فرنسا الجنرال واظهر له شدة حنقه على فرنسا لسوء معاملتها مع الدولة العلية ثم اوثقه في الحديد واسلمه الى دائرة الاشغال الشاقة ونعل ذلك ببقية قناصل فرانسا في الولايات وجهز قائد البحر في الاسطول واغزاه الى ثغور فرانسا فاثخن فيها قتلاً واسرا وغنم عدة مراكب لهم وفي سنة سبع عشرة عزل عثمان باي ابن محمد باي فاتح وهران عن ولايتها وتولى مصطفى باي من اخصاء الباشا

ذكر اخبار محمد ابن الشريف الثائر على ولاية وهران

اصله من الكسانة قبيلة من البربر بوادي العبد قبلة غريس اخذ العلم في صغره عن سيدي الجد السيد محي الدين في مدرسة بالقيطنة ثم رحل الى المغرب الاقصى فاخذ من علماء فاس ولقي الشيخ العربي الدرقاوي وسلك طريقته وقفل الى وطنه وجاء الى حضرة سيدي الجد زائرًا وفي بعض الايام تكلم بحضرته بما يوجب تاديبه

شرعاً فادبه سيدي الجد بالسياط واستتابه ثم رجع الى وطنه ولحق بقبائل حميان وشافع
ودعا لنفسه سنة سبع عشرة ومائتين والف وادعى انه المهدي المنتظر فصدقه الناس
وقاموا بنصرته فاخذ يستلب الانفس والاموال ويخرب العمران واتصل الخبر بباي
وهران فنهض اليه بجيوشه والتقى الفريقان بغريس فانهزم الباي وتفرقت جيوشه
ولحقت بوهران واستولى ابن الشريف على اثقاله ثم سار في جموعه حتى وقف بساحة
وهران فاناخ عليها وطار الخبر الى الجزائر فجهز الباشا مستشاره علي آغا وبعثه على
طريق البرنغال ابن الشريف فتعرض له البربر في نواحي وادي شلف وصدوه عن
المرور في بلادهم ومنعوه ورود الماء حتى كاد يهلك مع جيوشه عطشاً فلاذ بشيخ العطاف
واستجار به فمشى له في القبائل على ان يدفعوا عاديتهم عنه فابوا عليه الا بمال يؤديه
اليهم فادى لهم ما طلبوه وانقلب راجعاً الى الجزائر واستمر ابن الشريف في مكانه من
حصار وهران وضيق على اهلها حتى نفذت اقواتهم وتمت له الطاعة من تلمسان
الى المدية ثم افرج عن وهران وسار ينتقل في النواحي الى سنة ست وعشرين ومائتين
والف فبعث الباشا من الجزائر معتمده محمد باي المعروف بالمقلس في عسكر وقلده
ولاية وهران فركب في الاسطول من شرشال وبوصوله الى وهران قبض على حاكمها
مصطفى باي واشخصه الى الجزائر وكتب الى الآفاق بقدومه وتلطف في جمع الكلمة
فاجابه اكثر القبائل وركنوا الى طاعته وامرهم بالمعسكر معه فهرعوا اليه من كل
جانب وفرق فيهم الاموال ونهض من وهران بجموعه يريد ابن الشريف وتزاحفا في
غريس ولما تولى النهار انكشف ابن الشريف بجموعه وانتصر الباي عليهم وفر ابن
الشريف باهله واولاده الى نواحي تلمسان ثم لحق بجبل بني يزناسن من اعمال المغرب
الاقصى ولا زال مقيماً فيه الى ان مات فرجع اهله واولاده ونزلوا في حمى سيدي الجد
بالقيطنة لائذين به فعفا عنهم الباي حفظاً لذمته ورعايةً لمقامه واذعن الناس
للحكومة وتسابقوا للدخول في طاعتها وذهب ابن الشريف وطوى بساطه ثم خرج الباي
من معسكر لتمهيد البلاد فاخذ ضرائبها وجبى اموالها وقفل الى وهران وثبتت قدمه في
ولايته سمعت سيدي الوالد يقول انما لم ينجح ابن الشريف في امره لكونه كان مقوتاً
عند سيدي الجد فمقته الناس وبعد رجوع الباي الى وهران توجه اليه سيدي الجد
ليهنئه بانتصاره فاكرم نزله واعظم وفادته ولما انطلق من عنده قال الباي الى جلسائه
نحن لا نخشى من ابن الشريف وامثاله وانما نخشى من صولة هذا يشير الى سيدي

الجد رحمه الله تعالى

ذكر اخبار ابن الاحرش

وفي سنة ثمان عشرة ومائتين والف ثار ابن الاحرش في نواحي قسنطينة وهو من عرب المغرب الاقصى رحل من بلاده للحج ولما اجلب نابوليون الاول على مصر جمع ابن الاحرش جيشاً من اعراب المغربين وافريقية وانضم الى الجنود المصرية لقتال نابليون وابلى في تلك الحروب بلاء حسناً فاكتسب الشهرة ولما انقلب نابليون الى فرنسا قفل ابن الاحرش راجعاً الى المغرب واحتل بتونس ولقيه صاحبها حموده باي واكرم نزله وفاوضه في القيام على حكومة الجزائر ووعده بالمظاهرة بالمال والرجال فاستكان لها ابن الاحرش وخرج من تونس الى نواحي قسنطينة ودعا لنفسه واشتدت شوكته في تلك الجهات وزحف الى قسنطينة بجموعه فخرج اليه حاكمها بجيشه ووقعت بينهما حروب انهزم في آخرها حاكم قسنطينة وترك ذخائره فتقوى بها ابن الاحرش وعظم الخوف عند الباي ففر الى تونس باهله واولاده واتصل الخبر بمصطفى باشا والي الجزائر فاحضر عثمان باي ابن محمد باي وبعثه حاكماً على قسنطينة وفوض اليه في مدافعة ابن الاحرش وبوصوله اليها كتب الى رؤساء القبائل الدائنين بطاعة ابن الاحرش يهددهم ويخوفهم عاقبة امرهم واخذ يتهيأ للحرب وخيم خارج البلد في سطح المنصورة واستجاش بمن بقي من القبائل متمسكاً بطاعتهم وارتحل نحو ابن الاحرش وعسكر في سهل وادي الزهور فامر ابن الاحرش بالنهر فسد ثم اطلق على المعسكر اول الليل فما طلع الفجر الا والماء قد عم السهل كله وهجم عليهم ابن الاحرش بجموعه فاستلحمهم وقتل الباي وكان الباي لما خرج من قسنطينة استصحب معه جميع ما في الخزائن من الاموال والذخائر فاستولى عليها ابن الاحرش وامتلأت ايدي جيوشه من المغانم ثم ان باشا الجزائر فوض الامر الى قائد الخشنة وولاه على قسنطينة وكان هذا القائد له مصاهرة مع العرب فاستجاش باصهاره وعبى كتائبه وبرز من قسنطينة لمدافعة ابن الاحرش فانهزمت جيوش ابن الاحرش وتفرقت وفر بنفسه ولحق بابن الشريف في الجهة الغربية وبقي في معيشه الى ان دس له من قتله من اصحابه

ذكر غير ذلك

وفي سنة ثمان عشرة ومائتين دخل يحيى آغا على رئيس اليهود في الجزائر وقتله

في منزله ولما رآى الناس اهمال الحكومة للامور وتغافلها تداعوا في ثاني يوم الى استئصال اليهود ونهب اموالهم فاجتمعوا ودخلوا الى محلة اليهود فاثخنوهم قتلاً واكتسحوا اموالهم وجمعوا اشلاءهم خارج البلد واضرموها نارًا ثم امر الباشا بالقبض على كل من ثبت حضوره في هذه الفعلة فامتلأت السجون بهم وامر ان يُصلب منهم كل يوم عشرة انفس فصلبوا عن آخرهم وفي سنة عشرين ومائتين ثار العسكر على الباشا ونقموا عليه سوء معاملته لهم وقتلوه في الزقاق وتولى احمد خوجه فاطلق ايدي العسكر في الرعايا فكثر الفساد وكان في قلبه شيء على عبدالله باي حاكم قسنطينة فقتله واستصفى امواله ومدّ يده الى الخزينة فباع جميع ما فيها من النفائس وحمله الى دار سكناه وبعث الى حموده باي حاكم تونس في دفع الضريبة المفروضة على حكومة تونس لحكومة الجزائر فاستنكف ونقض العهد فجهز اليه القبطان حميدُ وفي الاسطول نغنم ثلاثة مراكب تونسية بما فيها ثم اغزى جيوشه الى تونس على طريق البر فلقيهم حموده باي بجموعه فاوقعوا به واستولوا على معسكره وفي سنة ثلاث وعشرين تزاحف الفريقان واقتتلوا بنهر سراط فكانت الهزيمة على حموده باي ايضًا وبعد رجوع العسكر الى الجزائر اظلم الجو بينهم وبين احمد باشا فثاروا عليه وقتلوه وسحبوه في ازقة الجزائر اهانة له ثم تولى ابو الجوالق فامر بنفي القبطان حميدوْ الى الشام وفي سنة اربع وعشرين ومائتين والف تغلب علي باشا على ابي الجوالق وقتله خنقًا وتولى مكانه واعاد القبطان حميدو من الشام فاكرمه ورفع رتبته وفوض اليه امر البحر ثم اغزاه الى جبل طارق فلقي مراكب البورتغال نغنم منها مركبًا واغزاه الى صقلية فامتلأت مراكبه بالغنائم وفي سنة خمس وعشرين اغزاه الى جربة من اعمال تونس فاستولى عليها وطار الخبر الى حموده باي فجهز ثلاثة عشر مركبًا وبعثها الى جربة لقتال حميدو فلقيهم بالقرب من جزيرة قرقنه وانتشبت الحرب بينهم فكانت الدبرة على مراكب تونس وفي سنة ست وعشرين اغزاه الى تونس واحتل بحلق الواد وتاخر حموده باي عن اللقاء وانحجر داخل الحضرة فاقام حميدو ايامًا ثم اقلع راجعًا الى الجزائر وفي سنة سبع وعشرين اخذ الباشا يتأهب لمنازلة تونس وبعث الى حكام الولايات في جمع الجيوش والنهوض بها الى حضرته فتغافل حاكم وهران واظهر الاستبداد فوجم لها الباشا وسير عمر آغا في جيش على طريق البحر الى وهران وكان اعيانها قد انحرفوا عن حاكمهم ونقموا

عليه ما اظهره من الاستبداد وكان اعيان الدوائر والزمالة اوقعوه في هذا الامر وزينوه له ووعدوه بمظاهرة الرعية وهو يومئذٍ شغيمٌ بهبره فلما انقلب الى وهران قام عليه الجند واعيان البلد وقبضوا عليه و بوصول عمر آغا الى وهران سلموه اليه فذبح اولاده على صدره وهو ينظر اليهم ثم سلخه وحشى جلده قطناً وارسله الى الجزائر نعلق على باب الجديد منها واستصفى امواله ثم اخذ يتأهب لحرب حاكم تونس فجمع الجيوش وسار بهم وكانت جموع تيطرى وقسنطينة تنتظره بالقرب من التخوم لان الباشا فوض اليه امر الحرب فنهض بالجموع الى تونس ولما تجاوز حدودها اتصل به ان الاسطول الجزائري بعد ان ارسى في حلق الواد اياماً انقلب راجعاً من غير طائل وفي سنة ثمان وعشرين خرج القبطان حميدو غازياً على الثغور الافرنجية فصادف في طريقه مراكب كثيرة للدانمارك فاستولى عليها وفي هذه السنة انعقدت الهدنة بين حكومة الجزائر ودولة البورتغال على ان تؤدي دولة البورتغال لحكومة مليونين ونصف مليون فرنك وان تنقد لها فدية اسراها وفيها سار القبطان حميدو غازياً الى ثغور اليونان فاثخن فيها بالقتل والاسر وغنم عدة مراكب لهم وانقلب راجعاً فرفع ملك اليونان امره الى السلطنة السنية فبعثت الى باشا الجزائر توبخه على ذلك وامرته برد جميع ما اخذه لليونان وفي سنة تسع وعشرين اتصل به ان اليهود لبسوا نساءهم الثياب الخضر فقبض على اعيانهم وقتلهم واحرقهم وكان هؤلاء الاعيان اكلوا اموال الناس بانواع الحيل والدعاوي الباطلة فالزم الباشا اقاربهم بدفع جميع ما ثبت عليهم وفي سنة ثلاثين ومائتين اتفق عمر آغا وكان عزل عن وهران مع عبدالله وكيل الخرج على قتل الباشا فدخلوا عليه وهو في الحمام فذبحوه وتولى محمد الخزناجي وهو في سن التسعين وكان محبوباً عند اهل الجزائر وفي اليوم السابع عشر من ولايته دخل عليه عمر آغا في محله نقتله وتولى مكانه فاغزى القبطان حميدو الى جبل طارق فصادف مراكباً لدولة امريكا فصادفوه القتال وكانت الدبرة عليه نقتل هو وجماعته وغنم الامريكانيون مراكبه ثم آل الامر بعد ذلك الى انعقاد الصلح بين الفريقين وفي سنة احدى وثلاثين ومائتين جهز الانكليز وهولانده عمارة مختلطة بينهم لنظر اللورد اكسمون وبعثوه الى الجزائر ولما وصل اليها كتب الى عمر باشا انا اللورد اكسمون قائد العمارة الانكليزية الهولاندية اعلن لك انني لا ارغب في سفك الدماء ولا ارضى بخراب البلاد ولكن اطلب معاهدة مربوطة بشروط اولها اطلاق الاسارى عموماً من غير استثناء ثانيها ارجاع ما دفعته

لكم سردينيا ونابولي في السابق عن اسراهم ثالثها ابطال عادة الاسر بالكلية رابعها ان تكون هذه الشروط بعينها جارية بين حكومة الجزائر وباقي الدول فاجابه عمر باشا بقوله لا جواب عندي الا الضرب بالمدافع وفي الحال امر باطلاق القنابل على العمارة وانتشب الحرب بين الفريقين الى المساء وفي صبيحة اليوم الذي يليه شبت النار في المراكب الهولاندية ولاتصال بعضها ببعض مع شدة الهواء احترقت عن آخرها واتصلت النار ببعض مراكب الانكليز وهاج البحر وتلاطمت امواجه فاقلع آكسمون بما سلم من عمارته وتوغل في البحر ولما سكن رجع الى الجزائر وخاطب الباشا بخطابه الاول فقبل شروطهم وانعقد الصلح بين الباشا وآكسمون ولما شاع هذا الخبر في الجزائر ثار الجند على عمر باشا ونقموا عليه قبول الشروط الانكليزية فقبضوا عليه وقتلوه خنقاً وولوا مكانه علي خوجه سنة اثنتين وثلاثين ومائتين والف فاشاع النكير على اعيان الحكومة واكثر من قتل الاتراك وجعل بطانته من العرب واخذ الناس بالارهاب والسطوة واظهر الميل الى العمل بالشريعة المطهرة والقيام بوظائفها واعلن بالمحافظة على الصلوات في اوقاتها ومن وجد في دكانه بعد الاذان يجلد واشتدت وطاته على المتحرفين عن الشريعة حتى توفى بالطاعون ثم ولى حسين كاتب الخيل واستقر له الامر وفي سنة اربع وثلاثين وقع الصلح بينه وبين صاحب تونس بامر الدولة العلية وفيها عزل حاكم وهران محمد باي ابن محمد باي ابن عثمان الكردي فاتح وهران وتولى مكانه حسين باي

﴿ذكر قيام السيد محمد التجيني﴾

اصله من بني توجين امراء تاهرت وكان والده السيد احمد زاهداً عابداً صاحب طريق وله مريدون واتباع ولما شاع امره في وطنه وخاف من غوائل الحكومة انتقل باهله واولاده الى فاس في ايام سلطانها مولاي سليمان العلوي واقام بها الى ان توفى فقام بامر الطريق بعده ابنه السيد محمد ورجع الى بلدهم عين ماضي وهي في الجنوب الشرقي من اعمال وهران وكانت حكومة الجزائر ترهب سطوته وتتوقع خروجه عن طاعتها وفي سنة اربعين ومائتين رحل من بلاده للحجاز براً واتصل الخبر بحسين باشا فبعث الى حاكم قسنطينة في القبض عليه فافلت منه وبعد رجوعه الى وطنه دعا الناس الى طاعته والخروج عن دعوة الحكومة فوافقته اهل تلك النواحي ونهض من بلده الى

نواحي معسكر فلاذ الحشم ومن اليهم بطاعته وخرج حسين باي حاكم وهران في جيوشه وتزاحف الفريقان خارج معسكر من جهة غريس وعند المصاف تقهقر الحشم ومن وافقهم وانفرد التجيني في ثلاثمائة مقاتل من قبيلة الارباع نعقلوا انفسهم كما تعقل الابل وقاتلوا حتى قتلوا عن آخرهم وبعث الباي براس التجيني الى الجزائر نعلقت على بابها وأرسل سيفه الى السلطان الغازي محمود خان وفي هذه السنة عزل حاكم قسنطينة وولى احمد بن احمد الشريف وهو اول من تولى من العرب على ولاية في الجزائر واطلق عليه لقب باي

ذكر ما كانت تؤديه الافرنج لحكومة الجزائر من الهدايا والاموال

اعلم ان حكومة الجزائر وان كانت قليلة العدد والعدد فقد كانت لها اليد الطولى في البحر الرومي وكانت بعوشها وغوازيها كثيرًا ما تسم الثغور الافرنجية بالخسف والدمار ولذا لاذ اكثر ملوكهم بمسالمتها واذعنوا لما تفرضه عليهم دفعًا لعاديتها فكانت دولة انكلترا تؤدي لها ستمائة ليرة انكليزية في كل سنة ودولة فرنسا هدايا ثمينة تؤديها عند تغير قناصلها ودولة الدانيمرك آلات ومهمات حربية قيمتها اربعة آلاف ريال شينكو وهدايا نفيسة ودولة هولاندا ستمائة ليرة فرنساوية ومملكة سيسيليا اربعة وعشرين الف ريال شينكو وهدايا قيمتها اربعة آلاف ريال شينكو ومملكة سردينيا ستة آلاف ليرة فرنساوية والولايات المتحدة باميريكا آلات ومهمات حربية قيمتها اربعة آلاف ريال شينكو وعشرة الاف ريال نقدية وهدايا تحضرها قناصلها معها والبورتغال هدايا بهية واسوج ونروج الات حربية وذخائر بحرية تساوي قيمة وافرة ودنوفر وبرام من المانيا ستمائة ليرة انكليزية واسبانيا هدايا نفيسة وربما حاول بعضهم في بعض الاحيان مقاومتها وتحرك الانتقام منها فلا يصادف نجاحًا فيضطر الى مسالمتها

ذكر تسلط الفرنسيس على مدينة الجزائر

ان الفتن في اوروبا منذ زمان لم تخمد لها نار واشدها اضطرامًا ما كان منها في ايام نابليون الاول ولما سكنت بانعقاد الصلح بين الملوك وكان الفرنسيس يغصون بهذه الحكومة ويتربصون بها الدوائر حتى اتفق لقونصلهم مع حسين باشا الخصام الذي ادّى لاهانة القونصل حين عقدوا معاهدة تجارية في اصناف الحبوب

مع الحكومة فتقرر لها في ذمتهم اموال طائلة وقارن ذلك حدوث الاضطراب في فرنسا وقيام الامة على ملكهم فتأخر اداء تلك الاموال نحو العشرين سنة ولما خمدت الفتنة جددوا المعاهدة مع الحكومة سنة خمس وثلاثين ومائتين والف هجرية وتسع عشرة وثمانمائة والف ميلادية ومن فصولها ان دولة فرنسا تؤدي للحكومة الجزائرية سبعة ملايين فرنك على يد وكيليها يعقوب كوهين بكري وميخائيل ابي زناك اليهوديين والاداء يكون منجماً اول سنة ست وثلاثين ومائتين والف هجرية وعشرين وثمانمائة والف ميلادية وكان لتجار فرنسا من اهل مرسيليا على تجار الجزائر مليونان وخمسمائة الف فرنك فرفعوا امرهم الى دولتهم وطلبوا منها ان تنقد لهم اموالهم من اصل السبعة ملايين المحكوم بها لحكومة الجزائر فادت دولة فرنسا للحكومة اربعة ملايين ونصف مليون وابقت ما ادعى به تجارها في صندوق الامانة وامرت ان تجري دعوى تجارها مع غرمائهم من اهل الجزائر في مجلس التجارة في باريز فغضب الباشا لذلك وطلب اداء الاموال المحكوم له بها كلها وان تكون مرافعة التجار والغرماء في مجلس الجزائر وادعى ان الحق له في ذلك بموجب العهود التجارية بين الحكومة وسائر الدول وطال النزاع واستمرت فرنسا مصرة على امرها والباشا يطلب الجواب من قنصل فرنسا الجنرال دوفال فيحاوله بالمواعيد وفي اول يوم من شوال سنة ثلاث واربعين ومائتين والف دخل القنصل دوفال على الباشا لاداء التهنئة بعيد الفطر فشكا له الباشا عدم رد الجواب من ملك فرنسا على كتاب قدمه له فقال له ليس من العادة ان يجاوب الملك من هو دونه بدون واسطة ففهم الباشا من ذلك ان مراد القنصل ان الملك لا يعتني بمجاوبة مثله فاشتد غضبه ولطم القنصل على وجهه بمروحة كانت في يده فعظم ذلك عند القنصل وطير الخبر الى ملكه فجاءه الامر بمبارحة الجزائر فبارحها بمن معه من الفرنساويين المقيمين في الجزائر ثم ان الباشا عدا على من تأخر في البلد من ضعفائهم فاستاصلهم وخرب قلعة دي لاكار وكل بناء للفرنسيس في الجزائر وبونه وبوصول القنصل الى باريز جهزت دولة فرنسا اساطيلها وبعثتها الى الجزائر لنظر الاميرال كوليت فنازلها يغاديها القتال ويراوحها واستمر محاصراً لها نحو ثلاث سنين حتى لانت قوته ونفدت ذخائره وانقرض معظم جيشه وتكسرت اكثر مراكبه وكانت خاتمة امره بقتله ذكر بعض المؤرخين ان النفقة على هذه الحملة كانت اكثر من عشرين مليون فرنك واما حكومة الجزائر فلم يلحقها كبير ضرر ولما علم حسين باشا ان دولة فرنسا لا ترفع يدها عن الجزائر وانها تراجع

منازلتها لا محالة اخذ في تثقيف البلد وتحصين حوزتها ثم انتقل باهله وحاشيته الى القصبة وفي سنة خمس واربعين ومائتين والف هجرية وتسع وعشرين وثمانمائة والف ميلادية بعثت دولة فرنسا معتمدها دي لابر الى الجزائر يطلب الترضية من الباشا فما يلتفت اليه ورده وبعد اقلاعه اطلقت عليه القنابل من برج المرسى واتصل الخبر بملك فرنسا ففاوض اهل دولته فوسطوا محمد علي باشا خديوي مصر ان ينصحه فارسل له كتابا ينصحه ويحذره ويعلمه به بان العاقبة وخيمة فلما قرأه حسين باشا قال للرسول بلغه سلامي وقل له يأكل الفول ولما وصل هذا الجواب الى الخديوي عرف الحكومة الفرنسوية بعدم تاثير نصيحته له فاجمعوا على حرب الحكومة الجزائرية ومناجزتها فجمعوا جنودهم وكانوا اربعة وثلاثين الفا مع مائة واثني عشر مدفعا واستاجروا اربعمائة مركب وسيرتها من طولون الي الجزائر لنظر الاميرال دوبري في احدى وعشرين ذي الحجة سنة خمس واربعين ومائتين والف هجرية والتاسع عشر من يونيه سنة ثلاثين وثمانمائة والف ميلادية تعدل بها عن مرسى الجزائر الى مرسى سيدي فرج القريبة من الجزائر وكانت خالية من العمران الا شرذمة قليلة من العسكر كانت في برج هناك فلما اطلت عليهم مراكب فرنسا تفرقوا وبوصول العمارة الى المرسى اخذت الجنود تنزل الى البر بمهماتها ورفعوا رايتهم على البرج واتصل الخبر بباشا الجزائر فارسل في المدائن والضواحي ينادي بالجهاد وعقد لصهره يحيى آغا على قتال العدو فنهض من الجزائر في الحشود والعساكر والتحم القتال بين الفريقين فكانت الدبرة على الاغا وجموعه ثم تلاحقت الجيوش من وهران وقسنطينة وتيطرى وزحف بهم الاغا في السابع والعشرين من ذي الحجة على معسكر الفرنساوبين وحملوا عليه حملة رجل واحد واستمروا حتى ادخلوه الخيام ووضعوا راياتهم على الاستحكامات فبهت الفرنسيس من تلك الحملة وتراجعوا وعززتهم فرقة الطوبجية وردوا الكرة على الجيوش الجزائرية فاخرجوهم من المعسكر وهزموهم وتبعهم العدو الى ان ادخلهم معسكرهم في استاوالي ثم اخرجهم منه واستولى عليه بما فيه من الذخائر والمهمات وعرف ذلك اليوم بيوم استاوالي واجتمع في الجزائر حشود العرب والبربر للنهب والسلب بدعوى الجهاد وفي الثالث من محرم سنة ست واربعين ومائتين والف الموافق للخامس والعشرين من يونيه سنة ثمانمائة وثلاثين نهض يحيى اغا من الجزائر بتلك الحشود وانتشب الحرب بينه وبين الفرنساوبين فانهزم يحيى اغا وحشوده فتعقبهم العدو الى ان تجاوز استحكامات ابي جارية واستولى عليها بما فيها من المدافع والمهمات

وخيموا عندها وقوى طمعهم في الاستيلاء على الجزائر وفي صبيحة ثامن المحرم ارتحلوا من ابى جارية وضربوا معسكرهم في اطراف البساتين وفي عاشر المحرم اطلوا على البلد وسلطوا عليها المدافع واخذوا يعقرون الاشجار ويعفون الآثار واخذت النار في برج مولاي حسن وكانت فيه خزينة البارود فأحترقت وتطايرت حجارة البرج على البلد فدمرت المنازل ومات خلق كثير تحت الردم وعظم الكرب في مدينة الجزائر واستولى القلق على اهلها وتنبه حاكمها من غفلته ولما علم انه قد فاته التدارك استأمن لنفسه واهله وجميع الاهالي فامنه قائد الجنود الفرنساوية المارشال على شروط وقع الاتفاق عليهـــا

✻ ذكر المعاهدة الواقعة بين قائد العسكر الفرنساوي بورمون ✻
✻ وبين حسين باشا في الثالث عشر من المحرم سنة ✻
✻ ست واربعين ومائتين والف هجرية والخامس ✻
✻ من يوليه سنة ثلاثين وثمانمائة والف ميلادية ✻

اولاً كافة القلاع المختصة بمدينة الجزائر وابواب المدينة تسلم للعساكر الفرنساوية في صباح السادس من يوليه الساعة العاشرة ثانياً يتعهد القائد العمومي الفرنساوي ان يترك للباشا امواله المختصة به ثالثاً ان يكون لحضرة الباشا الحرية بان يتوجه مع عائلته وامواله الى المحل الذي يرغبه وفي مدة اقامته في مدينة الجزائر يكون هو وعائلته تحت حماية القائد العمومي الفرنساوي وان الباشا وعائلته يكونون تحت حرس مخصوص رابعاً ان القائد العمومي يمنح هذه الحماية المعطاة لحضرة الباشا لكافة قواد العساكر الجزائرية خامساً تعطى الحرية للديانة المحمدية وللمكاتب الاهلية ولديانتهم ولاملاكهم ولتجارتهم واصنائعهم وان لا يعارضوا في ذلك وان نساءهم محفوظات معتبرات سادساً ان مبادلة هذه المعاهدة تكون غداً الساعة العاشرة صباحاً وتدخل العساكر قلعة القصبة ويقيمون في قلاع المدينة والشطوط البحرية وفي الغد صباح اليوم السادس من يوليه والثالث عشر من المحرم سنة ست واربعين ومائتين والف في الساعة التي وقع عليها الاتفاق دخلت جنود فرنسا من الباب الجديد في اعلا المدينة وانزلت رايات الدولة العثمانية من القصبة والابراج وارتفعت رايات فرنسا عليها وتفرقت الجنود الفرنساوية في البلد وتم استيلاء فرنسا على مدينة الجزائر وبلغوا امنيتهم التي

كانوا يتمنون الحصول عليها منذ سنين عديدة غير مبالين بوفاء المعاهدة ولا ملتفتين للقيام باعباء المعاقدة وانقرضت الحكومة الجزائرية وانتثر سلكها وكانت مدتها فيها ثلاثمائة وخمساً وثلاثين سنة وثلاثة عشر يوماً تقريباً ولله عاقبة الامور وبعد استقرار العساكر الفرنساوية في المدينة انتقل الباشا وارباب الحكومة الى خارج البلد وخلفهم فيها زوءساء الجنود الفرنساوية وشاع امر الجزائر فاهتزت له المشارق والمغارب وعد عند المسلمين من اعظم النوائب ولو كانت حكومة الجزائر مستعدة لحماية حوزة بلادها آخذة بالحذر من مباغتة العدو لها وكانت جنودها كاملة الاستعداد متمرنة على الحروب عالمة بطرقها ما وصل عدوها الى مرغوبه منها في اقرب مدة وعلى ايسر وجه ولكن استيلاء الكبر والعجب والتعاظم علي رجالها مع ما بلغوه من البذخ والترف اداهم الى اهمال الامور وعدم الاكتراث بها كما وقع بالاندلس ليقضي الله امراً كان مفعولا

﴿ ذكر اخبار الفرنسيس بعد استيلائهم على الجزائر ﴾

اول ما ابتدأ به قائد الجنود الفرنساوية في الجزائر رتب مجلساً من روءساء الجنود لضبط خزائنها من الاموال والجواهر والمهمات الحربية والذخائر فتحصل من من ضبطهم على ما قيل من الذهب والفضة وقيمة الجواهر ثمانية واربعون مليوناً وستمائة الف وثمانون الفاً وخمسمائة وسبعة وعشرون فرنكاً ومن الصوف والحنطة والشعير وغيرها ما يبلغ قيمة ثلاثة ملايين من الفرنك ومن المدافع والبنادق والبارود والرصاص والقنابل وغيرها من آلات الحرب مع ثمن الاملاك الاميرية داخل البلد وخارجها ما قيمته خمسون مليوناً من الفرنك ثم حمل الباشا مع اهله واتباعه الى نابولي بطلب منه فاقام فيها مدة ثم انتقل منها الي الكورنه ثم الي الاسكندرية ولما وصلها احتفل به محمد علي باشا واطلعه على المهمات الحربية وغيرها وصنع له مأدبة حضرها الاعيان واكابر البلدة وفي اثناء الطعام اثنى حسين باشا على الخديوي ومدح اعماله وهمته في اعمار مصر وترقيها فاجابه الخديوي بقوله يا حضرة الباشا ان جميع ما رايته واستحسنته كان منشؤه من اكل الفول وكان ذلك منه تذكاراً له فيما سلف من الجواب عند قراءة الكتاب فتغص حسين باشا وتوجه لمحله متالماً وبعد ايام قليلة توفي سنة اربع وخمسين ومائتين والف هجرية ولما كثر الهرج بين الانكشارية والجيش الجزائري جمعهم القائد العمومي وحمل اكثرهم الى نواحي ازمير ورخص للاغنياء منهم في الاقامة بالجزائر ريثما يبيعون

عقاراتهم وامتعتهم وبعد فراغهم من اشغالهم حملهم الى جهات مختلفة ودوّن الدواوين وجند من اهل المدينة جنداً بلدياً وبنى قواعد حكومتهم في الجزائر على اظهار الهيبة ومراعاة امور الشريعة الاسلاميـة واحترام المساجد وتعظيم العلماء وحرية العوائد وتلطف ما شاء في امالة القلوب اليهم وبذل الاموال ترغيباً حتى يلين اليهم القويُّ ويدخل في طاعتهم الابيُّ وظن ان سياسته هذه كافية في الاستيلاء على سائر المغرب الاوسط ولم يعلم ان دون ما اراد خرط القتاد وقد ظهر لهم بعدحين ان في عين اليقين حروباً يشيب لها الوليد ويضعف لديها القوي الشديد الى ان نالوا غاية مطلوبهم وحصلوا على نهاية مرغوبهم وذلك تقدير العزيز العليم

﴿ ذكر خروج الماريشال بورمون الى البليدة ورجوعه مهزوماً ﴾
﴿ وما جرى بعد ذلك من الحوادث ﴾

بعد ان اتمَّ القائد العمومي اشغاله الابتدائية في الجزائر خرج منها ثالث صفر سنة ست واربعين ومائتين والف الموافق للخامس والعشرين من يوليه في طائفة من الجند الى البليدة فتلقاه اهلها وادوا طاعتهم ودخل البلد وكان ابو مرزاك التركي حاكم تيطرى قد دعاه اليها ووعده بطاعة اهل تلك النواحي ولما شاع الخبر تداعى الناس الى الجهاد ونادوا به في جبال متيجة القريبة من البليدة فهرعوا اليها وصمدوا للمهاجمة وفي غلس اليوم الثالث من دخول القائد العمومي اقتحموا البلد واستاصلوا اكثر الجند الفرنساوي وفرَّ القائد فيمن افلت من الجند الى الجزائر فدخلها على اسوأ حال وشاع خبر هذه الواقعة فاكبرها الناس واستخفوا امر الفرنسيس وفسدت قلوب اهل الجزائر عليهم وضعف ما كان عندهم من الهيبة لهم وانحط قدر القائد بينهم وقارن ذلك الاضطراب الواقع في الجزائر بين الجنود البرية والبحرية في دعوى التغلب على الجزائر فكل فريق ادعي ذلك واتصل بهم ان الامة في فرنسا ثاروا على الملك وخلعوه وابدلت الدولة الملكية بالدولة الجمهورية وكان القائد من حزب الملكية فايقن بالعزل وبعد ايام حضر الامر بعزله وتعيين الجنرال كلوزيل حاكماً على الجزائر وبحضوره باشر الاحكام وسافر الماريشال بورمون الى مالقة من بلاد الاندلس مستصحباً قلب ولده المقتول في معركة سيدي خلف بالجزائر ثم ان الجنرال كلوزيل طمحت عينه الى الاستيلاء على امصار القطر فبعث الى حاكم وهران وحاكم قسنطينة يدعوهما لطاعة دولته فاجابه صاحب وهران الى

ذلك واخذ اهلها في الخروج منها الى تلمسان ومعسكر وغيرهما ولم يتخلف فيها الا الحاكم حسين باي وجنده وطير خبره بالاجابة على ان يؤمنه الجنرال كلوزيل على نفسه واهله ومن معه فاسعفه الجنرال بذلك وسير ولده الاكبر في عدة مراكب حربية اليه فدخل وهران واستلم زمامها من يد حسين باي في تاسع رجب سنة ست واربعين ومائتين الموافق خمسة وعشرين دسمبر سنة ثلاثين وثمانمائة والف ميلادية وذلك بعد ستة اشهر من دخول الجزائر ثم لحق حسين باي ومن معه بالجزائر وعومل بما عومل به حسين باشا ولما بلغ احمد باي حاكم بسكره امر الجزائر جمع الجيوش وزحف الى قسنطينة حاضرة الولاية فخرج اليه حاكمها محمود باي ابن جاقر باي فدافعه عنها الى ان وقع الخلل في جيشه وتفرق عنه ودخل احمد باي الى الحاضرة وفر محمود الى جبال البربر فاغتاله بعضهم وساق رأسه الى احمد باي ثم وصله رسول الجنرال بكتابه يدعوه الى طاعة فرنسا فقتله ومزق الكتاب فاستشاط الجنرال غيظًا وارسل الكونت دي مريمون في الاسطول الى بونة وكان عاملها من قبل احمد باي قد نفرت من ظلمه قلوب اهلها فلما اطل عليهم اسطول فرنسا اظهروا له اشارة السلم وفر العامل ومن كان معه من الحامية ولحق الجميع بقسنطينة وتقدم دي مريمون الى البلد فاستولى عليها وقبل الاستيلاء على وهران وبونة انتقض ابو مزراك والي تيطرى ونكث طاعة فرنسا وجاهر بالحرب فخرج اليه كلوزيل من الجزائر في ثامن عشر نوفمبر سنة ثلاثين وثمانمائة والف واقام اياماً في البليدة ثم سار قاصداً المدية حاضرة ولاية تيطرى وزحف اليه ابو مزراك في جموع العرب والبربر فالتقى الجمعان بثنية موازيه واشتد القتال فانهزم ابو مزراك وجموعه واستمر كلوزيل سائرًا الى الحاضرة فدخلها في الثالث والعشرين منه وتلقاه اهلها مطيعين فولى عليهم مصطفى بن عمر وفي اثناء اقامته في المدية استامنه ابو مزراك على نفسه فامنه ولما حضر عنده اعتقله وكر راجعًا به الى الجزائر ومر في طريقه بالبليدة فوجد القبائل المجاورة لهـا قد دخلوها واستاصلوا الحامية الفرنساوية ونهبوا الذخيرة فاستمر سائرًا على وجهه الى الجزائر موقنًا بانه لا طاقة له على اذعان القبائل والشعوب الجزائرية وان جيوشه غير كافية في حملهم على الطاعة مع ما عليه فرنسا من الارتباك واختلاف الكلمة بين الاحزاب الملكية والجمهورية فاستجلب دي مريمون وجنده من بونة لما علم انه لا يجلب الناس الى طاعة فرنسا الا امراء منهم او من الاتراك فولى مصطفى بن عمر

على مدينة المدية و بعث الى صاحب تونس حسين باشا من اولاد حسين بن علي يطلب منه بعض المترشحين للولاية من عائلتهم فبعث اليه من اختاره من اقاربه فولاه على مدينة وهران في اوائل فبراير سنة احدى وثلاثين بعد ان اشهد على نفسه انه فرنساوي وادّى يمين الامانة على ذلك ثم اخذ يدس الى الاتراك القاطنين في مدن الداخلية كتلمسان ومعسكر ان الفرنسيس اجمعوا على ان يجعلوا في الجزائر حكومة تركية تكون تحت حمايتها و بعد تأسيس امورها يتخلون عنها و يسلمون امورها اليهم وجعل توليته على وهران دليلاً على صدق خبره فركنوا الى قوله و بعثوا اليه بطاعتهم سرّا ثم فشا خبرهم وانتشر ذكره فقامت عليهم الاهالي في كل جهة واستأصلوا الكثير منهم واعتصم اتراك تلمسان بقلعة المشور ثم عزل كلوزيل عن سخط من دولته ولحق بفرنسا وتولى الجنرال تريزين وتعين الجنرال بويه حاكماً على وهران و بوصوله اليها رجع التونسي الى اهله فعلم العرب ان اشاعة التونسي محض سياسة من الفرنساو بين لتفريق الاتحاد فكفوا عن الاتراك وسالموهم ورجع الامر الى ما كان عليه من الاتحاد وجمع الكلمة على الجهاد وكان ابن ابي مزراك بلغه ان كلوزيل اشخص والده الى الاسكندرية منفياً فثار في تحلة من تيطرى ودعا الناس الى الجهاد وجمع الجيوش ونازل المدية وضيق على اهلها فطار الخبر الى الجنرال برتزين فسير جيشاً لانقاذ عاملهم مصطفى بن عمر فتعرض لهم ابن ابي مزراك باقرب من البلد وناوشهم القتال ثم تمكنوا من دخولها وانقلبوا بعاملهم وحاميتهم راجعين الى الجزائر ولما احتلوا بمضايق جبال موزايه احاطت بهم جموع القبائل تحت راية ابن ابي مزراك والتحم الفريقان واستمر القتال في حال سيرهم واقامتهم الى قرب الجزائر ووقع الفشل في عساكر فرنسا فقتل اكثرهم وانتهبت اثقالهم ولم يصل الى الجزائر الا القليل منهم ثم ارتدّ ابن ابي مزراك بجموعه الى المدية فاستولى عليها واستمر فيها الى ان استولى عليها سيدي الوالد رحمه الله وكانت هذه الواقعة نزلاً للجنرال تريزين في داخلية الجزائر وفي تلك الايام ظهر الحاج علي بن السعدي في جبال زواوه ودعاهم الى الجهاد واجتمعت كلمتهم عليه وكان الجنرال برتزين بعد واقعة المدية جمع اعيان الجزائر وامرهم ان يختاروا منهم من يصلح للولاية على العرب والبربر في داخلية البلاد ويكون واسطة في ميلهم الى طاعة فرنسا فوقع اختيارهم على السيد محي الدين بن السيد علي مبارك لشهرته في تلك النواحي فولاه الجنرال ولقبه آغة العرب على اصطلاح الحكومة الجزائرية

فخرج الى قريته القليعة على مسافة قريبة من الجزائر وبث رسله في القبائل يدعوهم الى الطاعة وبينما هو كذلك اذ عصفت ريح ابن السعدى وشاع انحداره من جبال زواوه الى سهل متيجه فاضطرب امر الآغا ولم يسعه الا اتباع السعدي فتوجه اليه بمن معه من القبائل واتخذها يدًا عنده فاكرم نزله ثم زحف ابن السعدي بجموعه الى الجزائر وخيم بوادي الكرمه على مسافة ساعتين منها وعاث جيشه في اطرافها واضطرب الجنرال برتزين ثم خرج بجنوده اليهم فاوقع بهم اولاً ثم رجعت الكرة عليه فانهزمت جيوشه وارتدوا على ادبارهم واتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون الى ان دخلوا الى المدينة وامتلأت ايدي الناس بالاسلاب والمهمات ورجعوا الى وادي الكرمة ثم زحفوا على المدينة ووصلوا الى باب عزون احد ابوابها نخام الجنرال عن اللقاء فانقلبوا راجعين الى اوطانهم تحت راية ابن السعدي ثم اخذ الجنرال تريزين يتلطف في استمالة القبائل بما امكنه واظهر الاغضاء عما وقع منهم فجنحوا للمهادنة معه وقدموا الآغا السيد محي الدين ابن السيد علي مبارك في عقدها فدخل الجزائر وعقدها مع الجنرال ثم رجع الى القليعة وانفتحت ابواب الجزائر للوارد والصادر من القبائل المجاورة لها ثم عزل الجنرال تريزين سنة سبع واربعين ومائتين والف هجرية واثنتين وثلاثين وثمانمائة والف ميلادية وتولى الجنرال الدوك دي روفيغو واحضر معه ستة عشر الف جندي لردع القبائل وحملهم على الطاعة ولما علم ان هذه السياسة لا تجديه نفعًا عدل عن التعسف الى التلطف واقام مدة على ذلك ثم ان فرحات شيخ بلد بسكره وما يليها من ايالة قسنطينية اظلم الجو بينه وبين صاحبها الحاج احمد باي فنزع الى الفرنسيس واوفد جماعة من اقاربه الى الجنرال الدوك دوفيغو فتلقاهم بالاكرام وتقبل طاعة شيخهم ثم انقلبوا الى شيخهم بانواع الهدايا الثمينة ولما وصلوا الى طرف سهل متيجة انقض عليهم جيش من قبائل الجبل فاستغنوا ما معهم وارتد الوفد راجعًا الي الجزائر نعظم ذلك عند الجنرال وبعد ان وقف على من فعل ذلك في ايام الهدنة حمله الغضب على الانتقام منهم فاغزاهم قائد جيوشه فدهمهم وقتل من لحق به منهم واخذ شيخهم اسيرًا الي الجزائر وبوصوله اشهروا قتله في السوق وشاع خبر هذه الواقعة فاستكبرها الناس وحسبوها نقضًا للهدنة من حاكم الجزائر فعادوا لما كانوا عليه من شن الغارات على ضواحي الجزائر والتعرض للوارد اليها والصادر وتحرك ابن السعدي بعد سكونه ونادى في تلك الجهات بالجهاد وقامت الحروب

بين جموع المسلمين وجيوش فرنسا ووقعت بينهم عدة وقائع كانت الحروب فيها سجالاً ولما استمر القتل في اهل متيجه دخل الكثير منهم في طاعة فرنسا وارتحلوا الى قرب الجزائر وترفع الباقون الى الجبال واخذ الناس حذرهم وعلموا ان الفرنسيس لا يكترثون بنقض العهود ولا يعبئون بالوفاء بها وهذه الحوادث كلها في ايالة الجزائر وايالة تيطري واما ايالة وهران فلم تنقطع الحروب فيها مع حاكمها منذ دخلها جيش فرنسا ثم ان آغة العرب لما رأى ان الامر تفاقم بين حاكم الجزائر والقبائل اهل داخليتها وعلم انه لا طاقة له بتلافي ذلك ارتحل من القليعة ولحق بجبال بني مناد ولم يزل مقيماً بين ظهرانيهم الى ان ظهر امر سيدي الوالد في ايالة وهران وتمشت له الطاعة الى ايالة تيطرى فبادر الى الدخول في طاعته واما السيد الحاج علي بن السعدي فانه لما احس من نفسه الكبر ولحقه الضعف والعجز ترك جبال زواوه ولحق سيدي الوالد في معسكر ولم يزل مشتغلاً بعبادة الله تعالى الى ان قضى نحبه وفي اثني عشر مايو سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة عرض للجنرال الدوك دي روفينو مرض الجأه الى الرجوع الى فرنسا وخلفه الجنرال افيزار موقتاً وفي ايامه تشكل القلم العربي في دوائر اقلام الحكومة وتعين له الملازم لامورسير وكان يكتب الخط العربي ثم ترقى في المناصب الى ان صار جنرالاً واشتهر في وطن الجزائر بابي هراوة وفي اول ابريل عزل الجنرال افيزار وتولى الجنرال فرارول وتمكن من مهادنة القبائل في ايالة الجزائر واستولى الفرنسيس على بسائط متيجة وسهولها وتوسعوا في مسارحها وقد انتهى الكلام على الحوادث الاولية للفرنسيس في الجزائر

﴿ ذكر حوادث المغرب الاوسط بعد تسلط الفرنسيس على مدينة الجزائر ﴾

اعلم ان الجزائر لما دخلت في حوزة الدولة العلية وانتظمت في سلك ممالكها ايام السلطان الغازي ياووز سليم خان على يد عروج بار بروس الاول واخيه خير الدين بار بروس الثاني اقامت الحكومة فيها لحماية البلاد وحفظ حقوق العباد وجرى حكمها حكم ممالك الدولة العلية لعهد السلطان احمد خان الثالث وفيه احست الحكومة بالقوة فاستبدت في احكامها وقد كان نفوذها مع استبدادها قاصرًا لا يتعدى المدن والقرى واما الجبال وظواعن العرب في البادية فان لهم ادارة تخصهم موكول امرها الى زعائهم ولما كانت الحكومة غير قادرة على تنظيمهم في سلك الطاعة

القت بينهم دسائس العداوة والبغضاء فتفرقت كلمتهم وضعفت شوكتهم و بهذا كان استحواذها عليهم وهذه السياسة من اكبر الوسائل التي تتوصل بها الامة القليلة الاجنبية الى الاستيلاء على الامة الكثيرة الوطنية كما قيل (فرق واحكم) ولما استولى الفرنسيس على مدينتي الجزائر ووهران وتمكن منهما تفرق الناس فرقًا وسلكوا من الخلاف طرقًا وفسدت السبل ولا غرو فان سكانها عرب و بربر تختلف الطبع والمحتد ومن شان اهل البادية اثارة الفتن ليتهيأ لهم ما اعتادوا عليه من الغزو لتعيشهم فترى كل فريق يترصد فرصة الوثوب على مقابله لا سيما وقد كانت الحكومة الجزائرية احكمت عرى هذه الضغائن بينهم ولما آل الامر الى ما آل اليه ازداد هيجانهم وسرى داعي الانتقام في نفوس العامة وصار كل من له ثار يحاول الاخذ به فطوي لذلك بساط الامن ووقف دولاب التجارة وتعطلت الزراعة فانتهز العدو الفرصة واكثر من شدة الغارات على الضواحي ولما اشتد الامر وكثر القتل وعظم الكرب تداعى اهل العقد والحل من الاشراف والعلماء والاعيان للنظر في من اجتمعت فيه شروط الامارة ليبايعوه فيجمع كلمتهم و يقوم بشوونهم وحيث ان سيدي الجد كان ممن اجتمعت فيه الشروط على الوجه الاكمل وكان اعصف القوم ريحًا وابعدهم صيتًا وانفذهم كلمة اجتمع الناس اليه وراودوه على الامارة فاعتذر اليهم بكبر سنه فاوفدوا جماعة من اعيانهم الى صاحب المغرب الاقصى لاتصال بلادهم ببلاده فاكرم وفادتهم وعقد لابن عمه علي بن سليمان على امارة المغرب الاوسط و بعثه معهم فلقيه الناس بالطاعة واذعنوا له وسارت خيله في البلاد الى مليانه شرقًا و بث العمال وجبي الاموال فلم يحل هذا الصنيع في نظر دولة فرنسا لمنافاته لمقصودها ولم تتغافل عنه و بعثت الى سفيرها بطانجة ان يقدم على الفور من قبلها التنبيهات المشددة الى سلطان المغرب و ينذره بعداوة دولته و يتهدده بالحرب ان لم يرفع ابن عمه عن البلاد فاخذ الرعب منه كل مأخذ واسترجع ابن عمه بعد ان اقام بتلمسان نحو الستة اشهر وترك احوال المغرب الاوسط على ما كانت عليه من الاضطراب وتسلط الغوغاء فاجتمع اعيانه ورفعوا شكايتهم الى سيدي الجد مرة ثانية والحوا عليه في قبول بيعتهم له على الامارة والجهاد فابى قبول الامارة وقبل القيام بامر الجهاد فرضي القوم بذلك لما فيه من تشاغل الغوغاء والسفلة عن الفساد واخذت الحشود من ذلك اليوم ترد على حضرته في القيطنة فكان ينهض بهم الى وهران ينازلها و يأخذ بخنقها وجرت بينه و بين حاكمها الجنرال بو يه حروب ظهر فيها من

اقدام سيدي الوالد وشجاعته وحسن سياسته ما قيد الابصار عليه ورشحه للامارة وجعله حريًا بها واستمر سيدي الجد مواظبًا على الجهاد بعزم لا يرده راد ولا يصده عنه صاد وله فيه وقائع كثيرة اعظمها واقعتا خنق النطاح وواقعة برج راس العين

﴿ ذكر واقعة خنق النطاح الاولى ﴾

في اواخر ذي الحجة سنة سبع واربعين ومائتين والتاسع والعشرين من مايه سنة اثنتين وثلاثين جهز سيدي الجد سرية عقد عليها للسيد عبد القادر بن زيان الزياني وبعثه لاستكشاف احوال العدو بوهران فلما قرب منها تراءى له العدو معسكرًا في ساحتها بالموضع المعروف بخنق النطاح فاقام يراقب حركاته وطير الخبر الى سيدي الجد ينهض من القيطينة وخيم بوادي سيك وارسل في الجهات ينادي بالجهاد وبعد ان تلاحق الناس به سار بهم الى ساحة وهران وخيم بالقرب من العدو وبات المسلمون يوقدون النار على التلال المطلة على البلد وفي صبيحتها زحف كل من الفريقين الى الآخر ودارت بينهما رحى الحرب واشتد البأس وكثرت القتلى من الفريقين وكان سيدي الوالد بين الصفوف يحرض المسلمين على الثبات ويأمرهم بالتقدم فتحامل عليه احد فرسان العدو برمحه فمرت في خلو الابط الايسر فشد عليها بعضده وهوى بسيفه على الفارس فقده نصفين ولما تولى النهار وقعت الهزيمة في عسكر الفرنسيس فولوا مدبرين واتبعهم المسلمون الى الابواب وامتلأت الايدي من اسلابهم وذخائرهم وفي هذا اليوم طعن فرس سيدي الوالد وكان اشقر اللون ثمان طعنات بحربات العدو ثم رماه احدهم بالرصاص في راسه فوقع به ولم يبال بذلك بل استقل واقفًا وثبت في مركزه الى ان قدم اليه اتباعه غيره فركبه واستمر على القتال الى ان انتصر المسلمون على عدوهم وقد اشار لذلك سيدي الوالد في مقصورته بقوله

واشقر تحتي كلمته رماحهم * مرارًا ولم يشك الجوى بل وماالتوى

﴿ ونص المقصورة ﴾

توسد بمهد الامن قد مرت النوى * وزال لغوب السير من مشهد الثوى
وعز جيادًا جاد بالنفس كرهـا * وقد اشرفت مما دعاها الى النوى
وكم قد جرت طلقًا بنافي غياهب * وخاضت بحار الآل من شدة الجوى

وكم من مفازات يضل بها القطا * قطعت بها والذئب من دولها عوى
لنا قد غدت مثل القسي ضوامرًا * وتلك سهام للعدى وقعها شوى
الى ان بدت نيران اعلامنا لها * وما ضوء نيران الكرام له انزوا
ولا سيما اهل السيادة مثلنا * بنو الشرف المحض المصون عن الهوى
فقالت ايا ابن الراشدي لك المنا * كفى فاترك التسيار واحمدوجى النوى
الا يا ابن خلاد تطاولت للعلى * و باينت ماواك الكريم وما حوى
فمن اجل ذا قد شد في ر بعنا لها * عقالاً وناديتا لك العز قد ثوى
وحل بكهف لا يرام جنابه * فمن حل فيه مثل من حل في طوى
فانا اكاليل الهداية والعلى * ومن نشر علياهم ذوي المجد قد طوى
ونحن لنا دين ودنيا تجمعا * ولا فخر الا مالنا يرفع اللوا
مناقب مختارية قادرية * تسامت وعباسية تجدها احتوى
فان شئت علمًا تلقني خير عالم * وفي الروع اخياري غدت توهن القوى
لنا سفن بحر الحديث به جرت * وخاضت فطاب الورد ممن به ارتوى
وان رمت فقه الاصبحي فعج على * مجالسنا تشهد لداء العنا دوا
وان شئت نحوًا فالحنا تلق ماله * غدا يذعن البصري زهدًا بما روى
وانا سقينا البيض في كل معرك * دماء العدى والسمر اسعرت الجوى
الم ترَ في خنق النطاح نطاحنا * غداة التقينا كم شجاع لها لوى
وكم هامة ذاك النهار قددتها * بحد حسامي والقنا طعنه شوى
واشقر تحتي كلمته رماحهم * مرارًا ولم يشكُ الجوى بل وما التوى
بيوم قضا نحبًا اخي فـارقى الى * جنان له فيها نبيُّ الرضى اوى
فما ارتد من وقع السهام عنانه * الى ان اتاه الفوز برغم من عوى
ومن بينهم حملته حين قد قضى * وكم رمية كالنجم من افقه هوى
و يوم قضى تحتي جواد برمية * وبي احدقوا لولا أولو البأس والقوى
واسيافنا قد جردت من جفونها * وردت اليها بعد وردٍ لقد روى
ولما بدا قرني يمناه حربة * وكفي بها نار بها الكبش يشتوى
فايقن اني قابض الروح فانكفا * يولي فوافاه حسامي مذ هوى
شددت عليهم شدة هاشمية * وقد وردوا ورد المنايا على الغوى
نزلت ببرج العين نزلة ضيغم * فزادوا بها حزنًا وعمهم الجوى

وما زلت ارميهم بكل مهند * وكل جواد همه الكرّ لا الشوى
وذا دابنا فيه الحياة لديننا * وروح جهاد بعدما غصنه ذوى
جزى الله عنا كل شهم غدت به * غريس لها فضل اتانا وما انزوى
فكم اضرموا نار الوغى بالظبي معي * وصالوا وجالوا والقلوب لها اشتوا
وانا بنو الحرب العوان بها لنا * سرور اذا قامت وشانئنا عوى
لذاك عروس الملك كانت خطيبتي * كفجأة موسى بالنبوة في طوى
وقد علمتني خير كفوء لوصلها * وكم رد عنها خاطب بالهوى هوى
فواصلتها بكرًا لدي تبرجت * ولي اذعنت والمعتدي بالنوى ثوى
وقد سرت فيهم سيرة عمرية * واسقيت ظاميها الهداية فارتوى
واني لارجو ان اكون انا الذي * ينير الدياجي بالسنا بعد ما لوى
بجاه ختام المرسلين محمد * اجل نبي كل مكرمة حوى
عليه صلاة الله ثم سلامه * وآل وصحب ما سرى الركب للوى
وما قال بعد السير والجد منشد * توسد بمهد الامن قد مرت النوى

وفي اليوم الثاني قفل سيدي الجد بجيوشه الى وادي سيك واقام اياما ثم ارتحل الى القيطنة واذن للناس في الرجوع الى اوطانهم ليستعدوا لمثلها

﴿ ذكر واقعة خنق النطاح الثانية ﴾

وبعد ان استراح الناس من الواقعة الاولى اصدر الامر بالنفير الى وهران وعقد سيدي الجد اللواء لسيدي الوالد وتخلف هو لانحراف صحته فنهض الوالد الى وادي سيك وتلاحقت الجموع به ثم ارتحل الى عين الكرمة على مسافة قريبة من وهران وكان الجنرال بويه جاءه المدد من فرنسا وبلغه خبر الوالد فضرب معسكره في خنق النطاح وقسم جنده ثلاث فرق فرقتين للكفاح وفرقة للحاماة واما الوالد فانه ارتحل من عين الكرمة وعسكر بازاء العدو وقسم جنوده خمس فرق فرقتين للقتال وفرقتين للدفاع وفرقة جعلها كمينًا وراء العدو ثم زحف اليه فالتقى الفريقان واظلم الجو بدخان البارود وعثير النقع فلم تطل المدة حتى كانت الدبرة على العدو فانكسرت ميمنته ووقعت الهزيمة في القلب فولوا مدبرين يطلبون ابواب البلد فلقيهم الكمين واستلحم اكثرهم ودخل الجنرال بويه الى البلد مغلولاً في شرذمة قليلة من جنده وفي هذا اليوم استشهد السيد احمد ابن عمنا السيد محمد سعيد وهو ابن خمس عشرة سنة بعد

ان ظهر من اقدامه وتحامله على صفوف العدو ما اوقف العقول وادهشها وعندما وقع عن فرسه ميتاً بين الصفوف هجم الوالد في طائفة من وجوه الابطال جعلهم ردءا له تخرق صفوف العدو واحتمل ابن اخيه من بينهم فعجب الاعداء لهذه الحملة واعتقدوا ان القتيل امير فجمعوا حولهم وقوتهم على ان يمنعوا عنه الهاجمين ففشلوا وكان هذا الولد الشهيد من اعز اقارب الوالد اليه لحسن هديه ونجابته واستشهد في هذه الصدمة من الاعيان نحو المائة ومن الغد قفل الوالد بجيوشه المظفرة الى حضرة سيدي الجد فاعطاهم الدستور الى اوطانهم

﴿ ذكر واقعة برج راس العين ﴾

ولما انهزم الجنرال بويه واستلحم اكثر جنده بعث صريخه الى حاكم الجزائر فامده بالجند والذخيرة ثم ضرب معسكره فيما بين البلد وبرج راس العين في الجهة الغربية من وهران وبلغ الخبر الى سيدي الجد فاخذ يتأهب للحرب وبعث اوامره الى النواحي من عرب وبربر يدعوهم الى الجهاد ويخبرهم ان العدو عسكر خارج وهران في غاية مما امكنه من الاستعداد فجاء الناس الى حضرته ارسالاً وانتهى اليه ان العدو عامل على مباغتته فبعث العيون يراقبون حركاته ثم خرج من حضرته القيطنة الى وادي سيك حسب عادته وارتحل منه وعقد اللواء لسيدي الوالد فواصل سيره الى ان اطل على وهران بجنوده وباتوا ليلتهم تلك يوقدون النيران في جميع انحاء البلد معلنين بالتهليل والتكبير فسقط في يد الجنرال بويه وفاته ما كان اضمره من اخذ المسلمين بغتة ومن الغد عبى الوالد كتائبه وجعل كل قبيلة على حدتها وعين عليها قائداً منها وامر الجيوش بالزحف الى العدو فتقدموا حتى انتهوا الى البرج فانزل المشاة الى الخندق المحيط به الممتد الى البلد ورتب طائفة من الفرسان لحماية المشاة من مهاجمة العدو وباقي الجموع حملت على معسكر الجنرال وانتشبت الحرب واضطرمت نارها واخذ العدو يرسل قنابله على جيوش المسلمين كالمطر فلا يزيدهم ذلك الا شدة وتقدماً واشتد القتال وجعل الوالد يتردد بين المشاة والفرسان وسائر صفوف المسلمين يحرضهم على الثبات والصبر فى مجال الموت ويذكرهم بايام الله وبينما هو كذلك اذ عدا عليه احد فرسان العدو بسيفه فحاد عن سرجه فوقعت الضربة على الفرس فوقع ميتاً لحينه فركب غيره واستمر على ما كان عليه من التحريض وبلغه ان المشاة فرغت ايديهم من الفشك فاسرع اليهم بما يكفيهم منه يومهم ذلك ولم يبال في ذهابه وايابه بقنابل

العدو المتصلة وصواعقه المتتابعة من البرج والبلد وظهر من شجاعته في ذلك اليوم ما اشتهر في اقطار المغرب واتصل القتال بين الفريقين الى الليل فبات المسلمون في مراكزهم وانسل العدو ليلاً فدخل البلد وانحجر فيها واقام سيدي الوالد محاصراً له شهراً كاملاً ثم اقلع عنه لامور عرضت له

ذكر البيعة الاولى لسيدي الوالد

لما طال على اهل الوطن الامد وتوالى عليهم فيما بينهم الكرب والنكد وتسلط على بلادهم العدو ومنعهم القرار والهدو فتارة كانوا يدافعونه عن البلاد وآونة كان يقع بينهم الفساد والحرب والجلاد وسطا القوي على الضعيف وتطاول اللئيم على الشريف اجتمع الاشراف والعلماء واعيان القبائل من العرب والبربر وقدموا على حضرة سيدي الجد والزموه ان يقبل بيعتهم على الامارة لنفسه اولولده سيدي الوالد وحاجوه في ذلك بما اعجزه عن الاعتذار فامعن النظر في هذا الامر فرأى ان الاهتمام به واجب وتعين عليه شرعاً ان يقوم به لانه مسموع الكلمة نافذ الامر غير انه لما كان عاجزاً عن القيام باعبائه ورأى ان ولده المنوه به قد بلغ اشده وارهف حده وترشح للامارة وتاهل لها واستكملت فيه شروطها من الهدى وعلو الهمة وقوة الحواس وكمال الخلق وجمال الصورة وشرف النسب وعزة القوم والقوة والفتوة والعلم والحلم والحماسة والسماحة والعزم والحزم والتحفظ والتيقظ والاتقاء والارتقاء الى غير ذلك من افراد الفواضل والفضائل ومكارم الاخلاق ومحاسنها

لولا عجائب صنع الله ما ثبتت * تلك الفضائل في لحم ولاعصب

وعلم انه لامندوحة له عن الاجابة والقبول اما له او لولده فحينئذ استخار الله تعالى وقدم ولده للامارة ومدافعة اهل الشرك متوكلاً في نصره وتاييده على مالك الملك فذهبت البشائر بذلك في اقطار الوطن وعمت الناس واحياءه وقبل سيدي الوالد ما انشرح اليه صدر والده من امارته قائلاً انالها انالها فكان قبوله لها دليلاً على اقبالها وتلقيها بحول الله وقوته اصل استقبالها قد ادخرها الله له في الازل وهيأه لها ثم ابرزه للقيام بها عند حلول الاجل وتباشر الناس لذلك لما راوا من اقدامه للزحف واقتحامه الصف بعد الصف وشاهدوا فيه من الصفات العلية والنعوت السنية فاجتمع اشرافهم وعلماؤهم واعيانهم وتداعى صغيرهم وكبيرهم وخيموا بوادي فروحة من غريس عند شجرة الدردارة وهي شجرة عظيمة كانوا يجتمعون اليها للشورى بينهم

وجاء سيدي الجد في بنيه واقاربه وذويه ولما تلاحق الناس الذين يعتد بحضورهم للبيعة وجلس سيدي الوالد تحت الشجرة قام والده فبايعه على السمع والطاعة ودعا له ثم لقبه ناصر الدين وقام عمه سيدي الجد لأبي السيد على ابي طالب وبايعه وكذا الاخوة وسائر القرابة ثم الاشراف والعلماء والاعيان والرؤساء على حسب مراتبهم وطبقاتهم بايعوه على ما بايعه عليه والده ولا يخفى ما في وقوع هذه البيعة تحت الشجرة من الاتفاق الغريب وما فيه من الاشارة الى متابعة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم واقتفاء اثره في بيعة الرضوان التي نوه الله تعالى بذكرها وعظم قدرها في القرآن بقوله لقد رضي الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة قال المفسرون هي شجرة ام غيلان وكان صلى الله عليه وسلم في غزوة الحديبية نازلاً تحتها يستظل بها فبايعه المؤمنون على الموت كما قاله سلمة بن الاكوع واول من بايعه على ذلك ابو سنان الاسدي رضي الله عنه وبايع الناس على بيعة ابي سنان روي ذلك الطبراني عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما وهذه البيعة كانت سنة ست من الهجرة وبعد ان انتهت البيعة لسيدي الوالد ركب سيدي الجد الى مدينة معسكر حاضرة الامارة ولما ان دخلها وجد السرور والبشر قد عم عامة اهلها وقد طلع على اهل الصلاح فجرًا صادقًا وعلى اهل البغي والفساد نجمًا طارقًا فتهلل وجه الصالحين وايقنوا بصلاح الحال وتكدر عيش المفسدين وايقنوا بالوبال في الحال وفي المآل ثم اقبل الامير بعده في جموعه وكانت زهاء عشرة آلاف فارس فبرز اهل البلد احتفالاً به واستقبلوه في الموضع المعروف بخديبيه على مسافة نصف ساعة منها مظاهرين للطاعة وشعائرها فاقبل عليهم ببشره وابتسامه قبل كلامه وبعد ان تناول من طعامهم الذي كانوا اعدّوه لحضرتـه دعا لهم وحثهم على الطاعة والتزام الجماعة ثم ركب ليدخل البلد فاطلقت المدافع وغردت الموسيقات بما يطرب المسامع ونشرت الرايات والاعلام وبرزت المخدرات من القصور تثني على الايام فدخلها على احسن حال واتم منوال ونزل في دار الحكومة فجلس على كرسيه ودخل عليه اهل البلد ومن لم يشهد بيعة غريس افواجًا افواجًا لاداء البيعة ثم قام فدخل داره وخير والدتي فقال ان اردتِ ان تبقي معي من غير التفات الى طلب حق فلك ذلك وان ابيتِ الا ان تطلبي حقك فامرك بيدك لاني قد تحملت ما يشغلني عنك ثم خرج الى المسجد الجامع فصلى الظهر بالناس ثم خطب عليهم خطبة مبتكرة طويلة تحتوي على وعظ ووعد ووعيد وامرٍ ونهيٍ وحث على الجهاد وبعد الانصراف منه انفرد افاضل العلماء

تحرير صك البيعة فكتبه في مجلسهم العالم الجليل السيد محمد بن عبد القادر الشهير بابن آمنة خال الامير ونصه بحروفه بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد الذي لانبي بعده الحمد لله الذي جعل نصب الامام من مهمات الدين لتصان به النفوس والاموال وتجتمع كلمة المسلمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وآله واصحابه اجمعين وبعد فقد قال صلى الله عليه وسلم ان الله يحمي بالسلطان ما لا يحمي بالقرآن هذا في الزمان الذي فاض فيه العدل ونضب فيه الجهل فما بالك بزماننا الذي كثر فيه الباطل وانتشر وخفي فيه الحق ولم يظهر له اثر حتى ان اعداء الله الكافرين ملكوا كثيرًا من بلاد الاسلام وتشتت الكلمة واختل النظام ولم يجد الناس لقتالهم سبيلاً ولا من يكون للجهاد دليلاً فلجئوا الى الله تعالى وسالوه ان ييسر لهم من يقوم بامر دينهم فما وجدوا من تتفق عليه كلمة اهل الحل والعقد سوى السيد محي الدين ابن مصطفى بن المختار لكماله وكثرة ما عنده من الاعوان والانصار فطلبوا منه ان يبايعوه على السمع والطاعة فاعتذر اليهم بكبر سنه وبعد زمان طويل تكرر فيه طلبهم مرات ووقع الحاحهم تارات وراى ان النظر في هذا الامر قد تعين عليه واتاه بعض علماء غريس وهو من الصالحين فقال له ان اولياء الله تعالى قد اتفقوا على نصب ولدك عبد القادر لنصر دين الله ورآى ان ولده مستعد لهذا الامر فحينئذ وافقهم على نصبه ونصرته لكونه ذا حزم وعزم وشجاعة وعقل سليم وذات سليمة صالحًا لتنفيذ الاحكام فاجتمع اهل الحل والعقد وبايعوه من غير طلب منه للامارة ولامتابعة للنفس الامارة بل بايعوه رغماً عليه وطلبوا والده بالله تعالى وتوسلوا اليه برسول الله صلى الله عليه وسلم مدة تزيد على سنتين فوافقهم على بيعة ولده تطييبًا لخواطرهم ورعايةً لرفع الظلم عن الضعيف ودفعًا للفساد والتعنيف فحضر للبيعة جميع اهل غريس الحشم شرقي وغربي وعباسي وخالدي وابراهيمي وحساني وعوفي وجعفري وبرجي وشقراني وغيرهم كبني السيد دحو وبني السيد احمد بن علي والزلامطه ومغراوه وخلويه والمشارف وكافة اهل وادي الحمام واعلنوا جميعًا بطاعته ونصرته والرعاية له بحيث انهم يحمونه بما يحمون به انفسهم واموالهم وان ينصروه نصرًا مؤزرًا واتفق علماء الاقليم على بيعته وطاعته ولم يخالف منهم احد وهم في حال طوعهم واختيارهم وفرحوا به اشد الفرح نظرًا لما كانوا عليه من الضيق والترح وكل من سمع به من اهل الآفاق يزداد فيه رغبة وذلك لعلمهم بقوة عقله وشدة نجدته وصلاح رايه نعلى من بايع ان يبذل جهده في نصرته وعضده لقول الصادق الامين الدين النصيحة لله ولرسوله

ولائمة المسلمين ومن نكث نائما ينكث على نفسه حضر ما ذكر من العلماء والاشراف السيد الاعرج والسيد محمد بن حوًا بن يخلف واخوته والسيد محمد بن الثعالبي والسيد عبد الرحمن بن حسن الدحاوي واخوته والسيد محمد بن عبدالله ابن الشيخ المشرفي وقرابته وكافة اولاد السيد احمد بن علي حاصله جميع علماء غريس واشرافه حضروا لهذه البيعة الميمونة ورضوا بها وحضرها كاتبه محمد بن عبد القادر عامله الله بلطفه في الباطن والظاهر في الثالث من رجب الفرد سنة ثمان واربعين ومائتين والف هجرية الموافق للسابع والعشرين من نوفمبر سنة اثنتين وثلاثين وثمانمائة والف ميلادية ثم كتب جماعة من اعيان العلماء المشاهير على هذا الصك ما يؤذن بحضورهم للبيعة وشهادتهم بها على انفسهم وعلى سائر من حضرها فكتب العلامة سيدي الجد للام عم الامير شقيق والده السيد علي ابي طالب بن مصطفى بن المختار ما نصه الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله بعد انعقاد البيعة للامام المعظم والامير الجليل المفخم ابن اخينا السيد عبد القادر بن محيي الدين احيا الله بهما الدين واعانهما على القيام بامور اهله ودمر بهما الكفرة اولي العناد واهلك بسطوتهما اهل البغي والفساد بايعناه على السمع والطاعة وامتثال الامر ولو في ولد الواحد منا او نفسه وقدمنا نفسه على انفسنا وحقه على حقوقنا واني اوصيه بتقوى الله وطاعته في السر والعلانية والوقوف عند الحدود الشرعية وردّ مسائل الشرع اليه وبتشميره عن ساعد الجد في قطع شافة شياطين الانس اهل الاذاية كالمحاربين وقطاع السبل واهل الغيلة والسرقة وغيرهم من هذا القبيل ليتم بذلك امره ويتضح به تاييده ونصره وتشرق شمس الحق على القلوب وتطمئن بخدمته وطاعته الافكار ويسارع المؤمنون الى الانقياد والاذعان لتكاليفه واوامره. اللهم ايده وانصره نصرًا تعز به الدين والق التقوى في قلبه وقوة اليقين بجاه سيد الاولين والآخرين واحي به ما دثر من احكام الخلفاء الراشدين يامالك الدين والدنيا والآخرة وادم سرورنا وسرور جميع اهل محبته ومحبتنا واتم لنا المقصود بما ينقطع به قلب الجحود آمين كتبه علي بن المصطفى وكتب العلامة السيد ابن عبدالله بن الشيخ المشرفي ما نصه الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم بعد انعقاد البيعة للعالم النبيه الصدر الوجيه الناظم الناثر ابي محمد السيد عبدالقادر ابن عمدة الملة والدين شيخنا السيد محيي الدين ابن شمس الكمال شيخ مشائخنا واسلافنا ابي عبدالله السيد مصطفى بن المختار من اهل الحل والعقد والامضاء والردّ ممن ذكر اعلاه واطلاعنا على ما اتفق عليه السواد الاعظم وبه فاه لم يسعنا الا الموافقة

عليه والجنوح لما استندوا اليه فالله يلهمه رشده ولا يعدمه رفده وان ينصر به الدين الحنيفي ويظهر به من اموره كل خفي وان يصلح به وعلى يديه وان يجنبه راي المفسد والسفيه واوصيه بتقوى الله في علانيته وسره ونجواه ولقد وصينا الذين اوتوا الكتاب من قبلكم واياكم ان اتقوا الله قاله بفمه ورقمه بقلمه كاتبه عن عجل وانقلاب في وجل ابن عبد الله ابن الشيخ المشرفي الحسني عفا الله عنه وكتب العلامة السيد احمد بن التهامي ما نصه الحمد لله لما فتح الله للمسلمين ابوابه ويسر للخير اسبابه باجابة الولي الصالح والقطب السالك الناجح شيخ اهل الفضل والدين مولانا السيد محيي الدين لما طلبه منه المسلمون من تقديم ابنه الناسك الانجد العلامة الاسعد على الايالة الغربية وما انضاف اليها من الايالات فاجتمع من له اتصاف بالحل والعقد على نصرة السيد المذكور ومبايعته مذعنين متلقين تلك البيعة بالفرح والسرور نعقد له البيعة جميع من له دخول في تدبير الامور من عالم ومقري وشريف ورئيس من اي ناحية من اهل الراشدية وغيرها فبذلك ثبتت له البيعة الملكية على الخاص والعام يامر وينهي فلا يسقط من امره ونهيه ادنى شيء فعليه بتقوى الله فيما تولاه وهو ناصره ومعينه على ما اولاه وكان من جملة مبايعيه الفقير كاتبه احمد بن التهامي الحسني وكتب العلامة الاوحد السيد محمد بن حوا الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً ولما فسد الزمان وضاقت بالمساكين الاركان من كثرة النهب وقلة الامان ولم يجدوا من يصلح بامور المسلمين من الاعيان سوى من ذكر فاتفقت كلمة المعتبرين من اهل الوطن على البيعة للسيد المذكور بالاعلا وانا عبدالله من جملة من اتفق معهم على ذلك فنسال الله الغني الكريم الوهاب ان يسدده في جميع افعاله وان يمهد له البلاد ويصلح به الفساد ويهدي لطاعته العباد كتبه محمد ابن حوا وكتب العلامة السيد بالمختار بن عبد الرحمن بن روكش ما نصه الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم وعلى ما تضمنته رسوم العلماء في بيعة الامام المذكور وافق الموافقة التامة كاتبه بالمختار ابن عبد الرحمن بن روكش وبعد ان تم امر البيعة امر الامير تجلس العلماء ان يكاتبوا رؤساء القبائل في اطراف البلاد بامر البيعة وما وقع عليه الاتفاق وان يلحوا عليهم في الحضور لاداء بيعتهم كما اداها غيرهم فكتبوا ما نصه الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم اما بعد فاعلموا معاشر العرب والبربر ان الامارة الاسلامية والقيام بشعائر الملة المحمدية قد آل امرها الآن الى ناصر الدين السيد عبد القادر بن محيي الدين وجرت مبايعته

على ذلك من العلماء والاشراف والاعيان في معسكر وصار اميرًا لنا ومتكفلاً باقامة الحدود الشرعية وهو لا يقتفي آثار غيره ولا يحذو حذوهم ولا يخصص لذاته مصاريف زائدة على الحاجة كما كان الغير يفعله ولا يكلف الرعية شيئًا لم تامر به الشريعة المطهرة ولا يصرف شيئًا الا بوجه الحق وقد نشر راية الجهاد وشمر عن ساعد الجد لنفع العباد وعمران البلاد فمن سمع النداء فعليه بالسعي لتقديم الطاعة واداء البيعة لامام منكم فاعلموا ذلك وبادروا لامتثاله ولا تشقوا العصا ويذهب بكم الخلاف الى ما لا خير لكم فيه دنيا واخرى حرر في معسكر من مجلس العلماء في الثالث من رجب سنة ثمان واربعين ومائتين والف * وعلى نحو هذا صدرت اوامر الامير الى سائر القبائل العربية والبربرية ونصها الحمد لله الى قبيلة كذا خصوصًا اشرافها وعلماؤها واعيانها وفقكم الله وسدد اموركم وبعد فان اهل معسكر وغريس الشرقي والغربي ومن جاورهم واتحد بهم قد اجمعوا على مبايعتي وبايعوني على ان اكون اميرًا عليهم وعاهدوني على السمع والطاعة في اليسر والعسر وعلى بذل انفسهم واولادهم واموالهم في اعلاء كلمة الله وقد قبلت بيعتهم وطاعتهم كما انني قبلت هذا المنصب مع عدم ميلي اليه مؤملاً ان يكون واسطة لجمع كلمة المسلمين ورفع النزاع والخصام من بينهم وتامين السبل ومنع الاعمال المنافية للشريعة المطهرة وحماية البلاد من العدو واجراء الحق والعدل نحو القوي والضعيف فلذلك ندعوكم اتحدوا وتتفقوا جميعًا واعلموا ان غايتي القصوى اتحاد الملة المحمدية والقيام بالشعائر الاحمدية وعلى الله الاتكالي في ذلك كله فاحضروا لدينا لتظهروا خضوعكم وتؤدوا بيعتكم وفقكم الله وارشدكم حرر عن امر ناصر الدين عبد القادر بن محيي الدين من معسكر في الثالث من رجب سنة ثمان واربعين ومائتين والف وفي السابع والعشرين من نوفمبر سنة اثنتين وثلاثين وثمانمائة والف ميلادية

﴿ ذكر البيعة الثانية العامة ﴾

لما شاع امر البيعة الاولى وذاع اقبلت الوفود تترى من القاصية الى الحضرة العلية رغبة في الطاعة وامتثالاً للاوامر السامية المطاعة فاجتمع الطم والرم من جميع الآفاق ثم انعقد مجلس عام حضره الجمهور من الاشراف والعلماء والرؤساء من كل قبيل وفريق وجرى فيه عقد البيعة الثانية العامة بمحل العموم من قصر الامارة وهذا نص ما حرره العلامة الحجة الفهامة السيد محمود بن حوا المجاهري في ذلك اليوم وقرأه على رؤس

الاشهاد بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد النبي الطيب الكريم وعلى آله واصحابه ذوي الفضل العظيم حمدًا لمن افضل امة محمد عليه السلام وخصها بمزايا لم يعطها احدًا من الانام وجعلها خير امة اخرجت للناس يامرون بالمعروف وينهون عن المنكرات والارجاس هداهم به الى مهيع الرشاد وطهرهم من عبادة الاوثان والانداد والاضداد وجعلهم الشهداء على من سواهم من الانام فشرف بذلك امرهم ورفع قدرهم وجعل اجماعهم حجة وسبيلهم اقوم محجة واوجب عليهم نصب امام عدل وفرض عليهم اتباعه في القول والفعل ليكف الظالم وينصر المظلوم ويجمع شملهم بالخصوص والعموم ويكافح بهم عدو الدين لتكون العليا كلمة المسلمين وصلاة وسلامًا على من صدع بالحق ودعا الخلق الى القول بالصدق وجاهد في الله حق جهاده حتى استقام المعوج وآب عن فساده سيدنا ومولانا محمد اشرف رسول واكرم شافع مقبول صاحب المقام المحمود والحوض المورود وعلى آله واصحابه اهل وداده وسيوف جلاده الذين بذلوا انفسهم واموالهم في طاعته ونصرته واوضحوا شريعته وبينوا طريقته ففازوا بذلك اسنى المراتب ونالوا الدرجات العلى والمناصب فهم نجوم الاهتدا ومصابيح الاقتدا هذا ولما انقرضت الحكومة الجزائرية من سائر المغرب الاوسط واستولى العدو على مدينتي الجزائر ووهران اعادهما الله دار ايمان واسلام بجاه النبي عليه السلام وطمحت نفسه العاتية الى الاستيلاء على السهول والجبال والفدافد والتلال وصار الناس في هرج ومرج وحيص وبيص لا ناهي عن منكر ولا من يعظ ويزجر قام من وفقهم الله للهداية وظهرت عليهم العناية من رؤساء القبائل وكبرائها وصناديدها وزعمائها فتفاوضوا في نصب امام يبايعونه على الكتاب والسنة يسمعون لامره ونهيه ويتابعونه في جميع احواله وجالوا في ميدان افكارهم فيمن هو لذلك اهل من ذوي الكمال والفضل فلم يجدوا لذلك المنصب الجليل الا ذا النسب الطاهر والكمال الباهر راس الملة والدين قامع اعداء الله الكافرين ابا المكارم السيد عبد القادر ابن مولانا السيد محي الدين ايد الله به الاسلام والمسلمين واحيى به ما اندرس من معالم الدين فبايعوه على كتاب الله العظيم وسنة نبيه الكريم ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله يد الله فوق ايديهم ثم قدمت على حضرته الوفود من سائر الجهات والحدود فبايعه اولهم وآخرهم شريفهم ومشروفهم كبيرهم وصغيرهم بيعة تامة كاملة عامة بيعة سمع وطاعة افرادًا وجمعة بيعة عز وتعظيم وتبجيل وتكريم بيعة يعز الله بها الاسلام ويخذل بها الفجار اللئام يذبون عنه السوء بما يذبون به انفسهم واولادهم واموالهم ويبذلون في مرضاته ارواحهم واكبادهم ان امرهم سمعوا وان نهاهم خشعوا وخضعوا يطيعونه ما ساسهم بالشريعة الغراء وينصرونه في

السراء والضراء فمن وفى ببيعته نال مسرته واتقى مضرته ولاقى مبرته ومن نكث فانما ينكث على نفسه وخسر في يومه وامسه والله المسئول في هداية الخلق الى طريق الحق والرأفة والرفق ولما ازدهت هذه البيعة بكمالها وطرزت بجلالها وجمالها كمل سرورها وتمت بدورها بوزارة ابي المحاسن السيد محمد بن السيد العربي اقام الله به امر هذه الدولة السنية والامامة البهية وممن حضر هذه البيعة و بايع وسمع لها وتابع من القبائل الشرقية والاحياء الغربية الوزير المذكور وبنو عمه وسائر العلماء والاعيان من معسكر وقلعة هوارة واحوازها كبني شقران و بني غدوا وسجراره وقبائل غريس واحيائه وغمائره وعشائره واعيان القبائل الشرقية كالعطاف وسنجاس و بني القصير ومرابطي تجاجه وصبيح و بني خويدم و بني العباس وعكرمة والمحال وفليته والمكاحلية واحلافهم واعيان مجاهر والبرجيه والدوائر والزمالة والغرابه وكافة قبائل اليعقوبية من الجعافرة والحساسنه و بني خالد وبني ابراهيم ثم القبائل القبلية كاولاد شريف واولاد الاكرد وصدامة وخلافة وغيرهم ممن يطول ذكرهم من قبائل المغرب الاوسط وعمائره سهله ووعره ثم الكل بايعوا عن انفسهم وعن قبائلهم بالاذن العام من الخواص والعوام وقعت هذه البيعة العامة في ثلاثة عشر رمضان سنة ثمان واربعين ومائتين والف وفي الرابع من فبراير سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة كتبها خادم الشريعة السمحاء محمد الشهير بابن حوا ثم بعد الفراغ من كتابة صك هذه البيعة وقراءته على العموم جلس الامير الوفود واقبل عليهم ونظر بعين الرضى والقبول اليهم وقبل منهم ما قدموه لاعتابه السامية من عتاق الخيل والسروج المثقلة والاسلحة الفاخرة وغيرها من انواع الهدايا النفيسة جريًا على عوائدهم مع الملوك قبله وخطب عليهم بما انشرحت له صدورهم وتضاعف به سرورهم ثم خلع عليهم وفرق فيهم الاموال و بالغ في اكرام كرمائهم واستمال قلوب لؤمائهم واظهر لهم من انواع اللطف ولين الجانب ما اخذ باسماعهم وابصارهم ثم صرفهم الى اوطانهم فرحين بما آتاهم الله من فضله

ذكر تنظيم هيئة الدولة ورسوم الملك

لما تمت بيعة الامير واستقام له الامر اتخذ الآلة ورتب الحاشية وعين رجال الدولة فاستوزر محمد ابن العربي واستكتب ابن عمه السيد احمد بن علي ابى طالب والسيد الحاج مصطفى بن التهامي والسيد الحاج محمد الخروبي وعين لحجابته محمد بن علي الرحاوي وولى الحاج الجيلانى ابن فريحة ناظر خزينة المملكة ومحمد ابن فاخة

فاظر الخزينة الخاصة والحاج الطاهر ابو زيد ناظرًا على الاوقاف والسيد الحاج الجيلاني العلوي مأمورًا على الاعشار والزكاة بانواعها وعين لنظارة الامور الخارجية الحاج الميلود بن عراش ونظم الحاشية واقام كل فرد منها في مقام يخصه ورسم له اثرًا يقصه وبث العمال والقضاة في سائر الجهات ورتب مجلسًا للشورى يشتمل على احد عشر عضوًا من اجلة العلماء وجعل رآسته للعلامة قاضي القضاة السيد احمد بن الهاشمي المراحي ودوّن الدواوين وطفق يرد على الناس ما اختلسه بعضهم من بعض وينصفهم مما وقع بينهم من انواع المظالم والتعديات ايام الفتنة ويهدم ما كانت الحكومة الجزائرية اسسته من المغارم والضرائب والعوائد فطار بذلك ذكره وانتشر في المغرب الاوسط امره واختار الامير مدينة معسكر لاقامته تأنيسًا لاهل غريس وتطييبًا لنفوسهم لانهم كانوا دعاة هذه الامارة وكانت منها حركته ونهضته وفيها اولاً قراره وبانجادها كمل امره واينع اسه وعراره

﴿ ذكر خروج الامير لتمهيد البلاد وما جرى بعد ذلك ﴾
﴿ من الحوادث ﴾

بعد ان فرغ الامير من شؤنه ورسوم ملكه نهض من حضرته معسكر في شوال سنة مائتين وثمانية واربعين وفي فبراير سنة الف وثمانمائة واثنين وثلاثين ليختبر الاحوال وينتقد الاعمال ويجمع شمل الاقوال بالافعال ويقيم من تخلف عن البيعة على الطاعة ويحمله على سلوك سبيل الجماعة والوطن اذ ذاك قريب العهد باختلال الحال فشمر الامير عن ساعد جده واشهر سيف الحق وانتضاه من غمده ودوّخ بلاد البربر وزناته وجال في مواطنهم وضبط الامور وجبى الاموال وعنا وعاقب وشافه وكاتب ثم انفتل راجعًا على الساحل يتوخى الثغور فانتهى الى مرفأ ارزيو وكان قاضيها احمد بن طاهر يراجع حاكم وهران ويدعوه الى الاستيلاء على المرسى المذكورة فقبض عليه الامير واشخصه الى معسكر فاعتقله بها واقبل على شانه من ضبط الثغور وتثقيفها فرتب الحامية وقرّر ذخائرها ثم ارتحل الى الحضرة

﴿ ذكر غزوة فليته وما اتصل بها من الحوادث ﴾

ان قبيلة فليته تشتمل على بطون وعشائر عديدة من دابهم سلب النفوس والاموال وقطع السابلة من عهد الحكومة الجزائرية وبعد انقراضها اشتد عدوانهم

واتصل عيثهم ولما آل الامر الى الامير رفع الناس امرهم الى اعتابه وطلبوا منه ان يقطع شافة فسادهم فاجابهم الى ذلك ونهض من الحضرة غب رجوعه من ارزيو ونزل بالبطحاء المعروفة الآن بهبرة ومنها اغزا السير اليهم بجدوءه فصبحهم واكتسح اموالهم وشتت شملهم وجعلهم عبرة لغيرهم وبعد الفراغ من امرهم بلغه انتقاض قبائل عكرمة وبني مديان فسار اليهم وراسلهم في الرجوع الى الطاعة فلم يمتثلوا واظهروا الشقاق فاغار عليهم واستولى على جميع موجوداتهم واعظم النكاية فيهم ثم استامنوا له فامنهم ورد عليهم اموالهم وولى عليهم عمالاً وثق بهم وقفل راجعًا وغب دخوله الى الحضرة بلغه ان حاكم وهران اغار على قرية الدبه وهي في جنوب قلعة هواره واوقع باهلها واخذ عالمها السيد قدور الدبي اسيرًا في اهله وولده فنهض من فوره وكان العدو الى وهران مسرعًا فادركه الامير في الدار البيضاء قرب البلد وحمل عليه وكان قد قدم الاسرى والاثقال وضعفاء الجند الى ناحية البلد واستمر يدافع عنهم الى ان دخلوها وفات الامير تدارك الامر واستشهد يومئذ من اعيان المسلمين علي بن الحبيب الرحاوي والميلود الغراوي في آخرين واما العدو فكان يجدل قتلاه فلم يعلم عددهم وهذه اول غزوة العدو على داخلية بلاد وهران فعظم ذلك على المسلمين واخذوا حذرهم منه وعين الامير قبيلة الغرابة لمراقبته وسد الطرق عنه ومنع مواصلة الاوغاد الناس له وبعد ان تب العيون ممن يوثق بدينهم رجع الى معسكر ثم جهز جيشًا من الحشم والدوائر واغزاهم الى وهران فعاثوا في نواحيها واثخنوا وسبوا وغنموا وفي اثناء ذلك وقع تهارش بين قبائل البربر في نواحي نهر مينه افضى بهم الى القتال فطار الخبر الى الامير فعجل بالسير اليهم واصلح شأنهم وجمع كلمتهم وبالغ في عقوبة من اثار الفتنة واسعرها وكتب على عقد الصلح بينهم ما نصه قد امضينا بحول الله وقوته الصلح المبرم بين بني فلان وبني فلان بعدما امرنا به ومحونا اثر ما كان بينهم من بقايا حمية الجاهلية والزمنا كل فريق منهم ان يقف عند حده وان يرفعوا جميع ما يعرض لهم من الدعاوى والقضايا الى من وليناه امرهم حسبما حرر ذلك في الاصل واوجبنا العمل بمقتضاه ورتبنا العقوبة الشديدة على من يتعداه فمن سعى في نقضه او تعرض لافساد كله او بعضه فقد عرض نفسه لسخط الله تعالى وغضبه وتلزمه المجازاة العنيفة من جانبنا العالي بالله وعلى هذا النص اجرى الصلح بين اولاد الاكرد واولاد شريف وبني نسلم وغيرهم وارتفع النزاع بين سائر القبائل

الشرقية ثم بلغه انتقاض ابن نونة قائد الحضر في مدينة تلمسان فسار اليه من حينه حتى انتهى الى البلد وبعث اليه يعظه ويأمره بالرجوع الى الطاعة ويعده بالعفو فابى وتمادى على شأنه ثم جمع قوته وخرج لقتال الامير وقام الكول اوغلان وهم الطائفة الثانية من اهل تلمسان وقائدهم ابن عودة في داخلها مستمرين على الطاعة فلما خرج ابن نونة وطائفته الحضر من البلد للقتال انتهزوا الفرصة فيهم للعداوة القديمة بينهم فظاهروا الامير عليهم ووقع القتال داخل البلدة وخارجها ثم كانت الدبرة على ابن نونة وفرقته واستمر القتل فيهم ونهبت اموالهم وعاث الكول اوغلان في منازلهم وفر ابن نونة الى ضريح الغوث سيدي ابي مدين رضي الله عنه في قرية العباد بتشديد الباء الموحدة ثم دخل الامير الى تلمسان ومن الغد توجه الى زيارة الغوث ووجد ابن نونة متعلقاً باستار الضريح لائذاً به فامنه وعفا عنه وتقبل فيئته واقره على قيادة طائفته ولم يزل الامير في تلمسان ونواحيها الى ان اصلح خللها وابرم الصلح بين الحضر والكول اوغلان وجمع كلمتهم ثم رجع الى معسكر وفي اثناء الطريق بلغه خبر موت والده سيدي الجد رحمه الله في ثالث ربيع الاول سنة تسع واربعين ومائتين والف وعشرين من يوليه سنة ثلاثة وثلاثين وثمانمائة والف وكان الفرنسيس ابتنوا حصناً على البحر في ساحل بلاد تجاهر وشحنوه بالحامية والذخيرة وزعانف تلك الناحية يواصلون اهله ويعاملونهم بالبيع والشراء فلما آب الامير من تلمسان اجمع على النهوض الى تلك الناحية فجمع شانه واغذ السير اليها الى ان قرب من الحصن وكان اهله يخرجون كل يوم بماشيتهم يطلبون المرعى مستعدين الدفاع فلما خرجوا تربص عليهم حتى اوغلوا في الطلب ثم غار عليهم فثبتوا ودافعوا عن انفسهم وهم راجعون الى الحصن ولم ينج منهم الا من دخله وغنم المسلمون جميع ما كان معهم وكان في المرسى عدة مراكب مشحونة بالذخائر فخاض الجيش اليها وغنموا ما فيها واقام الامير اياماً يرتب العيون على الحصن ويأمرهم بالتضييق على اهله وذعر من كان يواصلهم من اهل تلك النواحي ثم رجع الى معسكر وطار خبر هذه الوقائع الى حاكم الجزائر فوجم لها وبعث الصريخ الى دولته فجهزوا الجيوش وارسلوا معها ذخائر ومهمات كثيرة وفوضوا امر الحروب اليه وعزلوا الجنرال بويه حاكم وهران وولوا مكانه الجنرال دي ميشيل فجاءها في رابع ذي الحجة سنة تسع واربعين ومائتين والف والخامس عشر من شهر ابريل سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة والف ووجد وهران تحت الحصار مغلقة الابواب وجيوش المسلمين تجول في انحائها لا

يفترون عن مهاجمتها فضاق صدره لذلك وطفق يلقي الدسائس في قلوب ضعفاء اهل الايمان كالدوائر والزمالة ويمدهم ويمنيهم فاثر ذلك فيهم وفتحوا له طرق المواصلة من جهتهم ثم ان الامير بعد رجوعه من واقعة الحصن الى معسكر اخذ بها اهبة الحرب واستكمل استعدادها وارتحل يريد وهران وكان العدو ابتنى في القرب منها حصناً يعرف بغمور فلما وصل الامير خرج الجنرال دي ميشيل في العساكر وكان القائد عليها يومئذٍ الجنرال بوبريص وتزاحف الفريقان نقسم الامير جيوشه الى فرقتين فرقة لقتال بوبريص والفرقة الثانية جعلها تحت قيادته وزحف بها على حصن غمور ولما قرب منه ترجل ومشى في مقدمة الجيش وحمل على الحصن مرتين فامتنع عليه وانقلب الى مظاهرة الفرقة المعينة لقتال بوبريص نقوى عزمهم وثبت قلوبهم وحمل بالجميع عليه فهزمه وشتت شمله وولت عساكر فرنسا على ادبارها يطلبون البلد ولحقهم المسلمون واثخنوا فيهم قتلاً واسراً الى ان امتنعوا عليهم باسوارها وبعد انصراف الامير من القتال بلغه ان اهل ارزيو ركنوا الى الفرنسيس بدسائس قاضيهم المعتقل في معسكر واقار به وانهم احضروا شرذمة من عسكر وهران لحمايتهم ثم دس اليه رجل منها اسمه طوبال انه يخرج كل يوم مع ضباط العسكر في طلب الصيد وعين له المحل الذي يبتغونه فيه فركب الامير في الحال وخلف جموع الغرابة ومن يليهم على حصار وهران وبعث الاسرى الى معسكر واغذى السير الى ارزيو وكمن في القرب من الموضع الذي عينه طوبال فلما خرج الضباط واتباعهم في معية طوبال فاجأهم الامير بخيله وحال بينهم وبين البلد فدافعوا عن انفسهم واتهموا طوبال في امرهم نعدا عليه احدهم بسيفه وقتله ثم اظهروا علامة التسليم والقوا السلاح نامنهم الامير وجعلهم تحت الحفظ وتقدم الى البلد ففرت حاميتها الى المراكب واقلعت بهم الى وهران ودخل الامير فقبض على من توجهت عليه التهمة في مواطاة حاكم وهران في هذه القضية واصلح شان البلدة وثقف اطرافها وانزل فيها حامية كافية وانفتل راجعاً الى الحضرة فانزل الضباط في دار الضيافة وامر باكرامهم والقيام بشؤونهم وعقد للقاضي احمد بن الطاهر البطيوي مجلساً خاصاً من العلماء نامعنوا النظر في امره وقامت البينة عليه فحكم المجلس بقتله فسملت عيناه وقطعت يداه ورجلاه ووضع في حفرة في ساحة الصرابة الى ان مات بعد ثلاثة ايام

ذكر استيلاء الفرنسيس على مستغانم وخروج الامير الى قتالهم وغير ذلك من الحوادث

لما رأى الفرنسيس ان الامير قد استقام امره وقويت شوكته وظهر لهم منه ما لم يكن في حسابهم تقلقلت افكارهم واضطربت آراؤهم فمنهم من يقول ترك البلاد اولى ومنهم من يقول الثبات فيها اليق بالمقام بين الدول ثم قرَّ راي الاكثر منهم على مداومة الحرب وبذل الجهد في الاستيلاء على داخلية البلاد وكان حاكم الجزائر يرفع الى وزارة الحرب ما يحدث من الوقائع في وهران وما هي عليه من الحصار وضيق المجال مع قلة الجند والذخيرة فبعثوا اليه بالمدد فقوي عزمه ودعته نفسه الى الاستيلاء على مستغانم فتوجه اليها في فرقة من الجند واستولى عليها وفر اكثر اهلها الى الداخلية وطار الخبر الى الامير فوجم لها وفاوض رجال دولته ومن حضره من اعيان القبائل وذكر لهم تكالب العدو على الوطن واراهم كيف مدَّ يده اليه واستولى على سواحله وقال يوشك ان تغافلنا عنه ان يختل امر المسلمين فامتعضوا لذلك وتداعوا الى الجهاد والذب عن الدين والوطن فجمع الامير الجيوش واحتشد عرب المغرب الاوسط وبرابرة ونهض من حضرته الى مستغانم ونازلها وكان العدو عند دخوله اليها جمع الايدي على ترميم سورها وتثقيف اطرافها وابتنى حصنًا خارجها ليستعين به على الدفاع ووضع المدافع في السور والحصن وبالغ في تحصينها ولاول نزول الامير عليها بعث الى اهلها في الخروج منها فخرج الجم الغفير ولحقوا بالحضرة وتلمسان وغيرها من مدن الداخلية وقراها ولم يبق فيها الا من اختار مجاورة العدو من الكول اوغلان ثم ان الامير لما راى امتناع البلد وتحصينها امر باحضار المعاول والفوس وغيرها من آلة الهدم والعدو لما راى الجيوش الاسلامية ملات انحاء البلد حام عن اللقاء وانحجر داخلها ورتب عساكره داخل السور يقاتلون منه فامر الامير بالهجوم فثار الغبار وتزلزلت الارض برعود البارود وتوالت كلل العدو وقنابله على المسلمين فلم يثنهم ذلك واستمروا على هجومهم والامير امامهم الى ان انتهوا الى السور واخذوا في هدمه بالمعاول والفوس فلم تعمل فيه ولما انجزم الامر ولم يتمكنوا من عدوهم امرهم بالرجوع الى مخيمهم وحفر نفق في الارض من المعسكر الى السور وجمع الايدي عليه ثم ملئوه بارودًا واضرموه نارًا ثم امرهم بالهجوم على السور ولما انتهوا اليه وجدوه قد انفتحت فيه كوة غير كافية لما قصد به من نقب السور او تفعفعه

فعدلوا الى المراكب في المرسى وسبحوا في البحر اليها واضعين اسلحتهم على رؤوسهم فالحت عليهم بالقنابل وظاهرتها حامية الحصن فارتدوا عنها ولما علم الامير ان العدو لا يخرج من البلد ليناجزه الحرب ارتحل الى ارزيو واخلاها من الحامية الاسلامية وعرض الهجرة على اهلها وانقلب راجعاً الى حضرته وخرج حاكم وهران من مستغانم من بعده الى ارزيو واستولى عليها ووضع فيها حامية وذخيرة واستمر ذاهباً الى وهران وكان بين دي ميشيل وقبيلتي الدوائر والزمالة مواصلة خفية فعمل الحيلة ومد يده اليهم وهم في منازلهم من سهل اغبال فاخذ منهم رجالاً ونساء في صورة اسرى ثم ارسلوه في فك اسراهم فاشترط عليهم الخضوع لدولة فرنسا والسكنى في مسركين من ضواحي وهران فاجابوه الى ما اشترطه ورد عليهم اسراهم وظهر ما كان كامناً في صدورهم واتخذوا امر الاسرى عذراً فيما قصدوه ثم اتصل الخبر بالامير فعظم عنده ذلك ورأى ان لا سبيل الى تدارك امرهم الا بالسياسة الفعالة فبعث اليهم من خاصته من يثقون به ويقبلون نصيحته فوعظهم وحذرهم من مكائد العدوّ وغوائله واوقفهم على ما القوا به انفسهم من مكر الله تعالى وغضبه والخروج عن الدين الاسلامي الذي قام بنصرته وتأييده آباؤهم وافنوا فيه انفسهم واموالهم فاثر ذلك فيهم واذعنوا له واعتذروا بانهم لم يجنحوا الى العدو رغبة عن دين الاسلام ولكن للتوصل الى المعيشة والراحة مما لحقهم من معاناة الحروب ومقاساة الخطوب الى غير ذلك مما لم يجعله الرسول عذراً لهم فيما ارتكبوه واستمر يراودهم ويعظهم الى ان اجابوه وادلجوا في مسركين ورجعوا الى بلادهم وارتاح الامير الى فئتهم الى الاسلام وبقيت وهران على ما هي عليه من الحصار وقطع الطرق عنها واستمر الامير يبث السرايا والغوازي في نواحي الساحل فيسومونها خسفاً ودماراً ويثخنون فيمن يصادفونه من انصار العدو واشياعه بالقتل والسبي وتارة يشن الغارات بنفسه على الخوارج عليه من قبائل البربر وغيرهم من ظواعن العرب وزناتة ويثخن فيهم حتى يذعنوا الى الطاعة ثم يعطف بعد ذلك الى السواحل ويعظم النكاية في العدوّ ويرصد من يتردّد اليه من اوغاد الناس الذين لادين لهم وجعل ذلك دابه وديدنه الى ان ضاق الحال على الفرنسيس في تلك النواحي وتاخر عنهم اسعاف دولتهم لما كانت عليه من الارتباك الداخلي فجنح الجنرال دي ميشيل الى السلم وطفق ينظر فيما يوصله الى مطلوبه من غير ان يلحقه انحطاط في منزلته عند دولته فاتفق ان محافظي الغور في جهة مستغانم صادفوا رجلاً من متنصري البرجيه راجعاً من ارزيو ومعه نفر من حاميتها

يجرسونه الى ان يبلغ مأمنه فحملوا عليهم وقتلوا بعضهم واستاقوا الآخرين الى معسكر فارتاح لها دي ميشيل واتخذها ذريعة لمخاطبة الامير وفي السابع عشر من جمادى الاولى سنة تسع واربعين ومائتين والف وفي اول سبتمبر سنة ثلاثة وثلاثين وثمانمائة والف خاطبه بتحرير يقول فيه . الى سمو الامير عبد القادر اني لا اتأخر عن كوني اخاطب سموكم بشيء تحثني عليه بواعث الانسانية وان لم تدعني اليه وظيفتي وهو اطلاق سبيل النفر الذين بينما هم يحرسون رجلاً عربياً اذ خرج عليهم كمين من جيوشكم فاخذوهم اسرى ولا اظن ان قوة شهامتكم تابى هذا وتضع امام طلبي شروطاً لانني كنت من قبل اخذت بعض اسرى من عرب الغرابة والزمالة في ميدان الحرب ثم اطلقتهم من غير شروط وبناء عليه اتأمل ان سمو الامير اذا كان يرغب ان ياخذ من الاعتبار قدراً عظيماً ان لا يطيل المراجعات وان ينعم باطلاق الاسرى * فاجابه الامير ان ما وقع من الاسر وسفك الدماء ويتم الاولاد وتايم النساء وسائر ما حصل من المصائب والنوائب العمومية والخصوصية لا مسؤلية علينا فيه وانما المسؤلية والعهدة على القائد الفرنساوي فوجم الجنرال وقواد العسكر لهذا الجواب . وعجبوا من شدة الامير وجزالة جوابه قال شرشل الانكليزي في تاريخه عند ذكر هذه القضية ان حضرة الامير عبد القادر اجاب الجنرال دي ميشيل بتحرير يظهر منه دقة افكاره وحسن سياسته حيث انه جعل العهدة على القائد الفرنساوي حتى ان الجنرال وان يكن تأثر بذلك الجواب فانه قال بعد ان امعن النظر فيه شتان ما بين السياسة الفرنسوية والافكار العربية ثم ان الجنرال كتب للامير كتاباً ثانياً ونصه من الجنرال دي ميشيل الى الامير عبد القادر بن محيي الدين لي امل بان تطلق الحرية للاربعة الاسرى التعيسي الحظ المحبوسين في قلعة معسكر وما كنت اتردد عن السعي لديكم فيما تمنعني وظيفتي الرسمية عنه حيث تدفعني الانسانية اليه ولعلي ان البشر الراقين الى الدرجات العليا عليهم ان يمتازوا باعمال كريمة دالة على التفاوت الذي وضعه الله بينهم فارجو الافساح عن الفرنسويين الذين وقعوا في شر مكيدة وهم في الدفاع عن بعض العرب لتخليصهم من انتقام ابناء جنسهم ولا اظن انكم تضعون في طريق ذلك بعض العقبات لانكم اذا رغبتم ان تعدوا من كبار اهل الارض لا تتأخرون عن اظهار كرم اخلاقكم واذا دواعي الحرب اوقعت بين يديّ بعض اتباعكم فانا اعدكم بارجاعهم بدون عوض ثم كرر الطلب ثالثة بما نصه الى الامير عبد القادر بن محيي الدين بما انني ما اخذت جواب

كتابي الذي ارسلته اليكم منذ شهر فاحب اليّ القول بانه لم يصلكم من انكم لم تلتفتوا الى قبول مطالبي وعليه جئت لثالث مرة اكرر طلب فك الاسرى الفرنساويين الموجودين عندكم لانهم لم يؤخذوا في ساحة الحرب بل سقطوا باقبح خدعة في اقبح مكيدة وعليّ ان اذكركم ان فرنسا هي اقوى دولة في الدنيا فليس من الحكمة ان تدوموا على خطة المقاومة فاذا كان اليوم في امكاني ان انتصر عليكم قبل وصول النجدات التي استنظرها فماذا تكون حالكم اذا فرغ صبر فرانسا نحو العرب وارسلت ما تهيئه لي فعندها تهجم عليكم عساكرنا فتفرقكم كما يبعثر الهوى الرمال فاذا رغبتم ان تبقوا في مركزكم السامي فما عليكم الا اجابة دعوتي حتى اذا اجرينا المعاهدات تبادر القبائل الى زرع حقولهم الخصبة غانمين ما يقدمه الشعب العظيم اليهم فجاوبه الامير من عبد القادر بن محيي الدين الى الجنرال دي ميشيل اما بعد فقد وصلنا كتابكم المتضمن افضل النصائح فقدرناها قدرها وعلمنا انكم تحثونا في كتبكم الثلاث على الافساح عن الاسرى وتندبون حظهم مع اننا نعتني بشانهم غاية الاعتناء والافساح عنهم ليس له اهمية لدينا غير ان الحالة التي نحن بها لا تسمح لنا ان نردهم بدون ندية فاذا رغبتم في الاتفاق اقبل تسليم الاسرى اليكم عند المعاهدة بيننا على ان ديننا يمنعنا عن طلب الصلح ابتداء ويسمح لنا بقبوله اذا عرض علينا وان الثقة التي مختمونا اياها في تحاريركم حملتنا على ان نبداكم بالمخابرة وان المفاوضة التي تطالبونها يقتضي ان تكون مبنية على شروط محترمة منا ومنكم ولا يحصل الاتفاق الا اذا عرفتموني شروطكم وما تطلبونه مني وانا اعرفكم بمثلها والله المعين وكيف تفاخروني بقوة فرنسا ولا تقدرون القوة الاسلامية مع ان القرون الماضية اعدل شاهد على قوة الاسلام وانتصاراتهم على اعدائهم ونحن وان كنا ضعفاء على زعمكم فقوتنا بالله الذي لا آله الا هو ولا شريك له ولا ندعي بان الظفر مكتوب لنا دائمًا بل نعلم ان الحرب سجال يوم لنا ويوم علينا غير ان الموت مسر لنا وليس لنا ثقة الا بالله وحده لا شريك له لا بعدد وعدد وان دوي الرصاص وصهيل الخيل في الحرب لآذاننا من الصوت الرخيم فاذا عزمتم على عقد صلات ودادية دائمة بيننا وبينكم فافيدونا حتى نرسل اليكم رجلين من كبار قومنا ماذونين بالمفاوضة معكم وحينئذٍ تتم امانيكم بعونة الله ولا تظنوا باننا ناسف اذا اضطررنا الى ترك البلاد لاننا نعلم يقينًا ان الارض لله تعالى يورثها من يشاء من عباده وقد سلمنا وراثتها فحيث ما كنا نجد امتنا وقد ظهر لنا من مضمون

كتبكم انكم تحتقرون قوة العرب مع دوام استعدادهم للقتال ومسابقتهم للنزال في كل زمان ومكان واذا فتحتم التواريخ تروا ما اجروه في آسيا وجهات الشام من الجراءة والثبات والاقدام والفتوحات التي اظهرها الله على ايديهم واني اعتذر لعدم جوابي على كتابكم السابق باني كنت مشغولاً في الوقت الذي استلمته وعندما كتبت الجواب كان رسولكم ترك معسكر وتوجه لطرفكم وهذه المراجعات اوقفت الجنرال وقواد العسكر في ميدان علموا منه انهم يخاطبون اماماً عادلاً وتعلقت آمالهم بالوصول الى مامولهم وقال بعضهم عند ذكر تحرير الجنرال ما ملخصه هذا المكتوب لم يكن لتحريره محل في مجال السياسة لان الحرب بين الامير عبد القادر والفرنساوية ما برحت قائمة على قدم وساق وبحسب اصول الحرب يحق لهذا الامير ان يحاصر المدن والقلاع الموجودة بايديهم وان يرصد سائر طرقاتهم ويمنع المواصلات التجارية وغيرها وان يجري القصاص على من يتعرض لها ثم قال فانظر الى هذا الجنرال الذي يدعي الفطنة والمعرفة بالنظامات الحربية كيف كبا به جواده في ميدان سطور تحريره المذكور الذي لا يمكن تحريره الا في حال السلم ولذلك اجابه حضرة الامير اخيراً . بعد التحية وصلني كتابك الذي اظهرت فيه رغبتك في الحصول على اطلاق الاسرى الذين اوقعتهم الاقدار الربانية بين يدي وقد فهمت جميع ما تضمنته رسائلك وما اشتملت عليه من تكرار الطلب ومن المعلوم عندكم ان جميع الاسرى الذين اوقعوا في ايدي عسكركم في ميادين الحرب لم اتعرض لكم ولا لمن كان قبلكم في اطلاقهم ولا اتعبت افكاركم بمراسلة قط لان حكمهم عندي حكم الاموات وموتهم اعتبرها حياة لهم غير اني كنت اتالم عليهم شفقة ورحمة وقولكم ان هؤلاء الاسرى الذين تطلبون اطلاق سراحهم ما كان خروجهم لامر يتعلق بكم بل كانوا يحمون عرضاً من انتقام ابناء وطنه فهذا لا اعتبره وسيلة لاطلاقهم فان الحافظ والمحافظ عليه كلاهما اعداء لنا وانتهاز الفرصة في الانتقام منهم غاية مقصودي وسائر العرب الذين عندكم اوغاد واراذل يجهلون واجباتهم الدينية هذا واني رايتك تفتخر بانك اطلقت الاسرى من الغرابة والزمالة من غير شروط مع انك لو راجعت افكارك لوجدت ان رحمتك انما كانت لاناس استظلوا بظلكم والتجأوا بحماكم يملئون اسواقكم ذخائر ويكونون عيوناً لكم على المسلمين ويخدمونكم بكمال الصدق ومع ذلك فان عسكركم قد سلبوهم كل ما يملكونه فلو كان هذا المعروف الذي تحتجتم به مع غير هؤلاء كالحشم اوبني عامر مثلاً لكان يحق لكم الافتخار

وكنتم تستحقون الشكر وعلى كل حال فمتى خرجتم من وهران على مسافة يوم او يومين يظهر للعيان من يستحق الثغر منا . قال المؤرخ الانكليزي لو كان هذا الجواب الكبريائي في غير تلك الايام لاهاج في صدر الجنرال الفرنساوي نيران الحماسة وحرك منه سواكن الاحن وربما صاح باعلا صوته وقال اين العربي المبارز والبطل المناجز ولكن الوقت لم يساعده وكان دي ميشيل لما ارتحل الدوائر والزمالة من جواره ورجعوا الى بلادهم حفظها لهم فعند ما خسرت صنقته من مخاطبة الامير ولم يحصل منها على طائل غزاهم واخذهم على غرة وطار الخبر الى الامير فاغزى السير وواصله وقطع مسافة خمسين ميلاً في ثلاث ساعات وكان العدو لكثرة ما في يده من المسلوبات والاسرى رجع الى وهران على مهله فادركه الامير قبل وصوله اليها وحمل عليه حملة شتت بها شمله واوهى بها قوته ولم يسعه الا الفرار فاتخذه وسيلة لنجاة وترك جميع مما استولى عليه من المسلوبات والاسرى في ايدي المسلمين كما انه ترك قتلاه في محل المعركة ولحق فله بوهران ثم ان الامير رد على الدوائر والزمالة مسلوباتهم واسراهم وامرهم بالرحيل الى تموزغت في نواحي تلمسان فارتحلوا في العشرين من رجب سنة تسع واربعين والرابع من دسمبر سنة ثلاثة وثلاثين وثمانمائة وبعد هذه الواقعة انسد باب المخابرة بين الامير وحاكم وهران فيما كان بصدده

﴿ ذكر رجوع الجنرال دي ميشيل الى المخابرة ﴾
﴿ مع الامير واظهار رغبته في السلم ﴾

كان الجنرال دي ميشيل معروفاً عند دولته بانه من رجال الحرب وابطال الطعن والضرب نعزلوا الجنرال بوية وولوه مكانه وبوصوله اضرم نار الحروب وفتح باب الشدائد والخطوب فكانت الدبرة فيها عليه ودام وبالها يصاحبه ويماسيه ولم يزل على ذلك الى ان يئس من نجاحه في امره وعجز عن درك ما كان يؤمله من فوزه فرجع القهقرا واخذ يدبر فيما يخلصه من ورطته ويكون وسيلة للوصول الى رضاء دولته فلم يرَ اوفق من وضع اوزار الحرب والتخلص من شرك الشدة والخطب ففتح لذلك بمراسلة الامير باباً وهيأ لها اسباباً فحيل بينه وبين مراده وعاد الى مقارعته وجلاده ثم رأى ان دون فوزه خرط القتاد فعاد الى ما عول عليه اولاً من قرع الباب ومعاطاة الاسباب قال المؤرخ الانكليزي لما استعظم دي ميشيل جراءة عدوه

الاسد الكاسر وسرعة حركته في النواحي فكانه في كل ناحية حاضر تبين له ان تدبيراته لم تنتج له الظفر بالآمال وتأسيسات افكاره قد اعتراها التلاشي والاضمحلال وان سور الحصار قد حال بينه وبين الزاد وبلاء المجاعة ما برح في شدة وازدياد وعجز عن المدافعة بعد بذل الجد والاجتهاد فلم ير احسن من الصلح او تخلية البلاد ثم فكر في امره واوفد على الامير مردخاي الموسوي في طلب الصلح واتحبه برسالة يقول فيها . الى سمو الامير عبد القادر حيث لا تجدني ايها الامير غافلاً ابداً عن كل فعل حسن فاذا كان سموكم تريد ان نتخابر في امر المعاهدة فانا مستعد لذلك مع الامل انه يمكن الحصول على معاهدة موافقة يتوقف بها سفك دماء امتين اقتضت الارادة الآلهية ان لا تكونا تحت سلطة واحدة حرر في رجب سنة تسع واربعين وفي دسمبر سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة والف ميلادية . قال بعضهم فبهذا الكتاب حقق لحضرة الامير عبد القادر ما كان يتصوره وهو ان عدوه وقف موقف المستغيث ولذلك ضرب عن رد الجواب صفحًا وانما قال للرسول وهو مردخاي انه بحسب الوقت الحاضر لا يمكنني ردّ الجواب وان كان الجنرال يسمح بايضاح وتفصيل في هذا الامر فهو اولى فلما وصل اليهودي الى الجنرال وبلغه الرسالة الشفاهية عن لسان الامير عبد القادر تلقاها بالقبول وردّ مع اليهودي كتابًا آخر يقول فيه . الى سمو الامير عبد القادر حيث لم يصلني جواب من سموكم عن التحرير الذي قدمته وقع في فكري انه لم يصل اليكم لا انه وصلكم ولم تهتموا به .حيث انكم لا تعملون شيئًا اوفق لحفظ المقام الذي رفعتكم الظروف اليه من التسليم بطلبي لانه بواسطة المعاهدات المطلوبة التي نعقدها بيننا تتمكن الاهالي ان تلتفت الى فلاحتها وتتمتع بلذة حاصلات اراضيها وتذوق حلاوة السلم بدلاً عن مرارة الحرب . ثم انهى كتابه بعبارات اوضح من الاولى وابين في طلب الصلح .

﴿ ذكر ابرام المعاهدة وما جرى في ايامها من الحوادث الداخلية ﴾

لما اتصل مكتوب حاكم وهران بحضرة الامير جمع رجال دولته واعيانها واخبرهم بما وقع بينه وبين الجنرال من المخابرات في شان اسرى ارزيو اولاً ثم في امر المهدنة ثانيًا واستشارهم في ذلك واستكشف ما عندهم فيه فرآهم جانحين الى السلم راغبين في عقد المهدنة لاسيما ان العدوّ هو الطالب لها والراغب فيها . قال شرشل الانكليزي ما حاصله قد تمكن هذا الامير المظفر الحديث السن من ان يطلع رجال دولته ورؤساء

رعيته على هذا المكتوب الذي هو في الحقيقة عند يشهد له بان العدو هو السابق في التماس الصلح وقد تأتى له ان يجيب اليه اذ لاداعي للتاخر عنه فلذلك حرر في جوابه بعد التحية وصلني كتابك ايها الجنرال المحترم وفهمت ما ذكرته فيه واعلم ان افكارك موافقة لافكاري موافقة لها وبذلك تحققت استقامتك فكن متأكدًا بان الشروط التي توافقنا العناية الالٓهية لاجرائها بيننا نتمسك بها بصدق عظيم ولا نتجاوزها وها انا مرسل لنحوك معتمدين وها وزير الخارجية الميلود بن عراش والآغة خليفة بن محمود ليتخابران معك في الشروط التي يمكن اجراؤها وحينئذٍ تجري المعاهدة وتذهب العداوة من بيننا ونستبدلها بالصداقة التي لا تخل بقاعدة وينبغي لك ان تثق بي لانني والحمد لله لم تسبق لي خيانة في عهدي ولا نقض لعقدي . ثم قال وكانت المقابلة بين القواد الفرنساويين ومعتمدي عبدالقادر خارج وهران على فرسخين منها في خمس وعشرين خلين من شهر رمضان سنة تسع واربعين ورابع فبراير سنة اربع وثلاثين وثمانماية والف ميلادية وجرت مذاكرة طويلة في قضايا مختلفة قدمها الجنرال دي ميشيل ثم ركب وزير الخارجية راجعًا الى الغمرة ومعه نسخة الصك المشتمل على المسائل التي وقعت المذاكرة فيها غير ممضية من الجنرال ونصها .

اولاً ان العداوة من هذا اليوم تبطل بين الفرنساوية والعرب ثانيًا ان الفرنساوية تلتزم بتكريم ديانة الاسلام مع عوائدهم ثالثًا ان العرب تلتزم برد الاسرى الفرنساوية رابعًا ان يكون السوق حرًا خامسًا ان العرب تلتزم برد من يهرب من الفرنساوية اليهم سادسًا من اراد السفر في الداخلية من الفرنساوية يجب ان يكون بيده رخصة مختومة من قنصل الامير ومن قنصل الجنرال . ولما اطلع عليها الامير وافق عليها وامضاها بخطه ثم حرر ورقة اخرى ذكر فيها ما اشترطه وهي اولاً يكون للعرب الحرية بان يبيعوا ويشتروا كلما يتعلق بالحرب ثانيًا يكون متجر مراسي ارزيو تحت ولاية الامير كما كان قبلا بحيث لا يصير شحن شيء الا منه واما وهران ومستغانم فلا يرسل لهما الا البضائع اللازمة لاهلها ثالثًا يلتزم الجنرال بترجيع كل من يهرب اليه من العرب مقيدًا مع انه لاتكون له سلطة على المسلمين الذين يحضرون عنده برضاء رؤسائهم رابعًا لا يمنع مسلم من الرجوع الى بيته متى اراد . وفي اليوم الخامس رجع وزير الخارجية واجتمع بالجنرال دي ميشيل داخل وهران واخبره ولم يسلمه ورقة مطاليبه الا بعد ان امضى ورقة الامير التي فيها شروطه ثم ان الجنرال اختار ان يكون صك المدنة واحدًا تحرر فيه مطاليب الامير بالخط العربي ومطاليب الجنرال بالخط الفرنساوي وكل منهما يمضي للآخر على شروطه بخطه فاجابه ابن عراش الى ذلك ونص الصك . ان قائدي الجيش

الفرنساوي المقيم في وهران الجنرال دي ميشيل والامير عبد القادر بن محي الدين اعتمدا واتفقا على ما ياتي ذكره من الامور الاول منذ يوم تحريره يصير ترك الحروب والخصومات بين الفرنساويين والعرب وكل من الجنرال دي ميشيل والامير عبد القادر يجتهد في القاء الالفة بين شعبين اقتضت الارادة الالهية ان لا يكونا تحت سلطة واحدة ولاجل ذلك نتعين وكلاء من الامير عبد القادر في وهران ومستغانم وارزيو كي لا تقع الخصومة بين الفرنساوية والعرب كما انه يقام وكيلاً عن فرنسا ضابط فرنساوي في معسكر الثاني يصير احترام ديانة الاسلام وعوائدهم الثالث يلزم ردّ الاسرى من الفريقين الرابع يصير اعطاء الحرية الكاملة للتجارة الخامس تلتزم العرب بارجاع كل من يفر اليهم من العسكر الفرنساوي ويلتزم الفرنساويون بتسليم كل من يفر اليهم من اهل الجرائم الهاربين من القصاص الى وكلاء الامير في المدن الثلاث السادس من اراد من الاوربيين يسافر الى داخلية البلاد يجب ان يكون مصحوبًا بتذكرة تكون عليها علامة وكلاء الامير ويصححها الجنرال وبذلك يحصل على الحماية في جميع الاقليم حرر في وهران في السابع عشر من شوال سنة تسع واربعين ومائتين والثامن والعشرين من شهر فبراير سنة اربع وثلاثين وثمانمائة والف ثم ان ابن عراش اخذ الصك وعرضه على حضرة الامير وبعد اطلاعه عليه وامعان النظر فيه امضاه بخطه ورجع ابن عراش الى وهران فلما رآه الجنرال وعلم ان الامير وافق على ما حرر في الصك وانه امضاه تهلل وجهه واظهر لابن عراش بشاشة زائدة لم يعهدها منه قال المؤرخ الفرنساوي لويس دينليوت في تاريخه عند ذكر هذه المعاهدة ان الميلود بن عراش وزير السلطان عبد القادر ومعتمده في عقد المعاهدة مع الجنرال دي ميشيل لما وفد عليه حاملاً صكها الذي صادق عليه الامير قابله بكمال الاحترام والاحتفال وكان امراء الجيش الفرنساوي جالسين على حسب مراتبهم والعسكر مصطفة حولهم يسمعون ما تقرر في الصك وبعد تلاوته امضاه الجنرال بخطه ثم التفت الى ابن عراش وفتح معه باب المذاكرة فقال ان العرب لاتجهل قوة فرنسا واستعدادها فاجابه ابن عراش نعم ان العرب لا تنكر قوة سلطنة فرنسا واقتدارها ثم قال الجنرال انني كنت عازمًا قبل عقد المعاهدة على ان اطلب من دولتي عشرة الآف جندي زيادة على ما عندي واخرج من هذه المدينة وتابع محاربتكم مدة شهر وما يدريك ياميلود ان بهذا الفعل يدخل على سلطانك الوهن ويلحقه الضعف فاجابه ابن عراش اننا لا نحاربكم محاربة نظام وترتيب ولكن محاربة هجوم واقدام ولو فعلت ما قلت وخرجتم

بهذه القوة كنا نتقهقر امامكم متوغلين في الصحراء باهلنا واثقالنا وفي حال هذا التقهقر نناوشكم القتال حتى لاترجعوا عنا ثم نصابركم حتى تضعف شوكتكم وتلين قوتكم ومتى سنحت الفرصة وتورطتم في فيافي الصحراء قلبنا الكرة عليكم واحاطت جيوشنا بكم من كل ناحية وتكون ذخائركم نفدت وقوتكم ذهبت وعساكركم لحقها التعب واضر بها السغب فحينئذٍ ماذا كنت تصنع ايها الجنرال قال فلما سمع الجنرال هذا الجواب المفصح عن جمل من اوضاع الحرب التي لم تخطر له على بال تعجب ولم يسعه الا السكوت وتفرّق المجلس وانقلب ابن عراش الى الحضرة بعد ان اتم سفارته . وشاع امر المعاهدة وارتفع الحصار عن وهران ومستغانم وارزيو وسلكت الطرق اليها من الداخلية وتعينت الوكلاء فيها من قبل الامير نعين مردخاي بن دران الموسوي في الجزائر ومحمد بن يخ في وهران والآغا خليفة ابن محمود في ارزيو وعين سفير فرنسا الكومندان عبدالله ويسون في معسكر واصله من مماليك الامراء المصريين استخدمته دولة فرنسا في العساكر المشاة وامست افكار الجنرال دي ميشيل هاجعة على بساط الراحة لعلمه ان هذه المعاهدة صارت حدًّا فاصلاً بينه وبين الغوائل السابقة وطير الخبر الى وزارة الحرب في باريز فاجابه ان الملك صادق على المعاهدة وانتقد عليه اموراً اخل بذكرها في صك المعاهدة نفهم الناس ان دولة فرنسا انشرحت لعقد المعاهدة ولم تنشرح لشروطها وايد لهم ذلك انها اخذت في استعمال الوسائط لنقضها قال المؤرخ لويس دينليوت ان دولة فرنسا قد حاولت ان تنقض هذه المعاهدة واستعملت لذلك مكايد متنوعة ولكن فطنة الامير ومعرفته بالسياسة عرقلت امورهم وافسدت سبيل نجاحها انتهى . وقصارى ما يقال ان تلك المعاهدة كانت عبارة عن متاركة لا تخلو عن مخاتلة من الطرفين وذلك ان كلاً من الامير والجنرال دي ميشيل جعل لنفسه باباً في صكه يخرج منه متى شاء وعلى كل حال فان الامير ارتاحت افكاره من جهة الحروب الفرنساوية وانصرفت همته لتنظيم الوطن وتوسيع سلطنته في بلاد المغرب الاوسط كما قال بعض مورخي الافرنج كانت هذه المعاهدة كناد قام ينادي في اندية العرب بوجوب طاعة هذا الامير فسمع نداءه واجيب دعاه وامتد ملكه وبعد صيته ومداه كما انها جعلت للفرنسيس نوع سلطة في الاماكن التي استولت عليها . ولما وصل عبدالله ويسون الى العاصمة دخل على الامير في القاعة الملوكية بملابسه الرسمية وقدم اليه الرقيم المعلن بتعيينه وكيلاً عنده فلما قراه قال له الآن ادخل علينا السرور حيث اننا نظرنا شروط المعاهدة

اخذت مفعولها وظهرت من القوة الى الفعل وامره ان يواصل التردد عليه ويرفع ما يعرض له من الحاجات اليه وغب خروجه من الحضرة الاميرية توجه لزيارة ارباب الدولة واعيانها في منازلهم ثم قابلوه بمثلها في منزله واظهر لهم غاية الميل والمحبة وخدعهم بلسانه العربي الفصيح ثم ان المسلمين الذين كانوا هاجروا من وهران ومستغانم تشوقت نفوسهم الى الرجوع اليهما وانتهزوا فرصة المعاهدة فمنعهم الامير واوعز الى قناصله بمنعهم وسد باب القبول في وجوههم وفي سنة اربع وثلاثين وثمانمائة والف بعد ابرام المعاهدة وصل وفد السلطان عبد الرحمن بن هشام صاحب المغرب الاقصى لاداء التهنئة للامير بالملك واصحبهم هدية من نفائس بلاده ومقدارًا وافرًا من ذخائر الحرب وادواته فاكرم الامير وفادتهم واعظم جانبهم وكان نفر من العساكر الفرنساوية فروا الى المغرب الاقصى فبعثهم السلطان مع الوفد ليرى الامير رايه فيهم فقبلهم وارسلهم الى الجنرال دي ميشيل فاهتز لذلك فرحًا وعلم صدق الامير ووفاءه بعهوده ووعوده ولما فرغ الامير من هذه الاعمال صرف همته الى تمهيد القاصية من البلاد وردع اهل البغي والفساد كالدوائر والزمالة ومن شايعهم كابن العربي ومن تبعه من قبائل شلف وابن المختي رئيس البرجية وكان الامير لما تقلد امر الامة واشتغل بالجهاد نظر فيما يلزمه من النفقات فرآى ان ما يجبى من اموال الزكاة والاعشار لا يفي بواجباته فطرح المسئلة في مجلس الشورى للنظر فيها فاتفقت آراؤهم على فرض ضريبة على الرعية تسمى معونة بضم العين وبنوا ذلك على اساسات شرعية مؤيدة بنقول فقهية واعمال سلفية فلما تم امر المعاهدة قام اولئك الظلمة وبثوا دسائسهم في افكار العامة بان البيعة انما كانت على الجهاد وحمل اثقال الضريبة انما كان لنفقاته وحيث ان الجهاد طوى بساطه والامير ركن الى مسالمة العدو فلنا ان نرجع في بيعتنا ونمتنع من دفع اموالنا فاثرت دسائسهم في بعض القبائل كبني عامر فامتنعوا من دفع المعونة واتصل خبرهم بالامير فاوعز الى مصطفى آغا بن اسماعيل رئيس الدوائر ان يركب عليهم فيردعهم ويجبي اموالهم فارتاح لها ابن اسماعيل لما تهيأ له في ذلك من اخذ ثاره منهم ثم راجع الامير افكاره فطن لدسائس ابن اسماعيل فكتب اليه بالكف عنهم [illegible] وسار اليهم بجيوشه فدافعوه وتقهقروه ثم اوفدوا على الامير جماعة من اعيانهم فصادفوه على المنبر يخطب على الناس في امر المعونة فارغم الوجوه التي بعثته على اخذها منهم ثم قال اعلموا ان الغاية الوحيدة في قبولي لتقليد هذا المنصب ان تكونوا آمنين على انفسكم واعراضكم واموالكم مطمئنين في بلادكم متمتعين بوظائفكم الدينية ولا يمكن ان ابلغ مرادي من ذلك الا

بمساعدتكم مالاً ورجالاً وبهذا تعلمون ان المنافع الحاصلة منكم عائدة عليكم ولا اظن ان يخطر في بال احدكم ان الاموال التي تؤخذ منكم ابتغيها لنفقاتي الشخصية لعلكم وتحققكم انني غني ملي بما خلفه لي والدي وبالجملة فنحن لا نطلب منكم الا ما تجبركم الشريعة على دفعه وتجبرنا على اخذه فراجعوا انفسكم وسدوا آذانكم مما يلقيه اهل الفساد اليكم وكونوا على كلمة واحدة وصفقة متحدة فيما ينفعكم ويصلح شؤنكم ولا يتم لكم ذلك الا بطاعتنا قال الله تعالى يايها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولي الامر منكم الا فليبلغ الشاهد منكم الغائب فلما سمع الناس كلام الامير انشرحت صدورهم واظهروا الاذعان لاوامره والطاعة لاحكامه وتقدم اليه وفد بني عامر في شانهم فبرؤا ساحتهم مما نسب اليهم من الخروج عن الطاعة ومنع الجباية واوقفوه على دسائس مصطفى بن اسماعيل واشياعه واخبروه بما هو عازم عليه من نبذ الطاعة وذكروا له ما لحقهم منه من الظلم والعسف فاسرها في نفسه واكرم الوفد وردهم الى بلادهم وفي غرة ذي الحجة سنة تسع واربعين والحادي عشر من ابريل سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة والف توجه قاصداً تلمسان ونواحيها فطار الخبر الى الدوائر والزمالة فاحتشدوا واستجاشوا بعرب رياح واهل انكاد وصمدوا لقتال الامير ولما قرب من منازلهم بعث الى ابن اسماعيل وغيره من اعيانهم يدعوهم الى الحضور عنده لينظر في حوادثهم مع بني عامر فاستنكفوا وزحفوا اليه بجموعهم ودارت بينه وبينهم حرب انكشف فيها اولا الخوارج وتركوا جميع موجوداتهم فلما اكب جيش الامير على الغنائم والتهوا بالتعبية عطف عليهم الخوارج بجموعهم من كل ناحية فهزموهم وكان الامير على حدة في فرقة قليلة فلما راى الهزيمة قد استولت على جيشه حمل عليهم مع كثرتهم فاصيب فرسه ووقع بين الصفوف فاردفه ابن عمه السيد المولود ابو طالب ثم ركب فرساً آخر واتصل القتال الى الغروب وقتل من الفريقين عدد كثير وجرح ابن اسماعيل في جملة من بني عمه ثم بلغ الامير ان الخوارج يكيدونه في تلك الليلة فتغافل عن ذلك ونام مع كافة الجيش في غاية الامن فلما كان الثلث الاخير من الليل هجم الخوارج على المعسكر فاستولوا على موجوداته وتخلص الامير من بينهم وبعد طلوع الشمس تراجع الناس اليه فانقلب بهم الى حضرته وطار الخبر الى حاكمها محمد بن السنية فجمع الايدي على تجديد ما سلبه الخوارج من ادوات الملك ومهماته وهيأ الموكب الملوكي ولما قرب الامير من الحضرة تلقاه بذلك وتلقاه العلماء والاعيان ودخل عاصمته في الهيئة التي خرج فيها واصبح في دار ملكه على ما كان عليه

ترى الناس في ابوابه ورحابه * كأنهم من فرط كثرتهم نمل

ولما رأى الخوارج ان حادثتهم لم تحدث في امر الامير ضعفاً ولا في افكار رعاياه تشويشاً ندموا ندامة الكسعي واقاموا يترقبون شديد الانتقام ووقعوا من امرهم في حيرة وقد تبرأ منهم الحميم وتباعد عنهم القريب ولم يبق على مشايعتهم الا ابن الغازي وقومه والبعض من قبيلة رياح وسلم بما وقعوا فيه من الوبال والخسران والذلة والهوان وما آل اليه امرهم ان شاء الله تعالى

ذكر تنظيم الجند وما يتعلق به

لما علم الامير ما بين الجنود المنتظمة والحشود المتطوعة من الفرق العظيم عزم على تنظيم جند كاف يكون دابه التمرين والتدريب ليصل بقوته ومعرفته بالامور الحربية الى مقاصده الجسيمة فبعد رجوعه من واقعة الدوائر عقد مجلساً عمومياً من رجال الدولة واعيان الرعية وزعمائها وخطب عليهم خطبة اوضح فيها فوائد العسكر النظامي ومنافعه واخبرهم انه اعتزم على تنظيم عدد منه كاف فاجابه الجميع الى ذلك ووافقوه عليه وطفق المنادي يقول باعلا صوته في الاسواق ليبلغ الشاهد الغائب انه صدر امر مولانا ناصر الدين بتجنيد الاجناد وتنظيم العساكر من كافة البلاد فمن اراد الدخول تحت اللواء المحمدي ويشمله عز النظام فليسارع الى دار الامارة معسكر ليتقيد اسمه في الدفاتر الاميرية . فتلقى الناس هذا الامر بانشراح وارتياح وتسابقوا اليه طوعاً من كل جهة حتى من القاصية وصار له موقع عظيم عند العامة والخاصة واستحسنه كل عاقل ووافق عليه كل فاضل وامتلات عند سماع امره قلوب الاعداء رعباً وعلموا انهم قد حملوا انفسهم من عداوة الامير امراً صعباً وامست افكارهم في قلق وقلوبهم بنار الخوف في التهاب وحرق ولم يكل الامير امر الجند لغيره بل هو تولى ترتيبه وتنظيمه بنفسه فجعله ثلاث فرق . فرقة مشاة . وفرقة يركبون الخيل وعرفوا بالخيالة . والفرقة الثالثة مدفعيون وولى وقتئذ على المشاة والخيالة من مشاهير الابطال قدور بن بحر وعبد القادر بن عز الدين ومحمد قوشارمه ومحمد السنوسي وسالم الزنجي واحمد الخديوي وغيرهم كل واحد على الف جندي وولى على المدفعيين محمد آغا المعروف بابن كسكسه (الكول اوغلي) ووضع لهم قوانين وضوابط جمعها بعض كتاب الجند في رسالة سماها (وشاح الكتائب وزينة العسكر المحمدي الغالب) ونصها . حمداً لمن اعز كلمة نبيه سيدنا محمد صلى

الله عليه وسلم واعلاها · ومكن شريعته على اساس التقوى وبناها · وصلاةً وسلاماً على نبي الملاحم · المؤسس ترتيب الصفوف كانهم البنيان المرصوص او الموج المتلاطم من كان يتقي به اكابر اصحابه رضي الله عنهم وارضاهم · وجعلنا ممن اقتدى بهم ووالاهم · وبعد فانه لما كان يجب للجيش وضع قوانين لايتعداها · وهيآت يتميز بها وشؤون اخرى لا بد ان يرعاها · وكان من ولاه الله امرنا واختاره اميرا علينا ناصراً للدين سيدنا ومولانا عبد القادر بن محي الدين · ايده الله عارفاً بذلك · خبيراً بتلك المسالك · وضع لعسكره المحمدي · وجنده الاحمدي · قوانين تجري امورهم عليها · ويرجعون في شؤنهم اليها · وهيئات تتميز بها امراؤهم · وترتيبات يكون عليها اعتمادهم · ثم امر نصرالله بجمعها فجاءت بحمدالله كما امر · وعلى الوجه الذي صدر · سميتها (وشاح الكتائب · وزينة العسكر المحمدي الغالب) ورتبتها على مقدمة واربعة وعشرين قانوناً وخاتمة اما المقدمة فانها تشتمل على مسائل الاولى رتب نصره الله عسكره على ثلاثة اصناف · الاول الراكبون وسماهم الخيالة · الثاني المشاة وسماهم العسكر المحمدي · الثالث المدفعيون وسماهم الرماة والطوبجية وجعل على كل صنف من هؤلاء الثلاثة رئيساً فعلى الالف خيال آغة وعلى الخمسين سيافاً وعلى العشرين رئيس الصف ودونه الجاويش ولكل الف وكل مائة كاتباً وعلى الكتب رئيساً سماه باش كاتب واما العسكر المحمدي فانه قسمه الى مئات وقسم كل مائة الى ثلاثة اقسام وجعل لكل قسم خباء ورئيساً عليه سماه رئيس الخباء اي الخيمة وعين له نائباً يقوم مقامه وسماه خليفة رئيس الخباء وجعل على كل ثلاثة اقسام من هؤلاء رئيساً سماه سيافاً وعين لهم كاتباً يخصهم وجعل على كل عشرة من السيافين فاكثر رئيساً سماه آغة ورئيس العسكر المحمدي وشأنه النظر في احوال السيافين فمن دونهم واما الطوبجية فيسمى رئيسهم باش طوبجي وعين لكل مدفع اثنى عشر جندياً يقومون بامره وعليهم رئيس وكاتب · المسئلة الثانية كسوة العسكر المحمدي على نوعين الجوخ والكتان اما الجوخ فعلى ثلاثة اصناف احمر قان وهو الاعلى وادنى منه الجوخ العسكري وهو الاحمر الكاشف والصنف الثالث اسود فاما الصنف العال الجيد فلرئيس العسكر المحمدي ولرئيس الخيالة واما الصنف الذي دونه فهو للسيافين والكتاب اصحاب الرتبة الاولى ومعلم الحرب والطنبورجي وهو صاحب الطرنبيطة واما الاسود فلباس الطوبجي ورئيس الاثنى عشر مدفعياً وكاتبهم واما رئيس الصف ورئيس الخباء فكسوتهم متنوعة فيختص رئيس الصف بالغليلة

المعروفة بالمتتان من الجوخ الاسود والسروال من الاحمر وعكسه رئيس الخباء فمتيانه احمر وسرواله اسود واما الكتان فهو كسوة سائر افراد العسكر المحمدي بخلاف الخيالة فان اكسيتهم من الجوخ الاحمر الدون (تنبيه) امر مولانا ان لا يغير احد كسوته المخصوصة به سواء كان آغة او سيافًا او رئيس صف او رئيس خباء او خيالاً او طوبجيًا او عسكريًا ولو بلغ ما بلغ في الغنى ومن استهون بهذا الامر فانه يعاقب العقوبة الشديدة وقد جعل مولانا نصره الله لسائر رؤساء الاصناف المذكورة علامات يتميزون بها ويعرف بها الرئيس من المرؤوس فجعل لرئيس العسكر المحمدي وهو الآغة اربعة علامات من الذهب اثنتان على منكبيه احداها مكتوب عليها · اشهد ان لا آله الا الله واشهد ان محمداً رسول الله · والاخرى مكتوب عليها (الصبر مفتاح النصر) واثنتان في صدره على شكل القمر فذات اليمين مكتوب عليها (لا آله الا الله) وذات الشمال مكتوب عليها (محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم) وجعل لرئيس الخيالة علامتين من الذهب ايضًا احداها على منكبه الايمن مكتوب عليها (الخيل معقود بنواصيها الخير الى يوم القيامة) والاخرى يضعها على صدره مكتوب عليها (محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم) وجعل للسياف علامتين من الفضة على شكل السيف يضعهما على عضديه احداها وهي اليمنى مكتوب عليها (لا انفع من التقوى والشجاعة) وعلى الاخرى وهي اليسرى مكتوب عليها (ولا اضر من المخالفة وعدم الطاعة) وجعل لسياف الخيالة علامة واحدة من الفضة يجعلها على عضده الايسر مكتوب عليها (ايها المقاتل احمل تغنم) وجعل لرئيس الصف علامة واحدة يضعها على عضده الايمن وهي من الفضة ايضًا مكتوب عليها (من اطاع رئيسه واتقى مولاه نال ما يرجوه ويتمناه) ولنائبه علامة من الجوخ الاحمر يضعها على ساعده الايمن وجعل للباش كاتب علامة من الفضة على شكل القمر مكتوب عليها (ناصر الدين) يضعها على ساعده الايمن وجعل لرئيس الطوبجية علامة من الفضة يضعها على كتفه الايمن وهي صورة مدفع مكتوب عليها) وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى (المسئلة الثالثة) لما كان يجب على الجند باصنافه اعني المشاة والخيالة والطوبجية ان يكون كل فرد منه عالما بمكائد الحرب متخلقًا بها مستعملاً لها عند مقابلة العدوّ ومن غير تكلف عين مولانا لكل صنف من هؤلاء الاصناف معلمًا عارفًا نشيطًا حافظًا لجميع ما يجب استعماله حال الحرب وعين نصره الله للعسكر والطوبجية منبهًا سماه الطنبورجي يعني الطرنبيطي يجمع العسكر والطوبجية ويفرقهم بنقرات الطنبور اي الطرنبيطة ويدعوهم للاقدام والاحجام وله في تعليم الحرب

صيغ مخصوصة وفي غيره صيغ اخرى منها صيغة للعسه وصيغة لتبديلها وصيغة لاجتماع رؤساء الصف وصيغة لاجتماع السيافين وصيغة للحمل على العدوّ وصيغة للحذر منه الى غير ذلك وجعل نصره الله للخيالة منبهاً وهو النفير المعروف بالبوري يجمعهم ويفرقهم باصوات مختلفة يفهمونها وعين لتعليم الحرب والتمرين عليه اوقاتاً معلومة في ايام معلومة يخرج فيها العسكر والخيالة والطوبجية كل صنف على حدة حسبما تقضي به عليهم قوانين الحرب (تنبيهات) الاول يجب على رئيس العسكر والسيافين ورؤساء الصنوف وخلفاء الجميع وسائر الجند ان يتعلموا حرب البواريد (البندقيات) الى ان تحصل لهم الملكة ويقدروا على تعليم غيرهم ومن لم يتعلم منهم يعاقب الثاني يجب على المدفعيين ان يتعلموا حرب المدفع من دك ونيشان وحركات المدافع يميناً وشمالاً على حسب الحاجة ومن تعلم ذلك وحصله يكرمه مولانا ومن لم يتعلمه يعاقب الثالث وهو آكدها ان الاغة اعني رئيس العسكر المحمدي وخليفته اذا قاتلا العدو على غير القوانين الحربية وحصل من ذلك اختلال في صفوف العسكر او هزيمة فانهما يعاقبان على حسب اجتهاد السلطان (المسألة الرابعة) اخترع مولانا علامات من خالص الذهب والفضة على شكل بديع سماه الشيعة المحمدية يعني النيشان ونبه على سائر الجند ان من ظهرت شجاعته او ابدى مزية وقت الحرب بان انقذ اخاه من يد العدو او سبق غيره بالهجوم او الكر او ردّ الهزيمة على العدو وغير ذلك من المزايا التي توجب له العز والاحترام عند مولانا وثبت لديه ذلك فانه يمنحه الشيعة ويلبسه اياها بيده الكريمة وتضرب الموسيقى له اعلاماً بذلك والشيعة تكون على حسب المزية هذا اذا كان حاضراً بين يديه واما اذا كان مع احد الخلفاء فانه يلزمه ان يثبت مزيته التي يستوجب بها حمل الشيعة عند الخليفة وهو يرفع الامر الى مولانا فحينئذٍ يامر له بها وسنذكر مراتب الشيعة في آخر الخاتمة (تنبيهات) الاول ان مات الآغة اعني رئيس العسكر المحمدي او السياف او كبير الصف في الحرب فلا ينقطع راتبه وانما يبقى جارياً على بنيه الى ان يقدر احد اولاده على حمل السلاح فيجري عليه بعد ذلك راتب عسكري حتى يترقى في الخدمة فيزاد في راتبه على حسب الرتبة التي ترقى اليها الثاني ان جرح العسكري في القتال جرحاً يمنعه من المشي ويقدر على القتال راكباً فانه يدخل في صنف الخيالة وان تعطل بالكلية فانه يجري عليه راتبه من غير شرطٍ الى ان يموت الثالث اذا مرض العسكري مرضاً يمنعه من الخدمة بشهادة الاطباء فانه يجري عليه نصف راتبه الى ان يموت (المسألة الخامسة) ان مولانا جعل للمسكوكات الجارية في البلاد

صرفاً معلوماً نتعامل به رعيته وسك نصره الله نوعين من العملة احداها المحمدية والاخرى النصفية فجعل صرف الدور ابو مدفع المعروف بابي عمود اربع ريالات وكل ريال فيه ثلاثة ارباع جزائرية وكل ربع جعل صرفه ثمان محمديات وكل محمدية نصفيتين من السكة الجديدة المضروبة في دار السكة بحيث اذا اطلق الريال لا ينصرف الا الى هذا الصرف وجعل الدور الجزائري ثلاث ريالات الا ثمان محمديات وبهذا الصرف يعطي راتب العسكر باصنافه (المسألة السادسة) في قيمة الكسوة وآلات الحرب اما كسوة الجوخ فالسروال قيمته ستة عشر ريالاً والغليلة وهي المنتيان قيمتها خمس ريالات والصدرية ستة عشر محمدية واما كسوة الكتان فالكبود قيمته اربع ريالات والسروال ثلاث ريالات وثمان محمديات والقميص ريالان الا ستة محمديات والشاشية وهي الطربوش عشرون محمدية والبلغة وهي المداس على حسب سعر السوق واما آلات الحرب فالبلاصكه وهي محل الفشك ريال واحد والمحزمة ثمانية عشر محمدية والبندقية اي البارودة بتمامها عشرون ريالاً وقيمة العالية وهي السنكى ثلاث ريالات والسكين وهي السيف احد عشر ريالاً (تنبيه) اذا اضاع الجندي شيئاً من الكسوة وآلات الحرب في الحرب او في حال تعلمه فلا ضمان عليه وكذلك الخيال اذا اتلف الفرس او السرج او آلة حرب في حال القتال او تعلم الحرب فلاضمان عليه ومن اتلف شيئاً مما ذكر في غير هذين الموطنين فانه يضمن ما اتلفه بالقيمة المذكورة واذا بلي شيء كالبلاصكه او المحزمة مثلاً فانه يجدد من بيت المال (المسالة السابعة) ان مولانا اوجب ان يكون رؤساء الجند باصنافه من ذوي النجدة والشجاعة والاقدام والقوة في الدين واليقين والصبر والثبات والفطنة والتنبه للمكائد الحربية لان الرئيس في العسكر بمنزلة القلب في الجسد اذا صلح صلح الجسد كله واذا فسد فسد الجسد كله فلاجل ذلك لا تكون رئاسة العسكر والخيالة واصحاب الرايات الا باختيار مولانا ونظره لمن فيه هذه الخصال الحميدة ومن ثمت لا يكون العسكري سياقاً الا بعد ان يتولى في الرتب الصغيرة وتظهر نتائجه الا اذا كان ممن حمل الشيعة فانه يستوجب ان يتولى سياقاً من غير تدريج هذا اذا توفرت فيه الشروط واوجب نصره الله ان لا يكون احد الخيالة رئيساً على العسكر المشاة الا اذا كان من اهل الشيعة فانه له ذلك ان احتيج اليه واختاره الامير لمصلحة رآها فيه (المسألة الثامنة) قد جعل مولانا لمؤنة العسكر المحمدي ميزاناً معلوماً بالرطل ونصفه وجعل وزن الرطل ستة عشر اوقية وكل اوقية ثمانية اثمان وكل

ثمن مائتي شعيرة مقصوصة الاطراف وان لا يكون الكيل وآلة الوزن الا بختم الامارة وعين نصره الله لكل عسكري رغيفاً وزنه نياً عشرون اوقية ونضيجاً ثمانية عشر اوقية واثنى عشر اوقيـة من البرغل وستة اثمان من السمن فان فقد الخبز فرطل بقسماط مكانه فان فقد امعاً فانه يعطى من البرغل بدلها وعين للعسكر السمن في الصيف والزيت في الشتاء

القوانين

القانون الاول

لرئيس العسكر المحمدي وهو الآغة اثنان وعشرون ريالاً راتباً شهريًا لا ينقص له من هذا العدد شيء وله في كل يوم ثلاثة ارغفة احدها من الخبز الابيض الخاص والاخران من الخبز الاسمر او خمسة ارطال بقسماط عند فقد الخبز وله ستة ارطال من البرغل في كل ليلة ونصف رطل سمناً وخمسة ارطال حطباً وله مثل ذلك في النهار ان فقد الخبز والبقسماط معاً وله في كل يوم خميس واثنين شاة وله كسوة تامة من بيت المال وان بليت فانها تجدد له بالثمن فثمن المنتان وهو الغليلة ثمانيـة وعشرون ريالاً جزائريًا وثمن السروال اربعة واربعون ريالاً وثمن القميص ريال واحد

القانون الثاني

للسياف اثنا عشر ريالاً في الشهر وله في كل يوم رغيفـان احدها ابيض والثاني من مطلق الخبز او رطلان ونصف بقسماط ان لم يوجد الخبز وله في كل ليلة رطلان من البرغل واوقيتان سمناً ومثل ذلك في النهار ان لم يوجد خبز ولا بقسماط وله في كل يوم خميس واثنين من اللحم ربع شاة وكسوته تجدد بالثمن

القانون الثالث

لرئيس الصف ثمان ريالات راتباً شهريًا وله رغيفان في كل يوم او رطلاً بقسماط وله من البرغل رطل ونصف في كل ليلة وان فقد الخبز والبقسماط يعطى في النهار مثل الليل وله من اللحم في كل خميس واثنين نصف ربع الشاة وخليفته

ست ريالات ونصف شهرية وله في الخرج مثله وكسوتهما تجدد بالثمن

القانون الرابع

لباش كاتب العسكر اثنا عشر ريالاً في كل شهر وله رغيفان احدهما ابيض والآخر اسمر او رطلان من البقسماط ورطلان من البرغل في كل ليلة واوقيتان من السمن وله مثل ذلك في النهار عند فقد الخبز والبقسماط وله في كل يوم خميس واثنين ربع شاة ورطل حطب في كل يوم وليلة ووظيفة هذا الباش كاتب كتابة امور الجيش كالرواتب والاكسية والديون التي تترتب في ذمة افراد العسكر وقراءة القانون وقت الحاجة ومن وظيفته ايضاً انه يجمع ما تحته من الكتاب ويعلمهم فرائض الغسل والوضوء والتيمم والصلاة والصوم وعقائد التوحيد كما ان كل واحد من هؤلاء الكتاب يعلم المائة التي هو كاتب عليها جميع العبادات والعقائد ويؤذن للصلاة ويصلي اماماً كما ان الباش كاتب يجب عليه ان يعلم الآغة وظائف الدين ويؤمه في الصلاة وقد اوجب مولانا على العسكر ورؤسائه ان يحترموا هؤلاء الكتاب ورئيسهم ومن اهان احدهم فانه يعاقب العقوبة الشديدة

القانون الخامس

لكاتب المائة سبع ريالات في كل شهر وله في كل يوم رغيفان من مطلق الخبز او رطلان من البقسماط وله في كل يوم خميس واثنين نصف ربع الشاة من اللحم وكسوة الكتاب جميعاً ان بليت تجدد بالثمن

القانون السادس

لحامل الراية المحمدية سبع ريالات في كل شهر وله رغيفان من الخبز الاسمر او رطل بقسماط ان فقد الخبز وباقي الخرج فهو فيه مع ريس العسكر ولا يكون حامل الراية الا من اهل النجدة والشجاعة والجراءة وينزل مع الرئيس في محله

القانون السابع

للطباخ ريالان في كل شهر وله جلود الشياه التي يذبحها

القانون الثامن

لمعلم الحرب اثنا عشر ريالاً في كل شهر وله رغيفان من مطلق الخبز او رطل ونصف من البقسماط عوضاً عنهما ان فقد الخبز وله في كل ليلة رطل من البرغل واوقية من السمن وربع شاة من اللحم ولا يكون المعلم الا واحداً عند كل رئيس ويكون نزوله مع السياف

القانون التاسع

لرئيس الطنبور سبع ريالات ونصف في كل شهر وله رغيفان كل يوم من مطلق الخبز او رطلان بقسماط وينزل مع الرئيس

القانون العاشر

لمطلق العسكر المحمدي اعني لكل فرد منهم ست ريالات في كل شهر وله رغيف او رطل بقسماط ولسائر اهل الخباء اي الخيمة في كل ليلة خمس وعشرون رطلاً برغلاً ورطل ونصف رطل سمناً ومثلها زيتاً في فصل الشتاء وعند نقد السمن ولهم من الحطب خمسة عشر رطلاً سواءً كانوا في سفر او حضر ولهم خمس وعشرون رطلاً من البرغل ان فقد الخبز او البقسماط والمائة منهم لما في كل يوم خميس واثنين خمس شياة يقسمونها على الاخبية هذا تمام المؤنة واذا نقص من المائة او اهل الخباء فانه ينقص لهم من هذه الاشياء كلها بقدر ما نقص من الاشخاص

القانون الحادي عشر

لجاويش العسكر سبع ريالات شهرياً وهو مثل العسكري في كل شيء وامره بيد الآغة اي رئيس العسكر المحمدي تولية وعزلا

القانون الثاني عشر

لرئيس الخيالة تسعة عشر ريالاً في الشهر وله رغيفان احدهما ابيض والآخر اسمر وله اربعة ارطال من البرغل واربع آواق سمناً في كل وقت اعني ليلاً ونهاراً واربعة ارطال من الحطب في الليلة ومثل ذلك كله من البرغل والسمن والحطب ان فقد الخبز والبقسماط

القانون الثالث عشر

لسياف الخيالة تسع ريالات في كل شهر وستة عشر محمدية وله رغيف واحد ابيض وله نصف ربع الشاة من اللحم في كل يوم خميس واثنين

القانون الرابع عشر

لكل خيال سبع ريالات في كل شهر ولكل واحد منهم في كل يوم رغيف اسمر او رطل بقسماط عوضاً عنه وللخمسين خيالاً في كل خميس واثنين شاتان ونصف شاة ولهم في كل ليلة سبعة وثلاثون رطلاً من البرغل ومن السمن رطلان وربع ولهم مثل ذلك في النهار ان فقد الخبز والبقسماط ولهم من الحطب عشرون رطلاً وينقص لهم من اللحم والسمن بقدر ما ينقص من عددهم

القانون الخامس عشر

باش طوبجي اربعة عشر ريالاً في كل شهر وله في كل يوم رغيفان احدهما ابيض والآخر اسمر و رطلان من البقسماط عند نقد الخبز وله ثلاثة ارطال من البرغل في كل ليلة وثلاثة آواق سمناً ومثل ذلك في النهار ان نقد الخبز والبقسماط وثلاثة ارطال حطباً ومن اللحم ربع شاة في كل يوم خميس واثنين

القانون السادس عشر

عين مولانا كما سبق لكل مدفع اثنى عشر جندياً ستة يقاتلون وستة يرتاحون وعليهم رئيس وهو الثالث عشر سماه رئيس المدفع ولهذا الرئيس كل يوم رغيفان من الخبز الاسمر وله في كل يوم خميس واثنين من اللحم ثمن شاة وباقي الخرج والمرتب فكالعسكر

القانون السابع عشر

كاتب الطوبجية مثل كاتب المائة في كل شيء

القانون الثامن عشر

لكل واحد من الطوبجية ستة ريالات ونصف في كل شهر وله رغيف واحد

اسمر في كل يوم او رطل بقسماط ولهم من البرغل واللحم والسمن والحطب مثل ما للعسكر واذا نقصوا ينقص لهم من الخرج بقدر ما ينقص من عددهم

القانون التاسع عشر

ان معلم الطوبجية في الايام التي يتعلم العسكر فيها الحرب لا بد ان يكون مقابلاً بالانفار والمدافع للعسكر و يتحاربون كما يفعلون مع العدو لاجل التدريب والتمرين

القانون الموفي عشرين

ان ربط الفشك وتذويب الرصاص انما هو على الطوبجية في كل نحلة اي عرضى لانهم احق بذلك واذا كثر عليهم الشغل يستعينون بالعسكر

القانون الحادي والعشرون

ان العسكري البعيد الدار اذا طلب التسريح الى اهله واخذ الرخصة فيه فان بارودته تبقى محفوظة عند السياف وكذلك العسكري المريض الذي يكون في المستشفى

القانون الثاني والعشرون

المؤنة انما تجري على العسكر والخيالة والطوبجية وروسائهم في السفر والحضر ما داموا في الخدمة فان كانوا مسرحين بالرخصة في بلادهم عند اهلهم فلا شيء لهم منها البتة

القانون الثالث والعشرون

لا يرخص لاحد من العسكر او الخيالة او الطوبجية ان ياخذ شيئاً من المؤنة الا بحضور باش كاتب العسكر وباش كاتب الخيالة وباش كاتب الطوبجية ومن تخلف من هؤلاء الكتاب عن الحضور في الوقت المعين لهم يعاقب و يشهر عقابه

القانون الرابع والعشرون

ان من اعتناء مولانا بجنده انه ابتنى لهم في كل محل يتعينون فيه مستشفى وهيأ فيه للمريض جميع ما يحتاج اليه من اكل وشرب وفراش وغطاء وخدمة من افراد العسكر بشرط ان يكونوا ذوي نباهة وآداب وطلاقة وجه واتساع خاطر حتى لا تضيق نفوس المرضى منهم وعين في كل مستشفى طبيباً ماهراً وجميع ما يلزم من الادوية ياخذ ثمنه من بيت المال والخدمة اذا تعلموا صناعة الطب والتمريض وشهد لهم الاطباء بالمعرفة التامة فان مرتباتهم يزاد فيها على حسب تفاوتهم في المعرفة ومن

شانهم ان يقوموا بتمريض المرضى في حال السفر والحضر وجميع نفقاتهم من بيت المال وجعل لرئيس الاطباء كسوة من الجوخ الجيد تامة واثني عشر ريالاً في كل شهر وله في كل خميس واثنين من اللحم ربع شاة وله رغيفان من الخبز الابيض في كل يوم او رطلان من البقسماط وفي كل ليلة رطلان من البرغل واوقيتان سمناً او زيتاً عند فقد السمن وكذلك في النهار ان فقد الخبز والبقسماط معاً وله في كل يوم ثلاثة ارطال حطباً انتهى تقييد المسائل والقوانين التي هي في الحقيقة اصول ولها فروع كثيرة مذكورة في غير هذا المختصر

الخاتمة في انواع الجزاء

اوجب مولانا على رئيس العسكر وهو الآغة ان يتفقد عدد العسكر وكسوته وسلاحه وجميع آلات الحرب في كل يوم سبت وان تخلف عن ذلك لغير عذر ظاهر يحبس عشرين يوماً واوجب عليه ان لا يأخذ من العسكري ولا من السياف ولا من كبير الصف ولا من غيرهم محمدية واحدة وان لا يغش في شيء من الخدمة وان ثبت عليه شيء من ذلك فان اسمه يمحى من الديوان العسكري ويطرد ويهان واوجب نصره الله على السياف ان يتفقد ما تحت يده من العسكر في كل يوم اثنين وخميس فان تخلف عن ذلك لغير عذر ظاهر فانه يحبس عشرة ايام وان وجد في سلاحه فساد لم يصلحه فانه يحبس خمسة ايام واوجب عليه ان لا يظلم احداً من العسكر وان لا يأخذ منهم شيئاً وان لا يغش في الخدمة ولا يخون فان فعل شيئاً من ذلك وثبت عليه فانه يحبس ستين يوماً ويجب عليه ان يطيع الاوامر الاميرية ولا يخالف في شيء ما واوجب على كل سياف من سيافي العسكر ان لا يركب في يوم الحرب ولا في يوم تعليمه وانما يكون مع المرؤس عليهم ماشياً ليرتب صفوفهم للقتال او التعليم ويشجعهم وهو المتكفل بسلاحهم وهو المسئول عنه بالنسبة لمن فوقه فلا بدّ ان يتفقده ويعده والا فانه يضمن ما فقد منه واذا مات العسكري او غاب بالرخصة وكانت البارودة في يده فانه ياخذها منه ويدفعها الى الخايفة وياخذ منه سنداً فيها تبرئة له من الضمان فان غابت ولم ياخذ فيها سنداً فانه يضمنها واوجب على رئيس الصف ان يتفقد ما تحت حكمه من العسكر كل يوم صباحاً ومساء وذلك ان يصفهم ويقف الكاتب معه والدفتر في يده فيسمي افراد العسكر واحداً واحداً وكل من ذكر اسمه يجيب فان ذكر اسماً ولم يجبه احد يعلم ان المسمى غائب فحينئذ

ينظر في امره فان كانت غيبته لعذر مقبول فلا باس عليه والا فانه يطلب ثم يحبس يوماً وليلة ومن انف من الخروج للتعليم فانه يحبس يوماً وليلة وان تخلف السياف والكاتب او كل منهما عن الحضور للتعليم فانهما يحبسان ستة ايام واوجب على الجندي طاعة سيافه والقيام بامر العسة واوجب على عموم العسكر طاعة عموم رؤسائهم فمن عصى رئيسه في شيء فانه يحبس خمسة عشر يوماً ومن سمع الطنبور ليتعلم الحرب ولم يجب فانه يحبس يومين ومن سمع الطنبور يدعو الى الخروج الى القتال ولم يخرج فانه يحبس شهراً ومن خرج للتعليم او للقتال في غير الكسوة الاميرية فانه يحبس يوماً وليلة وكذلك الآغة والسياف ورئيس الصف ومن ترك الوسخ على سلاحه او كسوته فانه يحبس ثلاثة ايام ومن اتلف شيئاً من سلاحه او افسده في غير يوم الحرب او تعليمه فانه يضمن قيمته كما تقدم في المسائل ومن هرب من الخدمة العسكرية ورجع باختياره فانه يحبس على قدر الايام التي غاب فيها ومن هرب وقبض عليه بامر الامير فانه يحبس على حسب اجتهاد الامير ومن اطلق طلقاً واحداً من بارودته ليلاً او نهاراً لغير مصلحة فانه يحبس يوماً وليلة واذا نام العسكري في العسة القائم بها فانه يحبس ثمانية ايام واذا باع العسكري شيئاً من البارود وثبت عليه ذلك فانه يحبس شهراً واذا كان العسكري المذنب مسافراً فانه يضرب بالسوط على قدر الايام التي يحبس فيها قانوناً وجميع ما يلزم رئيس العسكر المحمدي ويجري عليه يلزم رئيس الخيالة ويجري عليه وكل ما يلزم العسكري يلزم الخيال وكل ما يلزم سياف العسكر يلزم سياف الخيالة وان ركب الخيال فرسه من دون موجب فانه يحبس يوماً وليلة وما يجري على العسكر يلزم سائر الطوبجية ويجري عليهم وما يجري على السيافين يجري على باش طوبجي وان عمل احد رؤساء العسكر او الخيالة او الطوبجية ما يستوجب العزل فانه ينحط عن رتبته الى رتبة عسكري ويلبس لباسه وكسوة الجوخ ترجع الى بيت المال وان وجب حكم من الاحكام السابقة على افراد العسكر فان رؤساء الصف هم الذين يتولون نفوذ الحكم القانوني فان السياف يحكم عليه بحسب القانون الذي يخصه وان فرط رئيس العسكر في نفوذ الحكم القانوني فان مولانا او خليفته يعاقبه حسب القانون وان فعل العسكري خصلة حميدة في حال الحرب فانه يحوز الشيعة المحمدية ويستوجبها على الهيئة المذكورة في المسائل ويحوز حرمة فوق السيافين واذا فعل رئيس العسكر مزية فانه يحمل الشيعة اللائقة والشيعة نيشان صورة يد مفتوحة الاصابع ذهباً وفضة وفي وسطها مكتوب ﴿ ناصر الدين ﴾ تربط على الراس فوق

الاذن اليمنى ولناقلها في كل شهر خمسة وعشرون ريالاً ويجب احترامه على الجميع وهكذا الخيالة ورؤساؤهم فمن عمل بمقتضى هذه القوانين وبما ذكر في المسائل فقد فاز في الدنيا والآخرة ونال من الله تعالى الرضي وزيادة فيجب على من سمع ما ذكرناه ان يطيعه ويعمل به ويذعن له ويرضى به والله ولي التوفيق والهادي الى سواء الطريق حرر في اواخر جمادى الاولى سنة تسع واربعين ومائتين والف



رسم احد خيالة جيش الامير



﴿ رسم احد عساكر الامير ﴾

صفة هيئة المعسكر وترتيبه في السفر

كانت هيئته شبه دائرة حسنة الانتظام خيامها مخروطية الشكل متناسبة البعد في البناء كل خيمة تضم ثلاثة وثلاثين نفرًا ومدخل المعسكر من جهة الشرق وعليه مدفعان وفي المقدمة خيمة رئيس المدافع ويقابلها خيمة رئيس الجراحين والاطباء والمستشفى وفي نصف الدائرة خيمة الامير وطولها خمسة عشر مترًا في عرض ستة امتار مزينة الباطن بانواع الاقمشة الملونة مفروشة الداخل بالزرابي المتقنة تبنى على ثلاثة عواميد ارتفاع كل واحد منها خمسة عشر قدمًا متناسبة الوضع في البعد ويجلس الامير فيها مقابلاً للمدخل وامامه صندوقان صغيرا الحجم من حديد ضمن حداها اوراقه المهمة وضمن الثاني مال ينفقه في الاحسان والخيرات ويقابل المدخل ستارة يقف عندها عبدان دائمًا ومن ورائها مكان يختلي فيه للوضوء والصلاة والمقابلة السرية وعلى بعد ستة امتار من الخيمة مركز راياته ومربط خيله المختصة بـه واذا جلس داخل خيمته تقف حوله كتمة اسراره وخواص المأمورين واركان الحرب بغاية ما يكون من الادب والخضوع ويقف من ورائهم ثلاثون عبدًا من اهل الشدة والبأس المشهود لهم بالشجاعة والفروسية وهم الحرس الخصوصي للامير يتناوبون ليلاً ونهارًا واثمانهم من بيت المال واذا اراد اصدار امر ما اشار لمن يريده فيقرب منه ويتلقى الامر ثم يرجع القهقرى وخيام كتبة اسراره وخواص مأموريه عن يمين خيمته وشمالها ومن ورائهم خيام محافظي الخزنة ولوازمات الجند من البسة واسلحة وغيرها ومؤونة الجيش ومرابط الجمال والبغال على ناحية منها وفي كل جهة من المعسكر سوق يشتمل على قهاوي ودكاكين تباع فيها اصناف البضاعة والماكولات واذا حضر وقت الصلاة واذن المؤذن يخرج الامير فيصلي بهم امامًا ويعاقب كل من تخلف عن صلاة الجماعة لغير عذر وكان يجلس لفصل الدعاوي بعد فراغه من صلاة الضحى الى اذان الظهر ثم يخرج ويصلي امامًا ويرجع لخيمته ليقيل ساعة ثم يجلس للفصل ايضًا الى اذان العصر وبعد الفراغ من الصلاة تصدح الموسيقى امام خيمته بانغام شجية والحان اندلسية تحرك اوتار الاشجان ويتواجد من الحانها كل انسان حتى ان الخيل تكف عن الاكل ويخيل الناظر انها ترقص من كثرة حركة يديها ورجليها عند استماعها فاذا انتهت الموسيقى نادى الجاويش (الله ينصر ناصر الدين ويطيل عمره) فيجيبه الجميع بمثل ذلك وبعد اداء صلاة العشاء تضرب الموسيقى

لحنًا واحدًا ثم يمنع الدخول والخروج من المعسكر ولا يؤذن في الدخول والخروج منه الا بامر الامير وكل من يخالف هذا القانون فجزاؤه الاعدام

صفة رحيل المعسكر ونزوله

اذا اراد الامير الرحيل يطلب الخزندار بعد اداء صلاة الصبح ويامره بتهيء الجيش للرحيل فيطلق مدفعان بينهما برهة يسيرة وهذه علامة الرحيل فحينئذٍ يثور جميع الجند لجمع الامتعة وهدم الخيام وتحميل المؤنة والذخائر وتمتطي الفرسان صهوات الخيل ثم تاتي الاغوات وقواد القبائل الى خيمة الامير فياذن لهم بالدخول ويسألهم عن الاراضي والمراكز الموافقة للنزول ثم ياتي الخزندار فيخبره بتهيء الجيش للمسير فيخرج من خيمته ويمتطي صهوة جواده فيثب به وثبتين ثم تصدح الموسيقى بلحن الرحيل فيبتدىء الجيش بالمسير على ترتيب عجيب الى ان يصلوا المحل المناسب للمبيت فينزل الامير وتنصب الرايات ويحيط به الحرس ويذهب الخزندار لترتيب نزول الجيش وتعيين محل خيمة الامير وسيف اقرب وقت ترى الخيام نصبت والمضارب ضربت ونزل كل فريق في منزله ووقف الخفر في محله فعند ذلك يذهب الخزندار واحد اركان الحجاب فيخبر الامير بامكان دخوله المعسكر فيركب جواده ويسير والماموروں من ورائه والموسيقى تصدح بلحن الوصول الى قرب الخيمة ثم تغير اللحن فيهدأ فرس الامير ويقرب من الكرسي المعد لنزوله وعند وطئه الارض تطلق ثلاث مدافع اعلامًا بنزوله

ذكر خروج الامير لتمهيد البلاد

لما بلغ ابن عربي خبر انتصار الدوائر على جيوش الامير اظهر ما كان كامنًا في صدره من نبذ الطاعة والدعوة لنفسه وحمل قبائل البربر في ناحيته على اظهار ما كان يدسه اليهم من الخروج عن طاعة الامير واجتماع كلمتهم عليه فاجابوه الى ذلك واحتشدوا اليه فنهض بهم الى نواحي القلعة واستجاش بالبرجية وكان رئيسهم قدور ابن المخفي على مشربه فتمدوا جميعًا في القرب من قصبة البرج فخرج اليهم الامير بعد ان اخذ اهبته وعرض جنده المنظم وسار اليهم في الثامن من صفر سنة خمسين وفي السابع عشر من يونيه سنة اربع وثلاثين وثمانمائة والف فنض جموعهم واثخن فيهم قتلاً وسبيًا ودخل القصبة فاضرمها نارًا وحطم اشجارها ثم بعث السبي وفيهم

حريم ابن الغني واولاده الى الحضرة وارتحل الى القلعة وفر ابن عربي بجموعه الى نواحي مينة فاتبعهم الامير وصادفهم القتال فهزمهم اقبح هزيمة وامتلأت ايدي جيوشه بالغنائم ولما علم اهل تلك النواحي ان ابن عربي قد تلاشى امره ولا مناص لهم من عقاب الامير اوفدوا عليه علماءهم واشرافهم فاعتذروا اليه واوقفوه على دسائس ابن عربي وادوا اليه طاعتهم وطاعة من خلفهم فقبلها منهم وولى السيد ابا شقور خليفة عنه في تلك النواحي وولى السيد محيي الدين بن علال على مليانه ونواحيها وفوض اليه في جمع كافة القبائل الشمالية الى شرشال وتنس من الاساكل البحرية وانقلب راجعًا الى الجهة الغربية فاحتل بسيك ثم ارتحل الى ثنية ماخوخ وشن الغارات على قبيلة رياح في منازلهم فيما وراء تلمسان لجهة الشمال فهجمهم واكتسح اموالهم وحملهم على الطاعة ثم انعطف غازيًا على بني خلاد من قبائل ولهاصة في الداخل فاثخن فيهم واستولى على موجوداتهم وادوا طاعتهم وعسكروا معه فلما بلغ الدوائر ما حل باشياعهم تناذروا وانضموا الى حليفهم الشيخ ابن الغماري وقومه وصمدوا لقتال الامير في المهراز غربي تافنًا فزحف اليهم الامير في السادس من ربيع الاول سنة خمسين واربعة عشر يوليه سنة اربع وثلاثين فاصطفوا تجاه الجند ودعتهم نفوسهم الى الهجوم عليه فاذاقهم نكال الحرب وردهم على اعقابهم ووقع رئيسهم ابن اسماعيل جريحًا فحملوه وولوا الادبار تاركين قتلاهم في المعركة وبعث الامير رؤوس من هلك من اعيانهم المشاهير كعبدالله بن الشيخ الغماري وغيره من الابطال المعروفين فنصبوا على ابواب الحاضرة معسكر عبرة لغيرهم وطارت البشائر بهذه الانتصارات المتتابعة الى الولايات واعلن بها في المدن والقرى والضواحي ففرح الناس بذلك وانشرحت صدورهم لما يعلمونه من مرض قلوب الخوارج وشدة حقدهم على المسلمين وظلمهم عباد الله ايام الحكومة الجزائرية وبعد ان فرغ الامير من امر الخوارج واشياعهم ارتحل الى تلمسان فكان يوم دخوله يومًا مشهودًا وتفاوض الخوارج في امرهم فاشار عليهم رئيس الدوائر مصطفى بن اسماعيل بان يلحقوا بالمغرب الاقصى ويدخلوا في طاعة سلطانه واشار الشيخ ابن الغماري والمازري بالاذعان الامير قائلين هو سيدنا وابن سيدنا فان تقبل توبتنا ورفع قدرنا بين اقراننا فذلك والا فحينئذٍ ننظر في امرنا واللحوق بسلطان المغرب الاقصى غير موافق لان فينا الضعيف ومن لا قدرة له على الوصول الى تلك البلاد على ان غالب سكانها لا تنالهم الاحكام السلطانية فلا نسلم من غوائلهم ولا يخفى ان توالي الحروب وتتابع الغزوات علينا افنى لنا الظهر واباد المال واخذ قوانا

فقال ابن اسماعيل ان ابن محيي الدين اذا ظفر بكم لا بد ان يقتلكم ويعلق اشلاءكم واحدًا بعد واحد على اسوار معسكر وكاني انظر الى الحشم يتفرجون عليكم ويشمتون بكم والذي ينجو منكم يعيش تحتهم ذليلاً حقيرًا واطال عليهم في التحذير والتنذير فلم يلتفتوا اليه واستامنوا للامير فبعث اليهم منشور الامان مع كاتبه الخاص السيد مصطفى بن التهامي والعلامة السيد عبدالله سقاط فاطمأنت قلوبهم وطابت نفوسهم وتوجهوا مع الرسولين الى تلمسان ولما دخلوا على الامير مذعنين تقبل طاعتهم واكرم نزلهم واقر الشيخ ابن الغازي على رئاسة قومه وولى المازري على قومه الدوائر وامرهم بالرحيل الى قرب تلمسان فامتثلوا وارتحلوا وخالفهم ابن اسماعيل ولحق ببلاد ولهاصه ثم ان المازري قدم شفاعته الى الامير في عمه ابن اسماعيل فشفعه فيه واحضره الى اعتابه فتلقاه الامير ولاطفه واحسن السوال عنه وعن احواله وبعد ان خرج من عنده لقيه اقاربه فسألوه عما جرى فقال لهم هذا آخر العهد بيني وبين هذا الامير فقيل له في ذلك فقال اني رايته لا يتأثر بما يرضي ولا بما يغضب فعلمت انه يضمر لنا السوء كيف وقد وقع منا ما وقع مما يوجب ذلك والان قد استقام له الامر ثم ذهب الى اهله وتنصر وقتل فيمن قتل من جيش الفرنسيس وسناتي على بقية خبره ان شاء الله تعالى ولم يزل الامير مقيماً في تلمسان الى ان اصلح شانها وشان ايالتها وفي اثناء ذلك ظهر قصور من قائد طائفة الكول اوغلان فعزله وولى مصطفى باي ابن الباي المقلج ثم بلغه ان فرقة من الدوائر فروا من منازلهم المعينة لهم قرب تلمسان ولحقوا بالحمرا نواحي وهران من جهة البحر فغزاهم وفي طريقه راى بعض الرعاة الجيش فسبقه اليهم وانذرهم فبادر جماعة الى الهروب ودخلوا في حصن للفرنسيس كان قريبًا منهم وتراخى آخرون فلحق بهم الامير واكتسح اموالهم وردهم عن وجهتهم فتفرقوا اوزاعًا في القبائل وانفتل الامير راجعًا الى بلاد اولاد خالفه من بني عامر ونزل بوادي الكيحل فحضر لديه من اعيان الدوائر رئيسهم المازري وبنو عدّه ولد عثمان ومن اعيان الزمالة رئيسهم محمد بن المختار ومحمد ولد قادم وابن غنوّر وجماعة من الونازرة فامرهم ان يرتحلوا من منازلهم الى معسكر وعين نخلة العرقوب لسكناهم فاجابو وارتحلوا حالاً واصل هوءلاء الدوائر والزمالة اخلاط من العرب والبربر كانوا يلوذون بالباي محمد حاكم معسكر وفاتح وهران من يد دولة اسبانيا فلما حدث الطاعون الجارف في المغرب الاوسط في اوائل القرن الثالث عشر من الهجرة خيم الباي في ظاهر البلد وخرج الناس لخروجه فعين من هوءلاء الخدم جماعة للنزول في دائرة

خيامه فسموا دوائر وعين آخرين لحمل اثقاله واثقال عسكره فسموا بالزمالة ولما حصل لهاتين الفرقتين ما حصل من الاحترام والامتياز بين جميع الرعية باحراز مقاصدهم واستثنائهم من سائر المطالب الميرية صار الناس من جميع الجهات يهرعون الى الدخول في خدمتهم والانحياز اليهم فكثر عدد كل من الطائفتين وصارتا قبيلتين عظيمتين وكثر نسلهم وقويت شوكتهم ولما انتقل الباي محمد الى وهران بعد ان فتحها انتقلوا معه فحازوا الوظائف الجليلة والمراتب العالية وتقدموا على من سواهم من اعيان الوطن ورؤسائه عند حكومة وهران فلما بدلت تلك الحكومة بدولة الامير واحسوا بانحطاطهم عما كانوا عليه انفوا واستنكفوا واقتحموا الشدائد العظيمة التي لا يعانيها غيرهم فهلكت رجالهم ونهبت اموالهم وقل عددهم وانقطع مددهم وبلغوا من الضعف غايته ومن العوز نهايته ثم حملتهم الانفة على الانخراط في سلك الفرنسيس والدخول في عددهم فقاتلوا المسلمين دونهم وبذلوا قوتهم في نصرتهم ولم يتخل عنهم الامير الا بعد ان اطلع على نفاقهم واعراضهم ظاهرًا وباطنًا عن الاسلام وطالما حاول ابعادهم عن وهران فما امكنه ذلك ولم يزل اعقابهم ومن لم يهلك من كبارهم مع الفرنسيس لهذا العهد واما الحشم فانهم اخلاط من القبائل كانوا خدمًا وحشمًا لبني زيان ملوك تلمسان واما بنو عامر فاصلهم من عرب الشام ومنازلهم معروفة بفلسطين ببرج بني عامر ولما فرغ الامير من تمهيد الجهة الغربية واصلاح شؤنها ولى عليها السيد محمد البوحميدي الولهاصي وانقفل راجعًا الى حضرته معسكر وتفرغ للنظر في احوال الجند وتكثير عدده واستكمال عدده ولما اتصل ذلك بالجنرال دي ميشيل حاكم وهران اوعز الى وكيلهم في معسكر عبدالله بمساعدة الامير واعطائه الآراء في تحسين احوال الجند والاستقصاء في تعليمه وتدريبه وارسل من طرفه معلمين ماهرين واربعمائة بارودة ومقدارًا وافرًا من الذخائر الحربية وقال ان الامير مستعد للقيام باعباء الملك غير ان ذلك لا يتم له الا بالعساكر المنتظمة والجيوش المدربة واما الحشود والجموع الغير المنتظمة فلا تجدي نفعًا ولا تستطيع جلبًا ولا دفعًا فعجب الناس من نصائح هذا الجنرال ومساعدته الامير وعدوه من شعائر الانسانية ودلائل الرغبة في دوام المواصلة والمسالمة ثم ان الامير وجه خليفته على بسكره والصحراء السيد محمد الصغير ابن عبد الرحمن ومعه السيد محمد بن كانون الى احمد باشا باي تونس واصحبهما بسيف مرصع بالجواهر وخيول بسروج مذهبة وآلة شاي من الذهب وغيرها ثم رجع الوفد بغاية من الممنونية مصحوبًا بالهدايا السنية فتقبلها الامير قال بعض مؤرخي الافرنج وبهذا الاتفاق اتجهت احوال

العرب للتقدم والنجاح ثم في اواخر شهر آب وفد الشيخ ابن الغاري رئيس قبيلة انكاد حليف الدوائر على الحضرة وابن عربي مظهرًا للخضوع والطاعة ومعه صهره محمد بن المداح رئيس قبيلة اولاد خويدم وقدور بن المختى ورؤساء البرجية فانزلهم الامير في دار الضيافة وقدموا كلهم في وقت واحد كأنهم على ميعاد وفي ثاني يوم وصولهم اذن لهم الامير في الدخول عليه فبشّ في وجوههم واحسن السوءال عنهم وبعد ايام اذن لهم في الانصراف الى اهلهم سوى ابن عربي وصهره وشيخ انكاد ابن الغارى فانه امر بحبسهم حتى ينظر في امرهم ومن الاتفاق العجيب انه حدث الوباء المعروف بالريح الاصفر تلك الايام فمات به ابن عربي وصهره ابن المداح وبقي ابن الغاري ففر من السجن وكان دس الى اهله ان يأتوه بفرس ليهرب عليه نظرًا لشيخوخته وعين لهم الوقت والموضع الذي يلاقيهم فيه ففعلوا فقبض عليهم العسكر بالليل وذهب ابن الغاري وخادمه الى الموضع الذي عينه لاهله فلم يجدهم ولحق بحرش بلد المشارف على مسافة قليلة من الحضرة فاقام به ينتظر اهله ولما طال عليه الحال بعث خادمه ليأتيه بما يقوته نقبض عليه المشارف وسالوه عن حاله فاجاب انه غريب سائل ثم قويت الشبهة فيه فضيقوا عليه فاقر بامره ودلهم على سيده فقبضوا عليه واحضروه بين يدي الامير فامر به فعلق على سور البلد وعلق خادمه لجانبه ولم يزل الامير جائلاً في ميادين هذه المقاصد متواصل الحركة في درء المفاسد تارة بالطعن والاثخان وتارة بالوعظ والاحسان على حسب ما يقتضيه الحال والزمان الى ان استقامت الامور وامنت السبل وارتفع الشقاق وارتاحت الافكار واشتغلت الرعية بما يعنيهم من زراعة وتجارة وعمّ الامن البراري والقفار قال بعض المؤرخين بلغ امر بلاد الجزائر في الامن الى حالة لو سارت البنت البكر الجميلة في صحاريها وقفارها حاملة نفائس الجواهر على راسها لا تجد من يسالها فضلاً عمن يتعرض لها بسوء وتعطرت المحافل بذكر الامير عبد القادر ورمقته عيون التعجب لما وصل اليه مع حداثة سنه من الامر المدهش الذي لم يكن مظنونًا عند من يعرف احوال بلاد الجزائر وضغائن اهلها وعدم انتظام امرهم ثم قال وكان الامير محافظًا على اقامة الحق ناشرًا لواء العدل على عموم الرعايا يجري القصاص الشرعي والسياسي على اصحاب الجنايات بما يستحقونه لا تاخذه في ذلك لومة لائم وكان الناس يقبلون احكامه ويتلقونها بانشراح صدر وطيب نفس وقال غيره بعد ذكر ما جرى بين عساكر الامير والخوارج ان همم الامير عبد القادر لم تفتر في اثناء ذلك عن السعي بما فيه راحة البلاد فانه رتب

سائر ما يلزم من الخلفاء عنه والولاة ووطد الراحة العامة والحق يقال ان الحصول على ذلك في مثل تلك الاوقات امر عظيم جدًا وهو دليل كاف على عظم همته فانه قطع ما يوجب سقوط امارته وحوّل احوال البلاد من العسر الى اليسر ومن الاضطراب الى السكون في مدة عشرين شهرًا من يوم بيعته وابتداء دولته وقال ومن العجب ان تمكن امارته كان بقوتين قوة رغبة وقوة رهبة الا ان القوة الاولى كانت هي المعوّل عليها ولذا كان الاكثر من سكان البلاد يطيعونه بخلوص ووداد وقال بلغ الامير عبد القادر في الفطنة والدهاء ما لم يبلغه غيره من امراء العرب وناهيك به من امير جليل تلطف في الشروط التي قررها في عقد المعاهدة واظهرها في اسلوب عجيب حتى ان الجنرال دي ميشيل لم يتوقف في قبولها ولم يتلعثم في الموافقة عليها بل اجراها وامضاها في الحال ثم ظهر له منها ما تركه في حيرة من امره وعلم ان الامير قد خدعه والحرب خدعة فمن ذلك ان جميع المعاملات التجارية تكون في مدينة ارزيو لا في سواها من الاساكل وانها تكون تحت نظره لا مدخل للفرنسيس فيها وان جميع ما يرد من الداخلية لا يباع الا في ارزيو ولا يشحن الى بلاد اوربا الا منها واما وهران ومستغانم فلا يرد عليها من الداخلية الا ما تقضي به حاجة اهلها فاعتمد الوكيل خليفة ابن محمود في ارزيو على هذا وجعله نصب عينيه واستقصى في اجرائه وافرط حتى انه منع غيره ان يشتري شيئًا من واردات الداخلية وانما هو يشتري من الباعة ما يجلبونه الى البلد ويشحنه على حسابه الى بلاد الافرنج فغضب لذلك تجار فرنسا ونقموا على الجنرال دي ميشيل ظنًا منهم ان ذلك عن اذنه وبرخصته فرفعوا امرهم اليه فانكر ان يكون ما يفعله الوكيل منه ثم انه اجرى ما ارضى الطرفين وذلك انه ابقى للوكيل ما يرد عليه من واردات الامير المختصة به من املاكه وما سوى ذلك جعله حرًا لا يختص باحد دون آخر قال وكان الامير نبه على وكلائه ان لا يقبلوا رجوع المسلمين الذين هاجروا من وهران ومستغانم وارزيو فكانوا يمنعون كل من رجع من اولئك المهاجرين ان يدخل الى احدى هذه المدن ويجبرونهم على الرجوع الى داخلية البلاد وساعدهم ما ذكر في الشرط الثالث من شروط المعاهدة ثم اتصلت اخبار هذه الاجراآت وامثالها بدولة فرنسا فكبر عليها الامر ولعدم اطلاعها على احوال البلاد توهمت ان الامير يراجع امير مكة المكرمة ويطلب منه الامداد فانتخبت لمراقبة اعماله وحركاته غلامًا فطنًا اسمه روس ليون وسنه نحوًا من عشرين سنة وهو من عائلة شهيرة في فرنسا وأرسلته صحبة ابيه الى الجزائر بعد ان اعلمته بالامر المهم المرسل لاجله وهو

تحقيق احوال الامير ومراقبة حركاته فلما وصل الى الجزائر تلطف حتي وصل الى الامير واسلم علي يديه فامر الامير بعض الفقهاء بان يقرأه القرآن وآداب الشريعة والعقائد الدينية ويعلمه اللغة والكتابة العربية ولما تعلم احضر الى الامير فتعجب من اعتنائه وذكائه ثم زوجه واستعمله في كتاباته الخصوصية تاليفاً له وتشويقاً لغيره فقام باداء وظيفته اتم قيام ولازم الامير في اغلب المواضع وخاض بعض المعامع ودام على هذا الشان مدة من الزمان ولما احكم التدبير في امر الولوج شرع في التفكر باتمام العمل وسرعة الخروج فكتب كتاباً بما اراده الى امير مكة المكرمة وقلد خط الامير في الامضا وبخاتمه الخصوصي ختمه وترك الامير مشتغلاً بالحرب مع فرنسا في بعض الوقائع فانتهز الفرصة وآب الى معسكرهم راجعاً ومنه توجه الى باريس واخبر الحكومة بما فعل فاصحبته بهدية ووجهته الى مكة ولما قابل الشريف محمد بن عون وسلمه الكتاب والهدية اعتبره واكرم نزله وبعد ايام سلمه الجواب مع هدية لائقة بالامير ثم ودعه وامره بالمسير فانقلب راجعاً وكان مضمون الجواب اهداءه السلام والدعاء بالتوفيق وبلوغ المرام فعند ذلك تحققت الحكومة الفرنساوية ان لا مخابرة بينهما في امور سياسية وقد الف روس تاريخاً سماه ثلاثين سنة في الاسلام اودع فيه من اخبار الامير ما حسنه وزينه ثم امرت الجنرال دي ميشيل ان يبعث من طرفه الى دار الامارة معسكر مراقبين مستعدين لالقاء الدسائس في قلوب اعيان الرعية فجاءوا اليها في صورة متفرجين وجعل امرهم الى وكيلهم عبدالله فاحس الامير بهذه المكيدة وتنبه لها واخذ حذره منها فسد على المراقبين طرق نجاحهم وقصر يد الوكيل وايديهم عن الوصول الى مرادهم وبالجملة فان آمال الفرنسيس التي كانت تتعلق بحصول الراحة لهم والقاء الدسائس المؤثرة في قلوب رعايا الامير خابت وذهبت سدى ثم ان دولة فرنسا بعثت جماعة من اعيان امرائها الى الجزائر في السادس من ربيع الاول سنة احدى وخمسين والثالث من يوليه سنة خمس وثلاثين وثمانمائة والف وجعلت اليهم النظر في امورها وعند وصولهم اليها تذاكروا فيما انتجته حروبهم من المنافع والمضار ثم تفاوضوا فيما يلزم استعماله لتوطيد سلطتهم في البلاد واتفقوا على وضع حكومة عسكرية ممتازة بسياسة مخصوصة في الجزائر وسائر المواطن التي استولوا عليها في الساحل فصدر امر دولتهم باجراء ما اتفقوا عليه وتعيين الجنرال الكونت دروان درلون والياً على الجزائر وعزل الجنرال دي ميشيل عن وهران وقد سمعت من الوالد رحمه الله ان سبب عزله انه بلغ دولته بان مراده الدخول في الاسلام فعزلوه حالاً وولوا مكانه الجنرال

تريزيل وامر بدوام المحافظة على المعاهدة والرعاية لها ولما كان ميالاً بالطبع الى الخصام جلاّباً لاسبابه جرى في ظاهره على ما تقتضيه اوامر دولته وفي سره على مقتضى طبعه واتفق ان اهل تيطرى بعثوا بيعتهم الى الامير واوفدوا عليه مشيختهم فاتصل به خبرهم فوجم لذلك ورأى انه قد تهيأ له الوصول الى ما يريده من نقض المعاهدة التي عقدها الجنرال دي ميشيل لثقل امرها عليه ومخالفتها لمرامه وجاءته رسل ابن اسماعيل وقومه يعرضون عليه امرهم ويعدونه باداء الطاعة عند اول فرصة تتهيأ لهم ففرح لذلك ثم ان الامير بعث وزير الخارجية الميلود بن عراس الى والي الجزائر ليبلغه التهنئة والتبريك بالولاية ويرى ما عنده في امر الوطن واصحبه مكتوباً اليه ملخصه بعد التحية ان معتمدي ابن عراش وجهته الى حضرتكم ليبلغكم التهنئة والتبريك من قبلي بالولاية على الجزائر · ولقيامي بالمحافظة على امور المعاهدة اوعزت اليه ان يفاوضكم في امور تعين عليَّ اجراؤها لتوطيد الراحة في جميع المقاطعات الداخلية في السهول والجبال والسواحل التي على ساحل الجزائر وجوارها ووهران والمدية وخشيت ان يكون ذلك سبباً مكدراً لما بيننا من المصافاة · ومراد الامير من هذه ان يثبت بوسيلة خفية امارته على جميع الاقليم ما عدا الاربع مدن التي بيد الفرنسيس · وصار ينتظر الجواب معتمداً ان اجابه برفض قبول المداخلة مع العرب الذين هم خارج وهران ويجيبه بانه لا يعنيه التعرض له بمن لا يعنيه امرهم على انه يعلم من الجواب هل يمكنه ان يملك اقليم تيطرى بدون مجاوزة حدود المعاهدة ام لا فلما وصل ابن عراش الى الحاكم اكرم وفادته والان له الجانب وكان جوابه الامير بعد اداء واجبات التعظيم · قد وصلني مرسومكم · وبلغني معتمدكم ما تعلقت به ارادتكم في الجهة الشرقية وحيث ان جل مقاصد سموكم توطيد الراحة العامة كما هو المطلوب والمرغوب فيه عند دولة فرنسا ورجالها فلا تتوقفوا واني اؤمل نجاح مقاصدكم ورفاهية شعبكم وسعادة البلاد ولك ان تعتقد بانك لا تقاوم في كل ارض تقصد الاستيلاء عليها بشرط ان تكون لك قوة على اخذها قال بعض مؤرخيهم ان قرب عهد الجنرال بدخوله الى الجزائر والياً عليها وعدم معرفته بدهاء العرب وطرق حيلها وخلو مجلسه ممن يشير عليه بالراي ويوقفه على خفايا احوال البلاد هو الذي حسن له هذا الجواب مع ما اوصته به دولته عند تقليده الولاية بقولها يلزمك ان تحافظ على مسالمة الامير عبد القادر في سائر الاحوال وان لا تجري امراً ما يوجب اغبرار خاطره واياك ان تتعاطى حركة تقضي عليك بطلب العسكر من هنا مطلقاً ثم ان الامير لما راى ان لا شيء يمنعه من اجراء ما عزم عليه

اعتمد على التوجه الى تيطرى فمنعه حدوث الريح الاصفر حينئذٍ في البلاد وبعد زواله تأهب للسفر وكتب الى حاكم الجزائر يخبره بذلك وكان بعد رجوع ابن عراش بعث اليه بصورة الشروط التي ابرمها مع دي ميشيل في المعاهدة فهاله امرها فلما اتصل به خبر المسير غضب وكتب في الجواب ما نصه قد فهمت ما تضمنه تحرير سموكم والذي انظره ان هذا العزم خال من الصواب وليكن في علمكم ان الجنرال دي ميشيل لم تكن له سلطة ولا حكم الا على ايالة وهران ولذلك لم يتعرض لما يتعلق بباقي الولايات ومهما توسعت دائرة التاويل فيما جرى في معاهدة الثامن والعشرين من فبراير فلا يكون لكم طلب الا على ايالة وهران وبناء على ذلك فلا نسمح لكم ان تدخلوا ايالة تيطرى ولا ان تتجاوزوا وادي شلف شرقًا ونهر ارهيو الى كوجيله وبالجملة فلكم ان تحكموا في البلاد التي هي لكم الان بحسب شريعة الاسلام وبذلك نكون اصحابًا ولا اقدر ان ارخص لعساكركم ان تدخل الى ولاية تيطرى لان كلما يجري هناك يختص بي واني مستمر مع ساكني الاقاليم على السلم ومعتمد على تعيين مراكز فرنسوية في البليده وبوفاريك متى رايت ذلك مناسبًا لصالح فرنسا فاجابه الامير قد وصلني تحريركم وتعجبت مما ذكرتموه فيه ثم اقول ان مرمى افكار حضرتكم بعيد عن الاصابة لان محافظتي على السلم لا يجهلها احد ولولا ذلك ما احتجت الى مذاكرتكم فيما اجريه في وطني وقصارى الامر انه لا يبعد ان يكون بعض اهل الفساد القى في ذهن حضرتكم ما اوجب ان يكون جوابكم على هذا الاسلوب وعلى كل حال فاني عدلت الآن عن النهوض الى تيطرى ابقاء للسلم ورعاية له ثم ان اهل تيطرى لما طال عليهم الامد وتاخر عنهم الامير في انجاز الوعد ولوا امرهم رجلاً من غز مصر يقال له الحاج موسى بن حسن ويعرف بابي حمار لادمانه على ركوب حمار له قد جاء الى تلك الولاية واستوطن بلاد اولاد نائل منها واظهر النسك والصلاح وانتحل تلقين اوراد الطريقة الشاذلية فاجتمعت عليه كلمة اولاد نائل وغيرهم من قبائل تلك الناحية وزحف بهم على مدينة المدية وهي حاضرة الولاية فدافعه اهلها واطلقوا عليه مدفعًا كان عندهم من ايام الحكومة الجزائرية فانكسر فجعلوا ذلك كرامة له ودانوا بطاعته وادخلوه الى البلد ثم انهم نظروا الى مدفعهم فوجدوه متداعي الاجزاء من قبل اطرافه فلما استعملوه تفرقت اجزاؤه ولما شاع امره واتصل خبره بالدوائر والزمالة وهم في منازلهم قرب تلمسان نبذوا طاعة الامير ونكثوا عهده وارتحلوا من منازلهم الى قرب وهران ولحق رئيسهم ابن اسماعيل بالكول اوغلان في قصبة المشور من تلمسان فاهتز

تريزيل حاكم وهران لذلك فرحاً وطار الخبر الى الامير فتغافل عنهم واقام ينتظر ما يفعله حاكم الجزائر مع ابي حمار المستولي على الولاية التي ارعد وابرق في امرها ولما رأى الامير ان الجنرال تصامم عن ابي حمار ولم يتعرض اليه احتشد الجيوش وعرض عساكره النظامية واصلح خللهم وضرب معسكره العام في هبرة لنظر اخيه الكبير السيد محمد سعيد لمراقبة الفرنسيس من جهة مستغانم وارزيو واوعز الى البوحميدي والى تلمسان ان ينحدر بجموعه الى نواحي وهران ليشغل حاكمها ويقف في وجهه ونهض هو في عساكره النظامية وحشود الجهة الشرقية قاصداً تيطرى بعد ان علم الجنرال بذلك في اواخر كانون الاول سنة اربع وثلاثين وثمانمائة وان توجهه ضروري لتوطيد الراحة في تلك الجهة وقطع الحركات بين القبائل ولما قارب بلاد العرب صبيح تعرضوا له وطلبوا جائزة الطريق جرياً على عادتهم مع حكومة الجزائر فكبحهم واعظم النكاية فيهم فاذعنوا للطاعة ثم احتل ببلاد جندل واتصل خبره بابي حمار فجمع اعيان حشوده وخطب عليهم ووعدهم بالظفر وقال لهم آية صدقه ان مدفع ابن محيي الدين لا يعمل فيهم وان بارودة عند المواجهة يصير ماء ومثل هذه الترهات ثم كتب الى الامير يدعوه الى الجهاد فاجابه ان هذا غير ممكن الآن لكوني عقدت معاهدة مع الفرنسيس واما انت فان كنت مستعداً لذلك وعزمت عليه فشانك وما تريد فلما اطلع على هذا الجواب كتب اليه يدعوه الى بيعته فاجابه انني مبايع من اهل الوطن فان كانت بيدك اوامر سلطانية فاظهرها حتى نراها فان وجدناك صادقاً نقدم لك الطاعة امتثالاً لامر السلطنة العظمى والاً فالذي تراه اعظم مما تسمعه فلما بلغه هذا الجواب استشاط غيظاً ونهض من المدية في جموعه للقتال وتزاحف الفريقان في بلاد وامري وكان الامير عند ما شاع ما القاه هذا المدعي على جموعه من الخزعبلات خطب على عسكره بقوله الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله وعلى آله واصحابه اما بعد فاعلموا ان الحق تعالى قلدني هذا الامر للمدافعة والذب عن الدين والوطن وقد بلغكم خبر هذا الرجل فان تركته وشانه اخاف على الوطن ان تغتاله غوائل الفرنسيس على حين غفلة وينشا عن ذلك من المفاسد ما يعسر علينا اصلاحه واطال في هذا المعنى ثم قال هذا واني اختبر امره الذي كاد ان يوقع في قلوبكم ما يؤول بكم الى تشتيت الشمل وتبديد الجمع وذلك اني اطلق عليه مدافعي فان كان الامر كما زعم فانا اول مطيع له بعد اختبار احواله من جهة الشرع وان كان الامر بخلاف زعمه فهو دجال من دجالي هذا الوقت ثم امر بالزحف واطلاق المدافع على ابي حمار فلما اطلقت القلل على جموعه انهزموا وولوا مدبرين لا يلوي احدهم على الآخر في تلك الجبال والاودية

وفر هو تاركاً نساءه واولاده وسائر ما كان معه من الذخائر والمهمات واثخنت العساكر في تلك القبائل الضالة عن سواء السبيل قتلاً وسبياً ثم صدر الامر بالكف عنهم بعدان لاذوا بالطاعة وكان سبيهم قد ارسله الى مليانة فرده عليهم وجاء الطلب من ابي حمار في رد نسائه واولاده فردوا عليه ثم ارتحل الامير الى المدية فدخلها وادى اهلها واجبات الخضوع واسترسلت عليه الوفود من جهات الولاية وقاصيتها لاداء البيعة فبايعوه عن انفسهم وعمن وراءهم وبعد ان اصلح شؤنهم وثقف اطراف الولاية عقد عليها للسيد محمد البركاني من اعيان اشرافها ولما شاع خبر هذا الاستيلاء واتصل بالجنرال تريزيل حاول ان يتخذه وسيلةً لنقض المعاهدة فجمع مجلسه وفاوضهم في ذلك وقال ان امير العرب عبد القادر تجاوز الحدود المقررة له فمن المتعين علينا ان نهاجمه في دار ملكه فاستحسنوا قوله ثم بعث بهذا النص الى حاكم الجزائر فابى ذلك ونقمه عليه واطلع مجلسه على ذلك وقال انني لست مأموراً من الدولة بنقض المعاهدة ولا مستعداً الآن لفتح باب الحروب ويجب ان نتنازل ونسعى في تجديد المعاهدة مع الامير ما دام في المدينة التي استولى عليها وعلى ايالتها ونضرب صفحاً عن تعرضنا له لعدم مساعدة الوقت على مناجزته فوافقوه على ما قرره ثم حرروا شروط المعاهدة وبعثوها صحبة القبطان سنت ايبوليت والموسوى ابن دران واصحبها الحاكم بهدايا فاخرة الى الامير . وصورة الشروط التي انتخبها الحاكم اولاً يعترف الامير برآسة ملك فرنسا على افريقية ثانياً تكون سلطنة الامير عبد القادر محصورة في ايالة وهران المحدودة بنهر شلف ونهر ارهيو الى كوجيله ثالثاً تعطى الرخصة العامة للافرنج في السفر في سائر جهات بلاده رابعاً اعطاء الحرية التامة لتجارة في الداخلية خامساً لا يصير تسليم ولا استلام شيء من الاغلال والبضائع الا من الاساكل التي بيد الفرنسيس سادساً يدفع الامير عبد القادر ضريبة سنوية للدولة مع وضع رهائن للامن على ذلك . فلما وصل الرسولان الى الامير في مدينة المديه وكان على اهبة الرجوع الى دار ملكه رحب بهما واكرم وفادتهما وعرض عليهما ان يصحباه الى الحضرة فاجاباه الى ذلك ونهض من المدية راجعاً والرسولان في معيته قال بعض مورخي الافرنج وقد حصل للناس تاثير عظيم من ذلك واستدلوا به على عظم ملك الامير وحسن سياسته حتى انه جعل ضباط الفرنسيس يسافرون معه ويقصدون عرش ملكه ولما كان الامير في المدية كان في معيته خليفته السيد محي الدين بن علال والي مليانه فلما بلغ في مسيره الى وادي الفضة اعطاه الاذن بالتوجه الى ولايته واستمر سائراً الى معسكره

العام في هبرة ففضة وارتحل الى معسكر ودلائل اللطف والوداد تتجدد لاولئك الضيوف من قبله وبعد ايام سلمهما رقيماً الى حاكم الجزائر وضمنه الشروط التي رغب في عقد المعاهدة ان يكون عليها وبموجبها وهذه صورتها · يشترط ناصر الدين عبد القادر بن محيي الدين · اولاً ان تبقى جميع الايالات الخاضعة له تحت سلطته وحكمه كما ان المدن التي استولى عليها الفرنسيس تبقى على حالها في ايديهم ثانياً ان ولاة المدية ومليانه عند عزلهم تبعث اسماءهم الى الحاكم العام ليعرفهم ولتكون المواصلة مع الامير بواسطتهم ثالثاً ان المتجر يكون حرًّا للجميع رابعاً ان الفرنسيس يكرمون العرب كما ان العرب يكرمون الفرنسيس في جميع الاماكن خامساً ان الامير له ان يشتري من الجزائر بواسطة وكيله فيها سائر ما يحتاج اليه من الآلات والمهمات الحربية سادساً ان الامير يرد جميع الفارين اليه من الفرنسيس كما ان الحاكم العام يرد الفارين اليه من العرب سابعاً ان الامير اذا عزم على السفر الى قسنطينة او غيرها يخبر بذلك الحاكم العام مع الافادة عن سبب ذلك السفر · فلما اتصلت هذه الشروط بالحاكم اظهر السكون اليها وفهم من فحواها ان الامير جانح لعقد معاهدة جديدة فسافر لوقته الى وهران وبعث اليه لاول وصوله يخبره بقدومه اليها ليكون قريباً منه تيسيرًا للمخابرة وكتب اليه ما نصه بعد التحية والتعظيم قد وصلني رقيم سموكم من يد رسولي القبطان سنت ايبوليت وفهمت منه ما في افكاركم ولاجل ان اتمكن من اجراء المخابرة معكم بوجه السرعة حضرت الآن الى وهران في السابع عشر من صفر سنة اثنتين وخمسين واليوم الرابع من يوليه سنة ست وثلاثين وثمانمائة والف · فاجابه الامير يهنيه بوصوله وكان الحاكم ينتظر الجواب بغير ذلك حيث انه كان يتمنى ان يدعوه الامير الى الاجتماع ثم ان الجنرال تريزيل انكر على الحاكم قدومه الى وهران وقال له لا اجد لزوماً لحضوركم لانني انظر ان ذلك مما يدل على ضعف احوالنا وايضاً فان دنوكم من الامير يكون كالمصادقة له على سائر تصرفاته فاثر ذلك في الحاكم وانقلب راجعاً الى الجزائر قال بعض مورخي الانكليز عند ما تعرض لذكر شروط الامير ان معاهدة كهذه جاء بها القلم النحيف لتنقض حقوقاً عظاماً ونحا اوجدها السيف البتار لا بد انها تعتبر فتحاً لباب الحرب وفي الحقيقة انها كانت نتيجة سياسة الامير حيث علم انه بعظم اهمية قوته تقوم هذه المعاهدة وعلم ان تلك القوة تاتيه باستقلالية تامة سواء اشترط او اشترط عليه ولذلك وصف نفسه في تحريره الى الحاكم بناصر الدين ثم ان الحاكم لما وصل الى الجزائر امر الجنرال تريزيل ان يعتني دائماً باستجلاب صداقة

الامير والاتحاد معه فاستشاط تريزيل لذلك غيظاً وامسى متحيراً بين كونه يخضع لاوامر الامير ويطلب رضاه في كل الامور المتعلقة بداخلية البلاد وبين كونه يضع نفسه في حالة يتمكن بها من الاستقلال في عمله ثم كتب الى الحاكم يخبره بنزوع الدوائر والزمالة الى الخضوع لدولة فرنسا وانهم طلبوا منه ان يأذن لهم في النزول بارض مسركين خارج وهران وان يعين لهم فرقة من العسكر لحمايتهم وحيث ان الحاكم كان موءملاً في الحصول على المعاهدة اجاب الجنرال ان يتربص في امرهم وان يكون معهم على حالة تحتمل قبول طلبهم ورفضه ولما اتصل ذلك بالامير كتب اليهم . اما بعد فليكن في علمكم جميعاً انه قد طالما نصحناكم ووعظناكم وبينا لكم ما يجب عليكم شرعاً ان تفعلوه او تتركوه فلم تقبلوا ذلك ولم تلتفتوا اليه والآن بلغ السيل الزبى فلا بد ان ترجعوا عن غيكم وتسلكوا جادة الاسلام التي مضى عليها اباوءكم وتتركوا منازلكم التي انتم فيها الآن وترجعوا الى منازلكم الاولى بقرب تلمسان والا فلا تلوموا الا انفسكم لما يحل بكم من الانتقام بحول الله وقوته قال بعضهم ولما بلغ هذا الكتاب اولئك القوم تحيروا في امرهم . وصاروا بين امرين خطرين . اما الانقياد الى الطاعة والرحيل من منازلهم الجديدة وقلوبهم تأباه واما اشهار ما هم عليه من النزوع الى الفرنسيس والانفصال عن المسلمين . ثم ترجح عندهم الاخير . وارسلوا وفدهم الى الجنرال تريزيل فاطلعوه على حقيقة امرهم وطلبوا منه انجاز ما كان وعدهم به فاجابهم الى مطلوبهم وخرج مسرعاً الى مسركين حيث مخيمهم فتلقاه روءساوءهم وقدموا اليه طاعتهم وعقد عليهم شروطاً وهي اولاً تعترف القبائل برئاسة ملك فرنسا وتلتجيء تحت حمايته ثانياً تخضع القبائل لمن يوليه عليها من روءساء الاسلام ثالثاً تقدم القبائل في الاوقات المعينة المرتب الذي كانت تقدمه الى بكوات الترك رابعاً يكون اقتبال الفرنسوية جيداً عند القبائل كما يكون اقتبال القبائل عند الفرنسوية خامساً تجارة الخيل مع سائر المواشي وتجارة المحصولات تكون مطلقة لكل انسان عند القبائل . اما البضائع التي تعين للوسق فلا يصير وسقها الا من المرامي التي يعينها الحاكم العام سادساً لا تكون تجارة الاسلحة وسائر متعلقات الحرب الا بواسطة ماموري الفرنسوية سابعاً تلتزم القبائل بتقديم نجداتها متى دعاها والي وهران الى غزوة حربية في اقليم افريقية ويكون للفارس فرنكان وللماشي فرنك كل يوم وكل واحد منها يحمل في الاول خمس فشكات ويعطى من الترسخانة عشر فشكات . وكل من يقتل حصانه في الحرب يعطى بدله ثامناً ان لا تتعدى القبائل على من يجاورها من القبائل فان صار تعد منها عليها حينئذٍ تعلم والي وهران ليحضر حالاً لنجدتها تاسعاً متى ذهبت العساكر الفرنسوية الى

العرب يعطي لهم كل ما يحتاجونه من المؤنة بالثمن العادل عاشرًا الاختلاف الذي يحدث في القبائل ان كان في قبيلة واحدة يصرفه قاضيها . وان كان بين قبيلتين يصرفه قاضي وهران الحادي عشر ينتخب رئيس من كل قبيلة ويسكن مع عائلته في وهران فقبلوا هذه الشروط وصادقوا عليها . ولما رجع الى وهران بعث الى الحاكم يخبره بما اجراه مع اولئك المتنصرة . وارسل اليه صورة ما اشترطه عليهم فلم يحز القبول ولا وقع موقع الاستحسان . وبعث اليه الجواب بما حاصله . وصلني تحريرك مع صورة الشروط التي اجريتها مع قبيلتي الدوائر والزمالة وهذا العمل وان يكن سيعود على فرنسا بالنجاح فانه سيكون لا محالة مانعًا لامضاء المعاهدة المنتظرة مع الامير عبد القادر وقد رجع الى ابن دران الموسوي اجراء ما نبتغيه من الامير . وبالجملة فاني ارى عملك هذا لم يوافق طريق الصواب . قال المؤرخ المذكور فغضب تريزيل لهذا الخطاب . وكان جوابه الى الحاكم . قد وصلني تحريركم وفهمت منه ان وساوس ابن دران الموسوي كادت تؤثر فيكم والذي اقوله ان هذا الرجل لم تكن له خبرة ولا عنده وقوف على بواطن الامير عبد القادر وان التربص بهذا الامر مما يزيد مُلك هذا الامير قوة جديدة وخلاصة الامر ان ما اجريته مع الدوائر والزمالة لم يكن مخالفًا لاوامر مجلس وزارة الحرب في باريز وان كانت افكاركم تاباه فتكرموا برد ورقة الشروط مع تعيين من يخلفني في وهران فلما اطلع الحاكم على هذا الكلام علم انه قد اخطأ في اجتهاده وان تريزيل اكثر اطلاعًا منه على غوامض امور العرب ومع ذلك فانه لم ييأس من الحصول على ما رغب فيه من اجراء المعاهدة مع الامير قال وكان الامير يجتنب كل امر يكون سببًا في نقض المعاهدة الاولى حتى انه دائمًا يصدر اوامره الى خلفائه بذلك ثم كتب الى الحاكم يحتج عليه فيما اجراه تريزيل ويقول له قد ارتكبتم ما يؤذن بنقض المعاهدة التي عقدناها مع الجنرال دي ميشيل وارتبطت بها دولة فرنسا واعتمدتها ومن جملتها ان لاتقبلوا من يلتجيء اليكم من العرب كما اننا لا نقبل من يفر الينا من الفرنسيس فجاء الجواب من الحاكم محتويًا على مخادعة ومحاولة وصورته . اني اوضح لسموكم ان المعاهدة التي رغبنا في اجرائها الآن معكم لا تكون مخالفة للمعاهدة التي وقع عليها الاتفاق مع الجنرال دي ميشيل سابقًا نعم ان لفظة هارب المحررة في صك المعاهدة السابقة لم تفهم منها العموم اذ ربما يكون الهارب ليس في نيته الالتجاء وانما قصد بسكناه عندنا ما هو جار بين الناس من تفضيل ولاية على اخرى وهذا اظنه لايضر ولا يكون فاتحًا لابواب الخصام الذي لا شك انه يكون ممقوتًا عند اصحاب السلم

العام هذا وانني على كل حال احافظ على تلك المعاهدة بكمال الشرف والاعتناء فاجابه الامير بقوله قد وقفت على ما حواه كتابكم والذي اقوله لك الآن انك ايها الحاكم تعلم الشروط التي ربط بها دي ميشيل نفسه باذن دولته وعند وصولك الى الجزائر وعدتني بالمحافظة عليها وانك تعلم جيداً ان الحكومة الفرنسوية ملزومة بان ترد الى كل مذنب التجأ اليها ولو كان رجلا واحداً فكيف بالعشيرة والقبيلة وعلى هذا فان قبائل الدوائر والزمالة من جملة رعيتي التي احكم فيها بموجب شريعتي والآن ابلغك البلاغ الاخير انك ان رفعت الحماية عنهم فنحن على ما كنا عليه من المعاهدة التي وقع عليها الاتفاق قديماً والا فاني لا استطيع مخالفة شريعتي في التخلي عنهم حتى انهم لو اعتمدوا على رايكم لضعف آرائهم وقلة دينهم ودخلوا مدينة وهران فلا ارفع عنهم يدي ولا بد ان الحقهم واطالبهم بالرجوع عن خطئهم الفاحش فان كنت ولا بد معتمداً على انفاذ ما صورته افكارك من ادخالهم تحت حوزتك فاطلب وكيلكم من عندي واختر لنفسك ما يحلو وميادين المعامع تقضي بيننا ومسوءلية ارهاق الدماء واتلاف الاموال راجعة اليك وعليك والله يخلق ما يشاء ويفعل ما يريد

ذكر انتقاض المعاهدة

لما وصل الامر الى هذا الحد وعلم الامير ان المعاهدة قد طوى بساطها وانقطع نياطها فاوض اهل دولته وندبهم الى الجهاد ثم دعا روءساء الجند واعيان الحضرة الى الجامع وطلع على المنبر وخطب عليهم بقوله . اما بعد فلا يخفى ان الله تعالى قال في كتابه المجيد يا ايها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة وقال وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين كله لله وهوءلاء القوم قد عاهدناهم فنكثوا وصدقناهم فغدروا وصابرناهم فلم يصبروا وان تركناهم وشانهم فلا نلبث ان نراهم قد فتكوا بنا على حين غفلة وها هم قد خدعوا الدوائر والزمالة وغيرهم من ضعفاء الدين وحازوهم اليهم فما الذي يمنعنا من دفاعهم ومقاومتهم ونحن موعودون بالنصر على اعدائنا فهيا بنا ايها المسلمون الى الجهاد وهلموا اليه باجتهاد وارفعوا عن عواتقكم برود الكسل وازيلوا من قلوبكم دواعي الخوف والوجل اما علمتم ان من مات منكم مات شهيداً ومن بقي نال الفخار وعاش سعيداً ثم هز سيفه في يده ثلاثاً فضج القوم عندها بالتكبير وقالوا نحن على السمع والطاعة لسيدنا ومولانا ناصر الدين ثم قام اياماً ينتظر جواب حاكم الجزائر فلما تاخر عنه وجاء الامر للوكيل بالسفر الى وهران دعى وكلاءه

من مواضع اقامتهم وامر بنصب العلم الاكبر خارج الحضرة ونودي بالجهاد وصدرت الاوامر الى سائر النواحي والجهات بالتأهب للحرب فارتاح المسلمون لذلك واخذوا يستعدون للقتال واهتز المغرب الاوسط باهله لقتال العدو وبادر ابطاله من المتطوعة الى دار الملك

ذكر وقعة المقطع وهزيمة الجنرال تريزيل وعزله وغير ذلك من الحوادث

ولما كان الجنرال تريزيل عازماً على نقض المعاهدة بما امكنه خرج من وهران في الرابع عشر من ربيع الاول سنة اثنتين وخمسين واول شهر يوليه سنة ست وثلاثين وثمانمائة والف في خمسة آلاف من المشاة وفرقة من الخيالة واربع قطع مدافع جبلية وعشرين مركبة زاداً عدا عن المركبات الاحتياطية يقدمهم جيش الدوائر والزمالة ونزل في تليلات على مرحلة من وهران وكان الخليفة البوحميدي في في تلك النواحي مراقباً له من مدة شهور فطير الخبر الى الامير فنهض لوقته من الحضرة في نحو الفي فارس والف من المشاة واحتل بسيك عازماً على الاقامة هناك الى ان يتلاحق الناس به فعاجله تريزيل وارتحل من تليلات زاحفاً اليه فعبأ الامير كتائبه ورتب مصافه وحضر خليفته البو حميدي في جيشه فعينه في الميمنة وجعل خليفته بوشقور على الميسرة وثبت هو في القلب وتزاحف الجمعان في حرش مولاي اسماعيل بالقرب من سيك وابتدأ القتال مناوشة واستمر على ذلك متواصلاً يومين وفي اليوم الثالث هجم عسكر الفرنسيس على المسلمين والتحمت الصفوف واشتد القتال فارتدت عساكر الفرنسيس على الاعقاب منهزمة الى داخل الحرش بدون ترتيب ولا نظام وقتل منهم على ما ذكره روا في تاريخه عدد كثير فيهم الكمندان اودينو ابن الماريشال دوك دي ريجو ووقوع هذا الرئيس قتيلاً امام صفوفه كان سبباً في الهزيمة الشنعاء الى الحرش وحيث ان جيوش الامير اجهدهم العطش وطال عليهم القتال وراوا العدو قد انهزم رجعوا عنه وتفرقوا ظناً منهم انه يستمر منهزماً الى وهران ولم يبق مع الامير سوى عمه سيدي الجد الامام السيد علي ابي طالب وهذه النادرة الاتفاقية ذكرتني ما وقع للنبي صلى الله عليه وسلم في غزوة حنين حين تفرقت جيوشه حتى المهاجرين والانصار ولم يبق معه سوى عمه العباس آخذاً بلجام بغلته صلى الله عليه وسلم التي كان راكباً عليها يومئذٍ ثم ان جيوش الامير لما علموا ان العدو بات

تلك الليلة في الحرش وان الامير لم يزل مراقباً له صاروا يتراجعون اليه افواجاً افواجاً حتى اجتمعوا كلهم وتلاحقت به الجموع التي شهدت القتال بالامس وامتلأ سهل سيك بالمسلمين واما الجنرال تريزيل فانه لما راى ان طريقه الذي جاء عليها قد سدت في وجهه انعطف راجعاً الى وهران على طريق ارزيو ولما رآه الامير انه سلكها خف في الف فارس انتخبهم من عساكره واردف كل فارس منهم عسكرياً من المشاة وسبق بهم الى مجاز نهر هبره المعروف بالمقطع وليس لذلك النهر مسلك غيره فاحاطت جيوش المسلمين بالجنرال وعساكره واضرموا عليه نار الحرب في حال السير من كل جهة واستمروا على ذلك الى ان قاربوا المقطع وكان الامير وصل اليه فلما راته مقدمة الجنرال ارتدت على اعقابها واضطرب العسكر الفرنساوي وخاض بعضه في بعض واختل نظامه والجأه المسلمون الى غياض النهر واذاقوه نكال الحرب واثخنوا فيه بالقتل والاسر واستولى الغرق في النهر على عدد كثير منهم واستولت الايدي على سائر العجلات وما فيها من الذخائر والمدافع واكب المسلمون على جميع الغنائم والاسرى الى الغروب وكان التعب اخذ منهم ماخذه وفي هذه الفرصة انسل الجنرال تريزيل بمن بقي معه من الجيش الى ساحل البحر ومن هناك جدوا في الهرب الى ارزيو تاركين القتلى والجرحى وسائر ما خرجوا به من وهران في ايدي المسلمين وفي الساعة السابعة ليلاً دخلوا الى ارزيو على اسوء حال وقد اسهب موءرخو الافرنج في هذه الواقعة وملخص ما انتخبته من اقوالهم انه لما علم الجنرال تريزيل وقواد العسكر ان طريقهم التي جاوءا عليها من وهران قد سدت عليهم عرجوا على طريق ارزيو فبلغهم ان الاوعار التي في تلك الجهة يتعذر المرور فيها بمركبات الذخائر ومركبات المدافع فاعتمدوا على السير فيما وراء جبال حميان و يعبرون نهر هبره ولما نظر الامير الى الطريق التي سلكوها علم انه اذا سبقهم الى المقطع يتمكن من جوزه قبل ان يصلوا اليه وبذلك يمسون في قبضته وكان الامر كذلك وقد ادرك منهم ما اراد وارتاد وقال آخر سبق الامير الى مجاز النهر وضبطه من نتائج التصورات السعيدة التي تكلل صاحبها بالنجاح وقد وصل الجنرال تريزيل وجيشه الى المقطع عند انتصاف النهار بعد ان اعياهم السير ودوختهم جيوش العرب التي كانت محيطة بهم وتجاذبهم القتال وبينما هم في حالة الدفاع نظروا الامير قد انقض عليهم هو ومن معه كالعقبان على مستضعف الطيور فتحيرت عساكر فرنسا واستولى عليها الدهش ولم يجد الجنرال مسلكاً يقودهم اليه ولا مغيثاً يفرج عنهم ما هم فيه فاندفع آخر العسكر الى الامام واولهم الى الخلف واخذ الطوبجية ذات اليمين

فتفرقت عجلاتهم بتدافعها في تلك المخاضات المهلكة التي لا اطلاع لهم عليها من قبل وتفرقت كتائب العسكر وانقلبت من هنا الى هناك ابتغاء الخلاص ولات حين مناص واقتحم اكثرهم مسيل النهر فاخذهم ولم يات الغروب الا وقد تشتت من بقي منهم وتركوا موتاهم وجرحاهم وسائر ذخائرهم في يد العرب واسرعوا متسابقين الى ناحية ارزيو دون انتظام لا يلوي بعضهم على بعض فوصلوها ليلاً في الساعة السابعة واما العرب فانهم باتوا تلك الليلة في ابتهاج لا مزيد عليه وارتفعت اصواتهم وتعالت مشاعلهم واقاموا على ذلك طول الليل ولو صعد انسان الى الجو لراى منظرًا عجيبًا وسمع اصواتًا كالرعد القاصف وتراءت له هضبة مجتمعة من رؤوس الجيوش الفرنسوية وقال غيره لما ارتحل الجنرال تريزيل من حرش مولاي اسماعيل قاصدًا ارزيو حشرته جيوش العرب عند المقطع وهو المحل الذي اعده الامير عبد القادر لدفن العساكر الفرنسوية ثم هجمت عليه جموع المسلمين يقدمها حضرة الامير كالعقبان على الطيور الضعيفة وفي اقل زمان فتكت في العساكر فتكاً لم يعهد نظيره وكرت على باقي الجيش فشتتت شمله ولم تكتف حتى حكمت سيوفها في اعناقهم وقد حاول العسكر الفرنسوي الذي اكثره جرحي ان يفروا فلم يهتدوا الى الطريق ومن اقتحم النهر منهم هلك والعرب في وسطهم كالجزار استعمل مديته في اعناق غنم محبوسة وفي وقت الغروب تلاحق الباقون وفيهم الجنرال تريزيل في سهل تمتد على سيف البحر وساروا الى ارزيو ولو اتبعهم العرب ما تركوا منهم مخبرًا انتهى





وهذا رسم الامير
وحملته على الفرنساويين في هذه الواقعة

اخبرني من يعتمد بخبره من احبابي قال حدثني من اثق بحديثه وامانته من اصحابي قال ذهبت سنة سبع واربعين ومائتين والف الى مدينة وهران بقصد التجارة بها وذلك عقب استيلاء الفرنسيس عليها قال وكنت يومئذٍ في سن الشباب حين بقل عذارى فاقمت بها مدة وكان الحاج عبد القادر بن محيي الدين اذ ذاك مهادنًا لكبير الفرنسيس بوهران والجزائر قد انزل كل واحد منهما ببلد الآخر وكيله وتجاره على العادة في ذلك ايام المدنة فلما كان ذات يوم ورد الخبر بان قبيلتي الزمالة والدوائر من ايالة الحاج عبد القادر وهم نحو الفي خيمة قد فروا منه ونزلوا حول مدينة وهران مستجيرين بالفرنسيس وقد رفعوا رايتهم واعلنوا بانهم تحت حكمه ومن جملة رعيته فبعث اليهم الفرنسيس يعلمهم بانه قد قبلهم ولا يصيبهم مكروه فلما كان من الغد بعث الحاج عبد القادر مع كبير دولته الحاج الحبيب ولد المهر العسكري كتابًا الى الفرنسيس يقول فيه انك قد علمت ان هؤلاء القوم الذين فروا اليك هم رعيتي ومن ايالتي وعليه فلا بد ان تردهم عليَّ والا فالحرب بيني وبينك فامتنع الفرنسيس من ردهم واجاب الى الحرب واتفقوا ان يخرج كل منهما الى الآخره تجار الذين في ارضه وان من بقي منهم بعد ثلاثة ايام فدمه هدر واتفقوا ايضًا على ان يكون الوكيلان الآخر من يخرج وان يكون خروجهما في ساعة معلومة من الليل بحيث يلتقيان على الحدة التي بين ارض المسلمين وارض النصارى ففعلوا وخاص كلٌّ الى مأمنه ولما انقضى الاجل تزاحفوا للقتال في يوم معلوم فكانت بينهم حرب يشيب لها الوليد ولما كان المساء سمع الناس من داخل البلد ضوضاء وجلبة عظيمة وبارودًا كثيرًا واذا بالحاج عبد القادر قد هزم الفرنسيس هزيمة شنعاء حتى الجاءهم الى سور ارزيو وازدحموا على ابوابه وركب بعضهم بعضًا وجاءت خيالتهم من خلفهم فركبوهم ايضًا ومشوا عليهم ورفسوهم بخيلهم فهلك بهذا الازدحام من الفرنسيس نحو اربعة الاف غير الذين هلكوا خارج البلد بالكور والرصاص والتوافل والرماح واستولى المسلمون على معسكر النصارى بما فيه من مدافع وعجلات وفساطيط واخبية واثاث وكانت فتكة بكرًا ثم قال لي وكنت في تلك المدة مساكنًا لبعض كبراء عسكر الفرنسيس في دار واحدة فلما انقضت الواقعة بيوم او يومين سالته كم تراه يكون هلك من عسكر الفرنسيس في هذه الواقعة قال اقرب لك ام ابعد قلت بل قرّب قال انا كبير من كبراء العسكر وتحت نظري ثمان عشرة مائة بقي منها في هذه الواقعة ثمانية عشر عسكريًا انتهى كلام المخبر

واستشهد في ذلك اليوم العظيم من رؤساء العسكر المحمدي الآغة قدور بن بحر

ومن اعيان الجيوش المتطوعة خليفة بن محمود الذي كان ايام المعاهدة وكيلاً في ارزيو والسيد محمد بن الجيلاني الورغي والسيد محمد المشرفي في عدد من المسلمين ثم ان الامير امر بجمع الغنائم ودفن المجاهدين وارتحل الى سيك وبعث الاسرى والغنائم الى الحضرة وكتب الى خلفائه في مليانه والمدية يبشرهم بما منّ الله به على المسلمين من عجيب الانتصار الذي خلف لعدوهم تريزيل عند دولته العار والشنار وبعد ان اقام الامير في سيك اياماً ارتحل الى حضرته معسكر وكان عمه سيدي الجد على ابي طالب قدم اليه ثاني يوم المقطع قصيدة تهنئة يقول فيها

هنيئاً لك البشرى نصرت على العدى * ودمرت جيش الكفر بالقتل والخسف
وحزت مقاماً دونه كل باسل * يرى الحرب ميدان الخلاعة والقصف
بجيش عظيم قد تفرد في الوغى * له سطوة عزت وجلت عن الوصف
فسعديك بعز مذ حلت بشطننا * تطوف بكاس الراح مخضوبة الكف
تعاطيك طوراً من لهيب ومن لظى * وآونة تاتيك بالقرقف الصرف
ولما تولت خيلنا ورجالنا * مددنا لهم ايدي النزال الى السيف
بكل جواد يسبق البرق عدوه * وآخر يطوي الارض كالريح والطرف
نهار بدا كالليل اظلم حالكاً * اصبنا لهم الفي قتيل مع النصف
قلبنا لهم ظهر المجن عشية * فمالوا الى حب الحياة عن الحتف
وبدد شمل المشركين بنصرة * ازالت غياهيب الضلالة باللطف
امام له تبدو المعالي بقطرنا * فلله ذاك الفرد قد قيس بالالف
امير شريف في البرية مفرد * وفرع لمحيي الدين اغنى عن الوصف
صرفنا به غم الزمان وكربه * وغبنا عن الدهر المروع بالصرف

الى ان قال

وتبنى اصول الحب فيك على الوفا * اذا ما بناها الكافرون على حرف
يحييك دهر انت ظرف وداده * وما كل خل طرفه لك كالظرف
وان اخا الود الذي عم فضله * ليقنع من تلك الشمائل باللطف
الا لا ارانا الله فيك اساءة * فدم لعروس الملك زاهية العطف

﴿ وهنأه بعض الادباء ايضاً بمقصورة مطلعها ﴾

هون عليَّ الامر يا دهر فما * انصفتني ولا قلبت المشتطا
عسى الذي اجدب روح مهجتي * يخصب مني روحه الوصل عسى
او يرتضيني حضرة المولى الذي * ساوى الذي مضى وما ياتي ورا
باهت به الاقيال عند حربها * لما رات نار الحروب تصطلى

﴿ ومنها ﴾

ادرك ثاراً في العدى بحزمه * كعمر الفاروق فيما قد مضى
وبر امر الملك حتى شاده * برغم من عاداه من كل الملا
جاهد في الله وامسى ضارباً * بسيفه هامات عسكر العدى
قاتل اهل الكفر لا يبغي بذا * الا رضى مولاه في يوم الجزا

﴿ ومنها ﴾

فخر لعبد القادر المولى السري * يبقي ليوم الدين حيث الملتقى
ابن الملوك الصيد والقوم الاولى * يروى حديث مجدهم عمن روى

﴿ ومنها ﴾

رقيت يا كهف الانام للعلى * وكل باغ سقته الى الردى
بشرى لك الفتح الذي اوليته * هنئت بالنصر وادراك المنى

﴿ ومنها ﴾

نفسي لك الفدا وكل من على * وجه بسيط الارض ذاته فدا
تحيت ظلم الشرك والكفر ابا * نتيجة الدهر سليل المصطفى

﴿ ومنها ﴾

يزهو به الدهر العبوس بعدما * قد كان قدماً قبله على شفا
ندا حداة النصر لا يجيبه * الا امير قد اجاب من دعا
حاز الكمال كله بين الورى * علماً وحلماً ثم ملكاً وتقى

ولما بلغ حاكم الجزائر خبر هذه الواقعة اصدر امره الى الجنرال تريزيل ان يتخلى عن وهران ويسلمها الى الجنرال دولورانج ويحضر الى الجزائر ففعل وطار الخبر الى دولة فرنسا فاحتدمت لذلك وكثر الشغب ونودي في محافلهم ان العرب هدموا

شرف فرنسا فتحركت فيهم الحمية قال بعض مؤرخيهم قام احد الاعيان في مجلس النواب وقال ان هجوم الفرنسيس على بلاد الجزائر اراه من الاعمال الناشئة عن الطيش والهوس لان سائر الاعمال الحربية فيها لم تأت بنجاح والمدن التي استولوا عليها لا ارى فائدة لهم في الاقامة فيها ثم قام المسيو تييرس الذي تقلد رئاسة الجمهورية الفرنسوية سنة ثمان وثمانين ومائتين والف وسنة احدى وسبعين وثمانمائة والف بعد حرب المانيا فقال ان غزوتنا الافريقية لا تحسب من قبيل المهاجرة ولا من قبيل المطالبة بقصد التملك وحالنا في تلك الاقاليم لا يحكم عليها بانها من احوال الحرب ولا من احوال السلم وقصارى ما اقول انها غزوة باطلة عارية عن الفائدة ولا اقول هذا طعناً في حق عساكرنا بانهم ليسوا باهل شجاعة وان قوادنا ليسوا باهل معرفة ولكن اقول ان الحرب لا يكون الا لامرين اما للفتح واما للتربية فان كان الاول فليس هذا سبيله وان كان الثاني فلم نحصل عليه ولم نصل اليه فلما سمعت رجال المجلس هذه الخطب تغيرت افكارهم وكثر الضجيج وكاد ان يختل نظام المجلس ثم اتفقوا على ان ينفض المجلس في ذلك اليوم ثم يعقد مرة اخرى ومن الغد اجتمعوا وقر قرارهم على عزل الكونت دوروان دورلون حاكم الجزائر وتولية الماريشال كلوزيل مكانه واقرار الجنرال دولورانج على ولاية وهران وامروا كلوزيل بالحمل على معسكر عاصمة مملكة الامير عبد القادر واما الامير فانه علم ان يوم المقطع وان جاء بنصر عظيم وتأييد جسيم فانه قد فتح باب حروب يشيب لها الوليد ويتقاعس عن دخول ميدانها البطل الشديد فشغله هذا التصور عن التبجح بما اوقعه بعدوه واخذ يتأهب للحرب ويستنهض همم المسلمين وكتب الى خلفائه ينبههم ويستلفتهم الى سطوة الفرنسيس ويذكرهم بشدتهم وعدم تغافلهم عما وقع بعساكرهم وكان السيد محيي الدين بن علال خليفته في مليانه كتب الى قبائل البربر المستوطنين في ساحل ولايته الدائنين بطاعة الفرنسيس يدعوهم الى الدخول في طاعة الامير والتعاون على الجهاد ودفاع العدو عن البلاد وينبههم من غفلتهم ويقرع اسماعهم بما صاروا اليه من الوبال والخسران في الدنيا والآخرة فقال اعلموا ايها القوم انني رايت انه من الواجب عليّ ان ارشدكم الى ما فيه صلاحكم والقيام بامر دينكم ولكن اخاف ان تكون آذانكم صماء عند ذكر نصائحي الناشئة عن صفاء طويتي لكم وصدق نيتي في امركم ولا شك ان الله تعالى يغضب عليكم لكونكم اطعتم عدوه الذي يعبد غيره اما تذكرون الآخرة واهوالها اما تعلمون ان المسلمين كالبنيان يشد بعضهم بعضاً اما سمعتم قوله تعالى وتعاونوا

على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان واي بر اعظم من اداء فريضة الجهاد واي اثم يقاس بطاعة الكفار والدخول في زمرتهم والانحياز اليهم اما بلغكم قوله تعالى ومن يتولهم منكم فانه منهم وبالجملة فان ما انتم عليه ضلال مبين وخسران لا يقاس به خسران فبادروا رحمكم الله الى الاقلاع عما اوجب لكم ذلك وتوبوا الى الله تعالى ايها المومنون وهلموا الى الانضمام الى اخوانكم المسلمين وهاجروا الى مواطنهم واتركوا منازلكم التي هي الآن في خطر عظيم ولا يمسكم خوف على انفسكم واموالكم وانا الزعيم والكفيل بذلك واذا خالفتم امري ولم تقبلوا نصيحتي واقمتم في خدمة الكفار واعانتهم على المسلمين فانكم قد القيتم بانفسكم واولادكم الى التهلكة وعرضتموها لمقت الله تعالى واسيوف المسلمين كما هو مقتضى الشريعة المحمدية فافهموا كلامي وتعالوا نتفق ونجتمع على كلمة واحدة وقلب متحد بحيث اذا حرك احدنا يده تحركت جميع الايدي معه فافهموا وبادروا الى ما فيه وقاية انفسكم وحماية اموالكم وتقوية دينكم وما يبعدكم عن غضب ربكم وانظروا الى ما فعله الفرنسيس وخلفاؤهم من المنافقين بعلال بن الراعي من التعدي على مواشيه وكراعه ظلماً وجوراً واذا وفقكم الله الى ما دعوناكم اليه وصرتم الينا فاننا نعوض عليه اضعاف ما اخذه العدو منه والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته فوقع هذا التحرير عند اولئك القبائل الكثيرة العدد موقعاً حسناً واجابوا جميعاً الى الدخول في الطاعة وهاجروا من بلادهم وفارقوا مساقط رؤوسهم ولحقوا بالجبال القريبة من مليانه وسهولها وانخرطوا في سلك اخوانهم المسلمين ولما رجع الامير الى معسكره من واقعة المقطع بعث الى خليفته المذكور ان يجمع جيوشه ويغزو على الجزائر فغزاها في خمسة آلاف مقاتل وكان هولاء القوم في مقدمة الجيش ومروا في طريقهم في سهول متيجة واعظموا النكاية بالمستوطنين فيها وفتكوا بهم واثخنوهم بالقتل والاسر حتى وصلوا الى ابواب مدينة الجزائر ثم انقلبوا بما في ايديهم من الاسرى وضروب الغنائم من الامتعة والمواشي واوعز الى خليفته البوحميدي في تلمسان ان يجمع الجيوش وينهض بهم الى منازلة وهران فنازلها وضرب الحصار عليها وقطع عنها مواصلة المستنصرة قال بعض مؤرخي الافرنج وبحسب الامر فعل البوحميدي جميع ما امره به الامير وصار الفرنسيس داخل وهران في اشد الضيق الا انهم احسن حالاً من اسرى الحرب وكاد الامير ان يحقق قوله انه لا يسمح للطير ان يجول من غير اذنه فوق المدن التي استولى عليها الفرنسيس الذين امسوا كالمغلول يطلب الخلاص من قيوده يتنفسون الصعداء وتتفتت اكبادهم غضباً واقاموا يترقبون وصول المدد مع اوامر الهجوم لينـدفعوا على

ذلك الامير الذي رماهم بسهام نباهته المدهشة انتهى . واستمر الامير في معسكر ينتظر ما يحدث من دولة فرنسا وفي الثامن والعشرين من ربيع الثاني سنة اثنتين وخمسين والثالث عشر من اغسطس سنة ست وثلاثين وثمانمائة والف وصل الماريشال كلوزيل والدوق دورليان ولي عهد ملك فرنسا الى الجزائر مع مقدار وافر من العساكر فتلقيا بالاكرام واصطفت لهما الجنود عند باب البحر بالزينة الكاملة ومن الغد جلسا لقواد العسكر واعيان البلد واطلعهم الماريشال على اوامر الدولة بولايته على مدينة الجزائر وعلى حرب الامير واخبرهم ان ابن الملك انما حضر معه ليراقب اجراء الاوامر فضج القوم استحساناً لذلك وانشدوا الاشعار المهيجة المشهورة بغناء الجزائر لاخذ الثار فوهم الماريشال لذلك واخذ يتكلم عليهم فيما يفتتح به امره وقال اول ما نبتدأ به ان نزحف بجيوشنا على عاصمة الامير وان ساعدنا الوقت في الاستيلاء عليها نتمكن من اخذ الثار ونشفي انفسنا من العرب ثم نعقد مع الامير عبد القادر صلحاً باتاً لكل نزاع فضجوا في محافلهم وكثر تصفيقهم استحساناً لخطابه ولما رأى ارتياح القوم لما القاه اليهم وشاهد منهم النشاط لاخذ الثار يوم المقطع واخذه الطيش وتخيل انه استولى على سائر البلاد ودانت له بالطاعة والخضوع وجعل ما ارتسم في خياله محسوساً في الخارج ولم يكتف بذلك حتى رسم خريطة جعل البلاد فيها اقساماً وعين على كل قسم منها عاملاً وبعد مضي شهرين امسى ما تخيله هباء منثورا قال بعض مؤرخيهم ان اعمال هذا الماريشال قضى الله عليها ان تناقض ما تخيله وتنتج له خلاف ما توهمه لانه ارسل البعوث الى جهات مختلفة يستفسر بها عن الاحوال فخسرت صفقتها ورجعت للجزائر مغلولة لا يلوي بعضها على بعض وامسى الماريشال في كدر لا مزيد عليه لما حصل لجيوشه من الفشل والخيبة واتخذ الناس خطابه وخريطته هزواً وسخرية

ذكر مسير الماريشال كلوزيل وولي العهد من الجزائر الى وهران واستيلائهما على عاصمة الامير وخروجهما منها

وفي اول ديسمبر من السنة ركبا اسطولهما في العساكر والذخائر الى وهران وخيما خارجها وفي السابع والعشرين منه سارا قاصدين المعسكر باثني عشر الف عسكري وكان مع الامير ثمانية آلاف خيال واثنان من المشاة واربع قطع من المدافع وكان يترقب الفرصة بانفصال خطوط العساكر الفرنسوية ليكون الهجوم عليها مناسباً الا ان الجنرال كان يتجنب ذلك وجيشه مضموماً الى بعضه ووجهه تجاه ميمنته متقدماً لمهاجمة

العرب فتركه الامير يجتمع بمنازلة مقدمة العرب واندفع لمعارضة الطريق التي تؤدي الى معسكر وميمنته كانت محمية بحرش وميسرته مقيمة على تل افرعليه الطوبجية وكان ترتيبه هذا مما يجلب الاكرام لجنرال اوروبي فانه كان يتمكن للقائد المقتدر ان يأخذ مركزًا حربيًا مناسبًا فاصلاً للنزاع لان الحاذق بفن الحرب يجعل الوقت والفسحة خاضعين لمآربه على ان الامر قدر له بان يختبر وقتئذ وبتركه مبادىء فن الحرب الاوربي في وقت النزال واخلاء المركز من تحت ارادته كانت وسائطه دون المطالب التي تقتضيها حذاقته كذا قال بعض مؤرخي الافرنج ثم ان الامير لما راى العدو لا يثنى عزمه شيء زال عن وجهه وانسحب الى قصر عائلته بالبستان المسمى بكاشرو ولم يخطر بباله ان يدافع عن حضرته معسكر لان قوته لم تكن قوة حصار وكان يقول لي كل محصور ماخوذ وطير الخبر الى حاكم الحضرة يامره بالجلاء عنها قبل وصول العدو اليها فخرج الناس سراعًا بما خف عليهم من الاثاث والمتاع ولم يتخلف فيها الا اليهود واستمر العدو سائرًا والعرب يناوشونه القتال من اطرافه وكان الحشم لما نزل العدو بالبطحاء المعروفة بهبرة شقوا العصا وتطايروا الى بلادهم وجعلوا طريقهم على الحضرة فانتهبوا دار الملك واستولت ايديهم على الخزائن وفشا النهب في البلد وفي السادس من كانون الاول دخلها كلوزيل فوجدها خالية من الاهل والمتاع فاقام فيها يومين وجاءه الامر بغتة بالرجوع فانقلب راجعًا الى وهران وتخلف فيها اوغاد القبائل المتنصرة من الدوائر والزمالة واضرموا النار في اكثر دورها الشهيرة وكان اليوم ماطرًا فلم تعمل النار فيها وباؤا بها شقاء لآخر الدهر ثم جاء الامير فدخل الحضرة وتراجع اهلها من الجهات وبعد ايام قليلة عادت آهلة عامرة الاسواق واقبلت الجيوش ترد عليها افواجًا متاسفين نادمين على ما سلف منهم من التقصير في دفاع العدو وجاء الحشم واعتذروا الامير واحضروا جميع ما انتهبوه من الامتعة والذخائر ووعدوه بالثبات وحلفوا له الايمان على ذلك وتضرعوا في العفو والصفح عنهم فاجابهم ان مرادي ان تريحوني من الحمل الذي وضعتموه على عاتقي وقدرتني الصوالح الدينية وحدها ان اقوم به الى هذه الساعة فلينتخب القوم خلفًا عني واني ذاهب مع عائلتي الى مراكش فتراموا على اقدامه صارخين انت اميرنا وسيدنا واذا تركتنا فما لنا الا ان نذل لعدونا فقبل الامير توبتهم وصفح عنهم واقبل على رؤساء الجيش النظامي الذين ثبتوا معه ولم يفارقوه وهم احلاس حرب وفتيان كريهة فاحسن السؤال عنهم وشكر شجاعتهم في حروبهم قبل هذه الواقعة واستدرَّ ارزاقهم ثم وفدت عليه

﴿ ذكر مقتل الخليفة ابن فريحة وولاية السيد مصطفى ﴾
﴿ ابن التهامي على الحضرة ﴾

وبعد ان اقام ابن فريحة في اعالي البطحاء اياماً ارتحل الى بلاد البرجية وضربت له الخيام بالقرب من قرية البرج وطفق الجيش يلعبون على الخيل ويطلقون بواريدهم بالبارود على عادة اهل الوطن والخليفة ينظر اليهم وهو في خيمته فاصابته رصاصة في صدره فمات لوقته وعظم المصاب وانقلب السرور حزناً ووقعت الريبة على بعض الفرسان فمسكوا ورجعت الجيوش الى الحضرة ونما الخبر الى الامير وهو محاصر لتلمسان فارسل ابن عمته السيد مصطفى بن التهامي الى الحضرة وقلده خلافتها وبوصوله اليها قبض على زمام الامور ونظر في امر المتهمين فتحققت براءتهم عنده وتبين له ان الامر كان خطاء فاطلق سراحهم وهدأت القلوب والتفت الناس الى اشغالهم

﴿ ذكر خروج كلوزيل من وهران الى تلمسان وما آل ﴾
﴿ اليه امره في تلك النواحي ﴾

زعم كلوزيل ان دخوله الى الحضرة يؤثر في المسلمين ويحدث في الملك وهناً يحمل الامير على مسالمة الفرنسيس فاقام في وهران ينتظر ما يصدق ظنه فلما تبين له ان الامر على خلاف ما زعم ورأى احوال المسلمين قد استقامت في اقرب مدة وكلمتهم اتحدت وعلم ان الامير غير ملتفت الى مخابرته بادر لاجراء ما كان وعد به المازري من اغاثة عمه ابن اسماعيل وجماعة الكول اوغلي فسار في عساكره الى تلمسان في الثاني من شوال سنة اثنين وخمسين والثاني عشر من يناير سنة سبع وثلاثين وثمانمائة ففعل الامير بتلمسان ما فعله بالعاصمة فامر بخروج الاهالي والجلاء عنها فخرجوا بما خف حمله من الاثاث والمتاع فلما وصل كلوزيل بعساكره الى ساحة البلد قاتله الامير واتصل القتال بين الفريقين من طلوع الفجر الى الزوال وخرج جماعة الكول اوغلي وابن اسماعيل نجدة للعدو وفتحوا له ابواب القلعة فدخلها بعد عناء لا مزيد عليه في السابع عشر والثاني عشر من الشهرين المذكورين وفي الثالث من دخوله خرج من القلعة ووقع بينه وبين الامير قتال شديد تكافأ فيه ثم بث العدو سراياه في نواحي البلد فعثروا على الكثير من اهلها فاجبروهم على الرجوع اليها ولما تمكن كلوزيل من زمام البلد وضع ضريبة باهظة على اوليائه مثل الكول اوغلي وابن اسماعيل ومن معه من قومه ليسد نفقات تلك الحملة التي

ارتكبها من غير اذن دولته فانتدب لجمعها رئيس الكول اوغلي مصطفى ابن المقلش فالح فيها على قومه حتى ان الرجل يبيع ملبوسه وفراشه ويؤدي ما افترض عليه وان المرأة تبيع مصاغها وثيابها وتدفع عن نفسها ما افترضوه عليها وشاع خبر هذه الضريبة في النواحي فنفرت قلوب الناس من الفرنسيس لسوء تصرفاتهم ثم اتصل الخبر بدولة فرنسا فنقمت ذلك على كاوزيل فخرج من تلمسان راجعاً الى وهران بعد ان ترك فيها حامية وذخائر لنظر القائد كافنياك فلقيه الامير بعساكره قرب البلد وانتشب الحرب بين الفريقين واتصل عشرة ايام وكانت الدبرة فيها على كاوزيل وجنوده فرجع مغلولاً الى تلمسان وتحصن بالقلعة ثم جدد عزمه وخرج في الثالث من ذي القعدة سنة اثنين وخمسين والعاشر من فبراير سنة سبع وثلاثين وثمانمائة فالتقاه الامير ثانية بعزم لا يرده رادّ ولا يصده عنه صادّ والح عليه المسلمون في القتال فدمروا اكثر عساكره واستولوا على معظم ذخائره وقد حكى هذه الواقعة بعض مؤرخيهم بقوله خرج الماريشال كاوزيل بجنوده من تلمسان راجعاً الى وهران فصادف في طريقه اهوالاً جمة وعاين مصائب شديدة منها هزيمة عساكره وتشتيت شملها بوادي عوشبه ومنها انه ارتد عن طريقه التي جاء عليها وسلك طريق الساحل الى مرسى رشكون فوصلها على اسوء حال ومنها ان الامير اخذ بخنقه فيها واقام محاصراً له مدة شهرين كاملين لا يخلو يوم منها من القتال ثم لما اعياه الامر وضاقت به الحيلة بعث صريخه الى نائبه في وهران فبعث اليه بالمراكب فركبها بجيوشه وحمل ما امكنه من ذخائره ولحق بوهران وكاد الغضب يمزق فؤاده وسولت له نفسه امراً اوقعه في الخجل وهو ما اشاعه في الدوائر الرسمية من انه قهر الامير وغلبه والجاءه الى الفرار الى الصحراء فكانت جنوده تحدث في المحافل والمجامع بما يكذب خبره وتعلن بما حل بها من الوبال وبما شاهدته من اقدام العساكر العربية وقوة جاشها وشدة باسها ورؤسائهم يؤيدون ما يخبرون به ثم ان كلوزيل نصب الجنرال دولورانج والياً على وهران والجنرال بهاراغو قائداً على الجند وتوجه الى الجزائر وبعد ثلاثة ايام من سفره سار بهاراغو في ثلاثة آلاف عسكري وثمانية مدافع الى تلمسان ليمهد الطريق بينها وبين وهران فتمكنوا من المواصلة بين البلدين ولما وصل الى نهر تافنا اقام متاريس على شطوط النهر واتصل الخبر بالامير فسار الى ندرومة حيث يمكنه رؤية حركات العدوّ من كل جهة في المحل الذي تتشعب منه الطريق من تافنا الى تلمسان ووهران واستمر عدة اسابيع يقطع جبال القبائل الممتدة حول تافنا وبقي عدة ليالي من دون رقاد محرضاً وواعظاً ثم توجه بجيوشه واعترض العدوّ في وادي تافنا في سابع نيسان والتحم

القتال بينهما نهارًا كاملاً ثم ضرب الجنرال معسكره في الوادي ورتب صفوفه على هيئة قلعة ونزل الامير بعساكره بالقرب منه وحاصره في الهيئة التي هو عليها وفي الرابع والعشرين من الشهر تهيأ الجنرال للانتقال من مكانه فضج المسلمون من كل جهة وزحفوا اليه دفعة واحدة غير مبالين بصلصلة المدافع ولا بقعقعة البارود وهجموا على المدافع فاستولوا عليها وسار الجنرال بجنوده على الهيئة التي كانوا عليها والعساكر الاسلامية محيطة بهم تذيقهم نكال الحرب حتى اعجزتهم فعسكروا على هيئتهم الاولى . ويؤيده قول بعضهم خرج الجنرال بهاراغو من وهران قاصدًا تلمسان وحين حل في وادي تافنا التقاه الامير بجيوشه وهجم عليه هجومًا امسى به محصورًا ولما طال عليه الامد امر جيشه بالزحف على جيوش الامير المحيطة به مؤملاً ان ينال فرجًا اقله ان تتوسع عليه دائرة الحصار فسوء حظه لم يمكنه من مراده وكانت نتائج افكاره وبالاً عليه وعلى جيشه وقد اظهر العرب ذلك اليوم شجاعة غريبة وكان الامير ممتطيًا صهوة جواده امامهم يخترق صفوف العسكر الفرنسوي غير مبال بما تقذفه افواه بواريدهم من برد الرصاص ولما شاهدت جيوش العرب بسالة اميرهم ازدادت حميتهم وقوي هيجانهم فهجموا بقوة لا مزيد عليها حتى انتهوا الى المدافع الفرنسوية فلم يكن من الطوبجية الا الفشل ولم يسعهم الا الهروب وتسليم المدافع وحينئذٍ تقهقر الجيش وارتدوا على اعقابهم مدافعين عن انفسهم حسب ما تقتضي بــه احوال الحرب فكانت العساكر الفرنسوية تركض وخلفها فرسانها يحمونها ومن ورائهم الجيوش العربية تفتك بهم ولم يرتدوا عنهم حتى اتلفوا منهم عددًا وافرًا ولما راى الجنرال ان عسكره قد دمره الحرب وطال عليــه الامد ازمع على الهجوم الاخير فتهيأ وجمع قوته واصبح سائرًا على طريق وهران وسار المسلمون ياخذونه من اطرافه الى ان لحق بها في شرذمة قليلة وكانت الجيوش الاسلامية قد اخذ التعب من قوتها ونشاطها فجعلوا يتسللون الى اوطانهم ورجع الامير بعسكره النظامي الى ندرومة

﴿ ذكر ولاية الجنرال بيجو على وهران وخروجه الى تلمسان ﴾

لما اتصل خبر الجنرال دولورانج وجيشه بدولة فرنسا امتعضت له وجهزت الجنرال بيجو بثلاثة آلاف لاغاثته فسار بيجو من باريز في جيوشه الى وهران ثم في السادس والعشرين من ربيع الاول سنة ثلاث وخمسين واول يوليه سنة سبع وثلاثين وثمانمائة سار الى تلمسان بالذخيرة الى جيشهم المحصور في قلعتها وكانت الجيوش الاسلامية

من المتطوعة قد لحقها الضجر وطالت عليها المدة في الحروب فلحقت باوطانها ولما اتصل خبر بيجو بالامير وهو في ندرومة سار اليه فيمن معه من العسكر والتقى الفريقان على نهر سكاك واهتاج المسلمون للجهاد وهجموا على تلك الجيوش الكثيرة فاستطرد لهم بيجو حتى اجازوا النهر ثم انعطف عليهم فاثخن فيهم وانكشفوا امامه وكثرت القتلى والجرحى بينهم ومحص الله المسلمين في ذلك اليوم واستمر بيجو سائرًا الى تلمسان وبعد ايام رجع الى وهران وطير الخبر الى دولته يبشرهم بانتصاره ويتبجح بما اتفق له من النجاح في اول حركة كانت منه في بلاد الجزائر ثم توجه الى فرنسا وجعل قيادة الجيش الى الجنرال والستاك

ذكر حصار الامير تلمسان

وبعد واقعة نهر سكاك ارسل الامير في المدائن والضواحي ينادي بالجهاد فاجتمع المسلمون في الجهات والضواحي التي عينها لهم لانتظار خلفائه فيها وسار من ندرومه بعد ان ازاح العلل في نواحيها فنازل تلمسان بقوته وضيق حلقة الحصار عليها وضبط خارجها فاشتد الامر على اهلها ونفدت ذخائرهم واجهدهم الجوع حتى اكلوا جميع ما حضرهم من انواع الحيوان وافضى بهم الامر الى اشنع الاحوال ذكر القائد كافيناك رئيس العسكر الفرنسوي المحصور في قلعتها انه كان يشتري الهر الواحد باربعين فرنكاً لقوته واما غيره فانه كان لا يجد فارًا يقيم به اوده وكانت مدة اقامة الحصار عليها تسعة اشهر وختم الامير في هذه المدة قراءة صحيح البخاري اربع مرات وقد اخبرني ابن خالي السيد محمد ابو طالب انه راى نسخة من البخاري في مجلد واحد عند الشيخ محمد القلي قاضي بجايه كانت للامير مكتوبًا بآخرها بخطه ختمت البخاري بهذه النسخة اربع ختمات وانا محاصر تلمسان عجل الله بفتحها للاسلام وبسفر كلوزيل وبيجو الى فرنسا انقشعت غيوم جيوشهم عن الداخلية ولم تصل يدهم الى وضع الحاميات في الاماكن التي اختاروها لذلك فيما بين وهران وتلمسان والجزائر والمدية ورجعوا الى حدودهم وانحجروا في مدنهم ونازلتهم الجيوش الاسلامية فيها حتى اجهدهم الحصار واحتاجوا الى الازواد وانقطعت اخبار الداخلية عنهم لشدة الضبط بحيث ان الجواسيس والسعاة من المتنصرة لم يجدوا سبيلاً الى تبليغ التحارير الى اهلها واقاموا على ذلك مدة ولما عميت اخبارهم عن الامير بعث الى السيد حمادي السقال من اهالي تلمسان يفاوضه في ذلك ويحثه على اتخاذ وسيلة يتوصل بها الى مطالعة

اخبار العدو فاجابه الى مطلوبه وتقدم الى الحاكم في ان يجعل اليه ارسال المكاتيب الى وهران والجزائر وغيرها ويتكفل بتبليغها ورد اجوبتها فانشرح صدر الحاكم الى ذلك وطفق يجمع المكاتيب ويسلمها الى سعاة من العرب يمرون بها على الامير فيطالع عليها ثم يردها اليهم فيذهبون بها الى مواضعها وعند رد اجوبتها كذلك فكان الامير لايفوته شيء من اخبار العدو واحواله ومكائده وما في عزمه ان يجريه معه ثم اناب ابن عمته السيد مصطفى بن التهامي على الجيش وسار في شرذمة قليلة من الفرسان الى المدية لما بلغه ان الكول اوغلى من اهلها اثاروا الفتنة فيها وكتبوا حاكم الجزائر بطاعتهم فقبض على اهل الريبة منهم واذاقهم نكال العقاب واصلح خلل البلد وولى عليها اخاه السيد مصطفى بن محيي الدين وانفتل راجعاً الى تلمسان وانتقل امره الى طور التايد والانتصار على الاعداء وامسى يوم سكاك وغيره من الايام الهائلة نسيًا منسيًا ويعجبني ما ذكره اسكندر بالمار في تاريخه عند تعرضه ليوم سكاك وهو ان من العجب رجوع قوة الامير عبد القادر الى حالها الاولى بعد ان اعتراها الاضمحلال والتلاشي ثلاث مرات الاولى بعد استيلاء الجنود الفرنسوية على عاصمته والثانية بعد غزوة تلمسان والثالثة بعد وقعة سكاك وكل حادثة من هذه الحوادث كانت صالحة لان تكون سببًا قويًا لسقوط قوة اعظم سلطان راسخ القدم ومع ذلك فانها لم تؤثر في امره ولم تحصل الامة الفرنسوية منه على طائل فلهذا اقول لله در هذا الرجل العظيم الذي كانت سياسته العجيبة وتصرفاته الغريبة لا يفارقان ذاته طرفة عين ومن هذا تعلم انه كان في اقرب وقت يسترجع ما ينقده من قوته وقال غيره ان تلك الوقائع تسحق عقل القوي وتضعف عزمه ولو كان كالصخر الا ان الامير كان لا يبالي بذلك لانه عالم بانه اذا ابتسم ثغر السعد فبسيفه البتار يقدر كل ساعة ان يجلب العصاة والمتمردة ليخروا عند قدميه

﴿ ذكر مسير كلوزيل الى قسنطينة وهزيمته ثم عزله ﴾
﴿ عن الجزائر ولحوقه بفرنسا ﴾

بعد واقعة عوشبه ورشكون رجع كلوزيل الى وهران ومنها الى الجزائر ثم الى فرنسا يستعتب دولته فيما ارتكبه من غزو تلمسان بدون اذن منها فاعتبته واستنجدها فلم تنجده وجعلت اليه اوامر الحرب بما عنده من الجند في الجزائر ووهران فرجع بصفقة خاسرة وكان مهتماً بغزو قسنطينة فسار اليها في المراكب في الثامن من

شعبان سنة ثلاث وخمسين والثامن من نوفمبر سنة سبع وثلاثين وثمانمائة وارسى في عنابة وفي الخامس عشر منه احتل بكالمه فاقام فيها اياماً ثم عرض جنده وزحف الى قسنطينة فتلقاه القائد علي بن عيسى واقتتلوا قتالاً شديداً وفي آخر النهار انكشفت الجيوش الفرنسوية واتصلت الهزيمة الى نصف الليل واستمر كاوزيل راجعاً الى كالمه تاركاً قتلاه ومعظم ذخائره ومهماته في ايدي المسلمين ثم سار من كالمه الى عنابه ومنها الى الجزائر واتصل خبره بدولة فرنسا فامتعضت له ثم عزلته ولحق بفرنسا وتولى مكانه الجنرال دوبروسوار وقد ساق بعض المشاهير من المؤرخين اخبار كاوزيل فقال اما عمل كاوزيل في فرنسا في سفره الاخير فهو انه تشبث بما رآه سبباً عظيماً في الحصول على مقاصده فطلب نجدة جديدة لكي يتوصل بها الى الاستيلاء على بلاد الجزائر واظهر لوزير الحرب ان الامر لا يتم الا بجيوش كثيرة فلم يجبه الوزير الى مطلوبه ولم يوافقه مجلس نواب الامة وانما امر بالرجوع الى الجزائر واجراء ما اعتزم عليه بما عنده من الجند في الجزائر ووهران فكان هذا الامر موجباً لضعف همته فرجع الى الجزائر وجهز تسعة آلاف جندي وسار في المراكب الى عنابه قاصداً قسنطينة وفي الخامس عشر من شهر نوفمبر وصل الى كالمه وهي مدينة قديمة رومانية خربتها العرب لاول الفتح الاسلامي ولم يبق فيها الا آثار ورسوم فاقام هناك للاستراحة والنظر في احوال الجيش ثم ابتنى فيها برجاً من خشب وشحنه بالحامية والذخيرة وسار الى قسنطينة وكان القائد علي بن عيسى ممد لهم في العساكر فتناجز الفريقان واخذ كاوزيل يسوق جنده الى لظى الحرب واضرام نارها وبعد هجمات ارتدت جيوش فرنسا على اعقابهم وغلبهم العرب على حمل القتلى والجرحى فتركوهم في ايديهم واثخنوا فيهم بالقتل والاسر وبعد العناء الشديد وصل كاوزيل بجيوشه الى كالمه ومنها توجه الى عنابه بعد ان ترك فيها فرقتين من الجند لنظر الامير الاي دوفيفه ثم توجه الى الجزائر ولما اتصل الخبر بدولته عزلته عن غضب فلحق ببلاده ولم يزل في كدر الى ان مات

﴿ ذكر البعوث الى الثغور ﴾

ولما اتصل بالامير ان كاوزيل توجه في عسكره الى قسنطينة انتهز الفرصة وجهز البعوث الى السواحل فسرح خليفته السيد مصطفى بن التهامي والبوحميدي الى وهران في جموع قبيلتي الغرابة وبني عامر ومن انتمى اليهم فاكتسحوا نواحيها واشغلوا مزارعها

واستولوا على ماشيتها وانتهبوا الابراج والاكواخ القريبة من اسوارها وضربوا عليها سياجًا من الرماة والانجاد وقطعوا عنها مواصلة المتنصرة من العرب وامست محصورة من جميع نواحيها البرية ثم سرح الى الجزائر خليفته السيد محمد بن علال فعاث في نواحيها واستباح القرى في ضواحيها وانتهبتها جيوشه ثم اضرموها نارًا واثخنوا في اهلها قتلاً واسرًا ووصلت خيله الى ابواب الجزائر وجعل الارصاد على من يواصلها من متنصرة البربر واقام في تلك الجهة يواصل الغارة على الساحل حتى امتلأت الايدي بالغنائم وضاق الفضاء بالماشية ثم جعل العيون على العدو ورتب الحاميات والمسلحات وانقلب راجعًا الى حاضرة ولايته مليانه وطير الخبر الى الامير بما اجراه في حركاته وفي اثناء هذه الوقائع حدث ارتباك في فرنسا بين مجالسها وانقطعت الميرة والمدد منها عن مدينة الجزائر ووهران وغيرهما من مدن الساحل والتحق اهلها باهل تلمسان في شدة الانحصار والجوع

﴿ ذكر انعقاد الهدنة ﴾

ولما اشتد الحصار على المدن التي فيها الفرنسيس وطالت مدته وصاروا الى حالة يرثى لها ادركهم حسن حظهم ونباهة ابن دران الموسوي فانتدب من وهران ولحق بالامير وهو محاصر لتلمسان وفاوضه في ابرام الهدنة مع حاكم وهران ورغبه بما ينجم عنها من الفوائد مع راحة الجيوش الاسلامية من معاناة الحروب وشدائدها والح عليه في ذلك فاجابه بشرط ان يطلق العدو اسرى المسلمين فرجع ابن دران الى وهران واخبر الجنرال دوبرو سوار قائد الجيش بما كان من الامير فاظهر ارتياحه اليه ثم قر القرار بين الفريقين على ان ابن دران يتولى المواصلة بين الطرفين فيما يحتاج اليه كل منهما من الآخر فيبتاع سائر ما يحتاج اليه الفرنسيس في الجزائر ووهران وتلمسان من انواع الحبوب والماشية لنفسه من الامير ثم يبيعها الى الجنرال وياخذ منه باثمانها جميع ما يحتاج اليه الامير من المهمات الحربية ثم يبيعها من الامير وانعقدت الهدنة على هذا بين الفريقين ثم اطلق الجنرال الاسرى وافرج الامير عن تلمسان وصدرت اوامره الى خلفائه المحاصرين لوهران والجزائر بالافراج عنهما وارتفع الحجر عن المدن المحصورة وراجت الاسواق فيها وعاد اهلها في ارغد عيش نقدوه منذ زمان طويل وبهذه الهدنة استحصل الامير من عدوه مهمات حربية وذخائر عظيمة وبعد مدة قليلة استعملها في قهره وكبحه وبهذه الهدنة زادت قوته وتوصل الى فك الذين كان

المسلمون يتاسفون عليهم من الاسرى واستمر الامر على ذلك مدة اخذ كل فريق فيها الراحة والدعة ورجعت له فيها قوته

ذكر ولاية الجنرال دومرمون على الجزائر والجنرال بيجو على وهران

ثم ان فرنسا اتفق رايها على نقض الهدنة وتجديد الحرب مع الامير اذا لم يجنح للسلم على شروط ترضيهم فعزل المارشال كاوزيل عن الجزائر ونصب الجنرال دومرمون حاكماً عاماً عليها وعزل الجنرال دبرو سوار عن وهران وولى مكانه الجنرال بيجو وسار كل منهما الى موضع ولايته في العدد والعدد فوصل الجنرال دومرمون الحاكم العام الى مدينة الجزائر بثمانين الف عسكري مع مهمتها في اوائل المحرم سنة اربع وخمسين واوائل ابريل سنة ثمان وثلاثين وثمانمائة والف فارسل له الامير ابن داران ليبارك له في ماموريته ويخبره بانه ازمع علي ضرب نقود ويطلب منه ان تجري المعاملة بها في المحلات الحالة بها الفرنسوية فاجابه انه لا بد له من الاستئذان من حكومته وبعد مدة ساله عن ذلك فاجاب بان الحكومة لم تسمح حيث لم تحصل المخابرة عليها في معاهدة دي ميشيل وكانت آراء العامة في فرنسا وقتئذٍ متفقة على ترك الجزائر لاهلها ورجال الدولة كانوا يرون دوام الحرب فيها الى النهاية اولى من تركها وكان الجنرال بيجو مخيراً من دولته بين امرين اما ان ينقض المدنة المعقودة بين الامير وحاكم وهران السابق واما ان يعقد الصلح مع الامير على وجه يوافق مقام فرنسا وامرت حاكمها العام ان يجري جميع الوسائل والاسباب التي يحصل بها الوهن في قوة الامير او يجري صلحاً متين الاركان مقبولاً عند دولة فرنسا

ذكر انعقاد الصلح وما جرى في شانه من المخابرات والمحاورات

ولما وصل الجنرال بيجو هذه المرة كان اشد ما يكون من القوة والحماسة نعزم اولاً على نقض المدنة واشهار الحرب وكتب مكتوباً يتهدد فيه اهل البلاد وعدل عنه الى مكاتبة الامير في الصلح فكتب اليه الى سمو الامير عبد القادر اخبركم انني قد حضرت الى وهران مكلفاً من طرف دولة فرنسا باجراء احد امرين اما الصلح وهو الاولى والا سلم على شروط يكون خيرها ونفعها عائدين على الامتين العربية والفرنسوية واما الحرب لآخر درجة تصل اليها الاستطاعة فارجو بعد التامل

فيما ذكرناه ان نتنازلوا لرد الجواب فلما اطلع الامير على المكتوب علم ان اقدام هذا الجنرال على الحرب يحمله ولا بد على اضرام نارها وهذا يضر بالمسلمين وان اجراء الصلح ولو الى وقت غير مديد لا بد ان ياخذ من سورة الجند الجديد ويكسر شوكته وحينئذٍ تميل انفسهم الى الراحة وتضعف قوتهم ولذا اجاب الجنرال بما اطمعه في اجراء الصلح وصورة جوابه الى حضرة الجنرال بيجو اما بعد فقد وصلني كتابكم واحطت به علماً فذكرتم ان دولة فرنسا امرتكم باجراء الصلح ان امكن والا فاستعمال السيف مع ان دولة فرنسا تعرف انني اشد الناس رغبة في حصول العافية واشدهم بغضاً لسفك الدماء بدون موجب شرعي وانها لتعلم انني راغب في عقد الصلح واقامة دعائمه على اساس قوي لا يتضعضع ويشهد لذلك ما خابرتها به على يد سفيرها في طنجة فان ساعدت العناية الالهية على اجراء هذا الامر على يدكم فهو دليل على صفاء طويتكم لعباد الله تعالى وصدق خدمتكم لدولة والشعب معاً فانظروا ما ترغبون فيه واخبروني به على الفور بواسطة رسولي اليكم حتى انظر فيه ولما وصل ابن دران الموسوي بمكتوب الامير الى الجنرال بيجو وفاوضه في امر الصلح وزينه في قلبه وقلوب بطانته مالت نفوسهم اليه واتفقت كلمتهم عليه فكتب الجنرال الشروط الآتية وجعلها كالاساس للاتفاق واصحبها بمكتوب نصه الى سمو الامير عبد القادر اخبركم بوصول رقيمكم وجميع ما حواه من كلامكم صار معلوماً عندي ولرغبتي في حصول الخير الامتين قد حملت الرسول ورقة ذكرت فيها الشروط التي يتوقف اجراء الصلح عليها واني اطلب ان تقبلوا احترامي لجنابكم العالي ونص الشروط التي كتبها الاول ان يعترف الامير برئاسة فرنسا الثاني تحديد مملكته الى نهر شلف الثالث اداء جزية الرابع ان يعطي رهنية كفالة وفعلاً موافقاً لكل معاهدة يتفق عليها في المستقبل الخامس كل من التجأ من الامتين الى الاخرى لا يجبر على الرجوع الا اذا كان قاتلاً ولما اطلع الامير على هذه الشروط صعب عليه قبولها فرد اليهودي فوراً وامره ان ينهي للجنرال بيجو اشفاهاً ان الامير يرى انه لم يزل على الحال التي كان عليها من قبل المخابرة بل يرى انه في مقام اعظم واعلى فلا يمكنه ان يقبل هذه الشروط المجحفة بمقامه الذي اعترف به من تقدمك من حكام الجزائر ووهران بمعاهدة الجنرال دي ميشيل لا سيما والمسلمون لا يرضون ان يكونوا تحت حكم الافرنج فان كانت دولة فرنسا تريد اذلالهم واخضاعهم لحكمها فدون ذلك حرب طويلة الذيل مديدة السيل ثم ان ابن دران بلغ الجنرال ما سمعه من الامير وفاوضه في اقليم تيطرى فقال له انما كان استيلاء الامير عليه برضى

اهله وعن طلب منهم وعلى هذا فلا تسوغ له ديانته وشرف نفسه ان يفوت قوماً مسلمين سلموا اليه ارواحهم واموالهم على انه ليس من مصلحة الفرنسيس ان يستولوا على قوم هم لهم كارهون فالاولى ان تعدل دولة فرنسا عن هذه الشروط وامثالها وتجعل الصلح مبنياً على شروط تجارية في الاساكل التي بيدها وتعرض عما سوى ذلك ثم قرر له من عنده ان الامير يمكن ان يسمح للفرنساويين ان يعمروا سهل متيجة ما عدا البليدة ويمنحهم ضواحي وهران الواقعة على الشط البحري الممتد منها الى مستغانم بحيث لا يتعدون سيف البحر وان يتعهد لكم بالقيام بحقوق كل فرنسوي يختار الاقامة في داخل مملكته وبكونه يدفع عنهم كل تعد من العرب وان طرأ على اموالهم شيء من ذلك فعليه ضمانه وقد آلى على نفسه انه لا يسمح بمقدار فتر من الشطوط لدولة اجنبية غير دولة فرنسا واحتراس اليهودي بهذا دفعاً لما بلغ فرنسا من ان دولة انكلترا ارسلت للامير معتمدين ليجعلوا معه معاهدة بناء على ان يعطيهم حق التملك في مدينة وهران التي هي في يد الفرنسيس ودولة انكلترا تتعهد باخراج الفرنسيس منها ومن جميع القطر الجزائري فلم يقبل الامير بذلك فلما سمع الجنرال هذا التقرير استكان له وكتب هذه الشروط اولاً يعترف الامير برآسة فرنسا في افريقية ثانياً ان فرنسا تحفظ لذاتها في اياله وهران بقعة عرضها من عشرة الى اثنى عشر فرسخاً ابتداؤها من وادي المالح وانتهاؤها نهر شلف وفي ايالة الجزائر تحفظ لذاتها مدينة الجزائر وهي تتخلى له عن ايالة تيطرى ووهران ما عدا البقعة المذكورة آنفاً ثالثاً يدفع الامير جزية سنوية من حبوب ومواش رابعاً ان يكون للتجارة حرية تامة خامساً يتكفل الامير بكل الاموال التي تحتاج اليها فرنسا في الحال والاستقبال فلما وصلت للامير واطلع عليها عدل عن مخاطبة بيجو وكتب الى الحاكم العام دومرمون انه غير خفي على حضرتكم ما جرت به المخابرة بيننا وبين الجنرال بيجو حاكم وهران في عقد الصلح والعدول عن عادية الحروب التي اضرت بالامتين وحيث انني وجدت مطمح انظاره بعيداً عن المطلوب عدلت عن مخابرته الى مخابرة حضرتكم مؤملاً النجاح في ذلك ولبعد المسافة بيننا عزمت على التوجه الى المدية حاضرة ولاية تيطرى لاكون فيها قريباً منكم وبذلك تسهل المخابرة بيننا فاهتز الحاكم لهذا الخطاب فرحاً وكان جوابه الى سمو الامير عبد القادر سلطان العرب . اخذت مرسومكم وفهمت منه ميلكم لوضع حد فاصل لنوائب الحرب غير انني الى الان ما وقفت على ما جرى بين سموكم وبين الجنرال بيجو واني اعتقد رغبتكم في صالح الجنس البشري عموماً

واطلب من الاله القادر ان يمنحنا قوة على تذليل الامور الصعبة واجراء ما نرغب فيه جميعاً من الخير العمومي وارجوكم ان تقبلوا احترامي ثم توجه الامير الى المدية وفاءً بوعده ولما اتصل بابن دران الموسوى ما جرى بين الامير وحاكم الجزائر من المخابرة خشي ان تحصل الموافقة بينهما على يد غيره فتقدم الى الجنرال بيجو في ذلك وعظم له الامر وقال ان هذا تخالف لامر الدولة فاستشاط الجنرال غيظاً وطير شكواه بالحاكم العام الى دولتهم تخطأت الحاكم فيما اجراه من قبول المخابرة مع الامير بدون علم بيجو ونهته عن التداخل في امر الصلح بل يترك امره الى بيجو وفي الوقت كتب الى الامير قد اخبرتكم بشديد رغبتي في اجراء الصلح والى الآن لم ازل على ذلك غير ان امر الحرب والصلح منوط بالجنرال بيجو فان وجدتم وجهاً مناسباً لاجرائه معه فافعلوا واقبلوا مني مزيد الاعتبار لمقامكم ولما اطلع الامير على هذا التحرير اضطره الحال الى الرجوع الى عاصمته وبعد ان اخذ الراحة سار الى نواحي تلمسان وارسل الى الجنرال بيجو هذه اللائحة جواباً عن لائحته وهي اولاً يعترف الامير بسلطة فرنسا ثانياً كل المسلمين الذين يسكنون خارج المدن يكونون تحت حكومته ثالثاً ملك فرنسا في الغرب ينحصر في البلاد التي بين البليدة والبحر ويمتد الى حد المقطع ومن جهة مدينة الجزائر يسمح لهم ان يستولوا على البلاد التي بين تلك المدينة ونهر بني عزا رابعاً الامير يدفع عشرين الف كيلة حنطة ومثلها شعيراً وثلاثة الاف راس من المواشي في هذه السنة فقط خامساً اللامير ان يشتري من فرنسا بارودا وكبريتاً وسلاحاً سادساً ان الكول اوغل الذين يختارون ان يبقوا في تلمسان تحفظ اموالهم ويكونون تحت حكمنا ولهم ان ينتقلوا الى ارضنا سابعاً ان الذين يتركون ارضنا او ارض فرنسوية ينبغي ان يسلموا عندما يطلبون من احد الفريقين الذى ينتمون اليه ثامناً ان تترك فرنسا للامير رشكون وتلمسان مع قلعتيهما والمدافع والبهاوين التي بهما من قديم والامير ينقل ما فيهما من الذخائر الى وهران تاسعاً ان تكون التجارة حرة ما بين العرب والفرنسويين عاشراً الفرنسوية تحترم عند العرب كما ان العرب تحترم عند الفرنساوية الحادي عشر الامير يتكفل بالزرع والاموال التي تحصلها الفرنسوية ويتمتعون بها بحرية وبعد مراسلات عديدة كتب كل منهما شروطاً توقف الجميع في قبولها ثم ان بيجو اعتزم على تجديد الحرب وخرج بجيوشه من وهران الى الناحية الغربية ولما احتل بتافنا بعث بالميرة والذخيرة الى تلمسان في جيش كثيف واتصل الخبر بالامير وهو في نواحي ندرومه فبعث في

الجهات يدعو الناس الى الجهاد ونما الخبر الى الجنرال فوجم لها وفكر في امره فوجد
ما عنده من الظهر لا يقوم بحمل اثقاله ومهماته في حرب ربما تطول مدتها فوقع
في حيرة كذا ذكر مؤرخوهم وغيرهم وقالوا ان بيجو ذهبت به افكاره وقتئذ
في كل واد فلم يجد بدًّا عن المهادنة لا سيما وقد تواترت الاخبار عنده بنفير المسلمين
الى الجهاد في سائر الثغور فحمله ذلك على تجديد المخابرة مع الامير في عقد الصلح
واما الامير فانه نظر في شروط بيجو التي صعب عليه قبولها فرأى ان يصلح خللها ويعدل
بها الى ما لا يقدح في دينه ومنصبه ثم يعرضها عليه فجمع مجلساً عاماً من العلماء
واعيان الدولة واراهم كيف كثر الشغب بعمالة تيطرى في الجهة الجنوبية وان تجدد
الحرب بينه وبين العدو يفوته اصلاح الخلل الواقع في تلك الاطراف الشاسعة
وربما اتسع الخرق وانتهى الامر الى ما لا خير فيه فنهم من بادر الى قبوله واستحسانه
ورآه من الامور الضرورية التي لا بد منها ومنهم من لم يقبله ورأى ان استمرار الحرب
اولى فقام سيدى الجد السيد علي ابو طالب وخطب على اهل المجلس فقال بعد حمد الله
والصلاة والسلام على نبيه وآله وصحبه وقد علمتم ايها السادة انه لما تكاثرت المظالم
وتواطا العمال ومن وافقهم على ارتكاب المآثم انتقم الرب تعالى منهم وعمنا ذلك
معهم قال تعالى واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة فسلط الله علينا
عدو ديننا فتكالب على بلادنا واستولى على مراسينا واستبدل مساجدنا فيها بالكنائس
واخلاها من المدرس والدارس فرج لذلك اهل قطرنا وضاقت بهم ارض مغربنا
واستبدلوا القصور المشيدة بخيام الشعر ومضارب الوبر وتفرقوا اوزاعاً في المواطن
وتباينوا في الموارد والمعاطن وتغيرت الاحوال واشتبه الممكن بالمحال وتوالى الحل
والارتحال وضعف الرجاء في ان يؤوب المسافر ويعود الشادر النافر الى ان طالت
القصة وعز ما ندفع به هذه الغصة ومالت شمس الاتفاق الى الافول وتهيأ جند
التناصر والتعاضد للرواح والقفول فاظهر الله تعالى بلطفه بدر الدين ومويد كلمة
المومنين ابن اخي هذا السيد عبد القادر بن محيي الدين فبذل جهده في الذب عن الدين
والوطن واتى في ذلك من العجائب والغرائب ما هو به قمن فكم من حروب اضرم نارها وكم
من كروب ازالها عن المسلمين واطفأ اوارها وكم ضيق على العدو واخذ بخنقه وصيره
محجورًا في احرج مكان واضيقه وفي بعض الاحيان كما علمتم تكون الحرب بينهما سجالاً
وينقد كل منهما من جيوشه ابطالاً ثم لازال العدو يتكاثر ويجلب من بلاده العساكر
والذخائر بالعدد الوافر حتى كاثره بجنوده وجاءنا بما ملأ جميع اغوار الوطن ونجوده فاستمر

القتل في المسلمين وتوالى عليهم التمحيص في سبيل رب العالمين وقد استدعى حضرة الامير كما لا يخفي ملوك الاسلام في اقاصي البلاد واستنصرهم للجهاد فاعاروه اذنا صماء ولم يسمعوا له نداء بل اجابه لسان الحال لا حياة لمن تنادي ولا معين على من تعادي فاذا تمادى الامر ايها السادة على ما نحن عليه ولم يجنح الامير الى ما دعاه العدو اليه فلا جرم اننا نكون قد القينا بايدينا الى التهلكة وتسببنا فيما يضيق على كل منا مسلكه ونكون قد اعنا اهل الفساد على انفسنا ومهدنا لهم السبل الى ما يوءذينا فيتابع الدعار والغوغاء غاراتهم ويجرد الحفاة صوارمهم وتمشي سماسرة الفتن بين روءساء القبائل ويسعى المفسدون فيما يفسد عليكم امركم في العاجل والآجل وبالجملة فالمنصف يقول الحق ولا يراعي بعداً ولا قرباً ولا يخاف لوماً ولا عتبا

وما علي اذا ما قلت معتقدي * دع الجهول يظن العدل عدوانا

فاذا صحت النية وصحت المقاصد السنية فلا حرج على حضرة الامير فيما استشاركم فيه واستلفتكم اليه اذ هو من سياسة السلف ومن تبعهم من ملوك الخلف وهو الذي عليه فتوى الفقهاء وبه عمل العلماء والكلام في هذا السبيل كما لا يخفي مديد السيل طويل الذيل والانصاف من اعظم تقوى الله والنصيحة واجبه في دين الله وصون دماء المسلمين فرض متعين حتى في الجهاد وقد قيل سلامة مسلم واحد خير من فتح حصن لكافر معاند وقد ورد في الحديث النبوي من اعان على قتل مسلم ولو بشطر كلمة جيء به يوم القيامة مكتوباً بين عينيه آيس من رحمه الله والمتسبب كالمباشر وورد ايضاً من تشكل بغير شكله وتطور بغير طوره وحام حول حمى سفك الدماء وهتك المحارم فقد باء بغضب من الله ورسوله فالامر بالمعروف والنهي عن المنكر شرطه الامن على النفس والاهل والمال مع ظن الافادة وكونه لا يوءدي الى منكر اعظم من هذا مع تحققه فما بالكم اذا كان لمجرد الدعوي فالنظر ايها السادة انما هو للامام لا لغيره وكيف تذهبون الى ان عدم قبول الصلح اولى من قبوله مع علمكم بقلة الانصار والاعوان وكثرة المشاغبين والمفسدين في الاقطار والاوطان وحاصل ما اقول ان ما تسعون فيه ان لم ترجعوا عنه يدعكم لاجله القريب والبعيد وينقمه عليكم الاريب والبليد ثم لاشك انكم ترجعون بخسارة الدارين وفقد الراحتين وشماتة الاعداء علاوة على ذلك ولله الامر من قبل ومن بعد وما قلت الا بالذي علمت سعد فلما سمع المخالفون ما نبههم اليه رجعوا عما كانوا عليه من الخلاف واتفقت كلمة الجميع على اجراء الصلح وتقريره وراوا ان فيه مصلحة كبرى الامة فارسل للجنرال اللائحة الآتية بواسطة السيد حماده السقال

رئيس حضرة تلمسان وهي اولا ترك البليدة للفرنساويين ثانيا رفض كل سلطة عن المسلمين المقيمين بالاملاك الفرنساوية ثالثًا توسيع معين لحدود ملك الفرنسوية وقد ولج الامير السيد حماده السقال لينظر في الحدود المنوه عنها ويعطي التفصيلات المقتضية وحيث ان الجنرال يجو ادرك جيدًا ان التأخر لا ياتيه بفائدة وعليه حررت المعاهدة المعروفة بمعاهدة تافنا على شرط الاول ان الامير يعترف بسلطة دولة فرنسا على مدينتي الجزائر ووهران الثاني يبقى لفرنسا في اقليم وهران مستغانم ومزغران واراضيهما ووهران وارزيو واراضيهما يحد ذلك شرقًا نهر المقطع والبحيرة الذي يخرج منها جنوبًا بخط ممتد من البحيرة المذكورة فيمر على الشط الجاري الى الوادي المالح على مجرى نهر سيدي سعيد ومن هذا النهر الى البحر بحيث يصير كل ما في ضمن هذه الدائرة من الاراضي للفرنساوية وفي اقليم الجزائر مدينة الجزائر مع الساحل وارض متيجة يحد ذلك شرقًا وادى القدرة وما فوقه وجنوبًا راس الجبل الاول من الاطلس الصغير الى نهر الشفه مع البليدة واراضيها وغربًا نهر الشفه الى كوع مزغران ومن ثم بخط مستقيم الى البحر فيكون ضمنه القليعة مع اراضيها بحيث يصير كل ما في داخل هذه الدائرة من الاراضي للفرنساوية الثالث على دولة فرنسا ان تعترف بامارة الامير عبد القادر على اقليم وهران واقليم تيطرى والقسم الذي لم يدخل في حكم فرنسا من اقليم مدينة الجزائر لجهة الشرق بحسب التحديد المعين في الشرط الثاني ولا يسوغ للامير ان يمد يده لغير ما ذكر من ارض الجزائر الرابع ليس للامير حكم ولا سلطة على المسلمين من اهل البلاد المملوكة لفرنسا ويباح للفرنسويين ان يسكنوا في مملكة الامير كما انه يباح للمسلمين ان يستوطنوا في البلاد التابعة لفرنسا الخامس ان العرب الساكنة في اراضي الفرنسوية تمارس ديانتها بحرية تامة ولهم ان يبنوا جوامع بحسب مرتبهم الديني تحت رئاسة علماء دينهم الاسلامي السادس على الامير ان يدفع للعساكر الفرنسوية ثلاثين الف كيلة من الحنطة ومثلها من الشعير بكيال وهران وخمسة الاف راس بقر يوءدي ذلك كله في مدينة وهران على ثلاثة قسوط الاول من غرة اغسطس الى الخامس عشر ايلول سنة سبع وثلاثين وثمانمائة والف والقسطين الآخرين يدفع بانتهاء كل شهرين قسطًا السابع يسوغ للامير ان يشتري من فرنسا البارود والكبريت وسائر ما يحتاجه من الاسلحة الثامن ان الكول اوغل الذين يريدون ان يقيموا في تلمسان او غيرها من المدن الاسلامية لهم ان يتمتعوا باملاكهم بكمال الحرية ويعاملون معاملة الحضر والذين يريدون منهم الانتقال الى الاراضي الفرنسوية تكون لهم الرخصة على بيع املاكهم او ايجارها بكل حرية التاسع

على فرنسا ان تخلي للامير عن اسكلة رشكون ومدينة تلمسان وقلعة المشور مع المدافع القديمة التي كانت فيها قديمًا ويتعهد الامير بنقل الذخائر الحربية والامتعة العسكرية التي للعساكر الفرنساوية في تلمسان الى وهران العاشر المتجر يكون حرًا بين العرب والفرنساوية وللجميع ان يتمتعوا بالتبادل في كل من الارضين الحادي عشر تكرم الفرنسوية عند العرب كما تكرم العرب عند الفرنسوية وكل ما تملكته او تتملكه الفرنسوية من الاملاك في بلاد العرب يكفل لهم حفظه بحيث يتمتعون به بكل حرية ويلزم الامير ان يدفع لهم الضرر الذي تحدثه النوائب فيها الثاني عشر يكون رد المجرمين من الطرفين بالتبادل الثالث عشر يتعهد الامير بان لا يعطي احدًا من الدول الاجنبية قسماً من الشاطيء الا برخصة من فرنسا الرابع عشر لا يسوغ بيع من محصولات او لوازم الاقاليم ولا شراء الا في الاسواق الفرنسوية الخامس عشر لدولة فرنسا ان تعين في المدن التي في مملكة الامير وكلاء ينظرون في اشغال الرعايا الفرنسوية وحل المشكلات التجارية فيما بينهم وبين العرب وكذلك الامير ان يضع وكلاء من طرفه في المدن التي تحت ادارة دولة فرنسا حرر في تافنا في السادس من ربيع الاول سنة اربع وخمسين ومائتين واول يونيه سنة ثمان وثلاثين وثمانمائة وحرر صك المعاهدة نسختين كل منهما على شطرين عربي وفرنساوي فكتب الامير اسمه بخطه على الشطر العربي وختم عليه بخاتم الامارة وكتب الجنرال بيجو اسمه بخطه على الشطر الفرنساوي وختمه بخاتمه الرسمي واخذ كل منهما نسخة وبعد امضاء صك المعاهدة وتقريرها كتب الجنرال لوزير الحرب يعتذر عن عقده المعاهدة التي اقتحمها بقوله انكم معتقدون انه يؤلمني جدًا ان اعمل افكاري بعدم اتباع تعليماتكم بالنظر الى الحدود المعينة فيها الامير على ان ذلك كان محالاً وليقنوا ان الصلح الذي عملته هو احسن والارجح ان يكون طويل المدة وافضل مما اعمله بحصر الامير بين نهر شلف ومراكش ثم التمس الجنرال بيجو من الامير ان يجتمع به فاجابه لذلك وعين له موضعًا يجتمعان فيه فركب الجنرال مصحوبًا بست فرق من المشاة وفرقة من الخيالة وفرقة من المدافعية وفرقة من فرسان العرب وسار الى المحل المعين وبعده سبع ساعات عن معسكر الامير وثلاث ساعات عن معسكر الفرنسوية فوصله قبل الامير وبعد مضي نحو خمس ساعات اقبلت فرسان من العرب يعتذرون عن تأخر الامير بانه ابطأ في الخروج لانحراف مزاجه وليس ببعيد ان يصل ثم اقبلت فرسان أُخر يطلبون من الجنرال ان يتقدم قليلاً لملاقاة الامير فلم يمكنه الرجوع حتى ينال مطلوبه وهو اجتماعه بالامير وبعد ان سار

نحو الساعة اشرف على جيش الامير المشتمل على نحو خمسة عشر الف فارس قادمين بنظام عجيب و ترتيب غريب في سهل يموج بهم ومنظرهم يفتن العقول وبعدهم شاهد الامير وقد احاط به نحو المائتين من رؤساء العرب راكبين على سوابق تختال بهم تيهاً يتسربلين بالاحة صقيلة وامامهم امامهم يفوقهم بالمنظر والشهامة ممتطياً جواداً اسود تليعاً مسيره بصنعة غريبة تارة يختطف الريح بقوائمه خطفاً واخرى يمشيه على رجليه وكانت تلك الحركات تزيده هيبةً وهو غير مبال بها وحوله ستة من السياس آخذين بركابه فتقدم اليه الجنرال مطلقاً عنان فرسه نحوه فتصافحا ثم ترجلا فجلسا



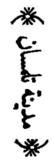


﴿ وهذا رسم اجتماع الامير مع الجنرال بيجو ﴾

واخذت الموسيقى تصدح بانغامها المطربة فسأل كل منهما الآخر عن صحته واخذا في الحديث فقال الجنرال انني على هذا الشرط جعلت نفسي كفيلاً لك عند ملك فرنسا فاجابه الامير ليس لك خاطر في ذلك فان لنا ديناً واخلاقاً عربية تلزمنا المحافظة على قولنا وانا لا اغير قولي قال الجنرال فلهذا اعتمدت على ذلك وبحسبه اقدم لك محبة خصوصية اجابه الامير قد قبلت محبتك فاحترس الفرنسوية من كلام المفسدين فقال الجنرال ان الفرنسوية لا تنقاد لكلام احد وليس بعض حوادث خصوصية يفعلها البعض تنزع السلام من بيننا انما ينزعه عدم اجراء شروط المعاهدة او وقوع خصومة كبيرة وانما الذنوب التي يرتكبها البعض فاننا نعلم بعضنا بها ونقاصص عليها من يتجاسر على فعلها فاجابه الامير هذا حسن جداً فليس عليك الا ان تعلمني وانا اجري ما يقتضي قال الجنرال اني اوصيك بالكول اوغلان الذين يبقون في تلمسان فاجابه الامير كن مطمئناً من جهتهم فانهم يعاملون معاملة الحضر قال الجنرال وعدتني انك تدفع عرب الدوائر والزمالة في بلاد هبره فاظن انها لا تكفيهم فاجابه الامير يوضعون في مركز لا يمكنهم من ايقاع ضرر لحفظ السلام و بعد ان سكتوا قليلاً رجع الجنرال الى الحديث فقال وهل امرت ايها الامير برجوع علاقات التجارة في الجزائر والمدية فاجابه الامير لا افعل هذا الا بعد ان ترد لي تلمسان فقال الجنرال جداً تعلم باني لا اقدر على ردها لك الا بعد تصديق الملك على المعاهدة فاجابه الامير فاذاً ليس لك قوة على اجراء المعاهدة فقال الجنرال نعم لي قوة علي ذلك ولكن يقتضي ان يصادق الملك على ما اجريه حيث يكون ذلك كفالةً له فانه اذا صدق عليها مني فقط ثم اتى جنرال آخر فانه يقدر على ابطالها واما اذا صدق عليها من الملك يصير ملتزماً بالاجراء علي موجبها فاجابه الامير ان لم ترجع لي تلمسان كما وعدتني في المعاهدة فلا ارى احتياجاً لاجراء الصلح بل يكون ما جرى الا من قبيل هدنة موقتة فقال الجنرال هذا صحيح ولكن انت تكسب بهذه الهدنة حيث اني بمدتها لا اخرب المواسم فاجابه الامير ذلك لا يضرنا حتى اني اعطيك الرخصة بان تخرب كل ما نقدر عليه ولا يمكنك ان تخرب الا مقداراً زهيداً ومع ذلك يبقى عند العرب حبوب وافرة فقال الجنرال اظن ان العرب لا يفتكرون مثلك لانني ارى انهم يرومون الصلح والبعض منهم اثنى عليَّ لكوني حافظت على المواسم من الشفه كما وعدت بذلك حماده الصقال فتبسم الامير ثم سأل الجنرال عن المدة التي يمكن رجوع الجواب فيها من فرنسا فاجابه لا تكون اقل من نصف شهر فقال الامير حيث ان الامر كما ذكرت فلا نجدد العلاقات التجارية ولا نحدث شيئاً من مقتضيات المواصلة الا بعد ورود الجواب من فرنسا ثم قاما من مجلسهما

وودع كل منهما الآخر وهذه المقابلة كانت اول مقابلة جرت بين الامير وحاكم فرنسوي وقد اخبرني ابن رابح احد ضباط الفرسان الذين كانوا يومئذٍ في حرس الامير انه عندما وقف في مجلسه لوداع الجنرال قرب اليه فرسه الادهم الشهير ليركبه وبعد ان صافح الجنرال ونزع يده من يده التفت الى الفرس وعلا عليه في اقل من لمحة وحركه بركابه ففرق بين الخيل مروق السهم واندفع به ثلاث دفعات متوالية على وتيرة واحدة فانبهر الجنرال لذلك وتعجب من سرعة ركوب الامير وخفة الفرس وبقي واقفاً برهة من الزمان ينظر نظر المتحير ثم ركب فرسه ومضى وبعد ان سار الامير وجيوشه على مسافة بعيدة من موضع الاجتماع امر الجنرال احد ضباط عسكره ان يرجع الى المحل وياخذ مساحة ما بين تلك الدفعات الثلاث ووضع لها علامات فكانت مساحة ما بين كل منها تقرب من ثلاثين ذراعاً وفي الحادي والعشرين من ربيع الاول والخامس عشر من يونيه ورد الجواب من فرنسا مع ضابط بقبول المعاهدة وصحبته هدية نفيسة من الملك للامير وهي اسلحة مجوهرة واقمشة حرير مطرزة بالذهب واواني صينية فاخرة مكتوب بالذهب على كل صفحة منها كلمة حكمة من كلام الحكماء الاقدمين وطقم شاي جميعه من الذهب الابريز ولما وصل الضابط بالجواب والهدية الى الجنرال بيجو ارسل الى الامير يخبره باتمام الصلح والتصديق عليه من الملك ويخبره بالهدية وطير الخبر الى حامية مدينة تلمسان يامر قائدها كافيناك بالخروج منها وتسليمها مع القلعة الى نائب الامير فخرج القائد بجيشه من باب ودخل الخليفة السيد محمد البوحميدي من باب آخر واخذ في نقل اثقال العسكر الفرنسوي منها الى وهران على حسب ما وقع عليه الاتفاق قال بعض المؤرخين ان هذه المعاهدة كانت مستحسنة جداً عند الحكومة الفرنسوية التي اعتبرتها ككلمة حاذق والشعب الافرنسي نظر اليها كخافضة شان فالدولة افتخرت بان عبد القادر الذي كان عدواً اصبح حليفاً لها والشعب راى فيها خطاء وهو تسليم ايالة افرنسية الى قوة اجنبية اما عبد القادر فكانت عنده هذه المعاهدة كحجر زاوية للبناء الذي كان يشيده بمواظبة واجتهاد وانه كان يقيم عدة سنين بواجبات مضاعفة فكان من جهة ينظم في قالب التنظيم والمناسبة اسباب المنازعات التي كانت تحيط به مسكنا القلاقل ونازعاً النزاع ومخمداً الفتن ومن اخرى كان يتلقى بجراءة صدمات هجمات عدو كان يفوقه جداً في كل الوسائط والحيل التي هي من فن الحرب في اعلى طبقة وعند ما كان يتخلص من شدة خارجية كان يفرغ كل قوته ليتغلب على الصعوبات الداخلية

ثم كتب هذا الاعلان من الديوان ونشر في انحاء المملكة ونصه الحمد لله وحده
وصلى الله على من لا نبي بعده وبعد فان البشائر الاسلامية والمفاخر الايمانية ينبغي ان
تشاع وتشاد ويطال في ذكرها الاطراء والانشاد وينادى عليها بالتهاني في كل ناد
وترفع احاديثها الصحيحة ثابتة المتون عالية الاسناد وتسير بخبرها الركبان في الاغوار
والانجاد وتحلى بحليها الشفاه والآذان والاجياد لياخذ كل مسلم حظه من سواطع مطالع
مسراتها وينال كل موءمن نصيبه من مواهب رغائب مبراتها وخصوصاً فيما يرجع الى
اعلاء الدين وظهوره ورسوخ قواعد الاسلام وفروعه وما يعود الى الاعداء بالصغار
والهوان ويلبسهم الخزى والخسران فان لذلك تأثيرًا كبيرًا في قلوب الذين هدى الله
يدل عليه ويومئذٍ يفرح الموءمنون بنصر الله والى هذا ادام الله لكم التسديد والتوفيق
وهداكم الى اقوم سبيل وطريق فقد ورد البشير بما شرح الصدر واعلا الاسلام لظهور
القوة ورفع القدر من فتح تلمسان في تاسع شهر صفر الخير سنة اربع وخمسين ومائتين
على يد من رفع راية الاسلام واعزها حضرة مولانا ناصر الدين سيدنا الحاج عبد القادر
ابن محيي الدين بفضل الله وسعادة صاحب هذا الميدان بعد محاصرتها شهورًا عديدة
واياماً مديدة بصلح اسفر عن العز وجه نجاحه وطلع في فلك الاسلام طالع سعده
وفلاحه فاصبحت به ثغور الدين بواسم وهبت به رياح بتتابع النصر نواسم وقامت به
في التهاني كالاعياد والمواسم وبشر بتوالي فواتح تلك الثغور واحياء تلك المراسم واعلم
ان خيل النصر تنجد كل حين وتغور وتوالي الشدائد على العدو في المساء والبكور
حتى ترده على اعقابه وتدخل عليه من ابواب الظهور والقابه فيتهافت في الفرار
تهافت الذباب على الشراب ويقنع من الغنيمة بالاياب وقد اعلمناكم بهذه البشرى
واطلعناكم على هذه النعمة الكبرى لتاخذوا اوفر نصيب من معانيها اللطيفة وترووا
احاديث صحيحة موصولة باسانيدها المنيفة وتعلموا ان كيد الاعداء في افتار وان
امرهم بمجرد اقباله يعقبه الادبار فبمثل هذا تقر العيون وفي ذلك فليتنافس المتنافسون
وما ورد البشير حتى انتشرت راية الاسلام في معاهدها وشهد الله بالوحدانية في مشاهدها
واقيمت الصلوات الخمس في مساجدها فلله الحمد على هذه المنة العظيمة والمنحة
الجسيمة نسال الله ان يتم مسرات المسلمين بفتح وهران والجزائر ويجعلها في صحائف
المجاهدين من الذخائر ويخلص الجميع من يد عدابه انه على ما يشاء قدير وبالاجابة جدير



﴾ مدينة تلمسان ﴿

وعند دخول الامير الى تلمسان حمد الله تعالى واثنى عليه بما هو اهله وقال

الى الصون مدت تلمسان يدلها * ولبت فهذا حسن صوت نداها
وقد رفعت عنها الازار فلج به * وبرّد فؤادًا من زلال نداها
وذا روض خديها تفتق نوره * فلا ترض من زاهي الرياض غداها
ويا طالما صانت نقاب جمالها * عداة وهم بين الانام عداها
وكم رائم رام الجمال الذي ترى * فارداه منها لحظها ومداهنا
وحاول لثم الخال من ورد خدها * ففتت بما يبغي وشط مداها
وكم خاطب لم يدع كفوءا لها ولم * يثم طرفًا من وشي ذيل رداها
وآخر لم يعقد عليها بعصمة * وما مسها مسًا ابان رضاها
ولم تسمح العذرا اليه بعطفة * ولم يتمكن من جميل سناها
وشدت نطاق الصد صونًا لحسنها * فلم يتمتع من لذيذ لماها
وابدت له مكرًا وصدًا وجفوة * وسدت عليه ما نوى بنواها
وخابت ظنون المفسدين بسعيهم * ولم تنل الاعدا هناك مناها
قد انصمت من تلمسان حبالها * وبانت وآلت لا يحل عراها
سوى صاحب الاقدام في الراي والوغى * وذي الغيرة الحامي حماة حماها
ولما علمت الصدق منها بانها * انالتني الكرسي وحزت علاها
ولم اعلمن في القطار غيري كافلاً * ولا عارفًا في حقها وبهاها
فبادرت حزمًا وانتصارًا بهمتي * وامهرتها حبًا شفاه دواها
فكنت لها بعلاً وكانت حليلتي * وعرمي وملكي ناشرًا للواها
ووشحتها ثوبًا من العز رافلاً * فقامت باعجاب تجر رداها
ونادت اعبد القادر المنقذ الذي * اغثت اناسًا من بحار هواها
لانك اعطيت المفاتيح عنوة * فزدني ايا عز الجزائر جاها
ووهران والمرساة كلا ابن حوت * غدت حائزات من حماك مناها

﴿ ذكر ظهور محمد بن عبدالله البغدادي في جنوب ولاية ﴾
﴿ تيطرى وقيام محمد بن عوده المختاري بدعوته ﴾

قدم محمد بن عبدالله من بغداد الى المغرب الاوسط ايام سيدي الجد السيد محي الدين رحمه الله وزعم انه من ذرية الغوث الاكبر والقطب الاشهر سيدي عبدالقادر

الجيلاني قدس الله سره فاحتفل به سيدي الجد واجل مقامه وكان يحضر معه في تلك الايام جهاد العدو ثم لحق بالمغرب الاقصى متجملاً بنسبته فلقيه السلطان عبدالرحمن بن هشام بالتحية والاكرام و بعد سنين رجع الى المغرب الاوسط فوجد سيدي الوالد مرتبكاً في امر العدو فعدل عنه الى قبائل الزناخره واولاد نائل ومن اليهم من القبائل في الجهة الجنوبية وكان زعيم اولاد تخثار محمد بن عوده من اقوى المشاغبين في تلك الجهة فلحق به وجعله داعية له نقام بنصرته ودعا الناس اليه وقال لهم هذا محمد بن عبدالله المنتظر فاجتمع عليه خلق كثير وكانت نفس ابن عوده منذ ظهر الامير تحدثه بالخروج عنه والدعاء الى نفسه واخذ يستميل الناس اليه بانواع العطاء فلما قوي الانكار على الامير في مصالحة العدو وترك الجهاد مع ما كان الناس عليه من استثقال امر المعونة التي ضربت عليهم للقيام بامر الملك ولوازم الجهاد اظهر ما كان يخفيه وجاهر بالخروج عن الطاعة ودعا الناس الى البغدادي المذكور على ان يكون زمام الامور بيده فانقادت اليه قبائل الزناخرة واولاد نائل واولاد موسى واولاد مختار وغيرهم في تلك الاطراف

﴿ ذكر خروج الامير الى الجهة الشرقية وهزيمة ﴾
﴿ محمد البغدادي ومصير امره ﴾

ولما فرغ الامير من عقد المعاهدة مع ييجو واصلح خلل الجهة الغربية من مملكته رجع الى الحضرة ثم نهض منها في ثمانية آلاف فارس والف من المشاة وقطع من المدافع لتمهيد النواحي الشرقية ومشارفة الامور بنفسه فجال في نواحيها حتى انتهى الى المدية حاضرة ولاية تيطرى فلقيه خليفته السيد محمد بن علال في وادي شلف في اربعة الآف خيال والف من المشاة وكان وصول الامير الى المدية لما قويت شوكة البغدادي فاهمه امره ثم سار اليه في الجيوش وجعل على مقدمته الخليفة السيد محمد بن علال فكان بينهما في المسير مسافة مرحلتين ثم ان الخليفة بعث الى اعيان القبائل الدائنة بطاعة الثائر بكتاب يدعوهم فيه الى مراجعة الطاعة ويحذرهم من سوء العاقبة ونصه . الحمد لله الواحد القهار والصلاة والسلام على نبيه ورسوله المختار وعلى آله واصحابه الاخيار وتابعيه من المهاجرين والانصار اما بعد فالذي نخبر به قبائل الزناخرة واولاد نائل واولاد تخثار ومن والاهم ووافقهم على الخروج عن طاعة حضرة الامير انه لما بلغه ايده الله خبر عتوكم و شقكم عصى المسلمين بخروجكم عن الطاعة وتخالفكم

لاهل السنة والجماعة واعلانكم بالعدوان ومجاهرتكم بالعصيان صدر امره العالي المطاع
بالله تعالى باعذاركم وانذاركم وبذل النصيحة لكم فان رجعتم عن غيكم وارتكاب ما
اداكم اليه جهلكم ومرض قلوبكم وضعف دينكم وجئتم اليه تائبين وعن افعالكم الشنيعة
مقلعين فذلك والا فانه نصره الله يقاتلكم وينتقم بسيف الله ورسوله منكم ولا يخفى انكم
بانتقاضكم عليه وخروجكم عن طاعته التي اجمع عليها اهل المغرب الاوسط وبايعوه عليها
صرتم ممن اباح الله دماءهم واموالهم فالمقتول منكم مصيره الى النار والمقتول من
العساكر المحمدية المنصورة مآله الى الجنة فيجب عليكم ايها الناس ان تتوبوا الى الله
تعالى وترجعوا عما انتم عليه من الضلال وتعلنوا بالطاعة والدخول في سلك الجماعة
وتبادروا الى اعتاب مولانا خاضعين طائعين مذعنين لاوامره فانه ايده الله يقبل
توبتكم ويصفح عن زلتكم ويعرض عن جهلكم ولا ينالكم منه الاما تحبون فهذه نصيحتي
لكم فان تلقيتموها بالقبول فذلك والا فانكم ستشاهدون بقدرة الله تعالى ما يدع اطفالكم
يتامى ونساءكم ايامى واموالكم غنيمة يقتسمها المسلمون وحينئذ تندمون على ما فاتكم
من الخير وتتأسفون حرر بامر الخليفة السيد محمد بن علال نائب مولانا الامير في
ايالة مليانه فلم يزدهم هـذا المكتوب الا اعتداء وعتوًا ومع ذلك فان الخليفة
اقام ينتظر فئتهم اياماً ولما يئس من طاعتهم وبلغه انهم تجمعوا وصمدوا للقتال في
بلاد اولاد مختار بعث الى الامير يخبره فوجم لذلك وسار اليهم في جيوشه وزحف
اليهم الخليفة بعسكره في وقت عينه له الامير فلما تراءى لهم سوى الخليفة صفوفه
والتقى الجمعان والتحم العسكر بالحشود واشتد القتال واتصل ثلاثة ايام وفي اليوم
الرابع جاء الامير من وراء العدو والح في قتالهم فانكشفوا واثخن فيهم بالقتل والاسر
وفر الثائر وصاحبه ابن عوده لا يلوي احدهما على الآخر وتفرقت جموعهما في جهات
مختلفة فاقام الامير في موضع المعركة ثلاثة ايام لراحة الجيوش وفي الرابع ارتحل
يقفو اثرهم وبث البعوث في النواحي فدمروا من ادركوه منهم واثخنوا فيهم بالقتل
والاسر والتجأت القبيلة المعروفة ببني عنتر الى موضع كثير الشعراء والصخور وتحصنوا
فيه فلحقهم العسكر المشاة واحاطوا بهم وضربوا عليهم حلقة الحصار الى ان اجهدهم
الجوع والعطش فلاذوا بالطاعة ونزلوا تحت حكم الامير نعفا عنهم وامن روعتهم ولما
ذاع خبر هذه الواقعة وما لحق بالعصاة من الوبال والنكال اذعن الناس وجاءت الوفود
من القاصية الى الامير وهو في بلاد اولاد مختار ورجع العصاة كلهم نقدموا طاعتهم
اليه واعترفوا بذنوبهم بين يديه فشملهم بالعفو ورد عليهم سبيهم واسراهم واستامن

اليه محمد بن عودة فامه، ووفد عليه فاكرم وفادته وكتب له بالولاية على سائر القبائل في ناحيته من عرب وبربر وسماه آغة وقرىء الظهير الاميري بذلك على اعيان القبائل الذين ترأس عليهم وبهذه السياسة الحسنة صار من كان عدوًا بالامس صديقًا اليوم بل خادمًا امينًا وبعد هذا الانتظام العظيم صلحت الاحوال في الجهات واستقامت الامور وعفيت آثار الفتن وانكشف الديجور من ساحل البحر الى القفر واما البغدادي فانه وقع في يد بعض الدعاة فقبض عليه واحضره الى اعتاب الامير وجعله ذريعة لتوبته فتقبلها الامير منه واشخص الثائر الى المغرب الاقصى ولم يزل الامير يتنقل في تلك النواحي الجنوبية والجهات الشرقية الى ان اجتث المفاسد من اصلها واخضع قبائل الصحراء ودوخها وولى عليها العمال واهل الجباية ثم انتقل راجعًا الى المدينة حاضرة الولاية





﴿ وهذا رسم المديه ﴾

فوفدت عليه وفود الاغواط وقدموا طاعتهم فتقبلهم واكرم وفادتهم وافاض عليهم من احسانه ما استعبدهم ثم انهم اخبروه باحوال بلادهم واوقفوه على ما عليه عشائرهم وبطونهم من الطاعة له وطلبوا منه منه ان يولي عليهم من يسوسهم ويضبط بلادهم فاجابهم الى ما طلبوه وولى عليهم السيد الحاج العربي بن السيد الحاج عيسى اللغواطي المشهور فيهم بالسؤدد والرئاسة الموروثتين عن اسلافه واقامه نائباً عنه في تلك النواحي الشاسعة وكتب له في ذلك ما نصه هذا ظهير شريف يتضمن الترغيب في جمع كلمة الرعية والترهيب من السعي في تفريق الجماعة والدعاء الى التمسك باوامرنا المطاعة اصدرناه للمكرم المحترم السيد الحاج العربي اللغواطي وذلك انه لما تقرر لدينا فضله وعدله رأينا انه احق من نقلده الامر الاكيد ونرمي به الغرض البعيد ونستفسر به احوال الرعية حتى انه لا يغيب عنا شيء من احوالها ولا يخفى علينا ما يتجشمها من طارق اهوالها وينهي الينا جميع ما يحدث فيها انهاء يتكفل بجلائلها ودقائقها وجعلناه نائباً عنا وخليفة لنا في قبائل الاغواط الغرابة والشراقة ومن اليهم من القبائل الصحراوية في الجهات الجنوبية فيجمع سائر وجوهها واعيانها ويخبرهم بامرنا هذا ويتلو عليهم ما قلدناه به ويقرر لديهم وجوب طاعته ولزوم اتباعه والاذعان لاوامره ونواهيه وقد عينا له من العسكر النظامي ما يتوصل به الى تقرير الاحكام وجباية الاموال وقهر الظالم والاخذ بيد المظلوم هذا مع ما نعتمد عليه من انقياد رعيتنا للاحكام الشرعية والاوامر المرعية ولذلك لم نبالغ بالاستكثار من العسكر لخدمة خليفتنا المذكور فكونوا ايها الناس لامره السالك فيه على جادة الحق والعدل سامعين ولكلمته مطيعين واعلموا ان من نكث فانما ينكث على نفسه والله ولي المتقين حرر عن اذن مولانا ناصر الدين عبد القادر بن محيي الدين في سنة اربع وخمسين ومائتين وثمان وثلاثين وثمانمائة وبعد تحرير هذا الظهير وتسجيله تناوله السيد الحاج العربي وسار مع الوفود الى بلادهم فرحين بما نالهم من الامير من الاكرام وقضاء المطالب ونيل الرغائب ثم رجع الامير الى المدية فاستقبلته الاهالي على بعد اميال منها حتى غص الطريق بالوف من الذين تقاطروا من كل نواحي المدية ليمتعوا اعينهم بمشاهدة ذاته وكانوا يصرخون فليعش مولانا عبد القادر وصدحت عند دخوله الموسيقى بانغامها المطربة ورشقوا ممره بباقات الزهور ولم يزل سائراً الى ان دخل الجامع الكبير فصلى فيه وخطب ووعظ ثم توجه الى محل الامارة فتواردت عليه الوجوه والعلماء مقدمين له التهاني فكان يستقبلهم بالبشاشة والمؤانسة ثم وفد عليه الوفود من قسنطينة والقبائل

المقيمين بالحدود الجنوبية في ايالتها يستنجدونه ولكن محافظته على معاهدة تافنا منعته عن ذلك وكان رضي الله عنه بعد فراغه من الاشتغال بالامور المدنية يشتغل بالامور الدينية اما في نفسه واما للعموم فكان مدة وجوده بالمدية يدرس درساً عاماً في التوحيد وكان يوم ختمه ام البراهين للسنوسي يوماً مشهوداً حضره العلماء من القطر الجزائري وقدموا له المدائح ومن جملة من امتدحه العلامة السيد قدور بن رويله فقال

اغيوث السماء سحت بروض * ام نسيم الصبا زكت بربوع
ام شموس الضحى تجلت لسعد * ام بدا البدر في سعود الطلوع
وثغور الاقاحي بالزهر تبدو * باسمات عن البريق اللموع
وخدود الورود تحسبها وجـ * ـنة عذراء ذات خدر منيع
وعيون من نرجس شاخصات * لم تذق في الرياض طعم الهجوع
وحمام الاراك في الدوح يشدو * ببديع التسجيع والترجيع
وذيول المنى تجر وتاج الـ * ـثغر يزهو ببهجة الترصيع
ام سحاب العلوم في الدرس يهمي * بفهوم من الغمام الهموع
ام فيوضات بحر لفظ كلام * زاخر في اصوله والفروع
ام عقود من البراهين تبدو * بقياس يزهو بحسن صنيع
ام لآلي فوائد ملحقات * بمعان من البيان البديع
قد اقرت لما اسود غريس * ولها اذعنت جميع الجموع
حيث شمس الهدى لعيني تجلت * فاستنار الفؤاد بين الضلوع
من سماء الامام قطب المعالى * صاحب الوقت والمقام الرفيع
سيدي عبد قادر من له قد * خضع المرهبون اي خضوع
ابن محيي الدين الحسني جداً * ومن الاصل كان طيب الفروع
فهو للدرس ان تصدى امام * وهمام ان جال فوق سريع
جد حتى اطاعه كل شيء * يا له من فتى مطاع مطيع
يا محي العلم باطناً ظاهرياً * من به ردع الفيلسوف الطبيعي
دم لتوحيد الله اقوى معز * اوقع الشرك في اذل وقوع
وصلاتي مع السلام على جدّ * كم الهادي الرسول الشفيع
وعلى آله واصحابه ما * فاح مسك الختام بعد الشروع

﴿ غزوة وادي الزيتون ﴾

خرج الامير بقواده ورؤساء القبائل من المدينة قاصداً فرقة من معسكره نازلة في سهل قريب من البلدة ولما وصل المعسكر امر بعدم خروج احد منه وبالاجتماع عليه فاصطف الجميع حوله كهيئة نصف دائرة فقال لهم طالما قابلت اعوجاج قبائل وادي الزيتون بالاستقامة وعاملتهم على ما فيهم من الاساءة بالمعاملة الحسنة فلم يزدهم ذلك الا عتوًا واستكبارًا مع علمهم بانا قد بذلنا نفيس الانفس والمال للجهاد في سبيل الله واعلاء كلمة الله واخترنا ركوب الاخطار للذب عن الدين والوطن ودافعنا الاعداء بالمال والبدن وقد خالفوا فخالوا اعداءنا في الدين ومنعوا دفع الزكاة والعشر المفروضة عليهم شرعاً لبيت مال المسلمين واني قد بذلت الجهد في ارشادهم وارسلت الاشراف والعلماء لنصحهم فما ارتدعوا عن غيهم وقد افل يوم الرحمة عنهم ودنا يوم النقمة منهم فاحملوا عليهم حملتكم المعروفة واشجعوا عليهم بشجاعتكم الموصوفة التي القت الرعب في قلوب كل الاعادي ولا تخشوا رصاص رماتهم فان الله هو الرامي ولا يهولنكم اعتصامهم كالنسور في صياصي الجبال فالعياد الماهر يتسلق الجبال لبلوغ الآمال فتوكلوا على الله ان الله معنا وهنيئاً لمن يموت شهيداً ومن آب ظافراً عاد والله سعيداً واستمدوا من الله المعونة والنصر والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه الطاهر فنادى الجميع اللهم صل على سيدنا محمد وانصر ناصر الدين ثم امر بتهيء الجيش للسير ولما وصلوا لوادي الزيتون امر بترتيب الجيش للهجوم وقسمه اربعة اقسام قسم للميمنة وقسم للميسرة وقسم لجمع الجاريح وتعقيب المنهزمين وابقى الباقي في معيته على رابية مشرفة على ساحة القتال ثم صدحت الموسيقى بالحان الحماسة والهجوم وشرعت الجنود بالزحف حتى قطعوا الوادي وابتدأوا بالصعود الى معتصم العصاة فقابلتهم العصاة باطلاق البنادق من وراء صخور الجبال وقتلوا عدداً من الجند فتوقف الباقي عن التقدم والقواد تشجعهم وتحثهم على الاقدام والثبات وتعدهم بالنصر وامر الامير بالحمل عليهم من كل جانب فحملوا عليهم حملة رجل واحد وعلا القتام وضجت الاصوات من الفريقين وصعد الجند الى اعلا الروابي واضرم النيران في القرى وثارت العصاة تدافع عن المال والعيال مدافعة الاسود عن الاشبال والتحمت الرجال بالرجال وبطل الرمي بالبنادق وعمل السيف الفصال بالاعناق والمفارق ولم يزل السيف يعمل والابطال تقتل وتجندل الى ان دب بالاعداء الفشل وسلموا انفسهم الاسر فامر القائد عند ذلك

بوثق الرجال وجمع النساء والاطفال في محل ووضع الحرس الكافي عليهم واستولى الجيش على الاموال والامتعة ثم رجع الامير الى خيمته وامر بجمع العلماء لترتيب الجزاء على روءساء الاسري فحكم عليهم بالاعدام واحضر بين يديه ثمانية عشر رجلاً منهم فقال لهم قد امرنا الله بقتال من فارق الجماعة وخالف الشريعة المطهرة وشق عصا الطاعة وقد اظفرنا الله بكم وجعلكم في ايدينا فماذا ترون فاجابه احدهم ان قطع اعناقنا اولى من تقديم الطاعة لك عندنا والله يحكم بيننا وبينك يوم القيامة وهو اعدل الحاكمين فوبخه الجاويش على ذلك وامره بالسكوت فرفع الامير راسه واشار الى الجلاد بضرب عنقه ثم الثاني والثالث الى ان وصلت النوبة الى شيخ هرم فقدم وهو يرتعد خوفاً وجزعاً فهجمت اطفاله على الامير ووقفوا يتباكون وبينهم طفلة صغيرة السن خاطبت الامير بقولها بحق الله ووالديك واولادك ان تعفو عن والدي فلما سمع الامير كلامها غلبت رحمته على غضبه وظهر اثر العفو والشفقة في وجهه وامر بالعفو عن والدها وعن الباقين واقبل على البنت وقبل جبهتها لانها كانت سبب عفوه عنهم ثم اعلن العفو عمن حالفهم ورد اموالهم عليهم فلما سمعت روءساء القبائل المخالفين لهم بذلك اسرعت للمثول بين يديه وادوا الطاعة والاموال المفروضة عليهم من زكاة وعشر فعند ذلك اقر كل رئيس على قبيلته وامر برحيل المعسكر ورجوعه الى المدينة

﴿ذكر خروج الجنرال دومريمون الى قسنطينة ومقتله واستيلاء عساكره عليها﴾

لما فرغ الجنرال بيجو من امر المعاهدة مع الامير بعث بالجند الذي كان عنده في وهران الى الجزائر وبعد ايام اخذ الحاكم العام استعداده ثم سار في المراكب المشحونة بالعساكر والذخائر قاصداً قسنطينة ونزل في بونه ومنها خرج الى كالمه ولا زال يتقدم الى ان استولى على مضيق عمار وكانت حاميته اذ ذاك من عسكر احمد باي صاحب قسنطينة فلما اتصل بها خبر الفرنسيس تفرقت من غير قتال واقام الحاكم الفرنساوي في المضيق المذكور ينتظر لحوق الذخائر والمهمات به وقسم عساكره اربعة فرق وزحفت هذه الجنود في اول يوم من اكتوبر واتصل الخبر باحمد باي فخرج في نقاوة جيشه الى خارج البلد واقام نائبه علي بن عيسى في باقي الجيش داخلها واستمرت الجنود الفرنسوية سائرة الى ان وصلت قرب البلد فناجزها المسلمون الحرب واستمر القتال بين الفريقين ستة ايام بلياليها ثم وقعت فترة من الجيوش الاسلامية فتقدمت الجيوش الفرنسوية انتهازاً للفرصة واستولت على الخندق فتوقف الحاكم الفرنسوي عن القتال وكتب الى الباي

وعلي بن عيسى واعيان البلد يدعوهم الى التسليم ونص ما كتبه من القائد العام ورؤساء الجيوش الفرنسوية الى احمدباي وعلي بن عيسى وسائر العساكر والاهالي المحصورين داخل البلد نعرفكم ان العناية الالهية منحتنا انتصاراً تجيداً عليكم ويد القدرة الربانية كللتنا باكليل النصر فها جيشنا الجسور وابطالنا الشجعان قد استولوا بعزمهم وقوة سلاحهم على خنادق بلدكم ولم يبق بيننا وبينكم الا احد امرين اما اعال السيف واما التسليم للنجاة من الحيف لا جرم ان عدم التسليم يعود عليكم بالدمار والخراب ونحن لا رغبة لنا في سفك دمائكم فالتسليم اسلم لكم واحسن بكم لانكم امسيتم في مركز خطير جداً والخلاص منه بدون ضرر كبير يلحقكم مستحيل كيف وبواريد فرنسا قد احاطت بكم من كل جهة وصرتم في وسطها مثل السمك في الشبكة فاجابوه بما نصه من الامة المحافظة على شرفها وبلدها الى العسكر الفرنسوي المعتدي على حقوق غيره قد وصلتنا رسالتكم وفهمنا ما ذكرتموه فيها نعم ان مركزنا امسى في خطر عظيم ولكن استيلاءكم على قسنطينة المحمية بالابطال العربية الذين لا يهابون الموت موقوف على قتل آخر واحد منهم واعلموا ان الموت عندنا تحت اسوار بلدتنا احسن من حياتنا تحت سلطة فرنسا فلما اتصل هذا الجواب بالحاكم الفرنسوي قال لاهل مجلسه من القواد ما ذكره هؤلاء هو كذلك فانهم ابطال شجعان اصحاب قلوب قوية وما رغبوا فيه سيعود على جنودنا بالعز والفخر ثم امر باستئناف الحرب واخذ الجيش في طم الخندق وتوجه الحاكم الفرنسوي وفي معيته الدوك دي نمور الى محل العمل فبينما هم ينظرون الى عمل الجند اذا رسلت عليهم كلة من مدافع البلد فاصابت الحاكم الفرنسوي في صدره فالقته قتيلاً وتقدم الجنرال بريكو ليحمله فاصابته رصاصة في جبهته فالحقته برفيقه ثم اتفق رأي القواد على تعيين الجنرال كاله قائداً عاماً فامر باطلاق المدافع على البلد فارسلت عليها كالمطر ثم هجم القائمقام لامورسير بفرقته على البلد واتصلت النار باللغم الذي كان المسلمون اعدوه للعدو فدمر عدداً كثيراً من الفرقة الهاجمة وجرح قائدها لامورسير جرحاً اعجزه عن القيام ثم هجم كومب بفرقته مدداً للفرقة الاولى التي هلك اكثرها واشتد القتال بين الفريقين وابلى المسلمون بلاء حسناً فكان منظر القتلى مرعباً وانين الجرحى محزناً واستمات الفريقان وثبات اهل قسنطينة في ذلك اليوم اوجب مزيد الاستغراب لكل من شاهد تلك الحرب الهائلة وبعد هذا فالغلبة للجنود الفرنسوية لانهم اقتحموا شدة ذلك البلاء وتعلقوا باسوار البلد وتمكنوا من نشر راياتهم عليها غير ان الخسارة التي تكبدوها لا يعادلها شيء فقد قتل من القواد المشهورين عدد

كثير منهم القائد العام الجنرال دومريمون والجنرال بريكو والكندار كومب والقائد فيه دمبريني وغيرهم من الوف من الجند ومعظم الوبال كان في النهار الاخير ويؤيد هذا ما ذكره بالمار ووافقه روا في تاريخهما ولما دخلت جنود فرنسا الى البلد تفرقت العرب وفر احمد باي صاحبها في له من خواصه ولحق بالزاب ثم اخذ مدينة بسكره من يد حاكمها فرحات بن سعيد الزواوي ورجع الجنرال كاله الى الجزائر بعد ان اقام القبطان بتريل حاكمًا على قسنطينة وثبتت قدم الفرنسيس في مدينة قسنطينة وانقطعت منها دعوة الدولة العلية ولله عاقبة الامور ثم آل امر احمد باي الى الدخول في يد الفرنسيس وكانت وفاته في مدينة الجزائر

﴿ ذكر استيلاء الامير على بلاد الزيبان وصطيف وما اليها ﴾ ﴿ من البلاد الجنوبية والشرقية ﴾

ولما تم استيلاء الفرنسيس على قسنطينة وفر صاحبها احمد باي الى الزيبان حشد الحشود وزحف بهم على بسكره حاضرة تلك البلاد فدخلها وفر صاحبها فرحات ابن سعيد ولحق بالجزائر مستنجدًا بحاكمها الفرنسوي فلم ينجده وتغافل عنه وكان الامير وقتئذٍ في المدية فجاءه وشكى امره اليه ودعاه الى الاستيلاء على بسكره وما اليها من البلاد فاجابه الى ذلك وجهز الخليفة السيد محمد البركاني في الجيوش المنظمة والمتطوعة وسار بهم مع فرحات الى مدينة بسكره وكان خبرهم اتصل باحمد باي ففر منها ولحق بالتخوم مما يلي الصحراء واستولى الخليفة على بسكره ووفدت عليه اعيان العرب والبربر من نفزاوه والزواوده وغيرهم وقدموا طاعتهم وطاعة من وراءهم وارسل الخليفة بالخبر الى الامير فسر بذلك وامره بتمهيد تلك النواحي الى اطراف الصحراء ثم بالانقلاب الى صطيف وما اليها من بلاد مجانه الى جبال زناته ففعل ثم انقتل راجعًا الى المدية ظافرًا فانعم الامير على فرحات بن سعيد بايالة بسكره وما اليها فاستلم زمام امورها ورتب العمال في اعمالها ولما فشت الدعوة في سائر النواحي الشرقية والجنوبية بادر من تقاعس من القبائل عن اداء الطاعة فادى طاعته واتسع نطاق المملكة مسيرة شهر طولاً وعرضًا للمجدّ واستقامت الامور وترتبت الحاميات والمسلحات في الثغور والتخوم وامنت السبل حتى ان المرأة كانت تسير من اول المملكة الى آخرها لا تسئل من اين والى اين .

﴿ ذكر خروج التجيني في حصن عين ماضي من بلاد الاغواط ﴾
﴿ ومسير الامير اليه ﴾

تقدم ان وفود بني الاغواط الشراقه قدموا طاعتهم الى الامير فتقبلها وولى عليهم وعلى من يليهم من القبائل السيد الحاج العربي وردهم الى بلادهم فاذعن الناس للخليفة وقبلوا ولايته ومشت كتبه في تلك النواحي ولم يشذ عنه الا السيد محمد الصغير التجيني ومن وافقه من الاغواط الغرابة فانهم امتنعوا من اداء الطاعة وجاهروا بالعصيان فبعث الخليفة بخبره الى الامير فوجم لذلك وخشي ان يسري هذا الحال في الناس ويرجع الامر الى ما كان عليه من الارتباك فبادر الى قمع هؤلاء الثائرين وتنكيلهم ليكونوا عبرة لغيرهم وسار في الثامن عشر من ربيع الاول سنة اربع وخمسين ومائتين واثنى عشر يونيه سنة ثمان وثلاثين وثمانمائة في ستة آلاف من الخيالة وثلاثة آلاف من المشاة وثلاث قطع من المدافع وستة هواوين وبعد عشرة ايام من مسيره سيرًا عنيفًا في قفار رملية شارف الحصن فرأى من حصانته بالخندق والسور ومن كثرة المقاتلة ما استعظمه ثم تقدم اليه وفرق الجند على جهاته ومعهم النقابون للسور ومن ورائهم الرماة فمنع اهل الحصن ساحته وحاربوا من المكامن التي اتخذوها تحت السور ومن شرفاته فتأخر الجيش عنهم وجعلوا يناوشونهم الحرب من بعيد واخذوا في قطع الغياض الملتفة الاشجار حول الحصن وحطم البساتين واقيمت البطاريات في تلك الفسحات وصار الشروع باطلاق النار وكلما فتحت ثغرة لاجل الهجوم تسد من داخل وتكرر ذلك مرارًا ثم امر الامير بحفر النفوق لحفر نفق من المعسكر الى داخل الحصن ولما وصل العاملون فيه الى داخل السور احس بهم الرئيس فنقب جيشه على العملة ووقعت بينهم مقاتلة داخل النفق وابطلوا للعملة عملهم ولما طال الحصار على اهل الحصن مدة تقرب من ستة اشهر واجهدهم الجوع واضناهم الخوف اجتمعوا الى رئيسهم واروه ما آل امرهم اليه من الجهد ونفاد الاقوات وما يحتاجون اليه في الدفاع وتكلموا معه بما اضطره الى التسليم وفي التاسع عشر من نوفمبر بعث التجيني الى السيد الحاج مصطفى بن التهامي خليفة الامير يستامن على نفسه واهله وسائر اهل الحصن ومن حضره من الحشود وطلب مهلة اربعين يومًا يتاهب فيها للانتقال والجلاء عن الحصن فعرض الخليفة ذلك على الامير فاجابه على شروط اولها ان يدفع التجيني مصارفات الحصار الثاني ان يكون مجبورًا على اخلاء المدينة في برهة اربعين يومًا الثالث ان يكون له حق باخذ جميع امواله المنقولة بلا استثناء الرابع لاهل

المدينة حتى برافقة التجيني باموالهم واسلحتهم الخامس ان يرفع الامير الحضار عنهم و يرجع ثمانية اميال عن المدينة حتى تخلى السادس ان يكون ابن التجيني عند الامير رهينة الى تمام المعاهدة فقبل التجيني الشروط المذكورة وامضى عليها وارسل ابنه معها فامنه الامير واهله وبعد انقضاء المدة خرج باهله وحشوده ولم يتخلف في الحصن الا المستضعفون فامر الامير بتخريب الحصن فالصق سوره وسائر دوره وابراجه بالارض وغوّر ماءه وارسلت له قبيلتان من قبائل الاغواط المجاورين للحصن الزكاة والعشور واصرت بقية القبائل على عدم دفع ما كان عليهم من الزكاة والعشر ولحق التجيني بالاغواط الغرابة وساكنهم في حللهم في خيام الشعر فاعلن الامير بذلك الى خلفائه ووكلائه في الجزائر ووهران بما نصه الحمد لله وحده وصلى الله على من لا نبي بعده وبعد فان الله تعالى منذ ولانا امر المسلمين والنظر في مصالحهم لم نزل نجتهد ونسعى في تاليف قلوبهم على الاتحاد والخضوع لشريعة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لقوله عز وجل ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم وقد توجهنا هذه المرة الى بلاد الاغواط لجمع كلمتهم واصلاح فسادهم فاظهر عامة اهلها غاية الطاعة والانقياد الا ما كان من التجيني ومن انتمى اليه فانهم تجاهروا بالشقاق وتظاهروا بالتصدي عن الوفاق فامرناهم بالرجوع الى الحق وحذرناهم من شق عصا المسلمين غير مرة وناشدناهم الله في صون دمائهم واعراضهم فلم يرجعوا عن غيهم بل صمموا على قتالنا واستعدوا لمحاربتنا فخفنا ان اهملنا امرهم من سريان هذا الفساد الى غيرهم فيفوت المقصود الذي هو جمع الامة على كلمة واحدة وطريقة متحدة فاخذنا في حصار حصنهم والتضييق عليهم ولما استشرفوا على الردى وكادت ان تعمل فيهم المدى طلبوا منا الامان مع انهم خدعونا مرات عديدة فمنحناهم الصفح الجميل صونًا لدمائهم وحفظًا لاعراضهم لقوله تعالى فاعفوا واصفحوا وامناهم على ان يخرجوا من الحصن ويتوجهوا حيث شاؤا فخرجوا كلهم منه الا المستضعفين منهم وذهب التجيني وحريمه واولاده الى الاغواط الغرابة وابقى ابنه الكبير رهنًا عندنا فالحمد لله الذي ايدنا بنصره على من عصى امره وناواه فانه لا رب غيره ولا معبود سواه واصل التجيني من اشراف المغرب انتقل والده السيد احمد في اواخر المائتين بعد الالف من فاس الى بني توجين اصحاب تاهرت وتاكدمت من البربر اخوان بني زيان ملوك تلمسان وبني مرين ملوك المغرب الاقصى ولما طال مقامه بين اظهر بني توجين نسب اليهم فقيل له التجيني وكان حصن عين ماضي موضع سكناه وكان عالمًا زاهدًا مشتهرًا بالاصلاح وقصده الناس للتبرك به وكان يقول لم يوجد من عصر الصحابة رضي

الله عنهم الى عصري عالم مثلي وله تاليف سماه الكناش ذكر فيه آدابًا صوفية وحقائق الهية وثار ولده محمد الاكبر على الحكومة وزحف بجموعه على مدينة معسكر ودخلها فخرج اليه حاكم وهران وقتله وقد تقدم تفصيل الواقعة وهذا الحصن اختطه ماضي بن يقرب من اقيال العرب في المائة الخامسة لاول استيلاء العرب على المغرب الاوسط ايام العبيديين ويحتوى على ثلاثمائة دار وتدخل له العين المسماة بالحصن في قناة وبه صهاريج لجمع ماء المطر تسد عوز اهله وله من المتانة والحصانة ما يبهر العقول وحوله من النخيل والاشجار المتنوعة ما هو زينة للناظرين

وهناء بعض ادباء اهالي مليانه الامير بفتح هذا الحصن الذي عجز عن فتحه من قبله بقوله

ايا نسمة الاسحار طبت بصولة * وطابت بك الاكوان طرًا بسرعة
وآب سرور الدهر مذ طاب نشرها * ونادى منادي النصر من كل وجهة
واقبلت البشرى وعم سرورها * ونالت به الايام احسن سطوة
بطلعة عبد القادر السيد الذي * له الشرف السامي باشرف نسبة
هو البدر وافى في سماء كماله * يجو ظلام حل قدمًا ببلدة
فعين عين ماضي قد ازاح غشاوة * فضاءت وعادت خير عين بصيرة
فويل لمن عادى ابن اكرم مرسل * وويل لمن يدعون اصحاب ذمة
هنيئًا لنا اهل المحبة اننا * بذا البدر نلنا اليوم اكمل منية
بسعي امير دمر الطاغين مذ * جرى عدله في كل مصر وقرية
فنطلب من رب السماء بقاءه * لنطرب ايامًا باحسن دولة
عليه سلام الله ما هبت الصبا * وما اشرقت شمس العلا كل لحظة

ولما فرغ الامير من امر التجيني رجع الى معسكر لاخذ الراحة وبعد ان اقام بها بضع اسابيع الف جيشًا من خمسة آلاف فارس وامر ان ياخذ كل واحد منهم على فرسه ما يكفيه من الزاد والشعير وان يجتمعوا في سهل غريس فاجتمعوا فيه ولم يعلم احد بمراد الامير بذلك في وقت اشتداد البرد وكثرة الشتاء وقبل غروب الشمس اقبل عليهم ممتطيًا ظهر الجواد لابسًا لامة الحرب والجلاد نتوجه بهم نحو الشمال الغربي ولما اعتكر الظلام امر بايقاد اربعة مصابيح امام الجيش فجعلت في اسنة الرماح فكانت اشعتها تنبعث الى وراء الجيش ثم ترك الجادة وانعطف فجاءة الى جهة الشمال الشرقي فعلم الجيش اذ ذاك ان سيره السابق مجرد تورية وتمويه ولم يزالوا يجدون السير الى نصف الليل

ثم نزلوا على حافة جدول فاكلوا واطعموا خيولهم وبعد مضي ثلاث ساعات عادوا للسير العنيف الى نصف النهار ثم نزلوا فاطعموا الخيل واكلوا ثم عادوا لما كانوا عليه من السير السريع واستمروا على هذا الحال اربعة ايام واربع ليال وفي صباح اليوم الخامس انكشفت لهم منازل الاغواط الذين اصروا على عدم الطاعة وامتنعوا عن اداء العشر والزكاة وكانت خيامهم تنوف عن عشرة آلاف خيمة وكان اهلها من نكبات الدهر آمنين وفي لذة النوم مستغرقين لم توقظهم الا الصيحات العالية والضربات المتوالية ولما انتبهوا رأوا ما هالهم من الفرسان المنقضين عليهم انقضاض العقبان على الغربان وكثر من النساء العويل والنحيب واندهش عقل البطل النجيب وركض البعض لاسلحتهم والآخرون لخيولهم فلم يتمكنوا من الاجتماع حتى صمت الاسماع بصوت الامير صونوا الحريم واما الرجال فاذيقوهم كاس الوبال ثم احيط بهم من كل جهة واستاقوهم كقطعان الغنم ولما احضروا مشايخهم بين يدي الامير وقعوا على رجليه وتذللوا بين يديه واعطوه المواثيق والعهود على الطاعة وحسن السلوك فرحمهم وتقبل طاعتهم ورد عليهم جميع ما اخذ منهم وفي الحال دفعوا له اربعة آلاف جمل وثلاثين الف راس غنم عما تبقى عندهم من زكاة خمس سنين وكانوا بعد ذلك من اشد القوم تمسكاً بالامير واكملهم طاعة له

﴿ ذكر المقاطعات والعمال وغيرهم من ذوي المناصب العالية ﴾
﴿ وترتيب الاحكام وشؤنها ﴾

لما تمت بيعة الامير واستقام له الامر واتخذ الآلة ورتب الحاشية وعين رجال الدولة قسم ما دخل في طاعته الى مقاطعتين مقاطعة تلمسان وولى عليها السيد محمد البوحميدي الولهاصي ومقاطعة حضرته معسكر وولى عليها السيد محمد بن فريحة المهاجي ولما قتل ولى عليها السيد الحاج مصطفى بن احمد التهامي وكان رئيس ديوان الانشاء ولما امتدت طاعته الى ما وراء وادي شلف جعل مليانة مقاطعة ثالثة وولى عليها السيد محيي الدين بن علال القليعي ولما مات ولى عليها السيد محمد بن علال من اقاربه ولكل من هذه المقاطعات الثلاثة مرسي تخصها فلتلمسان مرفا رشكون ولمعسكر مرفا ارزيو ولمليانة مرفا شرشال ثم دانت له بلاد تيطرى فجعلها مقاطعة اربعة وجعل حاضرتها مدينة المدية وولى عليها اخاه السيد مصطفى بن محيي الدين ثم عزله وولى عليها السيد محمد البركاني ثم تزايدت الفتوحات في الجهات الشرقية والجنوبية فاتسعت المملكة واخذت في الشرق الى ما وراء بلاد مجانة قرب قسنطينة وفي

الجنوب الى القفر فيما وراء وادي سوف حيث مجالات التوارك من بقايا الملثمين وفي الشمال الى ما وراء جبال زواوه فجعل مقاطعة مجانة مقاطعة خامسة وحاضرتها سطيف ومقاطعة الزيبان مقاطعة سادسة وحاضرتها بسكره ومقاطعة الجبال مقاطعة سابعة وحاضرتها برج حمزه فولى على مقاطعة مجانة محمد بن عبد السلام المقراني ثم السيد محمد الخروبي القلعي ثم السيد محمد بن عمر العيسوي وعلى مقاطعة بسكره والصحراء الشرقية فرحات بن سعيد ثم السيد الحسن بن عزوز ثم السيد محمد الصغير ابن عبد الرحمن بن احمد بن الحاج وعلى مقاطعة برج حمزه السيد احمد بن سالم الديبسي وجعل الصحراء الغربية مقاطعة ثامنة وولى عليها السيد قدور بن عبد الباقي وقسم المقاطعات الى دوائر ووضع في كل منها آغا وهذه الدوائر تشتمل على قبائل وكل قبيلة تحتوي على بطون وعشائر فجعل على كل قبيلة قائدا وعلى كل بطن وعشيرة شيخا فكانت الاوامر الاميرية تصدر الى العمال المعروفين بالخلفاء ومن طرفهم الى الاغوات ومنهم الى القواد ومنهم الى المشايخ والقضايا التي تحدث في الدوائر يرفعها المشايخ الى القواد وهم يرفعونها الى الاغوات ومنهم ترفع الى الخلفاء ثم تعرض على الحضرة الاميرية اينما كان هذا في القضايا المهمة واما غيرها فان الخلفاء يفصلونها بدون ان يرفعوها الى الحضرة الاميرية وفي وقت الحرب تكون هؤلاء الرؤساء رؤساء عسكرية فيجمع كل منهم جماعة من عشيرته ويحضر بهم الى القتال ولما كان غاية قصد الامير ربط البلاد بالادارة الشرعية لم يستخدم في جميع اعماله الا من اشتهر بمعرفة الاحكام وعرف بالعفاف والاقدام وابعد غالب العمال ارباب التقدم والنفوذ في ايام الحكومة الجزائرية واستخدم في ادارة الامور الملكية من كان ذا حزم وعزم وقوة شكيمة من ذوي البيوت المشهورين بالعلم والفضل وحسن السياسة ومع ذلك كان يحلفهم على صحيح البخاري بان لا يعدلوا عن الحق وان يكونوا صادقين في الخدمة مع الامير والرعية وكان مناديه في غالب الاوقات ينادي في الاسواق ان من له شكوى على خليفة او آغا او قائد او شيخ فليرفعها الى الديوان الاميري من غير واسطة فان الامير ينصفه من ظالمه وان ظلم احد ولم يرفع ظلامته الى الامير فلا يلومن الا نفسه وتعيين العمال براسيم خصوصية تحرر بقلم كاتب الديوان الخاص ويختم باعلا سطر منها بخاتم الامارة وهو خاتم كبير الحجم نقشه في الدائرة

ومن تكن برسول الله نصرته * ان تلقه الاسد في آجامها تجم

وفي جوانبه الله محمد ابو بكر عمر عثمان علي وفي وسط الدائرة الواثق بالقوى المتين

ناصر الدين عبد القادر بن محي الدين والتاريخ سنة ١٢٤٨ ويصير نصب العامل داخل الديوان الاميري وعند تسليمه مرسوم التقليد يعطى خاتمًا عليه اسمه ولقبه ويخلع عليه برنس جوخ على حسب الرتبة التي تولاها ويحلف على صحيح البخاري الشريف بحسن السيرة والعدل ومع ذلك لا يغفل الامير عن ملاحظتهم والسؤال عن مسراهم مع الرعية وبعد موت المتولي او عزله يرجع الخاتم الى دار الامارة وعلى حسب جسامة المقاطعة او الخطة تكون افراد الحكام في الشرف والشهرة وقد اسندت نظارة الامور الداخلية لابي المكارم السيد محمد بن السيد العربي ونظارة الامور الخارجية لابي محمد الحاج المولود بن عراش ونظارة المالية لابي عبدالله الحاج الجيلاني بن فريحة ونظارة الاوقاف لابي عبد الرحمن الحاج الطاهر ابو زيد ونظارة الاعشار وصنوف الزكاة لابي محمد السيد الجيلاني بن المادية والجباة يخرجون في السنة مرتين مرة في الربيع لجباية الزكاة ومرة في الصيف لجباية الاعشار ونظارة دار ضرب السكة والاسلحة ومعاملها وما يتعلق بذلك من ادوات الحرب لابي البركات السيد محمد بن الجيلاني من السادة الاقارب وكتابة الديوان الاميري لابن عمه السيد احمد بن علي ابي طالب والسيد مصطفى بن احمد التهامي ثم نقل الاول الى قيادة فليته والثاني الى خلافة المعسكر وعين بعدهما للكتابة السيد محمد بن الخروبي ثم نقل الى صطيف والسيد محمد بن عبد الرحمن المرسلي والسيد مصطفى بن العوفي واتصلت خدمتهما في كتابة الديوان الى ان ماتا آخر ايام الامارة واسندت نظارة الخزينة الخاصة لابي سعيد محمد بن فاخه والحجابة الى محمد بن الحاج علي الرحاوي والملبوس الاميري لنظر الحاج النجادي الرحاوي وتعين عبد القادر بن ابي معزه للفراشة والبدالي بن شانعية للسقاية وعبد الرحمن بن مقيطيف للسلاح وعبدالله بن يوسف لحمل الشمسية او اللواء وهو من حرير اعلاه واسفله اخضر ووسطه ابيض مرسوم عليه بالذهب المزركش في صورة دائرة تامة نصر من الله وفتح قريب ناصر الدين عبد القادر بن محي الدين وفي وسطها صورة يد مبسوطة مطرزة بالذهب ولنظارة الاصطبل محي الدين بن عبدالله ولرئاسة الموسيقى ابو مدين ابن ابي دغن وغير ذلك من الترتيبات الاميرية ولوازمها وبعد ان فرغ منها اقبل على الوظائف الشرعية نعين في كل عالة وكل دائرة واسعة الانحاء قاضيًا عالمًا بفصل القضايا الشرعية على مذهب الامام مالك بن انس امام دار الهجرة النبوية فقيهًا نزيهًا مشهورًا بالعفاف والقيام بامور الدين وربط ادارة هؤلاء القضاة بمراجعة العلامة قاضي القضاة السيد احمد بن الهاشمي المراحي رئيس مجلسه الخاص ونصب السيد بن عبد بن المصطفى المشرفي قاضيًا للعسكر وعين لكل

قاض كاتبين اكبرها يقوم مقام المفتي في مطالعة الفتاوى التي تجري الاحكام على مقتضاها ورتب في سائر المدن والقرى علماء لتدريس فنون العلم وعين لهم مرتبات على حسب طبقاتهم وامر بطلب العلم وباحترام اهله واستثنائهم من جميع المطالب الميرية فاذا حضر عنده طالب علم يمتحنه في الفن الذي يتعاطاه فان وجده ناجحًا فيه اكرمه والا اعرض عنه فكان هذا سببًا قويًا للطلبة في الاجتهاد وحصل من ذلك نجاح عظيم وانتشر العلم في جميع المقاطعات واقبل الناس على تعليم اولادهم الامور الابتدائية فكثر النفع وعمت الفائدة وكانت الكتب حينئذٍ قليلة في البلاد فاجتهد في جمعها من كل جهة وامر العسكر بان كل من وجد كتابًا يحضره له ثم شدد في حفظ الكتب الموجودة بايدي الطلبة وعزم على ترتيب مكتبة في تاكدمت فصار يجمع الكتب اللازمة ولما احتاج الى اخلاء المدن جعلها في الزمالة فتلفت كلها في وقعة طاكين لما هجم ابن ملك فرنسا الدوك دومال على الزمالة واجتهد في تهذيب الاخلاق وباصلاح الآداب العمومية بحيث لو اراد الله باطالة المدة لعادت العرب الى طريق اسلافهم المؤسسة على منطوق القرآن الكريم لانه منع بشدة وصرامة شرب الخمر ولعب القمار لا سيما من العسكر ومنع استعمال الدخان لكونه اسرافًا من دون فائدة سيما للفقراء ومنع الرجال من استعمال الذهب والفضة الا في الاسلحة وعلى الخيول وامر بالصلوات الخمس ان تكون في الجوامع ومن وجد في دكانه وقت الصلاة يجلد وعين مأمورين لذلك ومنع النساء من دخول الجوامع وامر بوابي الجوامع بان تكون عندهم مغرة وكلما جاءت امرأة يسمونها بها فبهذه الواسطة انقطعت النساء عن دخول الجوامع خوفًا على اغطيتهنّ واحدث امورًا تحسنات للامارة والمملكة لم تكن موجودة في ايام من سلفه من ملوك المغرب فاتخذ في كل مقاطعة دار شورى للمفاوضة في الدعاوي المهمة التي تحدث بين الرعايا وفي مصالح المملكة وجعل انتخاب اعضاء هذه المجالس الى الخلفاء والقضايا التي ترى فيها يكون فصلها على الوجه الشرعي ويكتب فيها صكوك يضع اصحاب الشورى فيها اسماءهم بخطوط ايديهم ورئاسة كل منها تناط بالقضاة فاذا حضرها الخلفاء فالرئاسة لهم وعلى كل حال فهم المأمورون بتنفيذ صكوكها وامر هذه المجالس مربوط بالمجلس العالي الاميري المؤلف من احد عشر عالمًا وهم نواب المملكة ومن تعين فيه لاول الدولة السيد احمد بن التهامي والسيد عبد القادر ابن روكش والسيد عبدالله سقاط المشرفي والسيد طاهر الحوطي والسيد محمد المحفوظي والسيد احمد بن الطاهر ابن الشيخ المشرفي والسيد محمد بن المختار الورغي والسيد

المكي الخرنوبي والسيد المختار بن المكي والسيد الحاج عبد القادر بن روكش الاكبر والسيد ابراهيم بن القاضي ورئاسة هذا المجلس الثانية لقاضي القضاة السيد احمد بن الهاشمي المراحي وعند حدوث نازلة مهمة يحضره الامير وتكون الرآسة له والوجه الشرعي الذي بموجبه يجري الحكم في النوازل موقوف على اتحاد آراء الاعضاء ولهذا المجالس سجل كباقي المجالس تحرر فيه مفردات ما يراد من الحوادث وبهذا الترتيب كانت الاحكام جارية على جادة الاستقامة ونفقات هذه المجالس تصرف من بيت المال كباقي الوظائف والخطط الملكية واما اهل الوظائف الدينية وما يتعلق بها فتصرف مرتباتهم وتعييناتهم من خزينة الاوقاف ومن الامور التي احدثها الامير وحاز بها الفضل على من تقدمه من الملوك في المغرب انشاء المارستانات لمرضى العساكر في كل المقاطعات وعين في كل مارستان اربعة اطباء يرجع امرهم الى طبيب حضرته العلية. وهو ابو عبد الله الزروالي وكان ماهرًا في علم الطب وشهد له اهل الخبرة بذلك وكان عالمًا بخواص الاعشاب على اختلاف صنوفها وكان يخرج الرصاص من داخل العضو المصاب بوضع عشب على مدخله فيخرج بعد بضع ساعات من موضعه بسهولة دون الم وابتنى دارًا للمسافرين والوفود في الحضرة واقام ناظرًا عليها من امناء دولته ينزل الناس فيها على حسب طبقاتهم وتقدم لهم المآكل والمشارب على حسب مقامهم

﴿ ذكر احتفال الامير للمولد النبوي والعيدين ﴾

كان يحتفل للمولد النبوي ايام امارته احتفالاً عظيماً فيخرج يوم المولد الشريف هو وخاصته وامراء جيشه الى ارض فيحاء متسعة ثم تصنع العسكر فيها شبه محاربة بحيث تقف العسكر المشاة المنتظمة كهيئة قلعة مربعة الاركان ويضعون ما يحتاجون اليه من البارود والذخائر وسط تلك القلعة ويجعلون في كل ركن من اركانها مدفعين ثم تأتي فرقة من الخيالة فتحيط بتلك القلعة فتخرج اليها شرذمة من القلعة لتردها عنها فتبعد عن القلعة نحو عشر دقائق وتطلق البارود على الخيول المقابلة لها فتهجم الخيول عليها وتطلق النيران حتى تقرب منها فترجع تلك الشرذمة الى وراء وهي لا تنثني عن اطلاق النار حتى تدخل القلعة وتقف في مكانها الذي خرجت منه ثم تطلق عساكر القلعة النيران المتتابعة على تلك الخيول وتطلق مدفعًا او مدفعين من الركن الذي يليها فترجع الخيالة عنها ثم تخرج شرذمة اخرى من الجهة الثانية الى ما يليها من الخيالة فتهجم عليها فرقة من الخيالة المقابلة لها بجميع قوتها حتى تردها الى مكانها الذي خرجت منه بحيث يتخيل

للناظر انها لم تخرج منه اصلاً ثم تطلق النيران المتتابعة على الخيالة ويطلق المدفع عليها من الركن المقابل لها حتى ترجع القهقرى وعلى هذا المنوال تفعل اصحاب الجهة الثالثة والرابعة من الافعال ويستغرق هذا العمل مقدار ساعتين من النهار فيشاهد الناظر من تلك الافعال ما تقر له الاعين وتبتهج به النفوس ونقول في حقه الالسن لا عطر بعد عروس وهكذا كان العمل في ايام الاعياد بعد الفراغ من الصلاة

❊ ذكر ما شيده الامير من الحصون وما انتهى اليه عدد ❊ ❊ العسكر النظامي مشاة وركباناً ❊

لما فرغ الامير من تمهيد البلاد اقبل على تحسين احوال المملكة وتحصينها وتثقيف ثغورها فابتنى في الخط الفاصل بين السواد والصحراء عدة حصون منها سعيده وسبدو في الجهة الغربية وفي الجهتين الجنوبية والشرقية تاكدمت وبوغار وسباو وعريب وبو خرشفه وطازه ولما ان دخل طازه وراى تشييدها في اقرب وقت حمد الله واثنى عليه وقال ارتجالاً

الله اعلم ان هذا لم يكن * مني على الامل الطويل دليلا
كلا وان منيتي لقريبة * مني واصبح في التراب جديلا
ورضى الاله هو المنى ليكون من * بعدي انتفاع الخلق ثم طويلا

ثم امر بكتابتها على باب الحصن وحصن تاكدمت اعظم الحصون المذكورة واقواها واحسنها موقعاً واوفقها لوصل تجارة الصحراء بتجارة السواد وقد اعتنى به الامير نظراً لمركزه ولما ابتنى هذا الحصن انتقل اليه باهله واهل دائرته وانشأ فيه دار السلاح وجلب اليها عملة من اسبانيا وفرنسا فكانوا يصنعون فيها البواريد وحرباتها والسيوف وغيرها من ادوات الحرب ومهماته وابتنى فيه داراً لضرب السكة وجعلها ثلاثة اجناس من الفضة والنحاس مستديرة الشكل فالفضة والنحاس نوعان مكتوب على احد وجهيها (ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه) وعلى الآخر (ضرب في تاكدمت) وتاريخ الضرب سنة ١٢٥٥ وهذه القطعة عبارة عن فرنكين والجنس الثاني من الفضة والنحاس مكتوب على احد وجهيه (ان الدين عند الله الاسلام) وعلى الوجه الآخر محل الضرب والتاريخ وهذه القطعة عبارة عن فرنك واحد والجنس الثالث من الفضة والنحاس مكتوب على وجهه الاول (ربنا افرغ علينا صبراً وثبت اقدامنا) وعلى الثاني محل الضرب والتاريخ وهذه القطعة عبارة عن نصف فرنك وتنقله في رسم هذه الآيات بحسب

ما كان عليه من اختلاف الظروف والحالات وابتنى في الحضرة معسكر ومليانة والمدية معاملاً لصناعة الاسلحة بانواعها والبارود والرصاص ومع ذلك كان يشتري منها حين اللزوم من مملكة تونس ومراكش جانبًا عظيمًا و كان تجار فرنسا يجلبون الملح والكبريت لمراسي الجزائر فيشتريه منهم وفي اوقات الهدنة يحضره من فرنسا وتارة يستخرجه من معدن بجبل وانشريس واما الجوخ والمدافع فكان معملهما في تلمسان تحت نظارة معلم اسبانيولي . وقد رأيت ثلاث مدافع في باريس اخذت في ايام الحرب مكتوب على كل مدفع فوق خزانته النارية (عمل في تلمسان وقت امارة ناصر الدين السيد عبد القادر ابن محيي الدين سنة ١٢٥٥) . وقد الزم كل من سلب في الحرب بارودة فرنسوي ان يحضرها لناظر المعامل الحربية وياخذ ثمنها منه اثني عشر ريالاً سينك ورتب صناعًا لاصلاح السلاح وهم المسمون قرداحية وكانوا يرافقون الجيش سفرًا وحضرًا ورتب عددًا من الخياطين والسروجية لاصلاح ما يلزم اصلاحه من الالبسة وسروج الخيل للعسكر والمتطوعة في ايام الحرب وبالجملة فقد بذل الجهد والمال في منافع الدولة والبلاد واستقصى اساليب ما به العمران ووضع الحاميات والمسلحات في المضايق ومواضع الخوف وحصن الثغور فعم الامن سائر المملكة واطفأ نار الفتن التي لم تزل منذ تقلد امور المسلمين تتقدم تارة وتخبو اخرى واستاصل اهل الفساد وللجند المنظم في ذلك اليد الطولى فانه لا يعرف غير الفتك في اهل الضلال ولا يراقب في طاعة مولاه ونصرته الاَّ ولا ذمةً مع قلة عدده اذ لم يتجاوز خمسة عشر الفًا وثلاثمائة منها اثنا عشر الفًا مشاة والفان وخمسمائة خيالة ومائتان وخمسون مدفعيون تدير عشرين مدفعًا للسفر وخمسمائة عبد اتخذها حرسًا له تحت رئاسة سالم اغا الزنجي الفارس المشهور وكانت البستهم من الجوخ الاحمر الجيد وسلاحهم محلى بالذهب والفضة مرصعًا بالمرجان وهذا عدد افراد الجند الشخصية ومن حيث الشجاعة والبسالة فقد كان الواحد منه يعد بعشرة وعلى اتم ما يرام من النظام وكان ينضم له عند اللزوم من حشود المملكة وجيوشها ما تقتضيه الحال وناهيك بجند مع قلته فتح الاقفال ونفل الانفال واستوثق به الامير ملك اقام في مقارعة جيوش فرنسا ومناضلة الثوار والخوارج ستة عشر سنة وبذلك تشهد الاخبار والآثار ولكن لكل هبوب ركود وليس للايام عهود قال شرشل في تاريخه ان هذه الاعمال كبيرة جدًا بالنسبة الى سن الامير حين المباشرة لاجرائها مع عدم اطلاعه على احوال العالم كما ينبغي اذ ذاك لكنها صغيرة بالنسبة الى ذكاء عقله الفريد ولا شك انه لو تركت فرنسا الامير مغتنماً تلك الغلطة التي اقرت بها في معاهدة تافنا

لكان اظهر منه ما لم يكن في حساب حيث ان العاقل يندهش متى سمع بان دولة فرنسا احتاجت الى مائة الف عسكري معدودة من اول عساكر الدنيا تقاتل بها الامير وقتل منها ما يزيد على مائة الف حتى امكنها هدم ما بناه في نحو الثلاث سنين على انه لولا المساعدات الخارجية والداخلية لكانت احتاجت الى اكثر من ذلك والله غالب على امره

ذكر توجيه السيد ابن عبدالله سقاط وفدا الى سلطان المغرب الاقصى وما ارسله معه من الاسئلة الى علمائها وما اجاب به شيخ الاسلام الامام التسولي

قد كان الامير يعاقب من يقع في ايدي ضباط الثغور من الاشقياء المتنصرة كالدوائر والزمالة والبرجية وغيرهم ممن يواصل العدو ويتسلل الى مدنه بما اختلسه من المسلمين من عروض وماشية بما دون القتل الا من تحقق ضرره للمسلمين فكان يامر بقتله ثم بدا له ان يستفتي المحققين من علماء مصر وفاس في شأنهم وشأن مانعي الزكاة والاعانة التي افترضها للقيام بامر الجهاد وغير ذلك مما اضطره الحال الى السؤال عنه تاكيدا لحجته وتوطيدا لمحجته فامر بتجهيز هدية عظيمة ذات قدر وقيمة واختار السيد ابن عبدالله سقاط لايصالها الى سلطان المغرب الاقصى عبد الرحمن بن هشام واحكام عرى المحبة بينهما وكتب له كتابا يذكر له فيه ما اجراه من تنظيم العسكر وتمرينه وتعليمه ابواب الحرب ومكايدها واطال في مدح ذلك وجل قصد الامير من ذلك الاطناب ايقاظه من غفلته وتنبيهه على انتهاز الفرصة في الاستعداد لذلك واعلمه بما ارسله من الاسئلة صحبة رسوله لعلماء فاس ليجيبوه عليها بالجواب الشافي على وجه التفصيل الكافي ونص السؤال

الحمد لله وحده السادة العلماء الاعلام ائمة الهدى ومصابيح الظلام فقهاء الحضرة الادريسية حفظكم الله ورعاكم ومن كل سوء حماكم جوابكم ابقاكم الله فيما عظم به الخطب واشتد به الكرب في وطن الجزائر الذي صار لغربان الكفر مجاذر وذلك ان عدو الدين يحاول ملك المسلمين واسترقاقهم آونة بالسيف وتارة بشبكات السياسة ومن المسلمين من يداخلهم ويتابعهم ويجلب اليهم المواشي وجياد الخيل وغيرها من انواع الكراع ولا يخلو امرهم من دلالتهم على عورات المسلمين ومن القبائل من يفعل ذلك فاذا طولبوا بتعيين المرتكبين منهم تجمعوا وتمالؤوا على الكذب والانكار مع انهم

يعرفون منهم العين والاثر فما حكم الله في الفريقين في انفسهم واموالهم وما الحكم فيمن يتخلف عن المدافعة اذا استنفر الامام او نائبه الناس للدفاع عن الدين والوطن فهل يعاقبون على ذلك وباي شيء يكون عقابهم ولا يتأتى بغير قتالهم وهل تؤخذ اموالهم واسلابهم وما حكم الله فيمن يمتنع عن اداء الزكاة كلاً او بعضاً لدعوى عدم وجود نصابه عنده مع تحقق وجوده في الحال فهل يصدق في دعواه مع ضعف الدين في هذا الزمن ام يكون الاجتهاد فيه مجال ومن اين يرتزق الجيش المدافع عن المسلمين الساد لثغورهم عن اغارة العدو ولا بيت مال موجود منظم الآن والذي يجمع من الزكاة لا يفي بقوتهم فضلاً عن كسوتهم وسلاحهم وخيلهم ولوازم مؤنتهم فهل يترك الامر فيستبيح العدو الوطن ام يكون ما يلزمهم على جماعة المسلمين واذا كان فهل على العموم ام على الاغنياء فقط وهل يعد مانع المعونة باغياً ام لا وما حكم اموال البغاة وهل القول بعدم ردها يجوز العمل به ام لا اجيبوا ابقاكم الله عما ذكرنا وعما يناسب المقام والحال ماجورين والسلام عليكم بدا وعوداً حرر في ذي الحجة سنة ١٢٥٢ عن اذن ناصر الدين عبد القادر بن محي الدين

وفي اليوم التاسع عشر من ذي الحجة سنة مائتين واثنين وخمسين توجه السيد ابن عبدالله بالهدية والكتاب والاسئلة ولما وصل الى فاس امر السلطان بانزاله واكرامه ثم قدم اليه الهدية والكتاب فاخذ يسأله عن احوال الامير وما هو عليه مع عدوه وعن الرعية وافعالها معه فاخبره بالحقيقة وقدم اليه السوءال فارسله الى شيخ الاسلام اذ ذاك العلامة ابو الحسن علي بن عبد السلام مديدش التسولي وامره ان يجيب عنها جواباً شافياً موضحاً كافياً ولما تم تحرير الجواب وقدم الى حضرة السلطان عبد الرحمن امر وزيره باحضار سبع كسوات فاخرات وسبع افراس من عتاق الخيل بسروجها واربعة مدافع صغار وستين فرساً وان يعطى من الخزينة عشرة آلاف مثقال الى الحاج الطالب وكيل الامير بفاس ليشتري له بها من الادوات الحربية ما يأمره بشرائه وامر بتحرير كتاب الى الامير مضمونه التحريض على استئناف الجهاد ونقض المعاهدة وان ما ارسله له من الخيل والمدافع انما هو ليستنجح بهم في الجهاد واجابه عما نبهه له من تنظيم العسكر وتعليمه بقوله ان عسكرنا حين يأتينا العدو ما نجمعه من الجموع وعلى هذا كان اسلافنا وكتب الوزير للامير نحو هذا وزاد فيه ذكر مفردات الهدية وكذلك الحاج الطالب كتب الامير يعلمه بانه قبض عشرة آلاف مثقال من الخزينة وانه منتظر امره بالذي يشتريه له فيها ثم امر السلطان باحضار السيد ابن عبدالله

سقاط واوصاه بان يبلغ الامير على لسانه باستئناف الجهاد ونقض المعاهدة ثم امر
باكرامه واكرام من معه وبعد ان سلم له الهدية والكتب وجواب السؤال ودعه وامره
بالتوجه فجد في المسير الى ان اجتمع بالامير في حصن تازه فاخبره بما اوصاه به
السلطان عبد الرحمن من نقض المعاهدة واستئناف الجهاد وقدم الهدية والكتب والجواب
عن السؤال وحيث انه في غاية الاسهاب رمت اختصاره ليتاتى درجه في هذا الكتاب
محافظة على احكامه المنقحة وانتشاقًا لريا ازهاره المتفتحة فاقول قال في خطبة رسالته
الحمد لله الذي لا نشرك به احدًا ولا نجد من دونه ملتحدًا ابتلى قلوب المؤمنين
ليميز الخبيث من الطيب ويعلم ايهما اقوى جلدًا والصلاة والسلام على سيدنا محمد
الذي انقذنا من الهلاك والردى وتكفل بالشفاعة للامة غدا ضارب هام العدا وجاهد
من حاد عن طريق الهدى وقاتل من اتخذ مع الله ولدا وعلى آله واصحابه الذين
لم ترعهم الكتائب الوافرة ولو كانوا هم اقل عددًا ولا هالتهم الامم الكافرة ولو كانت
اكثر جمعًا واقوى عددًا وعددًا وبعد فقد ورد في هذه الايام من ناحية اعمال
الجزائر كتاب من اميرها المجاهد في سبيل الله رب العالمين سيدي الحاج عبد القادر
ابن محيي الدين ايد الله كتائبه وجعل عونه مظاهره ومصاحبه متضمنًا السؤال عن
مسائل شتى كما ستراه بعد ونقف عليه ولما وقف عليه مولانا الامام كهف الاسلام
وملاذ الخاص والعام كافل امة محمد عليه افضل الصلاة والسلام وقاطع طواغيت
الشرك بالسنان والحسام امير المؤمنين الآخذ لراية الكتاب والسنة باليمين نجل الملوك
العظام المنصور بالله مولانا عبد الرحمن بن هشام ايد الله ايامه بعزيز داده ونصر
مكين يتصل به الى المولى امداده كلف هذا العبد الفقير المعترف بالعجز والتقصير ان
يجيب عن تلك المسائل بحسب ما يراه فامتثل واجاب عن ذلك بجواب يدل بحسب
فحواه على ان المجيب استفرغ ما هو عنده في سره ونجواه وكان نصره الله امر بالاختصار
في الجواب وعدم التطويل والاطناب ثم لما طولع به وهو ايده الله على ما هو عليه من
الشغف بمحبة العلم والتلهف على بثه وغاية الحرص على اذاعته ونشره والمبالغة في
التنفير عن البدع المحدثات وقمع الملحدين المعتدين ذوي الجرأة والتعصبات والذب عن
الحنيفية السمحاء وحياطتها وقمع من لحظها بعين الاعتداء والازدراء بها راى ان
الجواب المذكور في غاية الاختصار والقصور فامر المجيب امرًا ثانيًا بان يجعله تاليفًا
يحيط بجميع معانيه ويطلق في ذلك عنان القول بما يبرئ العليل ويشفيه ويتوسع
في الجواب ويتعرض لجميع متعلقاته ويسلك به صوب الصواب فقلت ممتثلاً لامر المولى

ان الجواب عن هذه المسائل التي عظم موقعها من دين الاسلام وتاكد الاعتناء بها وبمتعلقاتها على التمام يتوقف على تبحر في الفقه وتضلع في قواعده وباع واسع في تحرير غوامضه ونوازله وانى للقاصر مثلي ان يجول في مجالها ويحصل دقائق فروعها واصولها وعلى كل حال فاقول اما المسئلة الاولى ففيها فصول الخوض فيهـا لقاصر العلم مثلي خطير والكشف عن لثامها مع كلالة الذهن صعب عسير ولكن الامر المولوي تكلفت الجواب عنها على قدر نظري القصير لان المسافر الجاد في السير قد ارخص له في التقصير وبالله سبحانه الاستعانة وهو نعم المولى ونعم النصير ثم ساق السوءال بحروفه وقال في الجواب الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله

✻ الفصل الاول ✻

✻ فيما يعامل به قبائل هذا الزمان المنهمكين في المحرمات والعصيان ✻

قد افتى كثير من الفقهاء المحققين بقتال القبائل المجاورين لفاس ومن نحا نحوهم لما هم عليه من التعدي على حقوق عباد الله وكتمان امر اللصوص والجواسيس والذب عنهم ووافق الشيخ ميارة على ذلك والامام اللبان والشيخ عبد القادر الفاسي وغيرهم قال الامام ابن العربي قد اتفقت الامة على ان فاعل المعصية يقاتل عليها ويحارب الا اذا اقلع عنها وتاب

✻ الفصل الثاني ✻

✻ في دليل عقوبة الجاسوس والنصاب وغيرهما ممن يستحق العقاب وسوء العذاب ✻

اعلم انه لا يخفى ان كل من تلبس بمعصية توعد الله عليها بالعقاب الاخروي فان الامام يجب عليه ان يعاقبه سواء كان فيها مع ذلك حق الآدمي ككتمان الجواسيس والنصابين وحمايتهم والتعصب لهم لما في ذلك من الفساد وادخال الضرر على المسلمين في دينهم ودنياهم او كان فيها هضم حق من حقوق الله فقط كالاكل في نهار رمضان او ترك الصلاة او ترك الاذان او ترك النهي عن المنكرات مع القدرة لان من رضي بفعل قوم فهو منهم وسبب هلاك الامم السالفة انهم كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه

الفصل الثالث

في كون الرجل يؤاخذ بجريرة غيره

روى مسلم في صحيحه وغيره عن عمران بن حصين رضي الله عنه ان ثقيفاً كانت حليفة لبني غفار في الجاهلية فاصاب المسلمون من بني غفار رجلاً ومعه ناقة له واتوا به النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا محمد بمَ اخذتني واخذت ناقتي فقال النبي صلى الله عليه وسلم اخذتك بجريرة حلفائك ثقيف وكانوا اسروا رجلين من المسلمين وكان النبي صلى الله عليه وسلم يمر به وهو محبوس فيقول يا محمد اني لمسلم فيقول له صلى الله عليه وسلم لو قلت ذلك وانت تملك امرك لافلحت ثم قبل النبي صلى الله عليه وسلم المسلمين بالرجلين فداوه من ثقيف وامسك الناقة لنفسه قال الابي هذا الحديث اصل في هذا الحكم وهو اخذ الحليف بجريرة حلفائه وان لم يجزم الا كونه حليفاً فقط وبيان ما قاله الابي ان هذه المسئلة لا تخلو من ثلاثة اوجه احدها ان يكون الغير ممن لا ياوي الى المذنب ولا يحميه ولا يتعصب له ولا يقدر ان يكفه عن الذنب فهذا الغير لا يؤاخذ بذنب ذلك المجرم كتاباً وسنة واجماعاً سواء كان ذلك الغير من قرابته ام من الاباعد وهو المشار اليه بقوله تعالى ولا تزر وازرة وزر اخرى ثانيها ان يكون ذلك الغير ممن لا ياوي اليه المذنب ولا يحميه ولا يتعصب له الا انه يقدر ان يكفه عن ذنبه ومفسدته ويقدر على الانتصاف منه فهذا تجوز مؤاخذته سداً للذريعة ثالثها ان يكون ذلك الغير ممن يحمي المذنب ويتعصب له او يواسيه او يأوي اليه ويرضى بفعله فهذا يؤاخذ بجريرته وبجميع ما اخذه ولا يختلف فيه لانه بتعصبه له ولو بجاهه وحمايته والرضى بفعله صار معيناً له على ظلمه متسبباً بذلك لاتلاف اموال الناس ودمائهم

الفصل الرابع

فيما لا يجوز بيعه للنصارى ولا يحل تمكينهم من تناوله واخذه

قال مالك في المدونة لا يباع للحربيين سلاح ولا كراع ولا نحاس ولا عروض قال ابن حبيب سواء كانوا في هدنة او غيرها وهو المذهب كما في المعيار

﴿ الفصل الخامس ﴾

﴿ في معاقبة العاصي بالمال وما فيه من الخلاف وتضارب الاقوال ﴾

ملخص ما ذكره الائمة الاعلام في هذه المسئلة ان ما شرع الله فيه حدًّا معلومًا كالزنى والسرقة والحرابة والقذف ونحوها لا تجوز العقوبة فيه بالمال اتفاقًا لما فيه من تبديل الحدود المعينة من الشارع قال تعالى ومن لم يحكم بما انزل الله فاولئك هم الكفرون الظالمون الفاسقون اللهم الا ان تعذرت اقامتها فيعاقب بالمال ارتكابًا لاخف الضررين ودفعًا لاثقل المفسدتين ولا يسقط ان زال العذر وما فيه التاديب والتعزير بالاجتهاد فقيل يعاقب فيه بالمال مطلقًا وبه قال الشافعي واختاره النووى وابن قيم الجوزى وقيل لا يعاقب به مطلقًا وهو ما لابن رشد ومن وافقه وقيل لا يعاقب الا مع العذر وهو ظاهر كلام الشيوخ المتأخرين

﴿ الفصل السادس ﴾

﴿ في حرمة ترك الامام ونواب الرعية على ما هم عليه ﴾
﴿ من المفاسد وارتكاب المظالم ﴾

يجب على الامام ان يجري على الرعية الاحكام الشرعية ويحرم عليه ان يتركهم على ما يتعمدونه من ارتكاب المفاسد والمظالم ويغافل عن جرائمهم كتابًا وسنة واجماعًا اذ من المعلوم ضرورة ان نصب الائمة والولاة انما هو لزجر من ارتكب من الرعية شيئًا مما نهى الله ورسوله عنه وذلك فرض عين عليهم فانهم ان تركوه افضى الامر الى هدم الاسلام واستوجبوا الوعيد في قوله صلى الله عليه وسلم من غش امتي فعليه لعنة الله

﴿ واما المسألة الثانية ففيها فصلان ﴾

﴿ الفصل الاول ﴾

﴿ في حكم التخلف عن الاستنفار وما عليه من العقاب ﴾

من المعلوم ان الاستنفار للجهاد يتعين بتعيين الامام فمتى استنفر قومًا فقد عينهم عينهم وجب عليهم النفير وحرم عليهم التخلف فان ابوا الا التخلف فقد عصوا الله ورسوله واستوجبوا العقوبة في الدنيا والآخرة قال تعالى الا تنفروا يعذبكم عذابًا اليمًا

الفصل الثاني

فيما ينبغي ان يفعله الامام قبل ان يستنفر الناس وفيمن يجب استنفاره وتدريبهم للحروب واستعمال المكايد وما يستعان به على خذلان العدو وتشتيت شمله

اعلم انه ينبغي للامام ان يامر قبل النفير بالتوبة ورد المظالم الى اهلها والصدقة وغير ذلك من انواع البر كما كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يفعل ذلك ويقول انما تقاتلون باعمالكم وان يستنفر وجوه الناس وابطالها الصابرين في الباساء والضراء الذين لا يولون الادبار وان يدربهم امور الحرب ويمرنهم عليها و يعرضهم بالعمل على حضرته المرة بعد المرة اذ ينبغي له استعمال ذلك شرعاً في كل خمسة اشهر او ستة على الاكثر فيجمعهم بين يديه ويطلع على احوالهم وافعالهم الحربية و يعدهم بالعطايا والخصوصيات متى صبروا واظهروا الجلد في الحروب الى غير ذلك مما يزيدهم قوة ونشاطاً كما انه ينبغي له ان يستعين على العدو باستعمال المكايد اذ ربما تفعل المكيدة ما لا يفعله الجيش كما روي ان المهلب بن صفرة لما اعتاص عليه جيشه في حرب الخوارج وقالوا لا طاقة لنا على مقابلة السهام المسمومة وذلك ان رجلاً اسمه ابزى من الخوارج كان يصنع لهم سهاماً مسمومة يقاتلون المسلمين بها فكتب كتاباً لابزى وارسله مع ساع له وامره ان يلقيه بين صفوف الخوارج ونص ما كتبه انه وصلتنا هديتك وحسن موقعها عندنا وقد انفذنا اليك مع كتابنا هذا الف درهم فاقبضها من رسولنا ولا نقطع مواصلتنا ومهاداتنا وما يصلك من عندنا اعظم ومهما طلبتنا وجدتنا حيث شئت فذهب الرسول بالكتاب وفعل ما امر به ووصل الكتاب الى قطرب رئيس الخوارج وعجل على ابزى بالقتل في الوقت من غير ان يتحقق خبره وقال ما اصنع بن هادى المهلب ثم قال المهلب لاصحابه لا تشغلوا الخوارج عن المنازعة بالقتل فانهم افترقوا الآن فلا يجتمعون ابداً فكان الامر كما قال

المسالة الثالثة

اعلم ان مانع الزكاة يقاتل عليها اجماعاً والمتهم بتغييب المزكي يحلف في العين مطلقاً وفي غيرها ان سبق له امتناع من ادائها ويخرص على غير الامين وقيل مطلقاً

لفساد الناس في هذا الزمان وعدم الامانة ومحل ذلك فيما اذا ثبت له مال اما ببينة او اقرار والا فلا يكفي مجرد التهمة

المسألة الرابعة وفيها اربعة فصول

الفصل الاول

يجب على الامام ان يجبر الرعية على الاستعداد لدفاع العدوّ ولاصلاح خلل البلاد قال تعالى ان الله يامركم ان تؤدوا الامانات الى اهلها فالخطاب الائمة والولاة على احد الاحتمالات باداء الامانات اي التكاليف التي كلفوا بها في الرعية من الحكم بالعدل وتدبير امورهم بما يعود عليهم نفعه من استعداد وغيره وقال تعالى في حق الرعية يا ايها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولي الامر منكم

الفصل الثاني

في جواز صلح العدوّ وعدمه

الذي به فتوى العلماء انه يجوز فيما اذا كان العدو مطلوبًا لان الجهاد فرض كفاية ولا يجوز فيما اذا كان العدو طالبًا لان الجهاد وقتئذٍ يكون فرض عين الا اذا دعت الضرورة اليه ابقاء على المسلمين وبلادهم فانه يجوز والضرورة لها احكام وقد يرى الشاهد ما لا يراه الغائب

الفصل الثالث

فيما يرتزق منه الجيش ان فرغ بيت المال ووجوب المعونة ان احتيج اليها في الحال والابدان والمال

قال في المعيار عن الامام ابن منظور الاصل انه يطالب المسلمون بمغارم غير واجبة شرعًا لكن اذا عجز بيت المال عن ارزاق الجند وما يحتاج اليه من آلة حرب وغير ذلك من العدد فيوزع علي الناس ما يحتاج اليه من ذلك ويستنبط هذا الحكم من قوله تعالى قالوا ياذا القرنين ان ياجوج وماجوج مفسدون في الارض فهل نجعل لك خرجًا الآية ثم قال ان هذا الامر يتوقف على شروط احدها ان يعجز بيت المال وتتعين الحاجة ثانيها ان يصرفه الامام بالعدل فلا يجوز له ان يستاثر به

دون المسلمين ولا ينفقه في سرف ولا يعطي من لا يستحق او يعطي من يستحق اكثر مما يستحق ثالثها ان يكون الغارم قادرًا من غير ضرر ولا اجحاف واما من لا شيء له او له شيء قليل فلا يغرم البتة الرابع ان يتفقد امر المعونة في كل وقت اذ ربما جاء وقت لا يفتقر فيه الى زيادة على ما في بيت المال ثم قال وكذلك اذا تعينت الضرورة للمعونة بالابدان ولم يكف المال فان الناس يجبرون على التعاون بابدانهم بشرط القدرة وتعيين المصلحة والافتقار الى ذلك

الفصل الرابع

في حكم من ساكن العدوّ الكفور ورضي بالمقام معهم فيما لهم من البلاد والثغور

اعلم ان الهجرة من ارض الفساد واجبة ولا فساد اعظم في الدين من الكفر قال ابن العربي في الاحكام ان الهجرة وهي الخروج من دار الحرب الى دار الاسلام قد تقررت فريضتها في ايام النبي صلى الله عليه وسلم ولم تزل باقية الى يوم القيامة قال وكذلك الهجرة من ارض الحرام والباطل قال عليه الصلاة والسلام يوشك ان يكون خير مال المسلم غنيمات يتبع بها شغف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن اخرجه البخاري ومالك في الموطا قال بعضهم ان قيل اذا لم يوجد بلد الا كذلك قلنا يختار المرء اقلها اثمًا مثل ان يكون بلد فيه كفر وبلد فيها جور فبلد الجور خير له او بلد فيها عدل وحرام وبلد فيه جور وحلال فبلد الجور والحلال خير له او بلد فيه معاص في حق الله تعالى وبلد فيه معاص في حق العباد فبلد فيه معاص في حق الله تعالى اولى من بلد فيه مظالم العباد الخ ما ذكره قال ولا تسقط هذه الهجرة الواجبة على هؤلاء الذين استولى على بلادهم العدو الكافر الا بثبوت العجز عنها بكل وجه بحيث لم يجد لها حيلة ولا سبيلا كان يكون مريضًا جدًا او ضعيفًا جدًا واما القادر على الهجرة باي وجه كان فانه غير معذور بل هو داخل في وعيد قوله تعالى ان الذين توفاهم الملائكة ظالمي انفسهم قالوا فيمَ كنتم قالوا كنا مستضعفين في الارض قالوا الم تكن ارض الله واسعة فتهاجروا فيها فاولئك ماويهم جهنم وساءت مصيرًا قال المولف فهذه النصوص القرآنية والاحاديث النبوية مع الاجماع كلها كما في المعيار صريحة في وجوب الهجرة وحرمة الاقامة في بلاد

الكفار ولا تجد لذلك مخالفًا من اهل القبلة فان تعمد المسلم ترك الهجرة مع القدرة عليها فقد قال في المعيار ما نصه اختلف العلماء فيمن اسلم و بقي في دار الحرب فقال مالك دمه محقون وماله فيء فهو لمن اخذه وليس بمعصوم حتى يخرج به صاحبه الى دار الاسلام وقال الشافعي دمه وماله معصومان وان لم يخرج الى دار الاسلام و بقول الشافعي قال اشهب وسحنون واختاره ابن العربي وبقول مالك في المال قال ابو حنيفة و به قال اصبغ واختاره ابن رشد وهو المشهور قال وهذا الخلاف انما ورد فيمن اسلم منهم و بقي بين اظهرهم ولم يهاجر لكن المتاخرون الحقوا به في الحكم من كان مسلماً بالاصالة و بقي ساكنًا معهم. وسووا بينهما في الاحكام الفقهية المتعلقة باموالهما واولادهما ولم يروا فيها فرقا بين الفريقين الى ان قال فاجتهاد المتاخرين في هذا مجرد الحاق سكت عنه الاولون فيمن كان مسلماً بالاصالة لعدم وقوعه في زمانهم بمن اسلم و بقي في دار الكفر لاستوائهما في المعنى من كل وجه وهوعدل من النظر واحتياطفي الاجتهاد

﴿ المسئلة الخامسة ﴾

اعلم ان مانع المعونة بالمال والبدن باغ قطعًا لانه منع حقًا وجب عليه يجري عليه البغاة المشار اليه في قول خليل وغيره البغاة فرقة خالفت الامام لمنع حق الى قوله واستعين بمالهم عليهم ويظهر غاية الظهور انه يوءخذ من مالهم مـا جهز به الامام الجيوش التي قاتلهم بها لانهم ببغيهم تسببوا في اتلاف بيت المال فعليهم ضمان ذلك في المال الذي بايديهم وقد قالوا ان الغريم المماطل ضامن لما تسبب في اتلافه على الخصم من اجرة الرسول والجيش كله رسول للبغاة في الحقيقة ولا يشك ان من تسبب في اتلاف مال وجب عليه غرمه وهو معنى قول خليل وضمن المعاند النفس والمال ولعل هذا هو المستند في عدم رد الملوك اليوم اموال البغاة اليهم اذ الغالب انها لا تفي بما جهزوا به جيوشهم التي قاتلوهم بها او يقال مستند ذلك سد الذريعة اذ لو ردت اليهم اموالهم لكان ذلك سببًا لبغي غيرهم فعدم ردها اليهم فيه سد تلك الذريعة ثم قال وايضًا فان بغاة هذا الزمان غير متاولين وكل باغ غير متأول يضمن ما قتله من الجيش كما انه يضمن ما اتلفه من الاموال يوءخذ ذلك من مفهوم قول خليل ولم يضمن متأول اتلف نفسًا او مالا انتهى ما لخصناه من الاجوبة المقررة في الرسالة

ثم قال مؤلفها الامام التسولي في خاتمتها هذا ما قصدنا جمعه نسأله سبحانه وتعالى ان يمن علينا وعلى من كان السبب فيها بتوبة صادقة وان يجيرنا وجميع المسلمين من الفتن الظاهرة والباطنة وان يختم لنا ولهم بحسن الخاتمة وان يهب لنا ولهم قربًا على بساط الادب في مقام العبودية وان يدمر اعداءنا تدميرًا لاتقوم لهم معه قائمة الى يوم النشور وان يجعل تاليفنا هذا خالصًا لوجهه الكريم و ينفع به المتسبب والقارىء ويجعله لنا ولهم سلمًا لجنات النعيم بجاه اشرف الخلق سيدنا محمد عليه افضل الصلاة وأزكى التسليم ورحم الله امرءًا رأى خللاً فاصلحه او عيبًا فستره فان الانسان محل الخطا والنسيان والله سبحانه يتكرم على الجميع بالعفو والغفران اللهم رب كل شيء واله كل شيء وولي كل شيء وقاهر كل شيء وفاطر كل شيء والعالم بكل شيء والحاكم على كل شيء والقادر على كل شيء بقدرتك على كل شيء اغفر لنا ولهم ولجميع المسلمين كل شيء ولا تحاسبنا واياهم بشيء ولا تسالنا واياهم عن شيء انك على ماتشاء قدير وبالاجابة جدير ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ووافق الفراغ مما جمعناه ظهر يوم الاربعاء عاشر ربيع الاول النبوي الانور سنة ثلاث وخمسين ومائتين والف وهذا صورة السوال وجوابه من علماء فاس واما صورة السؤال وجوابه من علماء مصر لم تصل اليه يدي لطول العهد وفي مناسبة ذكر الهجرة قال الشيخ الاكبر والامام الاشهر سيدي محيي الدين بن العربي في الفتوحات المكية في الباب الموفي ستين وخمسمائة في الوصايا ما نصه واعلم ان المقيم بين اظهر الكفار مع تمكنه من الخروج من بين ظهرانهم لا حظ له في الاسلام فان النبي صلى الله عليه وسلم قد تبرأ منهم ولا يتبرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم من مسلم وقد ثبت انه صلى الله عليه وسلم قال انا بريء من مسلم يقيم بين اظهر المشركين فما اعتبر له كلمة الاسلام وقال الله تعالى فيمن مات وهو بين اظهر المشركين ان الذين توفاهم الملئكة ظالمي انفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الارض قالوا الم تكن ارض الله واسعة فتهاجروا فيها فاولئك ماواهم جهنم وساءت مصيرًا ولهذا انكرنا في هذا الزمان على الناس زيارة بيت المقدس والاقامة فيه لكونه بيد الكفار اذ الولاية لهم والمسلمون معهم على اسوء حال نعوذ بالله من تحكم الاهواء فالزائرون اليوم لبيت المقدس والمقيمون فيه من المسلمين هم من الذين قال الله فيهم ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعًا وذلك ايام كانت في يد الصليبيين ثم قال وكذلك تجب الهجرة من كل خلق مذموم شرعًا قد ذمه الحق تعالى

في كتابه او على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم

﴿ ذكر ما وقع فيه الخلاف بين الامير والمارشال من مسائل ﴾ ﴿ معاهدة تافنا وما آل اليه الامر في ذلك ﴾

ولما تمَّ امر معاهدة تافنا عين الامير وكلاءه في وهران ومستغانم وكتب الى مسيو كزماني وهو ايتالياني الاصل ووكيل امريكا في الجزائر في القيام باعباء الوكالة له فيها ونص كتابه الحمد لله وحده ولا معبود سواه من عبد القادر بن محيي الدين ناصر الدين الى مسيو كزماني كارل قارئين السلام على من اتبع الهدى وبعد فاننا منذ وقع الصلح بيننا وبين دولة فرنسا ونحن نسأل عمن يكون لنا وكيلاً في الجزائر وواسطة بيننا وبينهم في دوام الالفة والمواصلة ثم بلغنا عنك انك من اعقل الناس واعلمهم بطرق السياسة واخبرنا بعض المحبين انه لا يصلح لوكالتنا في الجزائر غيرك فانشرحت صدورنا لذلك وبناءً عليه كتبنا لك هذا اعلامًا بان تكون لنا وكيلاً عند الفرنسيس وتتولى قضاء المصالح اللازمة لنا فيها وتجري امورنا معهم على نظرك وتعرفنا بما هو الاصلح لنا معهم والذي يعرض لنا من المسائل والمصالح نعرفك به والذي يعرض لك من ذلك تعرفنا به ومن المعلوم عنا اننا نحب الخير والهناء والعافية والامن في سائر الوطن حرر في رجب سنة ثلاث وخمسين ومائتين ولما اتصل به مكتوب الامير تلقاه بالقبول والتبجيل وعرض على المارشال تعيينه وكيلاً الامير في الجزائر فخشيت فرنسا ان يكون تعيينه واسطة لربط علاقات ودية بين امريكا والامير فكتب المارشال الى الامير لا يخفى سموكم ان مفهوم الشرط الاخير من المعاهدة ان وكلاءكم تكون من العرب كما ان وكلاءنا تتعين من الفرنسيس وعلى هذا فلا حق لكم في تعيين مسيو كزماني وكيلاً لكم هنا وكتب مضمونه الى مسيو كزماني وكزماني عرف الامير بالقضية تفصيلاً وحيث ان الفاظ تحرير المارشال كانت قاسية اغتاظ الامير وامر ان يحرر الى المارشال الحمد لله وحده من ناصر الدين عبد القادر بن محيي الدين الى حضرة المارشال امالا ان وكيلنا موسيو كزماني قد بلغنا انه لا يسمح له ان يقيم بمصالحنا وقد كتبتم له تحريرًا ارسل الينا نسخة منه نقرأناها وهي تعلن اليه انكم لا تقبلونه وكيلاً عنا وانه يجب ان يقام مكانه ابن عرب فاولاً لا نقدر ان نجد ابن عرب يتم وظيفته ويرضي كلانا ويرضى في صوالح الطرفين

وان كرماني رجل حكيم وعاقل لايتمسك الا بما فيه النفع للفئتين وثانياً ليس لفرنسا حق ان تجبرنا على تعيين وكيل ضد ارادتنا وميلنا لان ذلك منوط بنا ولنا ان نختار ما هو الاحسن لنا وان كنتم ترغبون ان تقيموا ابن عرب وكيلاً لكم عندنا فافعلوا فاننا لانعارضكم في ذلك فلماذا تتعرضون لنا بانتخابنا فعملكم هذا يناقض مبادىء الشرف الذي يجب ان يراعى في كل الاعمال ويظهر من هذا انكم تريدون ان تردوا الاختلال مرة اخرى في ايالتي الجزائر ووهران حيث ان الافراد الذين ارادوا ان ياتوا ويستوطنوا اراضينا لم يمنعوا عن ذلك بالقوة الجبرية فقط بل القوا في السجن كانهم مجرمون ولما وكيلنا كرماني اقام الحجة على هذه الاعمال وامثالها فلم تتنازلوا ان تجاوبوه فتصرفكم هذا يشير الى الاجحاف عن الحق ويظهر انكم ترغبون ان تزرعوا الخصومات بيننا وبين دولة فرنسا فيما اننا قد انتخبنا مسيحياً من مدينتكم وانتم ترفضونه وكنا نتأمل ان تصرُّف حضرتكم لا يكون كتصرف من سبقكم ولا تمشوا على اثرهم وان دولة فرنسا ترسل رجالاً ليحسنوا ادارة حكومة الجزائر عاملين بما يقتضيه العدل والعقل لنتمتع باثمار السلام واستناد حضرتكم في تحريركم على الشرط الاخير من المعاهدة المختص بتعيين الوكلاء متبادلاً منا ومنكم عندنا وعندكم وفهم ان تكون وكلاؤنا من العرب ووكلاؤكم من الفرنسيس فهو خلاف اصله المصادق عليه بل هذا التفسير اختراعي فان كنتم محافظين على المعاهدة فاقبلوا وكيلنا كرماني المعين بموافقة مجلس شورى الامة وان كنتم استحسنتم خرق الشروط وابطال المعاهدة فنحن مع عدم الميل الى ذلك نجيبكم الى مرغوبكم ولا يخفى ان البغي وخيم ونتيجة الشر تعود على البادىء به وبالجملة انني انتخبت كرماني وكيلاً عندكم في الجزائر فرجوعي عنه محال. فلما اتصل هذا الجواب بالحاكم وتاكد عنده ان هذا العمل اثر في خاطر الامير اخذ في تلافي الامر وحرر للامير بالموافقة واخبره انه محافظ على بقاء المعاهدة الجارية على اسلوبها حيث لا امل في الحصول على ماهو احسن واوفق منها وهذه المراجعات التي دارت بين الامير والحاكم بواطنها وما ينشأ عنها وما تشير اليه من دقائق السياسة لم تخف عن الامير ولذلك جعل بمقتضى حزمه وتفطنه للامور جواسيس حذاقاً تخبره على الدوام بحقائق الاحوال لاسيما ابن درّان الموسوي وهذه الحال هي التي اوجبت التشديد واثبات وظيفة كرماني ومن ثمة شرع الامير يخاطب المارشال بالفاظ حرة شديدة في سائر ماعليه الاختلاف والنزاع كمسالة الحدود واشباهها ومن غريب الاتفاق انه في سنة ست وتسعين ومائتين والف كان مدحت باشا والياً على سورية فجاءه مكتوب من كرماني

وهو مقيم في ايتاليا يقول فيه ان الدولة العثمانية عزلتني من وظيفة وكيلها في ايتاليا بسبب انني قمت بخدمتكم حينما كنتم في هذا الطرف كما ان دولة فرنسا لم تقبلني لما عينني الامير عبد القادر وكيلاً له عندها في الجزائر ثم نال له وهذا مكتوب الامير الذي ارسله الحيّ في ذلك الوقت بهذا الخصوص يصلكم في طي تحريري هذا اليكم ومما وقع فيه الخلاف مسير جيش فرنساوي من ارزيوالى مستغانم على طريق البرّ بامر الجنرال بيجو حاكم وهران وجعل ذلك اختبارًا لحال الامير معهم هل هو متفطن لمكائدهم ام غافل عنها فان وجده متنبهًا لما خنس والا فانه يمد يده الى مطلوبه والداعي الى ذلك ان المارشال نقم عليه امورًا بنيت عليها المعاهدة وتعقبها عليه واتبعه في ذلك كثير من رجال دولتهم فحاول ان يعالجها بمغالطة الامير وجعل فعله هذا مقدمة لما قصده ولما اتصل بالامير خبر الجيش غضب وعلم مكيدة بيجو فبعث اليه يقول ان مسير جيشكم من ارزيوالى مستغانم على طريق البر يخالف الاصول التي قامت عليها المعاهدة وتقرر عليها الصلح ففعلكم هذا محض تعدٍّ على حقوقنا وان خفي عليكم الامر وادعيت انك غير متعمد بفعلك هذا فراجع الشروط وامعن النظر فيها فانك تجد انه لا حق لكم في المرور على طريق البرالى مستغانم وتعلم ان فهمك لمنطوق العبارة المقررة في صك المعاهدة حائد عن الصواب هذا ان قلت انك بنيت امرك على ما فهمته من العبارة او اولته فلما وقف بيجو على مكتوب الامير علم انه على غاية من الحزم في اموره فلم يسعه الا السكوت ولما استولوا على قسنطينة ارادوا ان يمدوا ايديهم الى المسافة الطويلة التي بينها وبين الجزائر وقبل ان يظهروا هذا الامر راوا ان يجعلوا لذلك مقدمة تكون توطئة وتمهيدًا له فسير المارشال قاله مع فرقة من العسكر من الجزائر الى قسنطينة على طريق البر ولما وصل الخبر الى الامير كتب الى المارشال في ذلك وشدد النكير واقام عليه الحجة فاجابه على ما ذكره المؤرخ بالمار ان فرانسا قد وهبتك جميع اقليم وهران وجميع اقليم تيطرى ومن الجزائر جميع ما هو غربي نهر الشفه ولا حق لك في شرقيه واما اقليم قسنطينة فانه خارج عن الجوال ولا كلام عليه في المعاهدة لانه كان في وقت انعقادها تحت ولاية احمد باي فاستشاط الامير غضبًا لقول المارشال ان فرنسا قد وهبتك وعظم عليه ذلك فاجابه اما اقليم قسنطينة فهو خارج عن محل البحث واما اقليم الجزائر فالواجب عليكم ان تتذكروا ما جرى بيننا عليه من المراجعات الكثيرة حين

المخابرة في انعقاد المعاهدة حيث كان مرادي ان اجعل حدودكم محصورة في ضواحي مدينة الجزائر ولما الح عليَّ الجنرال بيجو في توسعة الحدود وامتدادها جعلت وادي القدرة حدًّا لكم في الجهة الشرقية والى البليدة غربًا وكلمة الى عربية وضعت لانتهاء الغاية في كل شيء فكان الواجب عليكم ان لا تتجاوزوا وادي القدرة الذي جعلته لكم حدًّا ونهاية لغاية ما ابحته لكم من البلاد على ان المسافة التي بينه وبين قسنطينة لاتعلق لها بما جرى بيننا في المعاهدة مما استوليتم عليه فان ما استوليتم عليه في الشرق محصور فيما بين قسنطينه وبونه وبالجملة فتجاوزكم لحد وادي القدرة خارج عن جادة العدل بعيد عن خط الصواب لا سيما واهل تلك الناحية لم يحل في اعينهم نعلكم بل رأوه تعديًا محضًا على حقوق المسلمين وظلمًا بحتًا لهم ودولة عظيمة شهيرة مثل دولة فرنسا لا ينبغي لها ذلك وبالجملة فتعريجكم على تاويل الالفاظ لا يليق بكم بل يجب عليكم وعلينا ان نحافظ على النصوص الصريحة ونجري في امورنا على موجبها فاجابه المارشال ان مراجعاتي لسموكم مبنية على ملاحظة كلمة فوق المذكورة في التحديد الشرقي فارجو ان تلاحظوها . اجابه الامير ان جوابي الاول وما بعده ومراجعاتي كلها مؤسسة على ملاحظة سائر ماذكرناه في التحديد كلمة كلمة وهو الصواب المطابق للغة العرب وما فهمتموه انتم من كلمة فوق وكلمة الى غير مطابق لما وضعنا له وعندكم من علماء اللغة العربية من يحقق لكم ماذكرناه وهذه المراجعات كلها لم تجد نفعًا واستمرت المشاكل تتزايد يومًا فيومًا ومع ذلك فان الامير غير مبال بها ولا ملتفت اليها لما اطلع عليه من ميل دولة فرنسا لدوام السلم ولما استولى الامير على مجانة والزيبان وغيرها من النواحي الشرقية والجنوبية قام المارشال وقعد وبعث اليه في ذلك فاجابه انكم استوليتم على مدينة قسنطينه والخط الممتد بينها وبين مرسى بونه لاغير فان ادعيتم ان جميع ماكان تحت سلطة احمد باي لاحق بذلك فهو محل نظر واما ما استولينا عليه فانه بعيد عن دعواكم ولا حق لكم فيه اذ لا يعد من اعمال قسنطينه التابعة لحكومة احمد باي ولا كان في طاعته بل كانت حكام هذه البلاد من اهلها لا تعلق لهم به ولا يد له عليهم منذ انقرضت الحكومة من الجزائر بناء على ذلك ليس لكم في البلاد التي استولينا عليها دعوى تسمع عند اهل العدل الذين يحافظون على حقوق العباد ولا تطمح نفوسهم الى الاعتداء ثم ان هذه الاعمال التي اجراها الامير دون ان يلتفت الى احد فيها قد فتحت له بابًا عظيمًا لتوسيع مملكته ومدت له طريقًا متسعًا لنفوذ كلمته

وبذلك وضع يده على الاماكن الواقع عليها النزاع وعلى البلاد الشاسعة كالزيبان وتجانه وجبال البربر الشمالية وما اليها وسلم للفرنسيس استيلاءهم على قسنطينة ولم يسلم لهم دعوى تابعية البلاد التي استولى هو عليها بل قال ان هذه الاقسام خارجة عن حكومة احمد باي لكونه يعلم ان ما تغلبوا عليه لا يمكنه التعرض اليهم فيه لعدم مساعدة الوقت له في ذلك وما كان خارجاً عن محل تغلبهم فلا حق لهم فيه .

« ذكر خروج ابن علال خليفة الامير على مليانة لتحصيل »
« الاعانة والزكاة من الاعراش »

ولما طال على الامير امد حصار عين ماضي كتب الى السيد محمد بن علال خليفته على مليانه بان يحصل الاعانة المفروضة على الاعراش ويستوفي زكاة خمس سنين لم يدفعوها فخرج الخليفة في فرقة من عسكره وما زال يصبح عند قوم ويمسي عند آخرين ويحصل الاعانة منهم والزكاة وكل من تاخر عن اداء ما عليه منهما يناجزه القتال حتى انتهى الى جبل تاشته وكان سكان هذا الجبل لصوصاً طغاة يسرقون الاموال ويتخطفون النساء ذوات البعول من اخبيتهن ويذهبون بهن الى اماكنهم الحصينة ويتزوجون بهن وكانت الحكومة السابقة لا تقدر على ردعهم عن ذلك مع كثرة المتشكين من افعالهم البربرية ولما طالبهم الخليفة بالزكاة والاعانة وامرهم برد ما عندهم من المظالم لاهاليها المجتمعين عنده لم يعتبروا امره واجابوه باننا خدام الاعراش وقد ارسلنا لهم الخبر بذلك وطيروا الخبر الاعراش يستنفرونهم للقتال فاقام الخليفة ثلاثة ايام يراجعهم فلم يجده ذلك نفعاً وفي اليوم الرابع ركب في خمسين فارساً واربعمائة من المشاة فصعدوا الجبل وابتدأوهم في القتال وبعد ساعة ولوا منهزمين وتركوا العيال والاموال فاستولوا على الجميع ونزلوا بهم الى المعسكر وبعد ذلك استأمن كبراؤهم فامنهم ولما حضروا عنده امرهم بدفع كافة ما عليهم من الاموال فاجابوه لذلك ثم امرهم برد المظالم لاهلها فادوا جميع ما غصبوه ثم امرهم بان ياتوه بالنساء اللاتي خطفوهن فاتوه بالبعض منهن وقالوا لم يبق الا اللاتي هرب بهن رجالهن وفيهن من ولدت منهم بطناً واثنين وثلاثة فلم يقبل منهم ثم اتفقوا ان يدعوا عنده عشرة رجال من اعيانهم رهناً الى ان ياتوا بهن فاجابهم لذلك واطلق عالهم

وسلمهم جميع اموالهم بعد ان استتابهم واخذ عليهم العهود ان لا يعودوا لمثل ذلك وارتحل عنهم وبعد ايام قلائل ردوا اليه بقية النساء وافلت رجالهم المرهونون عنده وقد غير سيدي الوالد كثيرًا من امثال هذه الافعال والعوائد فمنها ما اعتاده اهل جبل مطامطة من عدم توريث الزوجات والبنات فارسل اليهم قاضيًا وعدولاً فحصلوا لهن ارثهن ومنعوهم عن فعل مثل ذلك وعين لهم الفقهاء والقراء يعلمونهم امور الدين ويقرؤون اولادهم القرآن العظيم وامر بعقاب كل من ترك صلاة الجماعة لغير عذر

(ذكر توجه ناظر الخارجية ابي محمد الحاج المولود بن عراش الى باريس)

ولما راى الحاكم الفرنساوي بعد اتمام معاهدة تافنا ماعليه الامير من شدة العزم والحزم والاقدام واخذ امره في النمو وتهافت من جاهر بعصيانه على اداء الطاعة له اصر على الامير بارسال سفير من طرفه الى عاصمة فرنسا ليقابل ملكها ويظهر له انه جاء لتوطيد الحب وتاكد السلم وذكر له من فوائد هذا الامر ما جلب به موافقة الامير له عليه ثم ان الامير ارسل اخاه سيدي محمد سعيد ومعه الحاج محمد فانه وفداً الى سلطان المغرب الاقصى واصحبهما بهدية وكتاب ذكر له فيه ان الحاكم الفرنساوي طلب منه طلبًا حثيثًا ارسال سفير من طرفه الى عاصمة فرنسا ليقابل ملكها ويحكم معه طريق المواصلة واعلمه بان نفسه تميل الى الخلوة والعبادة وتنفر من ثقل ما تحملته من اعباء الامارة في زمان كثر فيه العدو وفسدت فيه الاخلاق وعرفه بما اجراه بعين ماضي واخذ زكاة نعمها عن خمس سنين ولما وصل الوفد الى فاس تلقاهم السلطان عبد الرحمن بالمبرة والاحسان وانزلهم في اعز مكان ثم اخذ يلاطف سيدي العم ويساله عن احوال الامير فيحدثه عن افعاله بما يستغرب ويقضي على السامع بالعجب وبعد ان قضوا بضع ايام استاذنوا ورجعوا الى الامير مصحوبين بكتاب من السلطان ملخصه بعد الحمد لله تعالى ولدنا الذي نظم به شمل الامة وجلى بنور صدقه الشدائد المدلهمة حامي حمى الاسلام والمسلمين الامير المجاهد السيد الحاج عبد القادر بن محيي الدين ايدك الله بنور توفيقه ورعايته وجعلنا جميعاً من اهل قربه وعنايته آمين وسلام الله الاتم و رضوانه الاعم يتواليان على حضرتكم ذهنًا ومقاماً و يرفعان لكم عند الله مقامًا ورحمة الله و بركاته مادام الفلك وحركاته وبعد فقد وافا حضرتنا الوفد الذي اشخصتموه من بابكم ووجهتموه من

جنابكم صحبة اخيكم البر الرشيد السيد محمد السعيد نائبًا عنكم في الزيارة لابسًا من عنوان صفاء مودتكم ابهى زي واحسن بشاره فادى الينا كتابكم الذي تفتقت عن ازهار روض اخوتكم في الله مبانيه وتنفست عن كريم عهدكم وسليم عقدكم طيب معانيه وافصحت عن طيب سرائركم معاليه واعربت عن حسن ظنكم خواتمه ومباديه وافاد بطالع مسراته من خبر هناء تلك الاقطار وبلوغ المسلمين بانتظام الكلمة الاماني والاوطار ابقاك الله للاعلام رافعًا وعن حوزته مدافعًا ولا عدمت من الله معونة وتايدًا وهداية وتسديدًا هذا وقد وافتنا الهدية التي وجهتم صحبة الوفد الذي اشخصتم محفوفة بجميل الآثار مكسوة بحلل البر والايثار جريًا على جميل اعتقادكم وعملاً بحسن ظنكم ووداكم نقابلنا وجه نظركم بالقبول وتلقينا حديث صلتكم بالبر الموصول كثر الله امدادكم ووفر عددكم واعدادكم وما اقتضته المصلحة من توجيه باشدور من قبلكم لبر فرانسا حيث طابه طاغيتكم بحث وازعاج جاريًا من الرشد على منهاج فانت والحمد لله من دينك على بصيرة ومن سياستك على اقوم سيرة نقد مارست احوال العدل سلماً وحربًا واطلعت على بعض دسائسه شهودًا رغيبًا فامره كله تمويه وتدليس وشانه كله خداع وتلبيس فكن من مكائده على بال ومن امر غدره على بصيرة واحتيال فطالما اسر حسوا في ارتغاء واظهر تمنعًا في ابتغاء وابدى تحببًا ووداداً واضمر غدرًا وعنادًا وفيما فعل بالاندلس واهلها اعدل شاهد وبرهان وليس الخبر كالعيان فقد كانوا شرطوا عليه نيفًا وسبعين شرطًا لم يوف لهم منها بواحد وضربوا معه فيها في حديد بارد

لا يغرنك ماترى من خضوع · ان بين الضلوع داء دويًا ذلما اظهر التودد منها الخ قال الله تعالى يا ايها الذين امنوا خذوا حذركم وقال سبحانه ولا تؤمنوا الا لمن تبع دينكم واي خير يحب عدوّ الدين لجماعة المسلمين فالحازم اليقظ من لسلمه لا يستقيم ولا يبرح عن سوء الظن به ولا يديم والله سبحانه يجزيك من معونته على عوائده ويعيد على الكافر شؤم مكائده وما ذكرت ايدك الله من التنصي من عهدة الامور الاجتهادية والميل الى تعاطي المسائل العلمية لتخرجك من ارتكاب تجلي اليها سياسة الخلق وربما يخفى فيها ظهور وجه الحق فاعلم ان الله سبحانه وحركاته وسكناته ذخرًا له و بضاعة فاذا كانت النهضة لله والعزيمة لنصرة دين الله كملت المطالب وتوفرت الرغائب وهذا هو السر في افتتاح الامام البخاري رحمه الله في الجامع الصحيح انما الاعمال بالنيات وانما لكل امرئ مانوى واذا اجتهد الانسان

قدر وسعه وجهده امده الله بتوفيق من عنده وهداه لسبيل رشده ولائمة في هذا مجال فبهديهم اقتده وكيف يسوغ لك التنصي وقد رفعت بك في ذلك القطر راية الاسلام وانتظم امر الخاص والعام وارغم بك انف الكفر واحزابه ورد كيده على اعقابه حتى صار العدو يخفض لك الجناح ويرسم اسمك على السلاح وسارت بخبر ذلك الركبان برًا وبحرًا وانا لنرجو فوق ذلك مظهرًا ولولا وجودك وجدك لتفرقت اشياع تلك القبائل الاسلامية شذر مذر ولا افترست كلاب الروم اهله وعمرت عبده الصليب حزنه وسهله ولكن الله سبحانه تداركه باقامتك وسد ثغوره بحمايتك ولن تعدم من الله عونًا ومددًا ومن صالحي المؤمنين عدة وعددًا فانه لن يعدم القائم بالدين وحياطة الاسلام والمسلمين النصر والاعانة والتمكين من القوي المعين والشاهد قوله صلى الله عليه وسلم لا تزال طائفة من امتي ظاهرين وما فعلت من اخذ زكاة نعم ناحية عين ماضي عن خمس سنين حين ظفرت بها بعد تكرر المطالبة للسيد محمد بن احمد التجاني بسببها فقد اخذت حقا وطهرته واهله ولو انصف وقال حقا فانت المكلف بتلك الاقطار دانيها وقاصيها واليك مرجع طائعها وعاصيها ونرجو الله سبحانه ان تضاف اليها جميع بلاد اهل الشرك وتنتظم بطاعتك انتظام الجوهر في السلك وتنفذ كلمتك في الحواضر والثغور وتبسم فرحًا بك الحامية والثغور بحول الله وقوته وقد تفرسنا في اخيك عند ملاقاته الخير وعلمنا صحة فراسة والدك رحمه الله حين تخيره للخلافة على الزاوية ورشحه لتلك الرتبة السامية فالدر من معدنه والخير من اهله

بنو الصالحين الصالحون ومن يكن ... لآباء صدق يلقهم حيث سيرا

ارى كل غصن نابت في ارومة ... ابى منبت العيدان ان يتغيرا

ونسال الله ان يجدد بك الآثار والاعلام ويجعلك من الائمة المهتدين ويصلح بك وعلى يدك آمين واذا اردت توجيه باشدور لطاغية الروم فاختره من اهل الدين المتين الذي يرجح جانب الاسلام على المشركين باظهار القوة وتوفر الاجناد واجتماع القلوب على الجهاد فان اكثر الناس اليوم كل على مولاه الا الذين امنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم والله تعالى يشد ازرك ويديم نصرك آمين من المولى عبد الرحمن ابن المولى هشام ابن المولى محمد ابن المولى عبد الله ابن المولى اسماعيل في اواخر ذي القعدة سنة اربع وخمسين ومائتين بعد الالف ولما قرأ الكتاب وفهم ما تضمنه معناه صمم على ارسال سفير الى ملك فرنسا

واستخار لذلك فوقع اختياره على معتمده ناظر الامور الخارجية ابن عراش فبعثه واصحبه بهدية تشتمل على عدد وافر من الابقار والحمر الوحشية والنعام وانواع من البسط والفرش الفاخرة المتخذة من الصوف الناعم نادر الوجود فسار ابو محمد في اصحابه الى الجزائر ومنها ركبوا البحر الى فرنسا وعند وصوله الى باريس احتفل الملك بقدومه وبالغ في موانسته واحسن السوال عن الامير ومدح ثباته في الذب عن دينه ووطنه وشكر اجابته الى الصلح وقبوله لما فيه من التوصل الى ما يحتاج اليه في اموره وما يناله في مدته من الراحة له ولعساكره واطال في ذلك قال بالمار في تاريخه ان الحاكم العام لما راى تقدم الامير آخذًا في النمو على وجه لم يكن في الحساب ونظر ان الفاظ المعاهدة لم تزل مبهمة بحسب فهمه وشاهد ما عليه الامير من الحزم وثبات الجاش عرض عليه ارسال سفير من طرفه الى عاصمة فرنسا ليقابل ملكها ويظهر له انما جاء لتوطيد الحب وتأكيد السلم فهذا راي الحاكم في الظاهر واما في الباطن فمقصوده انه ربما تنتقل الامور التي بينه وبين الامير الى طور آخر يحمل الامير على رجوعه عن تعصبه لما يراه مصلحة له واوجب عليه ان يثبت فيه ويعدل بمقتضاه في الامور المختلف فيها وعلى كلا الوجهين فقد راى الامير ان راي الحاكم حسن فاجابه الى ما رغب فيه واختار معتمده بن عراش لهذه السفارة فبعثه وارسل معه هدايا غريبة وذكر مفرداتها طبق ما ذكرناه ثم قال ولما وصل المعتمد المذكور الى الجزائر تلقاه الحاكم بالمبرة والاكرام ثم ذاكره فيما يتعلق بايضاح مبهم العبارات المقررة في المعاهدة وراى ان مذاكرته في ذلك قبل سفره الى باريس اوثق واولى فلم يفز منه بجواب شاف بل سلك معه طريق المحاولة والمزاولة ووعده بانه بعد رجوعه من باريس يجرى له ما يرضيه فغضب الحاكم من هذا الروغان وحمله غضبه على ان كتب لدولته ان اجراء امر نهائي مع معتمد الامير لا يوافق صالح فرنسا ولا اهل الجزائر ولما وصل المعتمد الى العاصمة نزل في دار الضيافة بكل اكرام ورغب الاستراحة قابله وزير الخارجية وتوجها معا لمقابلة الملك فقابله الملك بكمال الاحترام ونال منه حسن الالتفات وساله عن احوال الامير واستعلم منه حركات عساكره واظهر له ارتياحه الى الهدية المرسلة معه وقبوله لها وقال له اني اعد الامير عبد القادر صديقًا وحيداً لي واني ارجو نجاح عمله وبلوغ البلاد الجزائرية الى حالتي الرفاهية والتمدن ثم ان المعتمد اخذ في مذاكرة الملك فيما يتعلق بالمعاهدة والبحث في الالفاظ التي وقع

الخلاف في المعنى المراد منها فاجابه وزير الخارجية ان هذا الامر ينبغي ان تكون المذاكرة فيه مع المارشال فاله حاكم الجزائر وبعد ايام انقلب المعتمد راجعاً من باريس بهدية من الملك الى الامير وهي سيف وزوج طبنجة كل منها مرصع بالياقوت والزمرد واللؤلؤ وحلق الماس وكردون منظم من الياقوت والزمرد وزرابي مخصوصة بقضبان الذهب واثواب منسوجة بالذهب وغير ذلك ولما وصل المعتمد الى الجزائر قابله الحاكم وعاجله بالسوءال عما وقع له في امر المعاهدة فاخبره بما اجابه به وزير الخارجية في حضرة الملك فانشرح صدره واطمان فكره ثم استانف المذاكرة معه في تلك الامور التي لم تزل شاغلة لافكاره وبعد مراجعات طويلة تقرر عند الحاكم انه يذيل صك المعاهدة بما يوءذن بتغيير اشياء منصوص عليها فيه وتبديلها بما يوافق مصالح فرنسا ونص ما حرره في ذلك التذييل ان المارشال فالا حاكم الجزائر ومعتمد الامير عبد القادر الحاج المولود بن عراش اتفقا على توضيح الكلمات المبهمة في صك معاهدة تافنا التي تقرر فيها العمل على ما ياتي الاول ان يكون الحد في جهة الشرق من الجزائر ممتداً من مجرى نهر القدرة الى منبعه في جبال طبيارين ومنه الى يسر فوق جسر بني هني وعليه فيكون خط التحديد الحالي فيما بين وطن فليسه ووطن بني جعد وما بعد يسر الى البيبان وطريق الجزائر الى قسنطينة بحيث ان يكون برج حمزة وجميع الارض الكائنة في شمال وشرق الحدود المذكورة الى البحر تابعاً لدولة فرنسا وان باقي ارض بني جعد وونوغا جنوباً وغرباً من هذه الحدود يبقى تابعاً الامير وفي عمالة وهران يسوغ لدولة فرنسا ان تمر عساكرها من ارض ارزيو الى ارض مستغانم واذا رات مناسباً لها ان تصلح قسماً من الطريق الكائن في شرق المقطع فلها ذلك بدون تعدٍ على ارض الامير . الثاني ان ما تعين على الامير ان يدفعه للعساكر الفرنساوية من الحنطة والشعير في مدة ثلاثة اشهر والى الآن ما دفعه يلزم ان يكون تقديمه منجماً على عشرين سنة بحيث انه يقدم في اول كانون الثاني من كل سنة منها قسطا من كل صنف من الصنفين المذكورين وان يكون الدفع في مدينة وهران . الثالث ان جميع ما يحتاج اليه الامير من الادوات الحربية والذخائر يطلبه من الحاكم وهو يحضره ويسلمه الى وكيله في الجزائر باثمانه الاصلية التي اشترى بها على هذه الوجوه يكون الاجراء بدون تغيير ولا تبديل وباقي الشروط المذكورة في صك المعاهدة يبقى معمولا بها ثم لما انهى الحاكم

تذييله عرضه على المعتمد ودعاه للموافقة عليه بموجب كونه وكيلاً عن الامير فاعتذر اليه بانه غير مرخص له في مثل ذلك ووعده بالسعي فيما يحمل الامير على الموافقة والاجابة الى مراد دولة فرنسا منه فلم يقنع الحاكم بجوابه والح عليه ان يكتب في هامش التذييل انه اطلع عليه واستحسنه فتوقف ابن عراش في ذلك ثم كتب انني اطلعت على هذا الملحق واستحسنته ولست مسؤولاً عن مصادقة اميري عليه وبعد ان حرر المعتمد ذلك رخص له الحاكم في السفر ولا جرم ان ما حرر في هذا التذييل يستدعي الحيرة للامير فان وافق عليه يخرج من يده قسم عظيم من البلاد التي استولى عليها وتقررت احكامه فيها وان ابى فلا بد من خرق سياج المعاهدة ونقض الصلح قال بعض مؤرخيهم وصعوبة القضية جعلت الفرنسيس يتلافونها باستعطاف خاطر الامير ولذلك بدا للمارشال ان يبعث مع المعتمد صهره القائد دوسال الى حضرة الامير ليذاكره في القضية مشافهة وكان الامير وقتئذ محاصراً لحصن عين ماذي فاعتذر المعتمد بذلك واخبره ان المسافة بعيدة جداً فاجابه الحاكم ان بعد المسافة لايصده عن قصده فاستكان المعتمد لذلك وعلم انه لا مناص من خروج القائد معه فسارا معاً من الجزائر قاصدين الحضرة فلما وصلوا الى مدينة مليانة تلقاها الخليفة السيد محمد بن علال بالتبجيل والاكرام ورفض ان يعرف القائد رسماً بدون امر من الامير ثم ان المعتمد امر الى الخليفة بالامر واطلعه على مافي سره من كونه يخلف القائد عنده وهو يغذ السير الى الامير ليخبره بالواقع فوافقه الخليفة على ذلك وتلطف المعتمد في الخروج ليلاً واسرع في السير الى تاكدمت وبوصوله طير الخبر الى الامير وهو على حصن عين ماذي اما القائد دوسال فانه لما اتصل به خبر سفر المعتمد دونه حمله الغضب على الرجوع الى الجزائر فرجع واخبر المارشال بما اتفق له مع المعتمد فقام لذلك وقعد وكتب الى دولته بالواقع واخبرها بان الاحوال الراهنة تقضي ببطلان المعاهدة وفي هذه المدة كان الامير مشتغلاً فيها بامر التجيني فانتهز الفرنساوية الفرصة وشيدوا الحصون المتينة في بونه وكالمه وميله من اعمال قسنطينة في الجهة الشرقية منها ووضعوا فيها العساكر والذخائر واكتشفوا على آثار مدينة قديمة رومانية على البحر غربي بونه وتسميها العرب سكيكدة والبربر روزيكاوا فابتنوا في حزبها مدينة سموها فيليفيل وبهذا المركز توصلوا الى وضع يدهم على جيجل والقل وغيرهما من المراسي الصغيرة فيما بينها وبين الجزائر وبعد فراغ الامير من فتح حصن عين ماذي رجع الى تاكدمت وبوصوله احضر

معتمده ابن عراش ووبخه على استبداده فيما كتبه على التذييل فاعتذر اليه بانه لم يفعل ذلك الا لاتقاء شره والخروج من قبضته فقبل عذره ثم اقبل على تفقد احوال الجيش ومهماته الحربية وبعث الى خلفائه في الولايات يحثهم على النظر في احوال من عندهم من العساكر وامرهم بمفاوضة الاعيان والرؤساء في امر الجهاد والاخذ في الاستعداد ودس الى وكلائه في الجزائر ووهران وغيرها باستقصاء الاخبار واستطلاع الاحوال والنقب على دسائس العدو ومكائده وبعث الى اهل الثغور في في التيقظ والتنبه الى غوائل العدو والتحذير من مفاجاته ولما اتصل بحاكم الجزائر ما عليه الامير من شدة الالتفات الى اموره وما هياه الله له من النصر والتمكين وثبوت القدم حركه الحسد مع ما اتفق اصهره مع المعتمد ابن عراش فبذل وسعه في نقض المعاهدة وواصل رسائله الى دولته في ذلك وهي تعيره اذنًا صماء ثم بعث صهره القائد دوسال مرة اخرى الى مليانه وكان معه رسالة من الحاكم في طلب الجواب على مقتضى ما في التذييل وعند وصوله الى الحضرة تلقاه الامير بالمبرة والاكرام وبعد اطلاعه على رسالة الحاكم تحير في امره وراى انه امسي بين امرين خطيرين اما الموافقة والوصول اليها صعب لبعده عن قبول الامة له واما رفضها وهو يؤدي الى نقض المعاهدة وكان ديوان الشورى وسائر الامة يميلون الى الحرب ويقدمونه على اعطاء الدنية بقبول مافي التذييل مال معهم واجابهم الى ما طلبوه واستحسنوه ثم انه دعا القائد دوسال الى الديوان وكان حشر اليه الاعيان والقواد فلما استقر به المجلس اخذ الامير يتكلم على العموم فاخبرهم بالقضية وبتحريض الحاكم على الاجابة الى مطلوبه والموافقة عليه ثم قال وهذا الرسول الذي هو بمثابة وكيل لدولة فرنسا جالس بينكم وحاضر معكم يسمع كلامي وكلامكم فانظروا ما يحلو لكم واظهروا ما فيه رغبتكم فضج الجميع وقالوا لا نقبل ولا نجيب الى ماهو مذكور في التذييل ولا نرضى بالدنية في ديننا ولا بما يخل بشرفنا فالنار ولا العار فان كانت الدولة الفرنساوية ترضي ان تبقى على ما انعقد اليه الصلح في تافنا فذلك والا فالحرب وبالله المستعان فاقبل الامير على القائد دوسال وقال له ها انت قد نظرت بعينيك وسمعت باذنيك وليس الخبر كالعيان فاخبر الحاكم بما رايت وسمعت والذي عندي هو ان نتكلم معه بما يقنعه ويحمله على ابقاء المعاهدة جارية في سبيلها القديم فان ذلك احسن للطرفين واليق بالجانبين وعاقبة الحرب كما لا يخفى وخيمة وسفك الدماء مع امكان حقنها لا يجوز في سائر الشرائع

المقررة ولا يرضى به ذو عقل سليم وعلى كل حال فنحن مسرورون بقدومكم علينا ونرجو ان يكون ما شاهدته وسمعته من نواب المملكة اكبر عذر لنا عند الحاكم ثم ان القائد دوسال بعد ان وقف على حقائق الامور انقلب راجعاً الى الجزائر واخبر مرسله بالواقع فوجم لذلك ثم بعث الى وزير الحرب في باريس يخبره بما جرى وما شاهده صهره من الامير ورجال دولته وما هم عليه من التحمس والرغبة في الحرب واردف الحاكم ذلك بقوله ان تغيير الحال الراهنة يحوجنا الى استعمال اشياء وهي ان تعلن الدولة الفرنساوية للامير عبد القادر بانها لاتقبل الحكام الذين وضعهم في الاماكن المختلف فيها ولا تعرفهم فانها تصدر امرها بتهديد الامير ووعيده فان لم يجد ذلك نفعاً تامر بالهجوم عليه بكمال القوة التي يتوصل بها العسكر الفرنساوي الى هدم قوته والاستيلاء على برج حمزة وما يليه من البلاد الشرقية وانها تكتب بعد هذا كله الى الامير ان هذا العمل ليس المقصود به نقض الصلح بل هو متمم له ومثبت لروابطه

فلينظر العاقل الى هذا التحرير وما هو عليه من فساد المعنى وهل مع عمل السيف صلح وهل بعد الهجوم والاستيلاء على الاراضي المذكورة معاهدة ثم ان الامير لما علم ان الحاكم ساع فيما يخل به عقدة المعاهدة كتب الى ملك فرنسا رأساً يخبره بالحال ويطلعه على سوء تصرف حاكمه في الجزائر وملخص كتابه . من المعلوم قديماً وحديثاً ان المسلمين من دابهم محاربة عدوّ دينهم قياماً بما اوجبته الشريعة الاسلامية عليهم من الجهاد اما لاعلاء كلمة الله او للدفاع والذب عن الدين والبلاد فاذا عارضتهم امور سياسية او ضرورات شرعية فلهم ان يجنحوا للسلم ووضع اوزار الحرب ونحن لما رأينا الجنرال بيجو راغباً في الصلح ورأينا بلادنا تحتاج الى ما به عمرانها وفيه راحتها اجبنا الجنرال الى مطلوبه وعقدنا معه الصلح ظناً منا ان دولة فرنسا تحافظ على العهد كما اننا كذلك فاذا بعمالكم في الجزائر بادروا الى مابه خيبة الظن وعجلوا بما يؤدي الى الضرب والطعن فكاتبناهم في ذلك فما سمعوا ولاطفناهم في القول والفعل فما قنعوا بل جمعوا حولهم وقوتهم فيما يحملنا على الاجابة الى ما لا يجوز لنا شرعاً ان نجيب الى مثله وهو التخلي عن قسم عظيم من بلادنا والتسليم في اخواننا اهل ديننا وحيث انه غلب على الظن انكم لاترضون بوقوع ما يكدر صفونا ويقطع مواصلتنا بادرنا الى ارسال هذه الرسالة الودية لتعلموا منها ما هو واقع بيننا وبين عمالكم ولتتأكدوا اننا راغبون في مسالمة فرنسا ومصافاتها ودوام معاملتها

في المتجر وغيره من اسباب العمران ولا تظن الدولة الفرنساوية ان رغبتنا فيما ذكرناه لضعف اعترى قوتنا او لقصور اخذ من حدة شوكتنا فاننا بحول الله تعالى وقوته لم نزل ولا نزال على ما تعهده عساكرها من عساكرنا من كونها تعطيها في ميادين الهيجاء كيلاً بكيل ونقابلها المثل بالمثل غير اننا لما راينا ذلك لايجدي نفعاً رغبنا في المعاهدة طلباً للراحة والوصول الى ما فيه عمران البلاد كما اشرنا الى ذلك آنفاً وكتبنا الى جلالتكم هذا اعلاماً بالحال انتهي

وقد وصل هذا التحرير الى الملك الاَّ ان العوارض الكثيرة وقتئذ منعت من رد الجواب قال ثم بعث الامير الى الملك مكتوباً ثانياً ولم يتيسر جوابه وبعد مدة اتصل به ان وزيري الخارجية والحرب عزلا وتعين لوزارة الخارجية مسيو تيرس الشهير ولوزارة الحرب المارشال جراردن فتوهم انهذا التغيير يجديه نفعاً فيما هو راغب فيه فكتب الى الملك مرة ثالثة والى الوزيرين المذكورين وملخص كتابه الى الملك

قد كنت بعثت لجلالتكم برسالتين ذكرت فيهما ما هو واقع بيننا و بين عمالكم في الجزائر من الوحشة ورغبنا في زوالها من لدن جلالتكم بوجه العدل والانصاف كما اننا رغبنا ان تامروهم بالعدول عن طريق الظلم والاعتساف والى الان ما وصلني جواب عن واحدة منهما فظهر لنا من ذلك انهما لم يصلا اليكم لان كرم الاخلاق يابى ان تكونوا بعد اطلاعكم عليهما تغافلتم عن رد الجواب وبناء عليه كتبت هذا علاوة على ما تقدم رجاء ان يصل وتطلعوا عليه وانه يحوز القبول وقصارى ما اقول ان عمالكم في الجزائر اجهدوا انفسهم فيما ينقض الصلح المنعقد بيننا و بينكم من غير موجب من جهتنا البتة وانما حملهم على ذلك ما سوَّلته لهم انفسهم من التعدي على حقوق عباد الله ومدّ اليد الى ما ليس لهم فيه وجه فالبلاد التي ذكرها الحاكم في تذييله هي بلاد سبقنا نحن اليها ووضعنا ايدينا عليها وهي في حكم الموات لا حاكم لها بمقتضى الشرع وذلك منذ انقرضت الحكومة من الجزائر واعمالها ولم تدخل قط في حوزة احمد باي حاكم قسنطينة ولا كانت بينه وبين اهلها مواصلة سياسية فباي وجه ينازعوننا فيها ونحن احق بها واهلها من وجوه لا تخفى على المنصف ذي القلب السليم وهب انها كانت من اعمال قسنطينة التي استوليتم عليها واخذتموها من يد احمد باي فان احمد باي كان حاكماً عليها بالتغلب ايام دخولكم الى الجزائر وهب انه كان عاملاً عليها من قبل حكومة الجزائر فان تلك الحكومة انقرضت و بانقراضها انقرضت احكامها وحكامها فلا سلطة شرعية لاحمد باي عليها وبقاؤه فيها انما كان على سبيل الدعوى لنفسه والناس لم يقبلوه ان يكون ولي امرهم

ولا اعتبروه رئيساً عليهم مطلقاً وتغلبه كان على نفس مدينة قسنطينة وبونة ولو وجد اهل تلك النواحي من المسلمين من ياخذ بايديهم ويدفع عنهم لسارعوا اليه كما وقع ذلك حين توجهنا الى النواحي التي تلينا ومن جملتها الاراضي التي نازعتنا فيها عمالكم بغير حق وبالجملة فسلوك هؤلاء العمال معنا حائد عن طرق الحق مغاير لاساليب العدل ومن العجب انهم تعدوا على نفر من عساكري وحبسوهم بدون سبب شرعي ولا داع قانوني وعلى فرض ان لهم وجهاً فيما فعلوه فكان الواجب عليهم ان يخابرونا في امرهم ونحن نجري عليهم ما تقضي به الاحكام الشرعية او القانونية على حسب ذنوبهم ثم انهم منعوا بيع الحديد والنحاس والرصاص في اسواقنا كما انهم منعوا تجارنا من شرائه في اسواقهم واهانوا رسلي اليهم واعرضوا عن رد اجوبة رسائلي التي وجهتها اليهم وجعلوا ضريبة على المكاتيب التي ترد من الداخلية الى الجزائر وغيرها من المدن التابعة لهم ومع هذا كله فانهم يكتبون الى جلالتكم انني عدو فرنسا اطلب حربها واسعى في اسبابه فينبغي والحالة هذه ان تاخذوا من اعنتهم وتضربوا على ايديهم وتامروهم بالعدل عن سوء التصرف معنا فان كل مروتكم مع ما شاع عنكم من مكارم الاخلاق يقضي عليكم بذلك فان قال هؤلاء العمال اننا تاخرنا عن اجراء البعض من شروط المعاهدة قلنا اننا لم نؤخر ذلك الا لكون الجنرال بيجو تقاعد عن اجراء ما تعهد به ظناً منه انني غافل عن تلك المعاهدة المحرر عليها اسمه بخط يده وما علم انني اعتبر صحة مواعيد شخص هو وكيل ملك فرنسا فانظر ايها الملك فيما ذكرته لك واسمح برد الجواب والتعريف عن مقاصدك والله يوفقك الى ما فيه راحة العباد

وكتب الى وزير الخارجية ما ملخصه

اني اهني فرنسا برجوعك الى الوزارة الخارجية واعلم ان الاثقال المهمة التي تقضي بصرف الهمة وتوجيه الفكر الى تحسين الاحوال بيننا وبينكم تجعلني انتظر منك ما اهنيء به نفسي فانك على ما بلغنا تحب الهدوّ والسكون وتسعى فيما يحسن العلائق بين شعبك وسائر الشعوب ولا يخفى ان الاحوال الجارية بيننا وبين عمالكم لا يصلحها ويحسنها الا تاييد السلم المنعقد بيننا وبينكم وتوطيده ومجانبة الاعتداء بكل وجه واما استعمال الحيل مع الاغضاء عن اجراء شروط المعاهدة لاجل مطامع خارجة عن جادة الحق فلا جرم ان ذلك يفضي بنا وبكم الى ما لا خير فيه لنا ولكم وحيث ان الحق تعالى وهبك من الاخلاق الحميدة ما اكسبك الثناء الجميل من ابناء وطنك فينبغي لك ان تستعمل تلك الشيم الكريمة كذلك في افريقية وبذلك ينتشر ذكرك الحسن بين الامتين وتعطر انديتهما بمدحك وكذلك وتحصل لك الشهرة المطلوبة لكل عاقل ويدوم ذكرك في العالم

وبالجملة فاني انتظر منك ما يسر السامع وتبتهج به المجامع من تجديد الروابط الودادية بيننا وبين دولتكم

وكتب الى موسيو جراردن ما ملخصه

لما بلغني ان ملك فرنسا قلدك وزارة الحرب انشرح صدري لذلك لعلمي انك تميل الى المسالمة وتسعى في اسبابها ومن يكون قادرًا على نظارة الحرب فلا بد ان يكون قادرًا على تمكين الصلح وحمايته من اعتداء المعتدين هذا وان معاملة عمال الجزائر لنا وسوء تصرفهم معنا لا بد ان يكون قد شاع وذاع وتاسف له كل عاقل وتكدر منه كل فاضل فان هوءلاء العمال بعد ان عقدنا الصلح مع دولة فرنسا واسسناه على شروط قبلها كل منا وجرى بها العمل قاموا يتعاطون اسباب حل ما عقدناه ونقض ما اسسناه و بنوا امرهم على الطمع الذي يمقته كل منصف والظلم الذي يمجه كل عادل وحاولوا تغيير كثير من الشروط وبحثوا في معاني الفاظها العربية ولا ادري هل كان ذلك منهم لجهلهم باللغة العربية ام هو على سبيل التعنت ومن العجب انهم ارتكبوا ذلك ولم يعلموا انه حطيط في حق دولتهم العظيمة وبالجملة فنحن نستدعي حسن التفاتك الى المطاليب التي اكثروا علينا فيها ونرجو نفوذك القوي عند جلالة الملك بعضد مقاصدك السليمة والله تعالى يوفقكم الى فعل الخير وتقريره ٠

فمن تامل في معاني هذه التحارير ظهر له منها حسن مقاصد الامير وشدة ميله الى الصلح كما ان دولة فرنسا كانت تظهر ذلك ولكن ارادة الله اقتضت وقوع الحرب بين الفريقين ولما يئس حاكم الجزائر من اجابة الامير الى موافقته على ما حرره في تذييله وعلم ان ذلك دونه خرط القتاد وانتضاء السيوف من الاغماد بعث الى دولته صورة التذييل الملحق وذكر لها ما يحملها على اختيار الحرب وكان معلومًا عندها ان الامير لا يسلم بذلك لكنها نظرت ان مرور جيشها في تلك الاراضي يكون فيه الشرف العظيم لفرنسا ووضع اليد لا يعد نقضا لدعائم الصلح واصدرت الامر الى المارشال بهذا وعند وصوله اليه اخذ في الاستعداد وبعد استكمال تعبيته ووصول الدوك دورليان ابن الملك ورؤساء العسكر اليه خرج وهم في معيته من الجزائر في السابع والعشرين من رجب سنة خمس وخمسين ومائتين والسادس من اكتوبر سنة تسع وثلاثين وثمانمائة سالكين طريق البر ولما وصلوا لمضيق البنيان قسموا جيشهم الى فرقتين فرقة توجه بها ابن الملك الى قسنطينة والفرقة الثانية استمر بها المارشال سائرًا الى ان دخل الجزائر قال بعض موءرخيهم وكان دخوله الى الجزائر دخولاً احتفاليًا وقوبل باعلا اصوات الابتهاج واستمرت الاحتفالات اربعة

ايام وعملت وليمة فاخرة على ممشى باب الواد وظن ان الجزائر قد انقلبت فكان انتصار وهمي رسمته المخيلة على لوحها وانبأت عنه الشفاه وكان اهل البلاد التي يمرون فيها يعتقدون ان حاكم الجزائر قصد بروره بابن الملك في بلادهم مجرد السياحة والتفرج لما هو مقرر عندهم من امر المعاهدة بين الامير ودولة فرنسا ولذلك كانوا يقدمون له جميع التسهيلات السفرية مسرورين بحليف ودود لاميرهم ولولا هذا ما تركوه يمر في بلادهم من غير قتال قال بعض مؤرخيهم ولو كان عبد القادر هناك بخمسمائة عسكري فقط لما مكنهم ان يعبروا ابواب الحديد عند وصولهم اليه ولا مكنهم ان يخرجوا منه ولما مر بوسط قبائل بني مناصر احد قوادهم وحصل اطلاق البارود بينهم انتبه الخليفة السيد احمد ابن سالم من نومه وطير الخبر الى الامير فوجم لها ثم نهض من مليانه الى المدية وكتب الى المارشال ما ملخصه بينما كنا معكم في حال سلم ومعاهدة لم نشعر الا وقد فعلتم ما ينافي ذلك وتجاوزتم الحدود المعلومة بين بلادنا و بلادكم بغير اذني ولا تقدم مخابرة في ذلك ولا علم ومررتم بابن الملك في عساكركم الكثيرة في بلادي من الجزائر الى قسنطينة بدون وجه يسوغ لكم ذلك ويجوزه ولو اخبرتموني ان ابن الملك يريد زيارة بلادنا كنت رافقته بنفسي او عينت احد خلفائي لمرافقته والذي يظهر ان القصد من فعلكم هذا اظهار التعدي على حقوقي حتى اتأثر لذلك وينجر الامر الى نقض المعاهدة والحال ان فعلكم هذا هو نفسه ناقض للمعاهدة مبطل لها و بناء عليه اعلن لكم انني عزمت على استئناف الحرب و بالله المستعان فارتقبوا وكلاءكم من بلادي وانذروا قومكم المقيمين فيها والمسئولية عليكم وحدكم

❊ ذكر ما جرى بعد هذا من اشهار الحرب والمراجعات فيه ❊
❊ وما آل اليه الامر بعد ذلك ❊

لما يئس الامير من اجابة الدولة الفرنساوية الى مادعاها اليه من ترك مطامع عمالها والبقاء على ما تقرر به الصلح وراى ان العمال الفرنساوية عامدون الى نقض العهد واضرام نار الوغى اعتزم على دفاعهم والذب عن دينه ووطنه واصدر اوامره الى خلفائه في المقاطعات بالتاهب للحرب والاستعداد لها واطلعهم على ما اظهره الفرنسيس من نقض المعاهدة ثم اصدر اعلانا عموميا ليتلى في المحافل والمجامع وملخصه · ليكن في علم سائر الخلفاء والاغوات والقواد وكافة المسلمين اهل بلادنا الدائنين بطاعة الله ورسوله ثم طاعتنا وفقهم الله للقيام بفريضة الجهاد واعانهم بالقوة والامداد ان الفرنسيس

قد ظهر عدوانهم واتضح اعتداؤهم فتجاوزوا الحدود المقررة بيننا وبينهم ومرّوا في بلادنا من الجزائر الى قسنطينة بدون اذن منا فتاهبوا اعانكم الله للحرب وهيئوا سيوفكم للطعن والضرب واستعدوا للدفاع عن دينكم ووطنكم واجمعوا امركم للذب عن موردكم وعطنكم وحيث ان ما في بيت المال من النقود لايفي بنفقات الحرب ولوازمها فقد تعين عليكم ان تفرضوا على انفسكم ومن يليكم اعانة جهادية وسارعوا بالحضور الى المدية فانني انتظركم فيها ووطدوا طريق الراحة والامن في سائر اعمالكم على الوجه الذي اكون به مطمئن البال واعلموا ان النجاح موقوف على اخلاص النية فوجهوا قلوبكم الى الله تعالى واطلبوا منه تاييد كلمته وتشييد اركان دينه بكم والسلام عليكم . قال بالمار وغيره من مؤرخي الافرنج من اطلع على هذا الاعلان وغيره من اعلانات الامير علم ان ما ينسبه اصحاب الاهواء الامير من انه اشهر الحرب بغتة ولم يعلنه بالوجه المعتاد بين الملوك غير مصيب في دعواه ومن المعلوم عندنا ان هذه النسبة الحائدة عن طريق الصدق كانت من المارشال فالا وحده وذلك انه لم يرد الجواب في وقته المطلوب الى الامير عبد القادر ولانبه على الفرنساوين المقيمين في سهول متيجة وغيرها لياخذوا حذرهم ثم لما اصابهم بعد ذلك من الوبال ما اصابهم اشاع هذه النسبة لينتصل من عهدة ما وقع فيه وفي الحقيقة انه وصله اعلان الامير بالحرب في المكتوب السابق فتغافل عنه وترك كل شيء على حاله واما الامير فانه لما طال عليه الانتظار لرد الجواب علم ان اعراض المارشال عنه دليل على عزمه على الحرب فكتب الى خلفائه وسائر اعيان رعيته في امر الحرب وامرهم بالاستعداد لها كما تقدم وعلى ذلك فلا اعتراض على الامير مطلقًا انتهى

ولما شاع خبر الاعلان بالحرب وسارت به الركبان وتحقق حاكم الجزائر وحاكم وهران باقتراب وقت النزال ومقارعة النصال بالنصال تحيروا في امرهم وخافوا من رجوع بغيهم عليهم وليس عندهم اذن من دولتهم في فتح باب الحرب ثم ان حاكم الجزائر بعث ابن دران الى الامير واصحبه بكتاب منه والامير وقتئذ في المدية ينتظر وصول الجيوش اليه وملخص كتابه على ماذكره مؤرخوهم انني لم ازل احافظ على السلم وقد قدمت رسالة الى الدولة ومنتظر جوابها فاصبر قليلاً وانني ارجو تسوية القضية بيننا بما يرضي ولا يخفى ان غوائل الحرب عاقبتها وخيمة . واتفق ان الامير كان وقت وصول ابن دران الى المدية في مجلس الشورى فلما بلغه خبره امر باحضاره واعطى الكتاب الى الامير فقراه على اهل المجلس وامر ابن دران ان يتكلم بما عنده من الاخبار

فلما سمع اهل المجلس كلامه وفهموا منه مرام مرسله اعلنوا له بما وقع عليه الاتفاق واجتمع عليه الرأي من اشهار الحرب ودخول ميادينه فراجعهم ابن دران وبين لهم سوء عاقبة ما اتفقوا عليه فقال له الامير وان يكن الامر كما قلت فانه اسهل عندنا من احتمال الاهانة فقال ابن دران الذي وقفت عليه من الاحوال ان الفرنسيس ليس لهم قصد في ضرركم ومرور ابن الملك في بلادكم انما كان على سبيل التنزه والتفرج فعلى هذا اقول ان عملهم على هذه الصورة لايستدعي الغضب ولا يوجب الحرب وبعد انفضاض المجلس انفرد الامير في قصره فاستاذن ابن دران في الدخول عليه فاذن له وقرر له ما اطلع عليه من اسرار المارشال وقواد العساكر الفرنساوية وكشف له الغطاء عن احوال الوقت ورغبه في مسالمة فرنسا وقال لايخفى ان الخصومة لا ينتج عنها الا ضعف القوى على اني لا ارى الحرب يوافق احوال سموكم فقال له الامير اني اعلم هذا ولكن اذا كانت الرعايا تطلب الحرب وآذانها اتفقت عليها فماذا اصنع لا سيما والفرنسيس عملوا ما يوجبها ومع هذا ساعقد مجلس الشورى مرة اخرى وافاوضهم في هذا الامر وفي اليوم الثاني امر باجتماع المجلس واحضار العلماء وقواد العساكر ورؤساء القبائل وبعد ان جلس الناس على حسب مراتبهم قال لهم الامير بالامس قد بينت لكم الاحوال واعربت لكم عن حركة الجيش الفرنساوي وتعديه على الحدود ومروره في بلادنا من غير علم منا وعرفتكم غوائل الحرب ومن المعلوم ان فتح بابها سهل ولكن الدخول في ميدانها صعب وحيث اني رايت اضطراب راي بعضكم بالامس جمعتكم اليوم فانظروا في امركم واظهروا ما ترغبون فيه بعد امعان النظر واني اطلب من الله التوفيق لما فيه عز الاسلام وصلاح الامة فاطرق القوم مليًا ثم قالوا بلسان واحد ان الموت اهون من العار وهدم اساس شرفنا فقد وافقنا الفرنسيس على ما طلبوه منا اولاً وثانيًا في معاهدة الجنرال دي ميشيل ومعاهدة الجنرال بيجو وحملنا انفسنا ما لا تطيقه والان لما تجاوزوا حدودًا ارتضوها وجرى الصلح عليها فلا بد ان يكونوا قد قصدوا باعتدائهم هذا ان يستولوا على بلادنا و يستعبدونا ودون ذلك بذل اموالنا وارواحنا فلا عدول عن الحرب والنصر مطلوب من الله القادر الذي لا نقاتل الا لاعلاء كلمته فلما سمع الامير كلامهم قال حيث انكم تريدون الحرب ولا محيص عنها فاعلموا انني لا اتاخر عن اعلانه مرة اخرى وهي المرة الاخيرة ومعاذ الله ان اتخلف عن الجهاد بل سأكون فيه بحوله تعالى وقوته امام صفوفكم غير ان لي حقًا عليكم وهو ان تعطوني عهدًا وميثاقًا على الطاعة و بذل النصيحة وان لا تساكوا معي ولا في سائر امور الدولة والملة

سبيل الخيانة والغدر وان لاتولوا الادبار يوم الزحف وان لاتخلفوا عن الجهاد ولذب عن الدين والبلاد عند ما اطلبكم لذلك فاجابوه الى ما امر به وحلفوا له عن آخرهم ونص يمينهم . بالله العظيم منزل القرآن على نبيه الكريم اننا لا نخون حضرة سيدنا ومولانا ناصر الدين سيدنا عبد القادر بن محيي الدين ولا نسلك في طاعته سبيل الغش والخديعة لا ظاهرًا ولا باطنًا لا سرًّا ولا جهرًا واننا لانتاخر عن صفوف الجهاد بل كلنا يقاتل لآخر حياته واننا نبذل اموالنا وارواحنا لحماية ديننا ووطننا ابتغاء لمرضاة الله ورسوله

وبعد ان قر القرار على اشهار الحرب صدر من المجلس الاعلان به على الطريقة المعتادة وصورته . بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً الحمد لله الذي انزل في كتابه المبين وفضل الله المجاهدين على القاعدين اجرًا عظيماً والصلاة والسلام على نبيه القائل الجنة تحت ظلال السيوف وعلى آله واصحابه واتباعه الذين قاتلوا في سبيل الله الوفًا بعد الوف وصفوفًا بعد صفوف اما بعد فان الفرنسيس المعتدين على البلاد الاسلامية بعد ما عاهدناهم وسالمناهم نكثوا وجالوا في بلادنا وعاثوا ومن نكث فانما ينكث على نفسه ومن المعلوم ان التهاون في مثل هذا والاغضاء عنه يزيدهم طغيانًا واعتداء علينا فلذلك قد اجتمعنا في مجلس عال بحضور سيدنا المعظم ومولانا المفخم ناصر الدين عبد القادر بن محيي الدين نصره الله لاجل المذاكرة في هذا الامر المهم والخطب الملم فوفقنا الحق تعالى جل جلاله للجواب وهدنا جادة الصواب واتفقت كلمتنا واتحدت آراؤنا على اعلان الجهاد والقيام بواجبه على اكمل استعداد وقد بايعنا حضرة اميرنا على الوفاء بواجبات الجهاد الشرعية وعقدنا على الصدق في ذلك النية وحررنا هذا الصك ليكون شاهدًا علينا فيما ذكرناه فاجيبوا ايها المومنون داعي الله وانفروا خفافًا وثقالاً الى ما دعاكم اليه ومن تاخر منكم فانما اثمه على نفسه كما ان لومه فيما يحل به من العقوبة الاميرية عليها . ومن الله نستمد العناية وهو ولي الهداية . حرر في اليوم الحادي عشر من رمضان سنة خمس وخمسين ومائتين . والسادس عشر من كانون الاول سنة تسع وثلاثين وثمانمائة في الديوان الاميري العمومي المنعقد في مدينة المدية المحمية . ثم ختم على هذا الصك الخلفاء والعلماء وقوّاد الجيش ورؤساء القبائل وبعد تسجيله قدم لاعتاب الامير فامر بتحرير الكتاب النهائي الى المارشال حاكم الجزائر ونصه

اما بعد فقد وصلني كتابكم صحبة الموسوي ابن دران واحاط علمنا بما فيه وقد كنت كتبت اليكم من مدة خمسة عشر يومًا ما فيه الكفاية والآن اعرفكم تعريفًا نهائيًا ان سائر اهل الوطن اتفقت كلمتهم واجتمع رايهم على استرجاع شرفهم بالحرب لانهم راوا

تجاوزكم الحدود المعينة في معاهدة تافنا مبطلاً لها ناقضاً لاساسها واما انا فقد اجهدت نفسي في تغيير آرائهم وصدهم عن قصدهم فلم يجد ذلك نفعاً بل زادهم هياجاً ورغبة في اشهار الحرب وجعلوا العهدة في تاخيره عليَّ وحدي فبناء على ذلك اعلموا انني ما خنت ولا نكثت عهدي معكم وانما ذلك كان منكم لامني فاذنوا لوكلائي عندكم في تعجيل الاوبة اليَّ وبالله المستعان . وبعد مسير ابن دران الى الجزائر اقبل الامير الى ما كان عليه من اعداد المهمات الحربية وبث الدعاة الى الجهاد في سائر النواحي فاقبل الناس الى الثغور وسارعوا اليها وفي ايام قلائل امتلات بهم الاغوار والنجود وجرى ترتيب الكتائب على اكمل وجه وظهر من انقياد الرعية للاوامر الاميرية وخضوعهم لها ما شاع في الاقطار وحدا به حادي القطار قال مؤرخهم ولما استقر رأي الامير على الحرب صدرت اوامره بالزحف الى البلاد التابعة لدولة فرنسا من كل جهة فهرع الناس اليها من كل فج عميق وتسابقوا نحوها من كل بلد سحيق امتثالاً لامر الامير واغتناماً لطاعته وما كان في يد الفرنسيس حينئذ من الارض لا يتجاوز الشطوط البحرية ولما انتهت المراجعات ورأى حاكم الجزائر ان تدارك الامر قد فات وقته وعلم انه لا محيد له عن الحرب جمع اعيان مجلس الجزائر واطلعهم على مكتوب الامير الذي جاء به ابن دران واظهر لهم الاسف على ما فاته من تدارك امره مع الامير الذي طالما دعاه الى المسالمة والبقاء على ما انعقد عليه الصلح في معاهدة تافنا فلم يلتفت اليه ثم جمع قواد العسكر وفاوضهم في امر الحرب وامرهم باختبار الجيوش وعرضها وتدربها واخذ الاهبة للزحف الى البلاد الاسلامية وقال لهم ان اول ما تؤمرون به انكم تقصدون المدن الكبيرة ومتى حصل لكم الاستيلاء على مدينة منها وجب عليكم ان تقيموا فيها ثم رتب لهم طرقاً ووجوهاً لتبليغ الاخبار الحربية اليه وكذلك الامير جمع رؤساء جيوشه المدربة والمتطوعة وامرهم بالزحف الى الاماكن التي يوجد فيها عسكر فرنسا وامرهم بالهجوم على الحصون واستعمال التورية في المسير الى الجهات وعين لهم من يبلغ اخبار كل فرقة الى الاخرى ورتب بريداً مخصوصاً به يبلغه اخبار سائر الفرق

﴿ ذكر بدىء الحرب ﴾

اول سرية كانت باكورة الحرب سرية مجوط وذلك ان الامير امر قائدهم بالغزو على ما يليه من ارض العدو فسار بهم ولما تجاوز نهر الشفة الذي كان يعتبر حداً في ايام الصلح شن الغارة على قبيلة اولاد غانم الدائنين بطاعة فرنسا فغنم سائر ما يملكونه

من ماشية ومتاع وفي رجوعهم لقيهم حشد من المتنصرة نصرة لهم من اهل تلك الجهة فناوشوهم القتال فانكسرت المتنصرة وقتل قائدهم وانقلب قائد حجوط بالغنائم الى بلاده وقسمها في قومه وهذه الوقعة كانت مقارنة لوصول وكلاء كل فريق اليه ولما اتصل خبرها بحاكم الجزائر امتعض لذلك وجهز فرقة من جيشه وبعثها لقتال حجوط فالتقوها عند نهر الشفة وانتشب القتال بين الفريقين ولحق بكل منهما اضرار تستحق الذكر ورجع عسكر الفرنسيس الى الجزائر بلا طائل وبعث الحاكم الى وزير الحرب بالخبر وذكر له ما سينتج هذه الوقعة من النوائب وطلب الاسعاف بالعساكر والذخائر

ذكر غزوة متيجة

ولما فرغ خلفاء الجهة الشرقية من استعداداتهم امرهم الامير بالغزو على متيجة وما اليها كل منهم مما يليه وكان مسيرهم جميعاً في اليوم الرابع والعشرين من رمضان واول يوم من دسمبر وكانت مداشر الفرنسيس التي اختطوها مالئة لذلك السهل الممتد شرقاً وغرباً مسيرة ايام ولما قربوا من تلك البسائط شنوا الغارة عليها فاثخنوا في ساكنيها بالقتل والاسر والسبي واكتسحوا اموالهم وحطموا زروعهم واحرقوا سائر مداشرهم وابنيتهم واستولوا على كافة ما عندهم من ماشية واثاث وذخائر ولم ينج من القتل في جميع جهات متيجة الا ما ندر ولم تزل جيوش المسلمين تجدد الغارة على التوالي يوماً فيوماً الى ان انتهوا الى بساتين الجزائر وضاق الفضاء على ما استولوا عليه من صنوف الغنائم قيل ان هذا الهجوم كان مهولاً لم يسبق له نظير لان عساكر الامير بمجرد هجومها افنت سائر من كان موجوداً من الفرنساويين في سهل متيجة وغنمت كافة ما كان عندهم من سلاح وذخائر ومهمات وما يملكونه من اصناف الحيوان ثم صدر امر الخلفاء بحرق سائر الابنية في تلك البسائط فامست رماداً تذروه الرياح وفر الناس امامهم افواجاً الى مدينة الجزائر فكان دخولهم اليها من الامور المزعجة فرجفت قلوب اهلها عموماً حتى المارشال فانه انتقل من قصره خارج البلد الى داخلها وتبعه من كان ساكناً في البساتين وعم الرعب سائر القلوب ثم رجع الخلفاء بجيوشهم وما في ايديهم من الغنائم الى المديه لان الامير كان ينتظرهم فيها ثم توجه الخلفاء الى ولاياتهم لسد ثغورهم والقيام بشؤنهم لعلمهم ان العدو لا يتغافل عن هذه الوقعة الهائلة قال المؤرخ وبعد ان وقع ما وقع في سهل متيجة ارسل المارشال فالا يخبر دولته بهذه الغزوة الاسلامية التي اخافت العموم والجات الجيش الفرنساوي

الى التحصن باسوار مدينة الجزائر

﴾ ذكر وقعة ابي بهير ووقعة بوفاريك ﴿

وفي الخامس والعشرين من شوال سنة خمس وخمسين ومائتين وثاني يوم من يناير سنة اربعين وثمانمائة التقى جيش تجوط مع جيش العدوّ على نهر ابي بهير من مدن بني يراتن من زواوه وانتشب بينهما قتال تكافآ فيه وخرج جيش آخر من بوفاريك حصن في ضواحي الجزائر قاصداً الى البليدة فزحف اليه المسلمون والتقى الجمعان بالقرب منهما واشتد القتال بينهما وبالعشي الح المسلمون على العدوّ وحملوا عليه حملة رجل واحد فرجع القهقرى ثم جمع امره وهجم على المسلمين فانكشفوا ثم قلبوا الكرة عليه وصدقوه القتال فتقهقر ثم حال الليل بين الفريقين وفي اليوم الثاني خرج جيش من البليدة مدداً للعدوّ فتمكن بهم من دخولها .

﴾ ذكر غزوة مستغانم ﴿

وفي الثامن عشر من ذي القعدة والرابع والعشرين من يناير خرج خليفة معسكر غازياً على نواحي مستغانم فعاث فيها وحطم زروعها واثخن بالقتل والاسر ونازل مزغران واخذ بمخنقها وقطع عنها المدد من مستغانم ثم بعد مدة جاءها المدد من وهران لتقوية حاميتها ولما طال الامر افرج الخليفة عنها واغار على نواحي وهران فاستاصل عدداً كثيراً من المرتدين المقيمين في ضاحيتها واكتسح اموالهم وارهب العدوّ ثم انقلب راجعاً الى حاضرة ولايته وطير الخبر الى الامير بذلك وبهذه الوقائع المتتابعة امتلأت قلوب الفرنساويين رعباً وبعثوا صريخهم الى دولتهم فانجدتهم بعشرين الف مقاتل وذخائر حربية وكراع للنقل وبهذا العدد تم عندهم ستون الف جندي على ما ذكره روا في تاريخه

﴾ ذكر خروج حاكم الجزائر الى المدية وصده عنها ﴿

وفي السابع والعشرين من ذي القعدة والثاني من فبراير سنة الف وثمانمائة واربعين خرج المارشال فالا بجيش كثيف من الجزائر الى البليدة ومنها سار قاصداً المدية فاعترضه خليفة مليانه بجموعه وناشبه الحرب واشتد القتال بينهما ثم وقع الفشل في حشود البربر فانكشفوا وثبت الخليفة في الجند المنظم فكاثرهم العدوّ وزحزحهم عن مصافهم وكثرت القتلى والجرحى في الفريقين واتصل القتال يوماً كاملاً وفي الغد اصبح المارشال راجعاً الى الجزائر .

﴿ ذكر مسير الفرنساوية الى مرسى شرشال ﴾

وفي الحادي عشر من المحرم سنة ست وخمسين والسادس عشر من مارس سنة ثمانماية وار بعين خرج المارشال فالا من الجزائر الى شرشال وهي اسكلة صغيرة على مرحلتين من الجزائر يسكنها قليل من البربر والكول اوغلان ولم يحتفل الامير بها لانها قريبة الماخذ للعدوّ ولما توسط المارشال الطريق اليها اعترضته القبائل القريبة منها واوقفوا حركته اياماً عديدة مع كثرة جيشه حتى انه همّ بالرجوع عنها قال بعضهم خرج المارشال من الجزائر في جيش كثير العدد متوجهاً الى شرشال وبعد صعوبات وخسائر كثيرة دخلها ورتب فيها حامية كافية .

﴿ ذكر وقعة موزايه ﴾

وفي الثامن والعشرين من المحرم والثاني من ابريل وصلت النجدة الى الجزائر من فرنسا ووصل الدوك دومال ابن ملك فرنسا ومعه شقيقه الدوك دورليان فنشط الفرنساويون في الجزائر من عقالهم وفرح المارشال فالا ثم اعتزم على المسير الى المدية حاضرة تيطري فخرج في اثني عشر الف جندي وطار الخبر الى الامير وهو في المديه فعرض عساكره وسار الى مضيق موزايه وكان رتب الجيوش فيه كما تبها في غيره من المعاقل والمضايق التي في طرق العدوّ الى الداخلية ولما انتهى العدوّ الى ثنية موزايه في التاسع من ربيع الاول والحادي عشر من ايار اعترضه الامير في العساكر الاسلامية وضرب على مضيقها المصاف واضرم على العدوّ نار الحرب وفي آخر النهار رجع المارشال القهقرى وارتد في عساكره وبات كل فريق في موضعه الذي ادركه الليل فيه وفي بكرة اليوم الثاني تجددت الحرب واشتد القتال وكان الدوك دورليان في مقدمة المارشال فكان اكثر الوبال على جيشه ثم اجتمعت صفوف العدوّ والتحم بعضها ببعض وحملت على المضيق حملة رجل واحد فتوسطوه وانثالت العساكر الاسلامية عليهم من كل جهة واختلطت بهم وتقاتلوا بالسيوف والحراب وصبر العدو الى ان خرج من ذلك المعقل الشديد واتصل الحرب في هذا النهار الى الليل وفي اليوم الثالث ارتحل وسلك طريق المديه واحاط به المسلمون يناوشونه القتال ويدافعهم باطلاق المدافع عليهم وكلما وصل الى مضيق او حرش من الاحراش يخرج له كمين يمنعه من التقدم فتارة يتقهقر ويرتد اوله على آخره وتارة يقف في موضعه ويرتب جيشه في صورة قلعة يحيطها بالمدافع ويبيت او يظل على تلك الهيئة ثم يرتحل وهكذا دابه في جميع مسيره ولما قرب من المديه اشتد عليه الحال

وتكاملت الجيوش والحشود الاسلامية وحملت عليه وتفاقم الامر قال بعض مؤرخيهم فكان اطلاق النار مستمرًا متصلاً حتى لاح للناظرين وقتئذٍ كأن تلك البقعة بحر من الكبريت التهب نارًا ولما راى الامير قرب العدو من المدينة امر باخلائها فخرج اهلها بما خف الى الجبال القريبة منها وتخلص العدو الى المدينة فوجدها خالية تتأجج النار في منازلها وكان دخوله اليها في الخامس عشر من ربيع الاول والثامن عشر من مايه وبعد ان رتب فيها حامية اقرب من خمسة آلاف مقاتل ابتد راجعًا ولم يزل في طريقه في قتال ودفاع الى ان وصل قرب البليدة واما حامية المدينة فانها امست يوم خروج المارشال منها محصورة لان الخليفة السيد محمد البركاني نازلها بالجيوش وقطع جميع ما تنتفع به وكانت هذه الوقعة ايام الصيف فنال الحامية من شدة الحرّ وضيق الحصار ما لا مزيد عليه وآل الامر الى تلف الجل منها ذكر روا في تاريخه ما ملخصه سار المارشال قالا في اثني عشر الف مقاتل من عساكر فرنسا ومعه الدوك دومال وشقيقه الدوك دورليان اللذان حضرا من باريس ليشتركوا معه في هذه المحاربة وقصدوا سيف مسيرهم مضيق موزايه ليتوصلوا منه الى المدينه فاتصل خبرهم بالامير عبد القادر فسد في وجوههم المضيق بالعساكر العربية ورتب كمين في اماكن كثيرة في طريقهم فكانوا كلما ساروا مرحلة صادفوا مصادمة قوية ومهاجمة لم تكن منهم على بال فتارة يضطرون للتاخر الى وراء وتارة يحوجهم الامر الى التوقف عن المسير وهكذا في كل مرحلة قطعوها حتى كادوا يفقدون قوتهم بالكلية

ثم ان المارشال واولاد الملك انثنوا من الرجوع على هذه الحال فصبروا على مقاساة نيران الحروب العربية وعند وصولهم الى مضيق موزايه صادفوا ما بهر عقولهم من المقاومة الشديدة وكان الامير وجيوشه على رؤوس تلال محصنة بتاريس طبيعية من الصخر الصلب ولما اخذت عساكر فرنسا تمر في المضيق انقضت عليها جيوش الامير والتحموا بها واتصل هذا بهذا وصاروا الى المقارعة والمصارعة فتخلص الدوك دورليان من المضيق بفرقته بعد ان نقد اكثرها وهان الامر على من وراءه من الجيوش الفرنساوية ثم رجع المارشال واولاد الملك بجنودهم بعد ان تركوا لحماية المدية خمسة الاف عسكري مع ما يلزمهم من الاقوات والمهمات وصادفوا في طريقهم اهوالاً يقشعر الجلد عند ذكرها لا سيما في مرورهم في وادي الزيتون وشعراء تلك الجبال الصعبة المسالك وسيف اثناء طريقهم اقاموا اياماً لراحة الجند مما قاسوه من المشاق الهائلة التي لا يمكن لمؤرخ ان يصفها ولو تقريباً وفي مدة اقامتهم في ذلك الموضع اعتزموا على المسير الى مليانه

وقتل الدوك دورليان ابن الملك في احدى هذه المعارك فاشاع الفرنساويون انه وقع من العربية فمات وقد بلغني ان تلك المعركة مصورة مجسمة في ساحة وسط مدينة الجزائر

ذكر مسير الفرنساوية الى مليانة

وبعد وقائع موزايه والمديه توجه الامير الى مليانه لما كان يتوقعه من قصد العدو اليها ولما اتصل به خبر مسيرهم في طريقها امر اهلها بالجلاء عنها كما فعل في المديه فخرج الناس بما تيسر حمله من اثاثهم وامتعتهم وتركوها خالية ثم ان الامير والخليفة السيد محمد بن علال جمعوا جيوشهم مع العسكر النظامي والتقوا بالعدو في طريقه واذاقوه حرارة الحرب ومرارة القتال فلم يصده ذلك عن قصده ولما قرب منها حمل عليه المسلمون حملة ما سبق له مثلها منهم واتصل ذلك نهارًا كاملاً وفي الغد اصبح سائرًا والمسلمون يلحون عليه في القتال ولم يصدهم عنه تتابع النكال المرسلة عليهم كما ان العدو لم يصده الحاحهم عليه وسد الاودية والمضايق في وجهه حتى وصل الى بساتينها فتجموا عليه واختلطوا به وثار الغبار واظلم الجو حتى لا يكاد يتميز العدو من الصديق واظهر المسلمون من الشجاعة والاقدام ما اذهل عقول الفرنسيس وغيبهم عن انفسهم حتى كان بعضهم يضرب بعضاً وهم لا يشعرون ولما كان القدر الالهي مساعداً لهم اقتحموا هذه الشدائد وتخلصوا الى المدينة فدخلوها في التاسع من ربيع الثاني والحادي عشر من يونيه وبعد ان اقاموا فيها اياماً رتبوا فيها حامية كالمديه ورجعوا الى الجزائر واكتنفتهم الجيوش الاسلامية واذاقوهم نكال الحرب واشتد بهم الامر قال مؤرخهم وتركوا جرحاهم ومهماتهم في يد عدوهم وما وصلوا الى البليدة الا وهم على آخر رمق ولا استطاعوا ان يسيروا منها الى الجزائر الا بعد ان جاءهم المدد منها واما تلك الالوف التي خرجوا بها فقد اتى التلف عليها الا شرذمة قليلة تخلصوا بها الى البليدة ورايت في تاريخ فاليلوت الفرنساوي كتب يبحوان المارشال فالا في اثناء هذه الحروب كتب الى قبائل تلك النواحي يدعوهم لطاعة الدولة الفرنساوية ولم يتعرض لنص المكتوب وانما ذكر الجواب وملخصه من عباد الله القادر المؤمنين به وبرسوله مبيد الكفرة بسيفه الباتر الذين يحاربون اعداء الله لاعلاء كلمته وتعظيم اسمه القاهر الخاضعين لاوامر الله واوامر مولانا ناصر الدين سيدنا عبد القادر بن محيي الدين ايده الله آمين الى حاكم مدينة الجزائر السلام على من اتبع الهدى اما بعد فقد وصلنا كتابكم المشتمل

على دعوتنا الى طاعتكم والنداء الينا فاخذ بنا العجب في كل طريق ومذهب وهل في الدنيا ذو عقل سليم يتصور هذا في فكره فضلاً عن كونه يتلفظ به او يكتبه وكيف نترك ديننا الذي هو الدين القويم والصراط المستقيم ونتبع دينكم الذي يجب علينا في شريعتنا ان نقاتلكم حتى نردكم عنه الى ديننا اما علمتم ان ديننا مبطل لسائر الاديان وشريعتنا ناسخة لكافة الشرائع ولو انصف علماؤكم لاقروا بهذا لانه مقرر في سائر الكتب الالهية كالتوراة والانجيل وانّ حب الدنيا مع خوفهم على مناصبهم عندكم غطى على قلوبهم وحرفوا الكلم عن مواضعه واظهروا لكم ما يناسب اغراضكم من التعلق بزينة الدنيا وزخارفها وسيعلم الذين ظلموا اي منقلب ينقلبون ثم اعلموا اننا بحوله تعالى وقوته لا نزال نحاربكم وندافعكم عن ديننا واوطاننا الى ان تقفوا على سوء عاقبة ما ارتكبتموه من عظيم الذنب واي ذنب اعظم من تعديكم على بلادنا اولاً ثم سعيكم في تغيير ديننا ثانيًا اما علمتم ان سائر الاديان والنواميس الازلية تامر بالعدل وتنهى عن الظلم والتعدي على الحقوق كما هو منصوص عليه في الانجيل الذي انزله الله على نبيه ورسوله سيدنا عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام فلو كنتم على دينه كما تدعون ما قطعتم البحر الينا لتاخذوا بلادنا وتغيروا ديننا فما نسبتكم من دين الله ورسوله الا كنسبة الثرى من الثريا وبالجملة فنحن لا نترك ديننا ولا نتخلى عن طاعة مولانا واميرنا وسيدنا عبد القادر ابن محيي الدين والله تعالى يقضي بيننا وبينكم بما شاء فان الارض ارضه والملك ملكه ونحن عبيده يفعل فينا وفيكم ما يشاء ويحكم ما يريد حرر في سابع عشر ربيع الاول سنة ست وخمسين ومائتين والف من الاعيان والاكابر والاعوان والقواد في ولايتي تيطري ومليانه . ثم قال وكتب لهم مرة اخرى وجعل مدار ما كتبه على امر الاسرى الذين هم في قبضته من العرب ومحص جوابهم

الى حاكم الجزائر السلام على من اتبع الصراط المستقيم والدين القويم قد وصلنا مكتوبك وفهمنا ما اشتمل عليه من كونك جعلت الدعوة الى الخضوع لدولتكم مبنية على اطلاق الاسرى منا عندكم وقصدت بذلك ان فكهم موقوف على طاعتنا لكم فاعلموا ان عندنا اسرى منكم وعندكم اسرى منا فان شئتم الفدا فلا باس وان ابيتم ذلك فان الامة الاسلامية لله الحمد كثيرة العدد وافرة المدد والاسرى منهم لا يزيدون في عددكم ولا ينقصون في عددنا واما اجراء الوجه الذي ذكرتموه فان دونه خرط القتاد وسوق الاجناد بل لا نقبل ان نسمعه وكيف خطر هذا في افكاركم ام كيف تخيلتم اننا نخضع لكم وندخل في طاعتكم لاجل خلاص اشخاص عددهم من

الخمسين الى المائة مع دعواكم قوة الفطنة والذكاء وجودة الرأي وان اغتررتم باحوال القبائل في نواحي قسنطينه من كونهم لبوا دعوتكم واسرعوا الى الدخول في طاعتكم فما ذلك الا لضعف دينهم ومرض قلوبهم بداء النفاق واستيلاء الجهل على كبيرهم وصغيرهم اما نحن فلسنا مثلهم ولا ترؤا منا بحوله تعالى وقوته الا ما يخرج من افواه البنادق وتفعله السيوف عند التحام الصفوف لاسيما وقد اتفق الآن سائر اهل الوطن على تاييد كلمة الاسلام والذب عنها على الدوام الا اذا شاء الله خلاف ذلك فلا راد لقضائه وقولكم انكم ابتنيتم في جهة بني صالح قلاعاً حصينة اردتم بها ايقاع الرعب في قلوبنا فهذا لايؤثر فينا ولايوهن عزمنا وقد سبقتم لمثل هذا في المديه ومليانه وشحنتموها بالعساكر والذخائر ولم نهتم بشيء من ذلك بل رأيناه من سوء التدبير وقبيح النظر كانكم اردتم باهلاك المساكين سجنهم او قصدتم نفيهم او جعلتموهم وليمة للموت ولذلك اننا نرى كل يوم يتهيأ منهم عدد وافر على مائدتها ونرى افواجاً يفرون الينا صارخين برطانتهم بما معناه الجوع الجوع فنرحمهم جرياً على عادتنا من الشفقة على امثالهم ومن بقي منهم في داخل المدينتين فهو محصور مقهور هكذا يكون نصيب عساكركم منكم ومع ذلك فانكم تخدعون ضعفاء العقول منا بالاماني الكاذبة واما وعيدكم لنا وتهديدكم بالاستيلاء على بلاد موزايه وبني صالح فاننا لا نعيره اذناً سامعة واهل تلك البلاد اينما توجهوا يتيسر لهم امر معاشهم فان ارض المسلمين واسعة شاسعة الاطراف وفيها الكفاية لهم ولغيرهم وعلى كل حال فلا شرف لكم في التغلب على عباد الله وانما الشرف والفخر في عمران بلادكم التي نشأتم فيها خلفاً عن سلف وفي اقامة قسطاس العدل واستعمال مكارم الاخلاق واما افعال كهذه فلا شرف فيها وقولكم اخبرونا عن احوال المغرب فلا خبر عندنا الا الحث على الاستعداد للجهاد فيكم والتواصي بالصبر على قتالكم ولا نعلم من انفسنا الا اننا نؤمن بالله تعالى وبرسوله الينا وان لنا اميراً مسلماً شريفاً من ذرية رسول الله صلى الله عليه وسلم عالماً عادلاً واننا لانفعل الا ما امرنا به على وفق ديننا وشريعتنا واننا لا نغتر بمواعيدكم ولا بكلام الذين خالفوا الاوامر الالهية من ابناء ملتنا ليعيشوا عندكم في راحة حسبما وعدتموهم وما ذكرتموه من قوة الدولة الفرنساوية فانا لا نعرفه وانما المعلوم عندنا والمحقق لدينا هو عظيم قوة الله القادر سبحانه وتعالى

﴿ ذكر احوال الفرنساوية بعد الحروب السابقة ﴾

كان المارشال فالا يظن انه متى استولى على مدينتي مليانه والمديه تنقاد له القبائل وتمتد له الطاعة في تلك النواحي فبدا له من الله ما لم يحتسب ولم يحصل على طائل فيما كان يتمناه من الفخر وتخليد الذكر عند دولته وآل امره الى العزل والتوبيخ على سوء سيرته وقبيح سياسته وما ارتكبه من تطويح عساكرها في مهاوي الهلاك فيما بين مدينتي مليانه والمديه والجزائر وما لحقها في تلك الاودية الوعرة والجبال الصعبة المسالك من الشدائد التي كادت تاتي على آخرها وقد ظهر لي ان اذكر هنا ما ذكره فاليوت كاتب المارشال بيجو في تاريخه نقلاً عن بعض القواد الذين حضروا ذلك وعاينوه بل ذاقوا مرارته وتكبدوا مشقته واقروا به ولم تحملهم العداوة على كتمانه ولا دعتهم الحمية الى موافقة حاكمهم في كذبه وبهتانه فقال ما ملخصه اجتمعت في الجزائر ببعض قواد جنودنا الفرنساوية فاخبرني بجميع ما شاهده وحضره في بلاد العرب فقال انني في مدة الشهر الاول من اقامتي في بلاد الجزائر شاهدت سوء حال الفرنسويين وعاينت الشدائد التي كانت تحدث يوميًا ورايت ارتباك الحاكم العام في تدبير سياسته التي بلغ فيها الى مركز صعب لان امره كان يقضي عليه في كل وقت ان يبعث نجدات وذخائر ومهمات حربية متتابعة الى العساكر التي وضعها في المديه ومليانه وهذا لا تصل يده الى ذلك في كل وقت لان الجيش الذي عنده في الجزائر لا يقوم بذلك والذخائر والمهمات التي اعدها لما هو بصدده نفدت واحضار مثلها من فرنسا متعذر من وجوه اعظمها انه لا يريد كشف الغطاء للدولة عن اموره كلها خوفًا من توجيه العتاب اليه على سوء تصرفه فلذلك رايناه في حيرة دائمة وارتباك متصل ثم الجاه الحال الى اخلاء كثير من الحصون التي كان جمع ايدي العسكر على تشييدها ومن جملتها حصن فودوك المهم والحرس الذين كانوا فيه رايتهم على اسوء حال سود الوجوه من حرارة الشمس نحفاء الاجسام من ضنك المعيشة وشدة الامراض ولقد رايت من فضل منهم عن الموت عند ما صدر لهم الامر بمبارحة ذلك الحصن فرحوا كثيرًا ثم ان الحاكم راجع رايه وعين فيه حامية من العرب الخاضعين له ولما كانت دواب النقل غير كافية اضطر الحاكم الى اخذ دواب اهل الجزائر ومن دخل في الطاعة من اهل ضاحيتها واستعملها في النقل فصعب ذلك على الناس وتعطلت اشغالهم كما ان الجيش لحقه الضجر الشديد من تتابع الاسفار وبذلك تكدر مورد راحة

العموم وصار الجيش يجاهر قواده بالعصيان وعدم الانقياد لاوامرهم فقام الحاكم لذلك وقعد وتدارك الامر في تسكين روع الاهالي وتطييب قلوب الجيش ولا طائل تحت ذلك لان الكثير منه قد مات بالامراض المختلفة التي علقت باجسامهم وفشت بين صفوفهم وفعلت بهم ما فعلته سيوف العرب ورصاصها حتى ان حامية مليانه لم يبقَ منها سوى اثني عشر عسكريًا ثم ازمع الحاكم على المسير بنفسه لتبليغ الذخيرة الى المدية فخرج في فرقتين من الجيش وكنت احد القواد فيهما واخرج معه عددًا كثيرًا من الدواب وعجلات النقل مشحونة بالذخائر والمهمات وخروجه كان في صورة غير منتظمة لسآمة العسكر وسائقي العجلات والدواب وذلك لكثرة ما تكبدوه من المشاق المتوالية فكنت اراهم مظهرين الغضب والحنق على الحاكم ومن كان على رأيه من القواد وكانوا لا يتحاشون الفاظ السب والشتم بلغاتهم المختلفة ثم وصلنا في مساء ذلك اليوم الى الدويرة وهي قرية صغيرة على مرحلة من الجزائر فيها فندق فدخلته فاذا هو مظلم وسخ ضيق المساحة وفي صباح اليوم الثاني ارتحلنا وبعد ان قطعنا مسافة قليلة وصلنا الى قرية بوفاريك ثم سرنا الى البليده فوصلناها عند الزوال وهي بلدة جميلة المناظر خصبة المزارع وموقعها في انتهاء سهل متيجه عند الاطلس ماؤها عذب رائق وحولها حدائق الليمون بانواعه ومن شدة تعلق اهلها به يغرسونه داخل البيوت فكانت روائح الزهر عند دخولنا اليها عابقة في ارجاء المدينة وضواحيها وقد سمعت ممن لهم خبرة باحوال تلك البلاد ان هذه البلدة اتى عليها الخراب مرات عديدة لتوالي الزلازل عليها وكان من جملة القواد في عسكر البليده الجنرال شانكرني والجنرال دو فيفير وقد رأيت العسكر الموجود فيها على غاية الانتظام الا ان الرعب مع اخذ الحذر في كل آن اثر في اجسامهم نحولة وفي وجوههم صفرة وفي اليوم الثاني ليوم وصولنا جهز الحاكم ثلاث فرق من حرسها وضمهم الى فرقته التي خرج بها من الجزائر فسرنا معه قاصدين المديه ولما وصلنا جبال تجوط وجدنا جموع العرب في الطريق فانثالوا علينا من كل جهة وناوشونا القتال فكنا في مسيرنا على حال الدفاع ولم نتمكن من اطلاق المدافع عليهم لضيق المسالك وكثرة الاحراش ولما انتهى مسيرنا الى اول مضيق وجدنا فيه حامية من عسكرنا معهم مدفعان صغيران فنزلنا عندهم ثم ان الحاكم امر الجنرال شانكرني ان يتقدم امامه بفرقته الى مضيق موزايه ليستكشف له الاحوال هناك فسار قبلنا وسرنا خلفه وسار الجنرال دوفيفير بفرقته في طريق اخرى غير طريقنا وكانت جيوشنا تسير في تلك

الاودية الوعرة وحشود العرب عن اليمين وعن الشمال يرسلون علينا رصاصهم المتوالي مثل البرد المسترسل ومن العادة ان المدافع تدحر العدو وتفرج كرب العسكر ولضيق الطريق لم يتمكن الموكلون بها من اطلاقها بل لم يتمكن الواحد منا ان يخطو قبل ان يخطو الذي امامه فناهيك بطريق حرج يكتنفها من الجانبين حائط عالٍ طبيعي من الصخر وبعد بضع ساعات وصل اول العسكر الى المضيق الاعظم وهو مضيق موزايه الشهير وكان وصولهم اليه في حالة محزنة من شدة ما لحقهم من التعب وهناك اجتمعنا بالجنرال شانكرني واما الجنرال دوفيفير فانه قد سلك طريقاً اخرى وكانت طريقه اصعب من طريقنا ولم يتخلص منها الا بعد ان هلك اكثر فرقته لان العرب احاطت به جموعهم وانصبت عليه انصباب الصخر من اعلى الجبل الى قعر الوادي وضايقته حتى كاد عسكره ان يلقي السلاح ويطلب الامان ثم صبر ودافع واخذه القتل من كل جانب ولولا ان العرب لحقهم التعب من تلك الاوعار التي تكبدوا سلوكها الجاءه على آخره وبسبب فتورهم عنه انتهز الجنرال الفرصة في التخلص من ذلك المضيق العجيب بعد ان نقد من ضباطه اربعة وخمسون ضابطاً ولم اقف على عدد ما نقد من العسكر واما نحن فقد امرنا الحاكم بالعبور في المضيق الاعظم كيفما كان الحال فاجتمع القواد ورتبوا الجيش صفوفاً فلم يتمكن لهم ذلك وجعلوه على صفين متلاصقين كتف هذا عند كتف هذا اذ لا يسع الممر اكثر من ذلك واشتعلت نار الحرب بيننا وبين العرب وكان الحاكم العام انفرد في بطانته على كثيب عال على فم المضيق ليعاين منه مرور الجيش فكنت ارى الرصاص ينزل عليه وعلينا كالمطر وجرح من اصحابه ثلاثة وكنت ارى العرب كالاسد الضارية يقتحمون علينا تارة بالسيوف والحراب وتارة يتقون بالصخر القريب منا ويرموننا بالرصاص وبهذا كانت اصابتهم لجيشنا اكثر من اصابته لهم ثم خرجنا من ذلك المضيق الى سهل الزيتون فبتنا فيه تلك الليلة على آخر نفس من شدة ما لحقنا من الوبال ونالنا من عظيم الاهوال وفي غد ذلك النهار ارتحلنا على طريق المدية والعرب لم تفارقنا طرفة عين بل تسير حوالينا على حسب سيرنا ولم تفتر عن مناوشتنا مع الصراخ والشتم ولم تزل على ذلك الى ان انتهينا الى ساحة المدية فخرج القائد كافيناك منها ملاقياً لنا فلما رآه الحاكم عجل اليه وعانقه وساله عن حال الحرس فاخذ يصف له ما هم عليه وما قاسته الحامية من الضنك الشديد وما نالها من الامراض التي افنت اكثرها وذكر له ان المدينة لم يبق من عمارتها سوى المساجد المحكمة البنيان وانه اضطر الى ان يتخذها ماوى لمرضى وانه من شدة البرد وعدم وجود

الحطب اخذنا اخشاب سقوف البيوت الفاضلة عن الحريق لسد عوز العسكر في التدفئة والطابخ و بالاختصار كانت تلك الاخبار محزنة مكدرة جداً فاقمنا تلك الليلة للاستراحة وفي الغد دخلنا البلد وقدم لنا الحرس بقولاً خضراء زرعوها في خرابات البلد مع جملة وافرة من البيض والدجاج الذي اتخذوه لانفسهم وقاموا بتربيته وهذه البلدة موقعها جميل فهي مبنية على تل كبير ينحني قليلاً لجهة الجنوب وفيها آثار قلعة قديمة يقال انها من ابنية الرومانيين ومن حيث ان جموع العرب لا تترك شيئاً ينتفع به الفرنساويون في هذه المدينة ولا تتخلى عن حصارها ساعة واحدة كان من الواجب دوام ارسال الذخائر اليها وهذا لا يتاتى الا بعد اتعاب ومشقات شتى لان المقدار من الذخائر الذي يجب ان تبعث لهذا الحرس في كل مرة لا يمكن ان يكون اقل من الف وخمسمائة حمل ولا بد ان يتكرر ارسال هذا العدد اكثر من عشرين مرة في كل سنة والمسافة من الجزائر الى المدية لا تنقص عن خمسة عشر يوماً ولا يمكن السير في طريقها الى مدة الصيف ومع ذلك فان الاخطار متوالية فان لم تكن من الامطار والثلج فمن فرسان العرب وبناء على ما ذكرناه فلا بد ان يترك الحرس مراكزه و يرجع الى الجزائر والا فانه يبقى فيها اسيراً يترقب الفرج من الله تعالى ومن المعلوم ان سائر اعمال الجيش الفرنساوي في هذه المدة انحصرت في الاستيلاء على مدينتي مليانه والمدية والغاية المقصودة من وضع الحرس فيهما هي اتخاذهما مركزين عظيمين يتمكن الجيش فيهما من محاربة العرب في جميع الجهات الداخلية ولا يخفى ان الوصول الى نتيجة هذه الآراء يتوقف على استعمال حزم شديد وساعد من حديد ثم ان الحاكم بعد ان اقام في المدية اربعة ايام امر بالاستعداد للرجوع الى الجزائر وسار على طريقه وما سرنا مقدار غارة حتى ظهر لنا نحو الف فارس من العرب شاكين السلاح واخذوا يطلقون بواريدهم علينا و بعد ان عبرنا اودية عميقة كانت في طريقنا هجمت جيوشنا عليهم ففرقتهم وبلغنا انه جرح منهم عدد كثير كما وقع ذلك في جيشنا ثم لم يلبثوا ان عادوا الينا وما زالوا محيطين بنا عن بعد يناوشوننا القتال الى ان وصلنا غابة الزيتون فبتنا فيها تلك الليلة وبات العرب في مواضعهم بالقرب منا وفي الغد انكشف الظلام عن مقدار الف وخمسمائة فارس وفرقتين من العسكر المنظم فانضمت اليهم الجموع السابقة وجعلوا مسيرهم على الميمنة في طرف الجبل و بوجود هذه الجيوش الكثيرة التي كان الامير عبد القادر قائدها توقف جيشنا عن المسير ولما نظر بعض المهندسين الذين كانوا معنا مسير الامير وترتيب جيشه قال ان هذا السير يعد

من مكائد الحرب التي كان الامير يستعملها فطالما نجح بهذا الاستعمال الذي قضى بتكبد الفرنساويين والحقهم خسائر جسيمة ثم ان الامير لما رأى جيوشه قد قربت من عساكرنا بوجه لا يهتدى اليه الا من مهر في امور الحرب ومكائدها امرهم بالحملة عليه فحملت الفرقة الاولى ثم الثانية ثم الثالثة ثم الحشرد على التتابع واشتد القتال واحمرت الحدق واتصل ذلك عدة ساعات ثم انفصل كل فريق عن الآخر وانكشف الجو وتبين ان العرب لحقها ضرر جسيم ولكنه ليس باكثر مما لحق بجيشنا وجرح الجنرال شانكرني في كتفه ولم يثبت لمقاومة جيشنا من تلك الفرق والجموع الا الفرقة النظامية التي كانت تحت قيادة الفارس العربي الشهير بالشجاعة وهو محمد البركاني خليفة الامير في مقاطعة تيطرى ثم خمدت نيران الحرب واخذ جيشنا في السير وفي اليوم الثاني عاد الامير الى محاربتنا ولولا ان المطر الغزير المتتابع حال بيننا وبينه لآل الامر الى خسارة عظيمة وربما كانت تاتى على آخر جيشنا لشدة ما لحقه في هذه المراحل المتوالية من تعب السير ومقاومة الخصم ونقص عدده بالموت في تلك الحروب الهائلة مع عدم تمكننا من الاقامة والراحة لاننا توردنا في جبال شاهقة واودية وعرة لانعرفها واهلها عداء لنا والمدد مأيوس منه ثم بعد مشقة زائدة تمكنا من عبور المضايق وسلكنا في طريق سهل الى متيجه واتصل سيرنا الى الجزائر فدخلناها على هيئة يرثى لها واما الامير عبد القادر فانه لما هو عليه من شدة الحزم وقوة العزم لا يخطر في افكاره ان يقر للعدو بالتقدم او يجعل له طريقا لذلك بل كان مستضعفا له مستنفزا لامره عاكفا على انفاذ اوامره متيقظا لشانه وبعد ان اخذنا الراحة في الجزائر امر الحاكم العام بترميم سورها واصلاح خلله .

﴿ ذكر عزل المارشال فالا عن الجزائر وتولية الجنرال بيجو في مكانه ﴾

لما اتصل بالدولة الفرنساوية ما اجراه المارشال فالا في داخلية الجزائر من الحروب واطلعت على ما عليه الامير من الاستعداد لمقاومة جيوشها ورات ان تلك الحروب قد افنت عساكرها وذخائرها من غير طائل عزلت المارشال فالا عن الجزائر فذهب الى فرنسا منكسر القلب محمولاً على كاهل اللوم والعتب قال بعضهم لما كان المارشال فالا متخلقاً باخلاق لا تناسب احوال البلاد العربية وراته فرنسا انه في سائر حروبه لم ينجح نجاحاً تقر به عينها بل آل امره الى فناء عساكرها ومهماتها عزلته وولت مكانه الجنرال بيجو المشهور في السابع من ذي القعدة واول يناير

سنة ثمانمائة واحدى واربعين وامرت بتجهيز ثمانية وثمانين الف جندي علاوة على ما هو موجود وقتئذ في الجزائر من العساكر لقتال الامير عبد القادر وهذا ما عدا المتطوعة من بعض الدول لانه كان يوجد بين اسرى الفرنساوية متطوعة من المانيا واسبانيا وخلافهم وارسلت من المهمات والذخائر ما لا ياتي عليه حصر ولما وصل الجنرال بيجو الى الجزائر واتصل خبره بالامير بعث اليه بمكتوب ملخصه

الى الجنرال بيجو وسائر قواد العسكر الفرنساوي في الجزائر السلام على من اتبع الهدى واجتنب الردى اما بعد فقد بلغني انكم جئتم من فرنسا الى الجزائر لقتالنا بما ينوف عن ثمانين الف جندي زيادة على عساكركم السابقة فيها فاعلموا انني بعونه تعالى وقوته لا اخشى كثرتكم ولا اعتبر قوتكم لعلمي انكم لا تضرونني بشيء الا ان يضرني الله به ولا يلحقني منكم الا ما قدره الله عليَّ وقضاه وانني منذ اقامني الله في هذا الامر وجعلني ضدًا لكم ما قاتلتكم بعسكر يكون عدده ثلثا من عساكركم التي تكافحونني بها ومدة ملكي كما لا يخفى ثمان سنين ومدة ملككم يتعدى مئات من السنين وعساكركم كثيرة وآلاتكم الحربية قوية ومع هذا البون العظيم الذي بيني وبينكم فاني اعرض عليكم امورًا فاختاروا واحدة منها وهي اما ان تعطوني ما احتاجه من ادوات الحرب بالشراء ثم انظم عسكرًا يكون نصف عسكركم الذي تحاربونني به وحينئذ نتحارب واما ان تبقوا في مواضعكم التي تغلبتم عليها وابقى انا في بلادي التي تحت حكمي ثم لا يقرب احدنا من الآخر مدة اثنتي عشر سنة فيبلغ عمر ملكي عشرين سنة وحينئذ اقاتلكم فان غلبتكم فلا عار عليكم اذ يقال غلبكم رجل له قوة عشرين سنة وان غلبتم انتم فتكونوا قد غلبتم رجلاً له قوة فيحصل لكم الفخر عند الملوك واما اليوم فانتصاري عليكم يعد فضيحة لكم عند الدول وانتصاركم عليَّ لا يعدُّ فخرًا حيث انكم غلبتم رجلاً عمر ملكه ثمان سنين ولا قوة عنده يقابلكم بها ومن الامور التي اقترحها عليكم انكم تبعثون من قبلكم من يعدُّ عسكري ثم اخرجوا من عندكم في مقابلة كل واحد رجلين من عسكركم واعطيكم العهد اني لا ازيد عسكريًا واحدًا على ما تعدون وحينئذ الغالب يملك الوطن ومنها ان يخرج المارشال للبراز ويخرج له واحد من خلفائي فان غلب صاحبكم فلا انازعكم في طريقكم من الجزائر الى قسنطينة ومن اراد من المسلمين اهل تلك النواحي البقاء تحت حكمكم فلا نتعرض له وان اراد الخروج منها ويلحق ببلادي فانتم لا تتعرضوا له ومنها ان ابن الملك يبارزني فان غلبته فانكم ترجعون بعساكركم الى بلادكم وتتركون سائر المدن التي في يدكم الان بما فيها من الذخائر والمهمات وان غلبني فانكم تستريحون مني ويبقى لكم الوطن من غير منازع فان اخترتم واحدة من هذه

الامور فلا بد ان تحضروا قناصل الدول ليشهدوا عليكم بقبولكم ذلك واما نحن فلا نخالف كلامنا وان استضعفتمونا ولم تبالوا بنا قلناه اعتماداً على قوتكم فنحن قوتنا بالله القادر على كل شيء هو ولينا وناصرنا . ولما اتصل هذا المكتوب بالجنرال بيجو قرأه على قواد العسكر واعيان مجلس الجزائر فوجموا له ثم اتفق رأيهم على الاعراض عن رد الجواب

ذكر سؤالات وجهها الامير الى قاضي فاس

ولما رأى الامير ان بعض القبائل في الساحل القريبة بلادهم من المدن التابعة للعدو مالوا الى طاعته والدخول تحت ظله وحمايته ارسل اليهم من العلماء والاشراف من يعظهم ويحذرهم من مقت الله تعالى وغضبه فلم يجد ذلك نفعاً فيهم ثم هددهم واوعدهم وامرهم بالخروج من مواطنهم واللحوق باخوانهم المسلمين في الداخلية فلم يقبلوا وتمادوا على ما هم عليه فاعتزم حينئذ على غزوهم والفتك بهم ثم توقف في شانهم واستشار الفقهاء في امرهم وبعث الى قاضي فاس في ذلك لينظر ما عنده فيه وزاد اسئلة اخرى عن اشياء متفرقة عرضت له ونص ما كتبه اليه . الحمد لله حق حمده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده من خادم المجاهدين والعلماء عبد القادر بن محيي الدين الى الشيخ الامام علم الاعلام السيد عبد الهادي العلوي الحسني قاضي القضاة بفاس المحمية السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد فما حكم الله في الذين دخلوا في طاعة العدو الكافر بديارهم وتولوه ونصروه يقاتلون المسلمين معه وياخذون مرتبه كافراد جنوده ومن ظهرت شجاعته في قتالهم للمسلمين يجعلون له علامة في صدره يسمونها لتور عليها صورة ملكهم هل هم مرتدون ام لا وان قلتم بردتهم فهل يستتابون ام لا وما حكم نسائهم هل هن كرجالهم ام لا وان قلتم انهن مثلهم فهل يحكم باستتابتهن او يقتلن او يسترققن كما نقل عن ابن الماجشون ام لا وما حكم ذراريهم هل لنا سبيهم ام لا وهل ما حكاه ابن بطال من الاجماع على ان المرتد لا تسبى ذريته منقوض بما نقل عن ابن وهب وعن جمهور الشافعية ان المرتد كالكافر الاصلي ام لا وهل يسوغ لنا العمل بما ينقل عن اصحاب مالك رضي الله عنه من الاقدمين كابن وهب وامثاله في طبقته في هذه النوازل وامثالها مما لم يشهره المتاخرون ام لا وما حكم الخوارج الاباضية المعروفين في مغربنا ببني مزاب وهم على ما لا يخفا كم من عدم صلاة الجماعة والجمعة مع المسلمين فهل قول ابن العربي بكفرهم صحيح يعمل به ام لا . وهل ما ذكره شراح ابن الحاجب من ان الباغي لا يرد عليه

ما له يسوغ لنا العمل به في هذه الازمنة الفاسد اهلها ام لا . وهل ما نقله بعضهم عن ابن رشد من صحة دفع الزكاة لكل ما فيه مصلحة للمسلمين صحيح يعمل به ام لا . وهل ما تقرر من ان العدو اذا نزل بقوم وعجزوا عن دفعه ينتقل الوجوب والخطاب الى من يليهم عام في جماعة المسلمين او هو خاص بالسلاطين من حيث انهم حاكمون على الرعايا وهل وجوب الدفاع والاعانة خاص بالابدان او هو عام في الابدان والاموال حتى ان من عجز عن الدفاع بنفسه مع قدرته على الاعانة بما له وترك ذلك يكون عاصياً وهل هذا العصيان يكون قادحاً في العدالة ام لا . وهل مجازاة ومكافاة المصطفى صلى الله عليه وسلم للشعراء والمهديين كانت من بيت مال المسلمين او من خمس الخمس وان كانت من بيت المال فهل لولاة المسلمين هذا بعد ذلك ام لا . وهل لهؤلاء السلاطين قبول الهدية ام لا . كما نقل عن عمر بن عبد العزيز وهل يردونها جملة او يضعونها في بيت المال وهل قول مالك لا ينبغي الامير ولا لعامل الصدقة اذا خرج لبعض عمله ان ينزل عندهم او ياكل من طعامهم خاص بعمل الشعوب والبطون ام عام حتى في ولاة الاقاليم ولفظ لا ينبغي هل هو على الحرمة او الكراهة اجيبوا ادام الله وجودكم جوابا يشفي المرض و ياتي على الغرض محيطاً بالتفاصيل والجمل مبيناً لنا ما يكون به العمل مع ملاحظتكم زماننا ووطننا والسلام مكرر ومعاد عليكم وعلى اهل مجالسكم الشريف و لا تنسونا من صالح دعائكم والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله واصحابه اجمعين .

ذكر الاجوبة

الحمد لله وحده الى نخبة افاضل المجاهدين الامير السيد عبد القادر بن محي الدين لا زلت منصور الراية على الكفرة المعتدين مظفراً بالفتح والتمكين وسلام الله يتوالى على عليّ مقامكم المتين هذا واني احمد الله لكم على ما به خصكم في هذا القطر المغربي من صرف الهمة الى اعلاء كلمة الله والنبي ثم المرغوب من كمال فضلكم ان تسهدونا من صالح دعاكم ولكم منا مثله ومن الله يرجى لجميعنا فضله وجواب ما اشرت اليه في كتابك من المسائل ان اللائذين بالنصارى المقاتلين معهم قال فيهم البرزلي في القضاء من نوازله ما نصه ان المعتمد ابن عباد استغاث بالكفار في حرب المرابطين فنصرهم الله عليه وهرب ثم نزل على حكم يوسف ابن تاشفين امير صهاجه فاستفتى فيها الفقهاء فافتى اكثرهم انها ردة وقاضيه مع

بعضهم لم يرها ردة ولم يبح دمه فامضى الامير ذلك ولم يبح دمه واخذه اسيرًا ونقله الى اغمات الى ان مات فيها ونقله الزياني في نوازله بواسطة الكتاني ويؤيده ما في ابن جزي على قوله تعالى ومن يتولهم منكم فانه منهم ونصه من كان يعتقد معتقدهم فانه منهم من كل وجه ومن خالفهم في الاعتقاد واحبهم فهو منهم في المقت عند الله تعالى واستحقاقه العقوبة وقد قال الغزالي في كتاب التفرقة بين الايمان والزندقة الذي ينبغي الاحتراز عن التكفير ما وجد اليه سبيل فان استباحة المصلين المقرين بالتوحيد خطأ والخطأ في ترك التكفير اهون من الخطاء في دم مسلم ولا سيما اذا كان فيه تاليف ورد عما هم عليه فهو متعين فعلى القول بعدم ردتهم لا اشكال في عدم سبي نسائهم وذراريهم وعلى القول بردتهم فكذلك قال خليل وان ارتد جماعة وحاربوا فكا لمرتدين قال شارحه ابن عبد الصادق سار فيهم عمر سيرة المرتدين برد النساء والصبيان الى عشائرهم كذرية من ارتد فلهم حكم الاسلام وعلى هذا جماعة العلماء والسلف الا القليل منهم مضى على رأي ابي بكر بانهم كالناقضين للعهد قتل الكبار وسبي النساء والصغار وجرت في اموالهم المقاسيم وذهب ربيعة وابو القاسم وابن الماجشون الى فعل عمر واقتصر عليه المصنف لانه قول الجماعة واما حكم الاباضية فالصحيح عدم كفرهم كما عند ابن رشد في البيان وقال في الفتح عن ابن حزم اهداء الخوارج والبغاة واقربهم الى قول اهل الحق الاباضية وذكر الخلاف فيهم غير واحد وتقدم ان التكفير صعب والميل الى عدمه اهون وقد ترجم البخاري بترجمته لقتل الخوارج وباخرى لتركه اشارة الى الخلاف كما قاله في الفتح واما البغاة فلا يؤخذ من مالهم غير السلاح قطعًا كما قيد به شراح خليل قوله واستعين بما لهم عليهم ثم رد واما السلاح فعليه يحمل المتن ومقابل ما في المتن في غاية الضعف لا يعمل به وقد قال ابن عرفة ان العمل بالراجح هو الواجب ولا ينفذ الحكم بما سواه ونحوه للعقباني والسنوسي واما الزكاة فلا تصرف في غير المصارف الثمانية التي قص الله عنها انما الصدقات للفقراء الآية قال خليل ومصرفها فقير ومسكين الى قوله لاسور ولا مركب وما نسبه الجنان وغيره لحفيد ابن رشد من اعطائها للعلماء ولو اغنياء وكذا سائر المصالح لا يجوز العمل به كما للشيخ التاودي وغيره ممن حشاه من المتاخرين واما ان عجز من حل بهم العدو عن دفعه فيتعين على كل من يقربهم اميرًا كان او غيره الاقرب فالاقرب ان يدافعه قال خليل وتعين بفجأ العدو وان على امراة وعلى من بقربهم ان عجزوا او خوطب بنفسه وماله قال تعالى جاهدوا باموالكم

وانفسكم في سبيل الله ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بان لهم الجنة واما مكافآت النبي صلى الله عليه وسلم للشعراء والمهدين فمن جملة مكارمه وهي من الفيء والخمس تؤدى ففي تفسير ابن جزي لقوله تعالى واعلموا انما غنمتم من شيء فان لله خمسه الآية ما نصه الخمس الى اجتهاد الامام ياخذ منه كفايته وفيه ايضاً ما نصه ما يؤخذ من الكفار منه مايخمس ومنه ما يكون جميعه للامام ياخذ منه حاجته ويصرف سائره في مصالح المسلمين وهو الفيء الذي لم يوجف عليه واما الزكاة فلا يكلف ارباب الاموال بغيرها واما الولاة فجميع ما زاد بايديهم على ما يعرف لهم من قبل فمن ولاهم ان يضيفه الى بيت المال ويصرفه في مصارفها واما هدايا من تحت حكم السلطان له فلا يجوز له قبولها لانها رشوة قال خليل في القرض وعدم هديته الى قوله وذي الجاه والقاضي وهو مضمون قول الباجي ونصه اذا كان المهدي تجري عليه احكام المهدى اليه فقال سحنون واشهب لاتقبل هديته مسلماً كان اوكافراً ووجه ذلك ان هديته ريبة اذ ربما تكون لدفع مظلمة يجب دفعها او ترك حق لا يحل تركه ويؤيده ما اشرتم اليه من قول عمر بن عبد العزيز كما في البخاري في كتاب الهبة وقضيه ابن الانبية المذكورة في البخاري لما استعمله النبي صلى الله عليه وسلم فجاء بمال كثير وجعل يقول عند محاسبته هذا لكم وهذا أهدي اليّ فغضب صلى الله عليه وسلم وعاتبه وقال هلا قعد في بيت ابيه وامه فينظر ما يهدى له تدل على انها ترد الى بيت المال ان قبل كما لابن بطال انتهى كتبه اجهل عباد الله راداً العلم لمولاه عبد الهادي بن عبد الله الحسني وفقه الله في اول يوم من المحرم فاتح عام ستة وخمسين ومائتين والف

ذكر ما تكلم به الجنرال بيجو في المجلس الحربي في مدينة الجزائر

لما شاع ان الامير استفز سائر اهل مملكته من حدود المغرب الاقصى الى حدود تونس الى الجهاد وامر باخذ كمال الاهبة والاستعداد لمحاربة العدو ومدافعته عن البلاد واتصل ذلك بحاكم الجزائر بيجو امتعض له لا سيما وقد رأى ان اهل الجزائر استولى على قلوبهم الرعب وخامرها الاضطراب فعقد مجلساً حربياً وتكلم فيه بما نقله عنه بالمار المؤرخ وهو قوله اني ايها القواد والرؤساء الانجاد قد كنت اظن ان للامير عبدالقادر جنوداً نظامية كافية لها خبرة بفنون الحرب واساليبه واقتداراً على مقاومة الجيوش الفرنساوية والان تحقق عندي ان الامر على خلاف ذلك وكنت اظن ان العرب ذوو

ضخامة وجسامة فتبين لي الآن انهم ليسوا كذلك غير اني لا انكر قوة بأسهم وشدة شوكتهم وصلابتهم في الجلاد ومقاومة الاضداد لكن هذا ما داموا في اوطانهم وما دامت املاكهم في ايديهم التي عليها مدار معاشهم فلاح لي من الراي الذي نتوصل به الى تفريق كلمتهم واخضاعهم للطاعة ان عساكرنا تتصدى اولاً الاستيلاء على بسائطهم التي فيها النجاع ماشيتهم التي يترزقون منها فان حصل هذا فلا شك في الفوز والنجاح ثم نضع الحاميات الكافية والمسلحات الوافية في الاماكن الصعبة في الطرق التي نمر فيها لنتمكن من اتباع آثار الفارين منهم المتوغلين في الداخلية ونضع جنوداً وافرة في الحدود لتمنعهم من الدخول الى الممالك المجاورة لبلاد الجزائر فاذا ضاق عليهم المجال واشتدت عليهم من كل جهة الفتن والاهوال فلا محالة انهم يلوذون بطاعتنا ومما ييسر علينا الوصول الى هذا ان اكثر رؤساء عساكرنا تعلموا اللغة العربية وصاروا ماهرين فيها عارفين بعوائد العرب واحوالهم او نستعمل هذا فنعين قسماً من الجند للمحافظة على الاماكن المهمة في سائر الجهات وقسماً آخر يقيم في التخوم لمنع الوارد والصادر عن البلاد كما يمنع من فرار اهلها الى الخارج عنها وباقي الجند نعده للهجوم والحرب واعلموا ان استعمال المحاربة بالنوع النظامي لا يجدينا نفعاً لان الخصم لا يعرف ذلك وانما نقابل العرب بما يقابلوننا به والمقصود الاهم هو ان جيوشنا تجعل همتها في استعمال ما تتلاشى به قوة الامير وتزعزع اركان دولته هذا ما ظهر لي من الرأي فانظروا ماذا ترون انتم فاجابوه ان ترتيب الحاميات في المراكز الصعبة لا نراه صواباً اذ ربما يوقعنا ذلك فيما هو ادهى وامرّ من تركنا اياها وذلك لاننا نخشى ان يحوجنا الحال الى تعيين قسم كبير من جيوشنا لحمايتها او لتخليصها من يد العرب ويبقى في ايدينا من الجيوش ما لا يفي بالمطلوب عند شبوب نار الحروب فالاولى الاضراب عن هذا الان فاستحسن بيجو رأيهم ثم اتفقت كلمتهم على ان ينهضوا بجيوشهم الجرارة الى المدن وبعد الاستيلاء عليها ينظرون فيما يلزم من المحافظة عليها ولما انتشر هذا الخبر حدث في المعسكر قلق وامتلأت قلوب الجنود رعباً لجهلهم بما يؤول اليه امرهم في داخلية البلاد وخافوا ان يقع بهم نظير ما وقع بمن تقدمهم من اخوانهم فيستولي عليهم التلف كما استولى عليهم مدة عشر سنين قال فاليوت في تاريخه كنت ذات يوم مع الحاكم بيجو في محل عال فقلت له ايها المارشال انظر الى هذا المنظر البهيج فاجابني انه منظر جميل لاهل الجنرالات اما لامثالنا فلا ثم قال لي انظر الى تلك الحيطان السود الشمالية من البلد فلربما يكون هناك سجن العساكر الفرنساوية ومن الممكن ان يقاد الحاكم

يعني نفسه ذليلاً في بلاد تجوط وعندها كبة واحدة تكفي في قتله الم تعلم يافاليوت ان حاكم الجزائر يحتاج الى سياسة قوية لان الامير عبد القادر خصم صنديد وقرم عنيد لا يخشى بطش الجيوش الفرنساوية ولا ينظرها بعين الاعتبار ثم ان فاليوت استطرد ذكر حكاية عن بعض الجنود في الجزائر نقل قد وقفت على رسالة لبعض افراد الجند الفرنساوي ارسلها الى والديه واخواته في فرنسا عندما شاع اتفاق المجلس الحربي على الحرب ونص الرسالة من مدينة الجزائر في الخامس والعشرين من شهر اذار سنة احدى واربعين وثمانمائة الى والديَّ واخواتي اخبركم ان حياتي قد صارت في خطر وذلك اننا في هذا الوقت متوجهون من مدينة الجزائر الى المدية ومليانة ومن دون شك اننا نصادف في طريقنا اخطاراً ومهالك ولا ادري هل ارجع سالماً ام ذلك آخر العهد بالحياة الدنيا ولا يخفى ان الموت اقرب من السلامة ولكن يلزمنا الصبر وحيث ان احتمال الموت عندي اقرب فاعلموا انه يوجد عندي الفا وخمسمائة فرنك فاريد ان تعطوا عمي منها مائتين يستعين بها على عوزه وان لا تتركوا اولادي بدون البسة حسنة وما بقي من الدراهم فالوالدة تفعل بها ما تشاء واني اخبركم ان العرب فرسان مشهورون بالشجاعة والاقدام وحالنا معهم في الحرب ان رصاصهم يصبّ علينا كالمطر واما نحن فلا نقابلهم الا بالكلل ليبعدوا عنا وان وقع في ايديهم جندي منا فانهم يعرضون عليه الاسلام فان قبل واجاب تركوه والا قتلوه وعندما نسير من محل الى آخر ناخذ ازوادنا معنا لانه لا يوجد في طرقنا فنادق ولا خانات وفراشنا وغطاؤنا ليس الا الكبوط لا غير فهذه حالنا في بلاد العرب وعلى كل حال فانا اودعكم وعيناي غريقتان في الدموع . قال بالمار لما اعتزم بيجو على الحرب اتخذ البغال والجمال لحمل الانقال والذخائر والمدافع عوضاً عن العجلات وعرض العساكر فوجدها قد اكسبها تمرينها في المدة السابقة نشاطاً فحينئذ قوي عزمه واشتد حزمه وقال رأوا كذلك العرب قد تدربوا على الحرب وتمرنوا فزاد بذلك نشاطهم الغريزي المفطورون عليه

﴿ ذكر مسير الجنرال بيجو الى مليانة وهزيمته في رجوعه منها ﴾

وفي الخامس من ربيع الاول سنة سبع وخمسين وفي الثامن والعشرين من ابريل سنة احدى واربعين نهض الجنرال بيجو من الجزائر في جيش كثيف الى مليانه ثم انقلب راجعاً الى الجزائر على طريقه وكان الامير اعد فرقة من عساكره النظامية

قرب البلد واكمن له فرقة اخرى في الغابة قريبة من الفرقة الاولى فلما خرج العدو من البلد بادرته الفرقة الاولى بالقتال ولما حمل عليها استجرت له وارخت العنان امامه فلحقها الى ان وصل الى الغابة فخرج الكمين واشتد القتال وبينما هم كذلك اقبل الامير بباقي الجيوش الاسلامية وهجم على العدو من ورائه واختلطت العساكر بالعساكر وحمي الوطيس فانهزم بيجو بجيوشه ورجعوا الى مليانه تاركين القتلى والجرحى والذخائر التي كانت معهم في ايدي المسلمين قال رُوا وهذه اول وقعة وقعت بالمارشال بيجو في ولايته على الجزائر ورآسته على العساكر الفرنساوية ولاول تفويضه في امر الحرب مع الامير عبد القادر ثم قال ولما هجم الامير بالقسم الكبير من جيشه الذي كان معه على المارشال انبهر عقله ولم يسعه الا الفرار فساقته جيوش العرب والفرق النظامية قهراً عليه الى مليانه تاركاً قتلاه وما معه من الاثقال وهذه الوقعة نكلت العساكر الفرنساوية اشد النكال واوقعتهم في ورطة الوبال وكانت خسائرهم جسيمة ونوائبهم عظيمة انتهى ثم ان بيجو رجع الى الجزائر وقسم جيوشه على الثغور المهمة فعقد للجنرال بركوباي دبلي على الجهة الشرقية وللجنرال بارتسي على ما يلي الجزائر وتوجه بالقسم الاكبر الى مستغانم ومعه الدوك دومال واخوه الدوك دتيمور وضم الى جيشه جيش وهران وبعد اقامته اياماً في مستغانم نهض منها على طريق مجاهر قاصداً قلعة تاكدمت فامر الامير اهلها بالجلاء عنها وحمل ما خف من الذخيرة الحربية والمؤن التي كانت فيها واتصل سير العدو مع اتصال القتال الى ان وصلها واستولى على سائر ما بقي فيها من السلاح وآلات المعامل ثم توجه منها الى العاصمة معسكر وكان اهلها خرجوا منها الى ضواحيها فاستولى عليها واقام فيها حرساً ثم رجع الى مستغانم وكان الامير صمدله في الجيوش عند مضيق عقبة خدّه ومضيق فرقوق فلما وصل بيجو الى اول مضيق منها انثال عليه المسلمون من كل جهة واحاطوا به من كل ناحية واتقدت نار الحرب بين الفريقين واتصلت من شروق الشمس الى مغيبها وكثر القتلى والجرحى من الجانبين وجرى في ذلك النهار ما يعجز عن وصفه القلم واللسان قال رُوا لما وصلت العساكر الفرنساوية الى مضيق عقبة خدّه وجدت فرسان العرب وحماتها ينتظرونهم فيه وانتشب القتال بين الفريقين واستمر الرمي بالرصاص والضرب بالسيوف والحراب ياخذ كل منهم حظه من النفوس من طلوع الشمس الى غروبها وكانت خسائر الطرفين جسيمة ففقد العرب الكثير من روساء عسكرهم واغواته كما ان بيجو فقد من العساكر الفرنسوية وقوادها عدداً كثيراً وعندما اذن الظلام باغماد سلاح الطرفين اخذ العرب يتفقدون

قتلاهم وجرحاهم واما بيجو فانه انتهز الفرصة وتسلل بجيوشه تحت ستر الظلام على حين غفلة من العرب الى ان تخلص من المضايق كلها وجدّ في المسير الى ان لحق بمستغانم على اسوء حال و بالجملة ان هذه الوقعة من الوقائع المشهورة التي استمر ذكرها في محافل فرنسا ومجامعها

ذكر ما كتبه الامير عبد القادر الى المارشال بيجو

قال اسكندر بالمار بعد وقعة عقبة خدّه كتب الامير عبد القادر الى المارشال بيجو ما نصه . الحمد لله وحده من ناصر الدين عبد القادر بن محيي الدين الى المارشال بيجو . اما بعد فان كانت دولة فرنسا ليس عندها من الارض ما يكفي رعاياها وارسلتكم لتغتصبوا اراضينا و تبذلوا في ذلك نفوسكم واموالكم فنحن نتخلى لها عما هو في ايديها الآن من السواحل ونبقى معها في حال جيران ينتفع بعضهم من بعض وان ابت الا ان تستولى على جميع وطننا فنحن نبذل وسعنا في مدافعتها وحماية ارضنا منها الى ان يقضي الله بيننا وبينها بما شاء فان البلاد بلاده والعبيد عبيده ولا يخفي عليكم ايها الحاكم ان مهاجمتكم على بلادنا كما انها سبب لاتلاف الكثير من جنودكم وذخائركم فكذلك نحن وهذا شيء لا يرضى به عاقل فضلاً عن فاضل ودولتكم تدعى انها اول دولة في العالم تحب الانصاف وتستعمله و تحافظ على ميزان العدل وتحكم به ففعلها هذا يكذب دعواها و يبطل مدعاها وانتم وغيركم من رجالها نراكم دائماً تساعدونها على الاعتداء والاغتصاب وتبذلون انفسكم في ذلك ابتغاء مرضاتها ولوكان عندكم ادنى نظر سديد ما وافقتموها على اتلاف جنودها في الحرب ومواسم الامراض المختلفة التي لا تذر ولا تبقي فياهل ترى باي شيء تعوضون ما تخسره بلادكم من الرجال والاموال والكراع فان كان يرضيها منكم ان تحملوا لها ما تقدرون على حمله من حجارة مدينة معسكر او من تراب الاراضي التي اغتصبتموها فافعلوا واني اراك ايها الحاكم تبذل جهدك في تعطيل مواسمنا لتقل الحبوب عندنا ظناً منكم ان ذلك اقوى سبب لخضوع اهل البلاد اليكم والحال ان هذا ليس بشيء عندهم فان هممهم ليست متعلقة بلذائذ الاطعمة والاشربة مثلكم بل يكفيهم ما يسدون به رمقهم و يقيم اودهم كيفما كان على انه يوجد عندهم من صنوف الحبوب المحفوظة في الآبار المعدة لها ما يكفيهم سبع سنين آتية وما تاخذونه انتم من ذلك فهو جزء من جملة اجزاء ولا اراكم في هذا الامر الا كمن ملاء قدحه من

البحر معتقداً انه ينقصه و بالجملة فنحن لا نترك قتالكم ما دمتم في طغيانكم تعمهون وفي سبيل اعتدائكم تمشون والحروب قد ترببنا عليها وتغذينا بلبانها فنحن اهلها من المهد الى اللحد وحروبنا كما علمتم لا نرجع فيها الى قانون يحصرها بل نحن فيها مخيرون مطلقون نصرفها كيف شئنا واما انتم فقد بذلتم اموالكم وافنيتم قوة شبابكم في تعلم طرقها القولية وعند اشتباك الصفوف تعاجلكم عن مراجعتها الرماح والسيوف ومما علم من كتب التواريخ القديمة ان العرب يتهججون في معامع القتال كما يبتهج العروس ليلة عرسه فلا يخطر في بالكم انهم يضجرون منها او يتركونها من ذات انفسهم ما دامت الاقدار الالهية مساعدة لهم فان حكمت عليهم بغير ذلك فمن المعلوم ان الارض لله من بعدهم يورثها من يشاء من عباده فلا معقب لحكمه ولا رادٌ لقضائه والسلام على من اتبع الهدى واتقى سبيل الردى حرر في عاشر جمادى الاولى سنة سبع وخمسين ومائتين وفي آخر يونيه سنة احدى واربعين وثمانمائة

﴾ ذكر مسير المارشال بيجو الى ولاية معسكر ﴿

بعد رجوع بيجو من وقعة عقبة خدّه الى مستغانم اخذ اهبته وخرج بجيوشه الى شمال ولاية معسكر وكانت قبائل اولاد خليف وصبيح وامثالهم دانوا بطاعته عند ما مر في بلادهم الى تاكدمت ثم توجه الى الجهة الجنوبية وانتهى في مسيره الى بلد سعيده وهذه البلدة اختطها الامير واسكن فيها مهاجري مستغانم ووهران ولما قاربها خرج اهلها الى النواحي فوجدها خالية فخربها ولاذ اهل تلك الجهات القريبة منها كاولاد ابراهيم والحساسنة والجعافرة بالطاعة وعدل الامير عن قتاله وسار غازياً على قبيلتي الدوائر والزمالة في ساحة وهران فصبحهم واكتسح اموالهم واثخن فيهم بالقتل والاسر ولما اتصل الخبر ببيجو امتعض لذلك وارتحل راجعاً من الجهة الجنوبية الى مستغانم ثم الى وهران وفي هذه الايام ارسل حضرة الاسقف دو بيش الى خليفة مليانه السيد محمد بن علال يستاذنه في الحضور عنده ليتوسط له في الاجتماع بالامير فاجابه الخليفة ان الامير في نواحي الصحراء على مسافة ايام متعددة منا فان كنت تكتفي بملاقاتي نيابة عن الامير فانا مستعد لقبول زيارتك فاجاب الاسقف الى ذلك وحضر عند الخليفة فاحتفل لملاقاته وبعد ان عزم على الرجوع الى الجزائر قدم اليه الخليفة فرسين من جياد خيله هدية على عادة امراء العرب مع ضيوفهم المعتبرين قدراً وشهرة وكان عنده من اسرى الفرنسيس نحو الخمسمائة اسير فاحضرهم بين يدي الاسقف بسلاحهم والبستهم ثم قال له حيث انه لم

يتيسر اجتماعكم بسيدنا الامير وكنت انا من جملة اتباعه وخدمه فعلى حسب استطاعتي اجريت بعض ما يجب اجراؤه مع امثالكم وهوءلاء الاسرى من عساكركم بسلاحها وامتعتها قد سمحنا باطلاقها تكرمة لكم تخذوها معكم ولو ساعد القدر واجتمعتم بسيدنا الامير لكنتم شاهدتم من اكرامه ما تستقلون له اعمال الملوك العظام ففرح الاسقف بذلك فرحًا لا يعبر عنه قلم ولا لسان وانقلب بالاسرى الى الجزائر وكان يوم دخوله اليها بهم يومـًا مشهودًا فانظر الى هذه المعاملة الحسنة والمعاملة التي قابلها بها بيجو كعادته فانه بعد رجوعه من غزوة بلد سعيده الى وهران كتب الى روءساء القبائل عدة رسائل يدعوهم الى طاعته ويتهددهم ان ابوا ذلك عليه . وهذا نص جواب اولئك الروءساء عن احداها من كافة الحشم الشراقة والغرابة ومن اليهم كبني شقران وبني غدو الى النصراني بيجو السلام على من اتبع الهدى وثبت عليه قد وصلنا تحريرك وعلمنا ما فيه من كونك تدعونا الى الطاعة وتخبرنا انك عازم على ان تجعل بلادنا سعيدة مباركة واي سعادة احب الينا من سعادة الجهاد وحماية البلاد وثباتنا امام اعدائنا ولو بدون محاربة ولا طعان فان الله تعالى جعل لنا ثوابا عظيماً اذا نحن اذقناهم مرارة الوبال ونكلناهم شديد النكال وكبدناهم انواع المشقات والجاناهم الى التفريق والشتات واذا لم نتمكن من ذلك كله فمن بعضه فان لم يتيسر لنا فيكفي الثبات في وجوههم وعلى قدر التعب يحصل الاجر وكونك تعدنا كعادتك مع غيرنا بالفخر والمجد اذا نحن اطعناك والى مطلوبك اجبناك فهذا لا نسمعه ولا نلتفت اليه بل نعده ضربًا من المحال والذين اطاعوك من اهل وطننا فانهم عندنا قوم لا دين لهم ولا خلاق لهم بل لا يعرفون من الاسلام الا اسمه فلا نغتر بكلامهم فانما قادهم اليك الطمع فيما عندك فباعوا لك دينهم بالذهب والفضة واما نحن فلا نبيع ديننا وانما نبيع انفسنا الى الله تعالى الذي يشتريهامنا بالجنة ومن الواجب عليك ان تنظر الى عظمة سيدنا الامير كما ننظرها نحن فانه يقاتلكم ويكبدكم المشاق العظيمة من غير كبير مدد ولا ذخائر موءثلة ولا خزائن قائمة وافرة واما انتم فلا مزية لكم لان دولتكم قديمة من الف سنة فجمعت الاموال الطائلة ودربت الجيوش الجرارة على الحروب فان هي غلبت الان فان اميرنا حديث العهد بالملك ورعيته قد انهكتها الحروب الاهلية والاجنبية من مدة متطاولة فاي مزية لدولتكم في تغلبها عليها والظاهر انك ايها الحاكم مسرور بكونك اخرجتنا من اوطاننا واحرقت اغلالنا وارملت لدولتك تبتهج بذلك ولو كنت من اهل النظر ما ظهر هذا منك نعم لو جئتنا بجيوش تعادل جيوشنا عددًا واستعدادًا وفعلت بنا ما فعلت كان يحق لك ان تبتهج بعملك وتفتخر به ولكن حيث انك جلبت الينا جيوشًا يزيد عددهم على عدد

نفوسنا وكراعينا وشجرنا وحجرنا فلا حق لك في سرورك لان من غلب كثرة لا مزية له ولا فخر وانما المزية لمن غلب من يكافئه عدداً وعدداً او يكون اكثر منه ونحن لله الحمد مع قلة عددنا فقد وقفنا في صدوركم واذقنا كم نكال الحرب ومرارة الجلاد والضرب مدة احد عشر عاماً من حين استيلائكم على مدينة الجزائر الى يومنا هذا ولا نزال بحوله تعالى وقوته على ذلك الى ان نغلب او نغلب ويهلك كبيرنا وصغيرنا وعلى كل حال فلا تتعب نفسك فانك لا تحصل على طائل من الفخر لتذكر به عند ملوك الارض كما هو في بالك لان ذلك انما يصح لك لو غلبت دولة قديمة عظيمة مؤثلة من كل شيء واما دولة قليلة العدد والعدد فلا مزية لمن غلبها ومما يتعجب منه كل العجب ان دولتك تفتخر بالاستيلاء على الجزائر وهل عاقل في العالم يفتخر بالظلم والاعتداء حاشا وكلا انما الفخر في تركهما وعدم التخلق بهما وجميع ما اتلفتموه من محصولاتنا في هذه السنة لا يضرنا لوجود غيره عندنا من مستغلاتنا المدخرة من سنين عديدة فان نفدت فالطرق لجلب ما نقتات به من المغرب او المشرق مفتوحة وكما ان مراكبكم البحرية ترد عليكم مشحونة بالمؤن والذخائر فكذلك نحن عندنا الجمال تحمل الينا ما نحتاج اليه من القاصية ومن الواجب عليك ان تنظر فيما دخل في يدك من الذخائر والمؤن في هذه المدة وما خرج منها فان وجدتها ناقصة فبادر الى ارسال ما يسد نقصها من حجر بمعسكر وتراب غريس الى دولتك وبذلك تجعلك محبوباً لديها كبيراً في عينها ولو احصيت ايها الحاكم قتلاك واسراك ثم قابلتاهم بمن قتل منا واسر لظهر لك خسرانك وتحقق عندك نقصانك والمكافاة في الحرب وان كانت لا تقضي بالمزية لاحد الطرفين فانها تقضي لنا به نظراً لكثرتكم وقلتنا وكبر دولتكم وصغر دولتنا هذا جوابنا فاعلمه فاننا فصلناه تفصيلاً مفرطاً في الاسهاب والاكثار رجاء ان تفهم حرر في العشرين من ربيع الثاني سنة سبع وخمسين والحادي عشر من حزيران سنة احدى واربعين

ونص جواب الرسالة الاخرى المؤرخة في التاسع والعشرين من ربيع الثاني والعشرين من حزيران من الحشم وغيرهم من القبائل المتمسكين بدينهم الاسلامي الوثيق العرى الى النصراني بيجو قد وصلنا مكتوبك الذي تركته في موضع نزولك من بساتين بني يخلف واطلعنا عليه فوجدناك تطلب منا نص ما طلبته سابقاً غير مرة فتعجبنا من الحاحك واكثارك علينا في الطلب مع اننا بذلنا وسعنا في اقناعك فلم تسمع واوقفناك على ما انطوت عليه بواطننا من التمسك بديننا وطاعتنا لاميرنا فلم تفهم ولو فهمت لعدلت عن الحاحك ونتابع طلبك وعلى كل حال فهذا آخر جواب يأتيك من طرفنا فليكن.

مكتوبك المذكور آخر مكتوب ترسله الينا وكيف نترك ديننا الذي هو اشرف الاديان ونتخلى عن اميرنا الذي هو عندنا اعظم امير واشرف من يطاع هذا مما لا يقول به عاقل ولا يُعلق به افكاره آمل والذي حملك على الالحاح هو تصديقك لاولئك المتنصرة الذين يسارعون الى الدخول في طاعتك ولو كانوا مما يعتدُّ بهم في الديانة ما جحدوا نعمة الله عليهم بالاسلام واطاعوك ودخلوا تحت رايتك وانت عدوُّ دينهم ودنياهم والذي اخذ بنواصيهم وقادهم الى ذلك انما هو حب المال الذي يسرتم لهم طريق الطمع فيه ولم تعلموا انهم كما ازاغهم الشيطان وتركوا دينهم ورفضوا طاعة اميرهم كذلك يتركون دينكم وطاعتكم لان من كان بهذا السبيل لا يوثق به وانت لغرورك بهم وثقت بحالهم واتبعت اشارتهم وآراءهم وبالجملة فنحن في وطن واسع الاطراف ممتد القاصية لا نزال نتنقل فيه غربًا وشرقًا وجنوبًا وشمالاً وانتم تتبعون آثارنا فلا تدركون شاونا وغاية ما هنالك ان عساكركم تفنى جوعًا ومرضًا وذخائركم تنفد وكل ذلك من غير طائل فالاولى لكم ان تعمروا بلادكم التي نشاتم فيها ونشأ آباؤكم من اجيال متطاولة واما بلادنا فليس لكم في الاستيلاء عليها نتيجة وهب انكم استوليتم عليها واقمتم فيها ثلاثمائة سنة مثل من ملكها قبلكم فانكم لا بد ان تخرجوا منها كما خرجوا وتمسوا كامس الذاهب والدهر هكذا واهب ناهب والظاهر انه يخطر في فكرك انك اذا استوليت على وطننا ان فرنسا تجعلك ملكًا تدين بطاعتك هيهات انما انت عسكري تعيش عسكريًا وتموت عسكريًا ولم تستند شيئًا فانك لن تخرق الارض ولن تبلغ الجبال طولاً والذين استهووك وغروك من العرب بطاعتهم لا يعبأ بهم اذا حضروا ولا يسئل عنهم اذا غابوا فاقوالهم ومواعيدهم انما هي كسراب بقيعة يحسبه الظمئان مثلكم ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئًا وغاية امرهم ان الذي يؤملونه منكم لا يصلون اليه وانما يموتون كفارًا تحت رايتكم نسال الله العافية والحماية من ذلك ومن العجب انكم تعلمون اننا وان كنا خاضعين لاميرنا فاننا ما طلبنا الصلح معكم الا قهرًا وامتثالاً لامره فكيف الان نميل اليكم ونرغب في طاعتكم ثم لا يخفى ان بلادنا تمتد غربًا الى حدود المغرب الاقصى وشرقًا الى حدود افريقية وشمالاً وجنوبًا من البحر الى القفر وجميعها مع اتساع اقطارها في غاية الامن بالنسبة الينا فلا تظنوا انه يلحقنا ضرر منكم او يرهبنا وضع عسكركم في معسكر ومليانة والمدية فان الضرر والخسارة وامثالها في الحقيقة لا تعود الا على اولئك الجنود الذين لا نراهم لا اسرى في بلادنا اذ لا ياتيهم ما يقتاتون به الا بمشاق واتعاب يتلف فيها من اخوانهم عدد كثير ومن الذخائر اكثر

وملخص ما نقول اننا واياكم عبيد الله تعالى والارض ارضه والبلاد بلاده وهو الذي وطن فيها اباءنا فان ابقانا فيها فله الفضل والطول وان اخرجنا منها وجعلها في ملككم وقبضة تصرفكم فهو مختار في فعله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد. ثم ان بيجو بعد رجوعه من غريس الى مستغانم تفقد الجنود التي كانت قبله في الجزائر والتي حضرت معه وبعده فوجد التلف قد اتى على اكثرها فكتب الى دولته بذلك واستمدها فامدته بالعسكر والذخيرة واقام اربعة اشهر ياخذ في الاستعداد ويتاهب لتجديد الحروب وكان في هذه الفترة يكاتب القبائل والعشائر يدعوهم الى الطاعة ويعدهم ويمنيهم تارة ويتهددهم ويوعدهم اخرى ويبالغ في الطرفين ولما استكمل اهبته عقد مجلساً حربياً في وهران جلب اليه قواد الجيوش الفرنساوية من الجزائر وغيرها وفاوضهم في تعيين مدينة من المدن الداخلية يجعلها مركزًا للعساكر ومخزنًا للذخائر فوقع اختيارهم على مدينة معسكر لخروج بسائر الجيوش اليها واتخذها مركزًا وبهذه الواسطة تيسر له الحمل على القبائل وادخالهم تحت السلطة الفرنساوية لان اهل الوطن لما رأوا ما نزل بهم من الجائحة التي لا دواء لها ولا سبيل لزوالها تحيروا في امرهم وسئموا من الفرار في الفيافي والقفار وهلكت ماشيتهم وفنى كراعهم وعلموا ان الامير لا قدرة عنده على حمايتهم والذب عن الوطن من سائر جهاته لا سيما وقد تهافتت قبائل البربر الذين ليس عندهم من الدين الاسلامي الا النطق باسمه على اداء طاعتهم للفرنسيس واكبوا على التقاط ما تنثره لهم من الذهب والفضة ونالوا من احسانهم ما لم يكن لهم في حساب ولم يعلموا ان السم في ذلك الدسم فبذلوا نفوسهم في نصرة عدوهم واعلاء كلمته واعانوه على المسلمين المستمسكين بدينهم وطاعة اميرهم وكثروا عدده ودلوه علي عورات المسلمين وارشدوه الى الطرق التي يتوصل بها للاستيلاء على الوطن وصاروا يكاتبون الناس في الجهات ويرغبونهم في اللحاق بهم والدخول في زمرتهم سبحانه لا رادّ لقضائه ولا معقب لحكمه

ذكر مسير المارشال بيجو الى تلمسان

وفي الخامس عشر من ذي الحجة سنة سبع وخمسين والتاسع والعشرين من يناير سنة اثنتين واربعين خرج بيجو من معسكر بجيش كثيف الى تلمسان فطار الخبر الى الامير فامر باخلائها ونقل سائر المهمات الحربية منها فارتحل الناس ونقلت المهمات منها الا ما عسر حمله كالات عمل المدافع وشبهها ودخلها العدوّ اخبرني من يوثق به ان بعض اهالي تلمسان الذين بارحوها رجعوا اليها من الطريق ودخلوها ليلاً وقدموا

طاعتهم الى الجنرال واخبروه ان جيوش الامير قد سئمت الحرب ولانت قوتها وكان في عزمه ان يتركها ولما سمع ذلك عقد النية على الاقامة فيها والاستيلاء الدائم عليها وشرع في تحصينها خشية ان يسترجعها الامير منه واقام بها حكومة وسلم ادارتها للجنرال بادو من مشاهير قوادهم ثم ارتحل الامير من ضواحي تلمسان الى ندرومه وفيها اجتمعت عليه قبائل تراره وولهاصة ومن اليهم من قبائل الساحل في تلك الاطراف فاغزى خليفته السيد مصطفى بن التهامي على الدوائر والزمالة في ساحة وهران فاثخن فيهم وغنم غنائم كثيرة ثم سار الى مضيق الجبيرة من بلادالغرابة ومنها انتقل الى سيك واما الامير فانه استمر في نواحي تلمسان ينتظر الفرص الموافقة لحرب الجنرال ولما اتصل خبر الخليفة بنائب بيجو في معسكر ارسل سرية من جنده لتباغت الخليفة في موضعه من سيك فواصلت سيرها الى ان رأت مضارب العسكر ليلاً فتوقف قائدها عن الهجوم وبعد ان اخذ عسكره الراحة عدل عن الخيام ومر في طريق اخرى في حالة هدوّ وسكون حتى لا يحسّ به العسكر الاسلامي وكان الحرس فطنوا بهم ولكن ظنوا انهم من اخوانهم المسلمين جاؤوا نجدة لهم فلم يتعرضوا لهم بشيء ثم اقتفوا اثرهم ولما طلع الفجر وعرفوا انهم من العدو حملوا عليهم وطيروا الخبر الى الخليفة فركب في سائر الجيش ولحقوا بالعدو وعظم الامر واشتعلت نار الحرب واتصل ذلك من طلوع الفجر الى وقت الظهيرة فانهزم العدو واستولى المسلمون على سائر مدافعه وذخائره واثقاله ثم رجع الكرة عليهم فازاحهم عن موقفهم واسترد ما اخذوه منه وثبت العسكر النظامي الاسلامي وحافظوا على موقفهم ثم حملوا على العدو حملة رجل واحد واختلطوا به هبراً بالسيوف وطعناً بالحراب واستمر ذلك الى الغروب ومن الغد اصبح العسكر الفرنساوي سائراً الى وهران والمسلمون اخذ بهم التعب والاعياء فاخذهما لم يلحقوه ثم انتقل الخليفة بعسكره النظامي ومن بقي معه من الجيوش المتطوعة الى الجبل المطل على سيك ولما استولى بيجو على تلمسان رجع الى الجهة الشرقية على طريق الخط الفاصل بين بلاد الصحراء و بلاد التل فوصل الى قلعة سبدو و بُعدها عن تلمسان نحو المرحلة وجرت بينه و بين قبائل تلك النواحي حروب كان الظفر فيها له ثم لاذوا بطاعته ومنها توجه الى قلعة سعيدة على مرحلتين من معسكر وقد كان خربها قبل تقدم الجعافرة والحساسنة واولاد ابراهيم واولاد خالد ومن اليهم مقاليد الطاعة اليه فافاض فيهم العطاء جلباً لغيرهم ومنها سار الى القيطنة فاحرقها وهي بلدة عائلتنا اختطها جدنا السيد مصطفى بن المختار سنة ست ومائتين والف لجهة الشمال من معسكر تبعد عنها بمرحلة قال

القبطان دي مونرون في تاريخه وكانت تلك البلدة مبنية بوسط وادٍ يانع بالازهار تندهش منه الابصار وكان لا يظن انه يوجد في اقصى افريقية ابنية محكمة البناء كابنيتها وفي هذه الايام خرج جيش من مدينة الجزائر قاصداً قبيلة بني مناد في نواحي شرشال فاوقع بهم ولما رات قبائل تلك الجهة ما حل بجيرانهم لاذوا بالطاعة قال مؤرخهم روا ولما توجه المارشال بيجو الى نواحي شلف ضرب خيامه على اطراف الجبال ملجأ القبائل التي كانت لم تزل تعكر كاس راحته وتناوشه الحرب و باداء طاعتهم له حصل الامن في سهول متيجه الى مدينة الجزائر نوعاً ما وصارت المواصلة بين المدية ومليانة وشرشال قليلة الخطر في بعض الاوقات انتهى واما الامير فانه سار بجنوده الى الجهات الصحراوية وسائر القبائل التي كانت قدمت طاعتها للعدو لاذت بطاعة الامير واعتذرت بالعجز وارتكاب اخف الضررين نعفا عنهم والتأموا في سلك جنوده وضرب معسكره في معبر الاطلس وهو من المعاقل القديمة ومنه كان يغزو على العدو ومن دان بطاعته من العرب والبربر . يتابع شن الغارات عليهم و يذيقهم النكال ويجلب اليهم الويل والوبال ويبث السرايا والبعوث الى الجهات فانحازت المنتصرة الى ضواحي المدن وخلت البلاد من اهلها وانحصرت العمارة في الصحراء للمدين والسواحل وما قاربها للعدو قال بالمار ان الامير رأى ان من الواجب عليه ديانة ان يؤدب القبائل التي خرجت عن طاعته وانضمت تحت راية عدوه وقصد بذلك قطع علائق الفساد وحفظ الشعائر الدينية والمحاماة عن الوطن فصار يتابع الغزو والغارات عليهم ولكن ذلك لم يجد الامير نفعاً لان الناس توجهت قلوبهم لطاعة عدوه طلباً للراحة من مشقات الانتقال من موضع الى آخر وغزا بني عامر والغسل وتلك النواحي فصدوه واظهروا عداوته والمارشال بيجو وان كانت انتصاراته متتابعة فانه لم يثق بذلك لما هو معلوم من احوال العرب والبربر قديماً وعلاوة على ذلك فان فرسان الحشم الشراقة والغرابة المشهورين بالشجاعة واقتحام الشدائد لم يميلوا الى طاعته بل لم يفارقوا سيدهم واميرهم الذي بايعوه على الموت وارتحلوا باهاليهم واولادهم معه وخيموا حيث خيم باهله واولاده وجنوده بمعبر الاطلس ولذا ترى ان المارشال كان دائماً يخشى الوقوع في محذورات لا خلاص له منها ولم تهدأ افكاره من اضطرابها ولا سيما انه رأى القبائل بعد ان بذلت طاعتها اليه راجعت طاعة سيدها لما رأته وهرعت الى اعتابه تطلب العفو وتعتذر بعجزها عن دفاع العدو الكثير الجنود فهذا الفعل وامثاله ادى المارشال الى الحكم بان

جميع مايراه من العرب من اظهار الطاعة والقتال معه انما هو من قبيل الامور الخيالية التي لا اساس لثبوتها فعقد في معسكر مجلساً حربياً وقال لهم ان الامير كما ترون قد نزل بجيوشه في جبال وانشريس قرب التل وسائر بلاد شلف ونهر مينه الجنوبية رجعت الى قبضة يده وجميع من يحاذيها من قبائل العرب والبربر لم تخرج عن طاعته فالاولى اننا نجمع جيوشنا ونخرج بها دفعة واحدة من الجزائر ومستغانم ووهران كل الى ما يليه الى الداخلية فاجابه اهل المجلس ان فصل الشتاء قد اقبل فلا نتمكن من مطلوبنا فقال اذاً يلزمكم ان ترتبوا الفرق الآن وبعد مضي الشتاء نجري ما يقع عليه اتفاقكم فاجابوه الى ذلك وقر قرارهم على ان سائر الجنود تنقسم الى ثلاثة اقسام قسم يكون تحت نظر المارشال بيجو ويكون مركزه في نواحي شلف والثاني تحت قيادة الجنرال شانكرنى ويكون مركزه البليده والثالث تحت قيادة الجنرال لامورسير ويكون مركزه معسكر وفي اواخر الشتاء خرج كل قسم الى موقفه المعين له واخذ كل من القواد الثلاث يشن الغارات المتتابعة على ما يليه من القبائل فما نجح واحد منهم في عمله لان سائر الشعوب والقبائل تركوا اوطانهم وارتحلوا الى الصحراء كل الى ما يليه منها فاتبعتهم الجيوش الفرنساوية فلم تدرك لهم اثرًا واستولى التعب والنصب عليهم والدبر والنقب على دوابهم ونفذت ذخائرهم ورجعوا الى مراكزهم من غير طائل واما الامير فانه كان كلما توجهت فرقة فرنساوية على جهة يخالفها الى جهة اخرى فيصيب من المتنصرة ولا تصيب الفرقة من المسلمين شيئاً وتوغل الجنرال لامورسير في الجنوب وشن الغارات على البسائط والجبال في نواحيها فخالفه الامير الى جهة معسكر فاكتسح مافي قرية البرج من الامتعة والاموال واستاق ماشيتها ثم اضرمها نارًا وسار على وجهه الى الجهة الشرقية فمر بجيوشه ليلاً على معسكر بيجو في شلف وشن الغارة على قبائل تلك النواحي فغنم واثخن في القتل والاسر والسبي وتوجه الى الجنوب فتعجب الفرنساويون من امره وسرعة سيره وبلوغه ما قصده من الخوارج في ايام قلائل متوالية وفي اثناء هذه الحوادث حدث بين دولتي فرانسا والانكليز نزاع في قضية تتعلق بمدينة ارثاهيه احدى مدن الاوقيانوس فحسبها الامير فرصة يجب اغتنامها فارسل الى دولة الانكليز معتمدًا من طرفه ليفاوضها في امره ويلتمس منها ان تشغل عنه وجه الفرنسيس حتى يتمكن من مدافعتهم عن الوطن فاحس الفرنسيس بذلك وتلافوا امرهم مع الانكليز ثم ان الامير كتب الى الدولة العثمانية يستنجدها ويخبرها بما وصل

اليه حال الوطن الذي هو جزء من ممالكها فلم ترد له جوابًا وكتب الى صاحب مراكش يستدعيه للمشاركة في دفاع العدو لاتصال المغربين الاقصى والاوسط وقال ان اصبحت بلاد المغرب الاوسط في يد دولة فرانسا فكيف تامن على بلادك وما الذي يمنعها منها فتغافل عن الجواب وانتهت ايام سنة ثمان وخمسين ومائتين واثنتين واربعين وثمانمائة على ماذكرناه من الوقائع المتتابعه ثم ان الامير لما راى ان العدو قد استولى على المدن والقلاع ظهر له ان يتخذ عاصمة كبيرة رحالة مؤلفة من خيام كثيرة ومضارب اثيرة فباشر في ترتيبها وفي اقرب مدة ظهرت للوجود على احسن الاساليب واجمل الترتيب وسمى ما يخصه منها الزماله وما يخص الاعيان والعامة بالدائرة وما يخص الجند بالمحلة واتخذ فيها جملة مضارب لمعامل السلاح واخرى لوضع المهمات الحربية ومثلها للذخائر واعد فسطاطًا واسعًا لاجتماع المجلس العام وآخر اتخذه مسجدًا ورتب مضارب للباعة واهل السوق تضرب بعيدة عن الزمالة والدائرة وما يتعلق بهما. فكانت تجبي اليها الذخائر وسائر ما يلزم الانسان وتقصد بالتجارة في صنوف البضائع وما تدعو الضرورة اليه من الحرف والصنائع وبالجملة فقد كانت الزمالة والدائرة ومتعلقاتهما على اتم ما يكون من الانتظام والالتئام المدني وكان لها منظر جميل ترى منازلها من بعيد كانها مدينة حافلة ذات قصور مشيدة وابنية جليلة وكانت تعد مركزًا حربيًا ومقرًّا مدنيًا تشتمل على مائتي الف نفس وكان الامير يبث من هذه المدينة الرحالة غوازيه وبعوثه وفيها يستعد للحرب وكانت الجيوش الفرنساوية تتقيها وتحذر منها ولم تزل تزداد كمية واتساقًا وارتباطًا حتى صارت ملجاءً عظيماً وحصنًا امينًا وقد عين لحراستها وحماية حوزتها اربعة قبائل من العرب وفرقة كثيرة العدد من العسكر النظامي فمن اطلع على هذه المدينة الرحالة وترتيبها عرف ما كان عليه الامير من الآراء المدنية والتدابير العجيبة التي انفرد بها في وقته ولم يُسمع فيما مضى بملك اتخذ عاصمة ملأت النجود والاغوار تتردد بين الحلول والارتحال والاقامة والانتقال وحيث ان الفاعل المختار في فعله قضى بان مصير كل شيء الى الزوال وانه لا وسيلة لبقائه ولا احتيال فلا عتاب ولا ملامة ولا تحسر ولا ندامة ان الارض لله يورثها من يشاء من عباده

﴿ ذكر ما كتبه الامير جواباً عن سؤال قدمه اليه ﴾
« بعض الاعيان من خواصه »

الحمد لله حمداً يوافي نعمه ويكافئ مزيده وصلى الله على سيدنا محمد وآله ومن تبعه وجرى على منواله اللهم اني اعوذ بك من معضلات الفتن ما ظهر منها وما بطن ونضرع اليك يا مقلب القلوب ان تثبت قلوبنا على ديننا المحبوب اما بعد يا اخي فاني رأيتك متعطشاً الى سماع ما لاثمنا من الكلام في هؤلاء الذين ركنوا للعدو فاحببت ان اذكر لك ما روي عنهم في ذلك ولولا اني رأيت شدة تعطشك وأوامك ما ذكرت لك شيئاً مما هنالك اذ ربما تغني في نصيحة اولئك الجهلة باقي ايامك من غير طائل ويكون تعبك في علاجهم كتعب من رام اصلاح الفاسد او حياة الهالك . وهل يصلح العطار ما افسد الدهر

واعلم ان الراكن الى الكفار الداخل تحت ذمة اهل البوار احد رجلين اما رجل كذب الله في ضمانه لرزقه نعوذ بالله من كفره وحمقه وقال ان هاجرت مت جوعاً وازداد بذلك هلوعاً واعتقد ان وطنه هو رازقه لا ان الذي يرزقه هو موجده وخالقه ولما خطر هذا في قلوب جماعة من المؤمنين في زمانه صلى الله عليه وسلم بعد ان نزل قوله تعالى آمراً بالهجرة يا عبادي ان ارضي واسعة فاياي فاعبدون انزل الله قوله وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها واياكم قال المفسرون في هذه الآية تحريض على الهجرة لان بعض المؤمنين فكر في الجوع والفقر اللذين يلحقانه في الهجرة وقال غربة في دار لا مال فيه ولا عقار ولا من يطعم الجار فضرب الله لهم المثل بحال الدواب التي لا تسعي في تحصيل قوت ولا تدخره واما رجل متكالب على الدنيا اصمه واعماه حبها يريد الظفر بها سواء كان ذلك بالاسلام او بالكفر وكلا هذين الرجلين لا يرجى صلاحهما ولا يؤمل نجاحهما ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً اولئك الذين لم يرد الله ان يطهر قلوبهم لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم ان هي الا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء ان الله لا يهدي من يضل وهذه الفتن جرت بها سنة الله التي قد خلت في عباده وحكمته الجارية في ارضه وبلاده ليتبين الصادق من المدعي ومن تحلى بحلية ليست له فضحته شواهد الامتحان الم احسب الناس ان يتركوا ان يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ام حسبتم ان تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم يعني

ان الله تعالى يختبر عباده و يمتحنهم حتى يتبين للناس الذي لم يتخذ وليًا ولا نصيرا من دون الله ورسوله والمؤمنين من الذى يتخذ نعوذ بالله من المهالك ام حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم و يعلم الصابرين ولعل هذا هو الزمان الذي اخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله تاتي في آخر الزمان فتن يصبح الرجل مؤمنًا ويمسي كافرًا الا من اجاره الله بالعلم وفي رواية بعلمه ولقد ظهر في اهل هذا الزمان مصداق قوله صلى الله عليه وسلم لتتبعن سنن من قبلكم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه قالوا اليهود والنصارى يارسول الله قال فمن رواه البخاري في صحيحه لان اهل هذا الوقت كانوا يطلبون الجهاد ويتمنون مجيء النصارى فلما ظهر الجهاد نكصوا على اعقابهم فهم في هذا كبني اسرائيل اذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله قال هل عسيتم ان كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا قالوا ومالنا الا نقاتل في سبيل الله وقد اخرجنا من ديارنا وابنائنا فلما كتب عليهم القتال تولوا الا قليلاً منهم والله عليم بالظالمين فلما كتب عليهم القتال اذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله او اشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا اخرتنا الى اجل قريب ثم بعد هذا ارادوا من سلطانهم ان يجاهد وحده و يتكفل بردع العدو ويعرفه حده فهم في هذا كبني اسرائيل ايضًا اذ قالوا لموسى عليه السلام اذهب انت و ربك فقاتلا انا ههنا قاعدون ثم بعد هذا صاروا ردءً للكفار ومعينين لهم بالانفس والاموال على من بقي مستمسكاً بعروة الاسلام واعظم هؤلاء ذنبًا واشدهم هلاكاً وابعدهم نجاة واكثرهم في الامر سقوطًا رجلان احدهما رجل عرف الحق وعاند وهو اول من تسعر به النار اذ هو عالم لم ينفعه الله بعلمه وجحد الحق مع معرفته به انه حق وهذا اصل من اصول الكفر الستة ومنه كفر الموجودين في زمانه صلى الله عليه وسلم المشاهدين لمعجزاته قال تعالى فيهم انهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون وهذا اعظم الضلال والداء العضال اضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فبعد الختم لاترجى زيادة ولا نقصان في الشيء المختوم عليه والآخر رجل قرأ بعض ابواب الفقه فعلم بعض احكام الصلاة والنكاح والبيوع فظن انه وصل الى غاية استحق ان يسمى بها عالمًا فصار يقول في دين الله ما ليس له به علم و يفتري على الله الكذب ومن اظلم ممن افترى على الله كذبا او كذب بآياته انه لايفلح الظالمون و يستدل بآيات واحاديث وكلام الائمة وهو مع هذا لايحسن النطق والتلفظ بمبانيها فكيف

له الغوص على معانيها فالحمار احسن حالاً من هذا اذ جهل الحمار بسيط وجهل هذا مركب

قال حمار الحكيم توما لو انصف الدهر كنت اركب
لان جزلي جهل بسيط وصاحبي جهله مركب

والجهل المركب اصل من اصول الكفر السنة لجميع هذا الصنف مع قبح ما هم عليه من الدخول تحت ذمة الكفر استحلوا ما حرم الله من ذلك والمستحل لما حرم الله كافر وخرقوا الاجماع فان الاجماع منعقد على وجوب الهجرة ومخالف الاجماع كافر وجعلوا ماورد في القرآن والسنة من ذكر الهجرة ومدحها والامر بها عبثاً ومنسوخاً وذلك باب لميلهم واقوالهم الكاذبة كيف والقرآن مملوء بذكر الهجرة ومدحها وذم تاركها وقد قال عليه الصلاة والسلام لا تنقطع الهجرة حتى يغلق باب التوبة ولا يغلق باب التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها وقال عليه الصلاة والسلام انا بريء من كل مسلم مقيم بين اظهر الكافرين رواه اصحاب الصحيح ما عدا البخاري وقال آخر وهو ممن بلغ رتبة الاجتهاد الحافظ السيوطي في حسن المحاضرة في اخبار مصر القاهرة لما ساق هذا الحديث ما تبرأ منهم صلى الله عليه وسلم الا لكفرهم وفي الصحيح من جامعهم او ساكنهم فهو منهم قالوا لم يارسول الله قال الا تترايا نارهما وقال مالك رضى الله عنه تجب الهجرة من ارض الظلم والعدوان فكيف ببلد يكفر فيه بالرحمن وتعبد من دونه الاوثان وقال تعالى قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الارض قالوا الم تكن ارض الله واسعة فتهاجروا فيها قال ابو السعود في الآية دليل على انه لا عذر في ترك الهجرة الا عدم اتساع الارض وقد وسعها الله ولو كان هناك عذر يقبل في ترك الهجرة ما كان في الآية تبكيت لتاركيها اذ ربما يعتذرون بعذر آخر فلما ذكر الله اتساع الارض دل على انه لا عذر غيره وقال الونشريسي في كتابه المعيار الواجب الفرار من دار غلب عليه الشرك والخسران الى دار الامن والايمان ولذلك قوبلنا بالجواب عند الاعتذار الم تكن ارض الله واسعة فلا عذر للمستطيع بوجه وان كان بمشقة في العدل او الحيلة او اكتساب الرزق في ضيق المعيشة الا المستضعف رأساً الذي لا يجد حيلة ولا يهتدي سبيلاً وعجز المسلم عن حمل اهل بيته وولده لا يبيح له التخلف عن الهجرة بل يهاجر بنفسه وقد هاجر صلى الله عليه وسلم لما تعذر عليه اخراج اهله معه وما لحقوا به الا بعد حين وكذا ان خاف ان هاجر يسلب ماله فان مفارقة الوطن او سلب المال

ليس بعذر في ترك الهجرة نص على ذلك صاحب المعيار وقد ذكر اهل الاحوال ان الضرورات التي تجب المحافظة عليها خمسة الدين والنفس والعقل والنسب والمال فكل واحد من هذه يجب حفظه مالم يعارضه حفظ ماقبله فالمال هو آخر المراتب والدين اولها فهو مقدم على غيره وكذا تجب الهجرة على المرأة اذ لم يهاجر زوجها وقد هاجر كثير من المسلمات الى الحبشة قبل هجرته صلى الله عليه وسلم الى المدينة واليها بعد هجرته صلى الله عليه وسلم وفيهن انزل الله تعالى قوله يا ايها الذين آمنوا اذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الآية ولم يعذر الله تعالى في المقام تحت ذمة الكافر الا الذي لا يستطيع حيلة ولا يهتدي سبيلاً كالاعمى الذي لا يجد قائداً والزمن الذي لايجد حاملاً مع نيتهما انهما متى وجدا ذلك هاجرا فان تركا النية وماتا ماتا على غير سبيل المؤمنين نص على ذلك غير واحد والكتاب العزيز الذي لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تحذر من مخالطة الكفار وموالاتهم ومواددتهم قال تعالى يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوّي وعدوّكم اولياء تلقون اليهم بالمودة الى قوله ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل وقال انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين واخرجوكم من دياركم وظاهروا على اخراجكم ان تولّوهم ومن يتولهم فاولئك هم الظالمون وقال بشر المنافقين بان لهم عذاباً اليماً الى قوله فان العزة لله جميعا فبين الله تعالى مراده في المنافقين في الآية بقوله الذين يتخذون الكافرين اولياء من دون المومنين فالذي يتخذ الكافر وليا منافق الى غير ذلك من الآيات والاحاديث القاطعة الصريحة الصحيحة التي لا تحتمل تاويلاً وقد ذكر صاحب المعيار في باب الجهاد ان هؤلاء المقيمين تحت ذمة النصارى لا تصح لهم صلاة ولا صيام ولا حج ولا جهاد بوجه من الوجوه فانظره فانه قد طال عهدي به ومما ذكره ان الزكاة شرطها ان تدفع الامام يعني سلطان المسلمين فاذا دفعها للنصارى ليتقوّوا بها على المسلمين كانت المصيبة اشد ومنها ان شهر رمضان في الغالب لا يثبت الا برؤية عدلين ابتداء وانتهاء والعدالة انما تثبت عند الامام وقاضيه وحيث انه لا امام ولا قاضي فيكون رمضان مشكوك الاول والآخر الى غير ذلك من الوجوه ولا تجوز شهادة المقيمين تحت ذمة النصارى الا من له عذر مقبول شرعاً ولا تنفذ احكام قضاتهم قال بعض العلماء هم اشد من اهل الاهواء وقد ردت شهادتهم واحكامهم قال ابن عرفة شرط قبول خطاب القاضي صحة ولاية من تصح توليته بوجه الشرع احترازاً من اهل الدجن كقضاة مسلمي بلنسيه ومرسيه وقوصره من الاندلس ومرادهم بالدجن المسلمون الداخلون

تحت ذمة النصارى واهل الجزائر يسمونهم المنافقين وسئل المازري عن احكام تاتي من صقليه من عند قاضيها فاجاب القادح في هذا وجهان الاول من جهة القاضي من حيث العدالة فلا يباح له المقام في دار الحرب في قيد اهل الكفر والثاني من جهة الولاية اذ القاضي مولى من قبل اهل الكفر ومن كان هذا حاله فلا يعتبر حكمه في الشرع وقد بلغني عن هؤلاء الرؤساء الجهال الذين افتوا بغير علم فضلوا واضلوا المعنيين بقوله صلى الله عليه وسلم وعلى آله ياتي على الناس زمان عالمهم انتن من جيفة حمار انهم يتدلون بقوله صلى الله عليه وسلم لا هجرة بعد الفتح وهذا الحديث في صحيح البخاري وغيره ولا حجة لهم فيه لان النبي صلى الله عليه وسلم قاله لسائل ساله عن الهجرة من مكة الى المدينة بعد الفتح فاجابه بان الهجرة التي كانت واجبة من مكة الى المدينة قد انقطعت بالفتح ونسخت كما نسخت حرمة رجوع المهاجر الى وطنه اذا عاد دار اسلام واما وجوب الهجرة من دار الكفر الى دار الاسلام فهو باق الى طلوع الشمس من مغربها قال ابن العربي الهجرة اقسام منها الهجرة من الخوف على الدين والنفس كهجرة النبي صلى الله عليه وسلم وهجرة اصحابه المكيين فانها كانت عليهم فريضة ولا يجزى ايمان بدونها ومنها الهجرة الى النبي صلى الله عليه وسلم في داره التي استقر فيها فقد بايع صلى الله عليه وسلم من قدمه على الهجرة كما بايع آخرين على الاسلام وهاتان الهجرتان انقطعتا بفتح مكة واما الهجرة من ارض الكفر فهي باقية الى يوم القيامة وكذا الهجرة من ارض الباطل والحرام والهجرة من ارض الفتنة وروى اشهب عن مالك لا يقيم احد في موضع يعمل فيه بغير الحق وقال البرزالي في بعض اجوبته الاجماع على وجوب الهجرة ان وجد المسلم اليها سبيلا وكذا يستدلون بقوله تعالى الا ان تتقوا منهم تقاة وهذه الآية منسوخة روى البخاري في صحيحه من كتاب التفسير عن ابن عباس رضي الله عنهما انه قال لا تقية اليوم لاتساع البلاد الاسلامية وكذا يستدلون بقوله تعالى الا من اكره وقلبه مطمئن بالايمان والآية انما وردت فيمن يظفر به الكافر من غير اختيار كالاسير فاذا حملوه على معصية او نطق بكفر يسوغ له ذلك لخوف القتل والصبر اجمل ما كونه متمكنا من الفرار ويبقى تحت حكمهم لم يقل به مسلم وكذا يستدلون بما ذكره البيضاوي في تفسير قوله تعالى قال اجعلني على خزائن الارض اني حفيظ عليم فانه قال في الآية دليل على جواز التولية على يد الكافر ولا حجة لهم في هذا فان البيضاوي قال بعد هذا اذا علم انه لا سبيل الى اقامة الحق وسياسة الخلق الا بالاستظهار به وهذا الشرط معدوم اليوم وقد قال غير واحد ان الملك كان اسلم قبل ذلك على انه انما يكون ما ذكره البيضاوي على تقدير صحته فيمن كان

تحت اسرهم فانه يجوز له ان يطلب منهم ذلك في التولية اذ بعض الشرّ اهون من بعض
و يوسف عليه السلام جده الخليل عليه السلام وهو اول من سن الهجرة قال الله تعالى
حاكيًا عنه وقال اني مهاجر الى ربي ومعه سارا فدخل قرية فيها جبار من الجبابرة
الحديث بطوله وكذلك يستدلون بما نقل عن النووى والرافعي ان المسلم اذا كانت له
عشيرة تحميه او له جاه لا تجب عليه الهجرة ولكن تستحب في حقه نقل ذلك ابن النحاس
في مشارع الاشواق الى مصارع العشاق وهذا ايضًا لا دليل فيه لان كلام النووي
والرافعي فيمن كان كافرًا في دار الحرب ثم اسلم وكان لا يخاف الفتنة في دينه لحماية
عشيرته وتوفر عصابته او جاهه بحيث لو اراد الكفار ذلك لا يقدرون فيأمن لذلك من
الفتنة وقد وقع من هذا النمط كثير في الصدر الاول كما ذكر ذلك اهل السير
والاخباريون اما من كان مسلماً في دار الاسلام ودخل عليه الكفار بالقهر والغلبة
فلا يتصور ان تكون له عشيرة تحميه او جاه يامن بهما من الفتنة في دينه مهما ارادها
الكفار منه وهل يوجد واحد من هذه الشعوب والقبائل الداخلة تحت ذمة الكفار من
له عشيرة تحميه من الكفار اذا ارادوا اجراء حكم من الاحكام عليه او يامن الفتنة
بواحد من هذين الوجهين اللذين ذكرهما الرافعي والنووى اللهم الا ان يكون احمق ضعيف
العقل والايمان فيامنهم ويثق بعهودهم ومواثيقهم وان الشارع الحكيم لا يقبل شهادتهم
واقوالهم بالاضافة الينا وكان هذا الاحمق لم يصل اليه خبر الاندلس خصوصًا اهل قرطبة
فانهم تعاقدوا مع الكافر لما غلبهم على نيف وستين شرطًا اشترطوها عليه فلم يحل الحول
عليها حتى نقضوها عروة عروة وآخر الامر صار الكافر ياتي الى المسلم يقول له ان جدك
او جدّ ابيك واباك او جدك كان كافرًا فارجع الى الكفر الذي كان عليه جدك واترك
دين الاسلام الى غير ذلك فالنصارى لا يوفون بعهد الا اذا كانت كلمة الاسلام هي
العليا وشوكته قائمة كيف والله تعالى يقول لا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان
استطاعوا وقال كيف وان يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم الاً ولا ذمة والالُ القرابة واولئك
هم المعتدون اي المتجاوزون اي لا يقفون عند شرط ولا عهد ومن شنيع حمق هوءلاء
وضعف عقولهم ومرض ايمانهم انهم يسمون طاعتهم للكافر مهادنة وهل يسوغ لمن له
ادنى عقل وتمييز ان يتلفظ بهذا كيف واحكام الكافر وشرائعه وتصرفاته جارية على
شريفهم ووضيعهم ويوءدون اليه المغارم ويحملون اثقاله اذا اراد الغزو على المسلمين
ويقاتلونهم معه في جملة عساكره وجيوشه هذا والله الهذيان الذي لا يعقل على ان
المهادنة خاصة بالامام او نائبه فلا يعقدها سواهما قال خليل والامام المهادنة يعني لا لغيره

فقدم الخبر مع جره باللام وكلاهما يفيد الحصر والاختصاص واعلم ان هذه المصيبة التي هي ظهور الكفار على المسلمين حتى دخلوا تحت ذمتهم لم تكن في القرن الاول ولا في الثاني ولا في الثالث ولا في الرابع وانما حدثت في الخامس وبعده ولذا لم يوجد فيها قول ولا نص لواحد من الائمة رضى الله عنهم ولما حدثت ووقع السوءال عنها قاسها ساداتنا اهل النظر والاجتهاد المذهبي على مسئلة من اسلم ولم يهاجر قال ابن رشد وهو قياس صحيح وقد اختلف الائمة فيمن اسلم ولم يهاجر واقام تحت ذمة الكفار من غير ان تحصل منه اعانة لهم لا بالنفس ولا بالمال اما ان اعانهم بماله طوعا او كرهًا بان اخذوه منه مغرمًا او بايعهم او شاراهم ولو في اقل شيء فقال القاضي ابن الحاج التجيبي الاندلسي من القواعد ان الاعانة بالمال تبيح المال والاعانة بالنفس تبيح النفس وقال الامام المغيلي في كتاب له سماه مصابيح الفلاح ان هوءلاء الموءمنين يعني الذين طلبوا الامان من الكفار وامنوهم واقاموا تحت ذمتهم ودانوا بطاعتهم توءخذ اموالهم و يقتلون ولو كانوا يقرءون القرآن وقال ابن القاسم واصبغ في مال المسلم المقيم في دار الحرب انه مباح وانه لايد لصاحبه وانما اليد للكافر وقد حرره في هذه المسئلة الامام ابن عباد شارح الحكم في جواب له ونصه حال المتنصرة على حسب فرقهم فان منهم من يلجأ لحصون العدو ليدافع بها عن نفسه ومنهم من يكون معينا له بنفسه وماله بمعنى انهم يقاتلون مع العدو ويدافعون عنه ويغيرون على المسلمين فهوءلاء اشد ضررًا على المسلمين وحكمهم حكم اهل دار الحرب في قتلهم وسلب مالهم واما اولادهم فلا يقتلون ولا يكونون فيأ وانما ابيح قتل البالغين لكونهم رده‌ا للعدو الحربي معينين لهم بانفسهم وحكم الرده اذا لم يقاتل مع العدو حكم المقاتل فاحرى اذا قاتل قال بعض المحققين من علماء تونس في جواب عن اهل حصن كانوا رده‌ا للكافر بن المحاربين ما نصه وقول هرقل لو كنت ارجو ان اخلص اليه لتجشمت لقيه يعني دون خلع من ملكه وهذا التجشم هو الهجرة وكانت فرضًا على كل مسلم قبل فتح مكة فان قيل ان النجاشي لم يهاجر قبل فتح مكة وهو موءمن فكيف سقط عنه فرض الهجرة قلنا انه هو في مملكة اغنى عن الله ورسوله وعن جماعة المسلمين منه لو هاجر بنفسه فردًا لان اول غنائه انه حبس الحبشة كلهم عن مقاتلة النبي صلى الله عليه وسلم مع طوائف الكفار هذا مع انه كان ملجاء لمن اوذى من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وردءا لجماعة المسلمين وحكم الرده في جميع الاحوال حكم من كان ردأ له وكذلك ردوء اللصوص والمحاربين عند مالك والكوفيين يقتل بقتلهم ويجب عليه ما يجب عليهم وان كانوا لم يحضروا الفعل ومثله في المساواة تخلف عثمان وطلحة وسعد بن زيد رضى الله عنهم

عن بدر وضرب لهم النبي صلى الله عليه وسلم بسهامهم من غنيمة بدر قالوا واجرنا يارسول الله قال واجركم انتهى فانظر قوله وحكم الردء الى آخر كلامه ففيه الكفاية في تبين ما يجب العمل به ومنه تعلم ان من يدخل تحت جوارهم وامانهم من غير اعانة لهم بنفسه ولا بماله وانه لم يكن لهم عيناً ولا ردءا دونهم لا يباح قتله وانما هو عاص لا يباح ما عصمه الاسلام من دمه وماله وانما يباح سلب مال من يكون معيناً للعدوّ به على قتال المسلمين ومقاومتهم ومناهضتهم وقد افتى العلماء باباحة اخذ مال قوم كانوا بقرب حصن العدوّ وهم قادرون على منازلته بذلك المال ولم يفعلوا فجوزوا للقيام بالحق المتعين ان ياخذ الامام القدر الزائد على كفايتهم ويصرفه في منازلة ذلك الحصن لا سيما اذا علم انهم يتنعمون ويعينونه به مثل هؤلاء الذين نتكلم في امرهم وانما لم يبح قتل اولادهم ولا سبي نسائهم فلعدم تعلق الاثم بهم لصغر الاولاد وضعف النساء واصالة اسلامهم بخلاف الحربي اذا اسلم واقام بدار الحرب حتى اخذ فولده وماله فيء مطلقاً ولا يقاس المسلم بالاصالة عليه خلافاً لابن الحاج هذا هو التحقيق في هذه المسئلة ومنهم من لجأ للمسلمين وصار يقاتل العدو معهم وهو مع ذلك يعين العدو خفية ويعلمه باحوال المسلمين ويطلعه على عوراتهم وكذلك ان اطلعهم على كتب يكتبونها فان حكم هؤلاء حكم الزنادقة ان اطلع عليهم قتلوا والا فامرهم الى الله انتهى كلام ابن عباد وقال القاضي ابن الحاج الارجح سبي ذراري هؤلاء ليعيشوا في دار الاسلام آمنين من الفتنة في الدين يعني لا ليملكوا واما الذين يتجيشون بالكفار ويطالبون منهم الغزو على المسلمين فهم مرتدون قال البرزلي في نوازله احفظ ان امير المسلمين يوسف بن تاشفين استفتي علماء العدوة في المعتمد بن عباد فاتفقت فتياهم على ان مجرد الاستجاشة على المسلمين بالكفار ردة مقصودهم بذلك ولو لم يحصل المطلوب والمعتمد ابن عباد هذا كان من ملوك الاندلس واستجاش بالطاغية على يوسف المذكور ونصر الله المسلمين فظفر به يوسف وقال بعض شراح رسالة ابن ابي زيد القيرواني الفرار من دار الاسلام الى دار الحرب ردة وقال الحطاب في باب الردة ادخال السرور على الكفار ردة ولا يخفى على كل مميز ما يدخل على الكافر من السرور عند دخول من يدخل تحت ذمته قال الاجهري في حاشيته على المختصر جعل البرنيطة على الرأس ردة وهؤلاء المتعضدون بالنصارى الداخلون تحت ذمتهم يحبون نصرة الكفار على المسلمين الذين يغيرون عليهم ويفرحون بذلك كلهم رجالاً ونساء وهذه ردة

نسأل الله السلامة والمرأة اذا ارتدت قال كثير من الفقهاء تقتل كالرجل وقال اسهب تسترق ولا تقتل نقله التلمساني في حاشيته على الشفا لعياض قال القاضي ابو بكر ابن العربي ومنشأ الخلاف في ذلك ان قتل الكافر هل هو لكفره او لحرابته فاما من قال لكفره قال تقتل المرأة واما من قال لحرابته قال لاتقتل لانها لاتحارب واذا تاب احد ممن ارتد والعياذ بالله فالمشهور ان ماله يرد عليه ونقل ابن عرفة في مختصره عن ابن شعبان انه لا يرد عليه بل يبقى فيئاً كما كان في حال ارتداده كما افتى به بعض العلماء ففي سبي نسائهم وذراريهم خلاف فالذي ذهب اليه كثير من الفقهاء انه لاسبي في نسائهم وذراريهم والذي ذهب اليه خليل حيث قال وان ارتد جماعة وحاربوا فكالزنديق يعني يقتل ولا تسبى امراته ولاولاده وقال ابن وهب من المالكية وجمهور الشافعية المرتد يسبى كالكافر الاصلي وهو حكم ابي بكر الصديق رضى الله عنه في اهل الردة فانه حكم بسبيهم واعطى علياً بن ابى طالب رضي الله عنه ام محمد ابن الحنفية وكانت سبيت يوم حرب اهلها بني حنيفة وقتل مسيلمة الكذاب ووطئها على رضى الله عنه بملك اليمين قال ابن حجر في شرح الاربعين قول ابن بطال الاجماع على ان المرتد لا يسبى منقوض بما ذهب اليه ابن وهب من المالكية وبما ذهب اليه جمهور الشافعية وخالف عمر بن الخطاب ابا بكر رضي الله عنهما فانه اطلق سراح المرتدين بعد موت ابي بكر رضي الله عنه وقد كانوا في اسره وقال بعض العلماء كما نقله الشيخ سالم لاخلاف بين ابي بكر وعمر رضي الله عنهما في سبي المرتدين اذ الامام مخير بين الاسترقاق والمن فابو بكر رضي الله عنه اختار استرقاقهم وعمر رضي الله عنه منّ عليهم ولا تناقض في ذلك واذا قتل الغزاة نساء هولاء المتنصرة الذين تحت ذمة النصارى وصبيانهم فلا حرج على قاتلهم ولا اثم وقد عقد البخاري لذلك باباً في صحيحه قال باب اهل دار الحرب يسبون وفيهم النساء والصبيان ثم ساق الحديث على انه صلى الله عليه وسلم سئل عن ذلك فقال هم منهم وذكر في آخر الباب لا حمى الا لله ولرسوله انتهى المقصود بحمد الله وحسن عونه من جواب سؤال المحبين قطعاً لشبه المرتدين ونحن في الثغر مرابطون ولا كتب عندنا ولا مواد وذلك في ذي الحجة سنة ثمان وخمسين ومائتين والف من هجرة حائز الفخر والشرف صلى الله عليه وسلم وعندما تغلب العدو على الجهة الغربية من الوطن هاجر اخوان الامير الى المغرب الاقصى وبقي الامير باهله وجيوشه في الجهة الشرقية لمدافعة العدو ولما طالت المدة كتب الامير الى

اخوانه يتشوق اليهم وذكرهم باسمائهم فقال

يا سواد العين يا روح الجسد ... يا ربيع القلب يا نعم السند
كنت لي قرة عين وبها ... راح قلبي لا بمال وولد
فرمى الدهر بعيني اسهماً ... مذ نأيتم لا ارى فيها احد
ايروق الطرف شيء بعدكم ... لا ورب البيت في هزل وجد
مذ ترحلتم اذبتم مهجتي ... ودموعي فائضات من كمد
قد فنى صبري ولم يفن الجوى ... ما اراه فانياً حتى الابد
وانزوى ما كان رطباً يانعاً ... ووهى العظم ولم يبق الجلد
مذ تواريتم توارى فرحي ... ما يسر القلب في اخذ ورد
لحياتي بعدكم مذ غبتم ... من مجاز مرسل عندي يعد
طال ليلي يا احبائي ولا ... يعلم الحال سوى الفرد الصمد
كم انادي حين يبدو صبحه ... يا سعيد هل خيال لي يرد
فترد الروح للجسم ويا ... مصطفى هل من دواء للكمد
شاقني حب حسين شاقني ... ما لحكم الله في الخلق مرد
هل يجود الدهر من بعد النوى ... باقتراب يحيي ميتاً لم يعد
فاذا لي تم ما املته ... عاد انساني وروحي للجسد
يا ذوي القربى قريباً من اب ... انتم ذخري وكنزي والسند
لي كونوا مثل ما كان الاولى ... سلفوا لي اهل سعي لا يرد
فاذا ما اقبلت فلتبذلوا ... واذا ما ادبرت فارضوا بود
وعليكم من سلام صيب ... طيب يترى الى غير امد
يشمل الاحباب الى قد ثووا ... كل حب لي هو الصنو الاود

﴿ ذكر دخول الامير الى ارض منيجة الغربية ﴾
« وانتصاره على القبائل المتنصرة هناك »

وفي المحرم سنة ثمان وخمسين ومائتين الموافق سنة اثنين واربعين وثمانمائة توجه الامير وخليفتاه السيد محمد بن علال والسيد محمد البركاني في ثلاثة آلاف من العسكر المنظم وعدد كثير من المتطوعة واحتل بوادي شلف ثم تجاوز جبال مليانه الى ارض منيجة وبث البعوث في جهاتها وشن الغارات على نواحيها وحصلت بين المسلمين والمتنصرة

وقائع عظيمة ثم لاذوا بالطاعة فقبلها الامير منهم وعفا عنهم وردّ اليهم ما غنمه المسلمون منهم واستولى الخوف والرعب على العدو وطار الخبر الى الجنرال شانكرني في الجزائر فخرج في جيوشه الى سهل متيجة الشرقي ومن هناك توجه الى ثنية الحد وواد الزيتون وقوى حاميتها بالجند والذخيرة وكان الامير لاول دخوله اراضي متيجة الغربية اضرم سائر الابنية الفرنساوية نارًا وقتل من الفرنسيس عددًا كثيرًا وسبى نساءهم وذراريهم فامتعض لذلك الفرنساويون وسرى الخوف في قلوب المتنصرة فحملهم على التوبة والندم واظهر الكثير منهم خضوعهم الى الامير ونصحوا له واجتهدوا في اصلاح ما كانوا افسدوه طلبًا لرضاه وعفوه عنهم قال رُوا في تاريخه ان الامير عبد القادر كان لا يملّ من التعب ولا يكلّ من الحرب ومشقاتها وكان يشاهد انتصارات فرانسا ولا يشاهد نفسه مغلوبًا لها وبعظيم حكمته وكمال فطنته استمال قلوب الكثير من القبائل رغبة ورهبة فانضموا اليه وصاروا في جيوشه وقال شرشل لما رأى الفرنساويون ما اجراه الامير في نواحي شرشال من ارض متيجة مما كان سببًا في رجوع القبائل الى طاعته وشاهدوا انقياد الناس اليه وبذل نفوسهم دونه في اقرب مدة بادروا بارسال بذر الذهب والفضة رشوة لاكابر القبائل كي يستميلوا بذلك قلوبهم ويردوهم الى ما كانوا عليه من الانقياد اليهم وتارة يتهددونهم فلم يجدهم ذلك نفعًا ولم يصغ لهم احد بل عكفوا على طاعة اميرهم وحافظوا على اموالهم واوطانهم ولم تزل غزوات الامير متتابعة وفرسانه الى قهر الاعداء متسابقة الى اول ايار ثم رجع بقوته الى الجهة الغربية

﴿ ذكر ما اجراه الجنرال بيجو لمنع دخول الامير الى نواحي الجزائر ﴾

ولما اتصل بالحاكم بيجو ما اجراه الامير في بلاد متيجة وتحقق وقائعه فيها مع المتنصرة وما امعن فيه من قتل الفرنسيس وسبي نسائهم وذراريهم وحرق تعلاتهم في تلك الجهات خرج من الجزائر بجميع الجيوش التي كانت فيها الى وادي شلف وقسم العساكر ثلاثة اقسام قسم عقد عليه لابن الملك الدوك دومال والثاني عقد عليه للجنرال لامورسير والثالث ابقاه تحت نظره وامر ابن الملك ولامورسير بالسير الى الامير اينما كان ثم توجه بمن معه من العسكر الى بلاد متيجة الغربية واجرى مع القبائل ما حملهم على رجوعهم الى طاعته ولما رأى ان العساكر الموجودة في مليانة والمدية من المدن البرية وفي شرشال ومستغانم من المدن البحرية غير كافية لحماية قبائل الجنوب من بطش الامير انشأ مدينة بين نهر مينة ونهر شلف سماها الدوك دورليان وكانت قديمة الاصل تسمى

الاصنام ثم شحنها بالعساكر والذخائر ووضع حامية في مدينة تاهرت في حدود التل وحامية في مرفانس بين شرشال ومستغانم واما الجنرال لامورسير فانه سار بعساكره الى مدينة تاكدمت وجرى بينه وبين الامير وقائع وحروب تشيب لها الاطفال وكان الامير قبل ذلك في دائرته فاخبره بعض الجواسيس ان لامورسير قد سار قاصداً الدائرة فركب الامير لحينه ولقيه في تاكدمت ولامورسير لم يزل في نواحي معسكر حين بلغ الامير سيره الى الدائرة فاقام في نواحي السرسو في نحو الف وخمسمائة فارس ليس معهم زاد فكانوا يقتاتون بالبلوط و يعلفون خيلهم من اوراق الشجر والاغرب ان تلك المدة من ايام رمضان والناس على صيام واغرب منه ان بعض روساء العسكر جاءه مستبشراً وقدم اليه خاروفاً وجده بعض انفار العسكر ضالاً عن اهله فقال له خذه للعسكر يقتاتون به وآثرهم على نفسه مع انهم في الاضطرار سواء فقد تاسى بنبي الله داود عليه السلام حين ورد على بيت لحم وكان ظمآناً فقدموا اليه ماء فقال اليس هذا دم الذين خاطروا بانفسهم في سبيل الله ولم يشرب منه وماثل الاسكندر حين قلّ الماء على جيشه واتى بقليل منه فامتنع من شربه وقال كيف اشرب الماء واصحابي اضرّ بهم الظمأ

﴿ ذكر واقعة طاكين ﴾

منذ اتخذ الامير الزمالة ودائرتها عاصمة رحالة يأوي اليها الرائح والغادي ويؤمها الصادر والوارد اخذ الفرنساويون يدبرون في نكبتها وينظرون في وجه مضرتها ولما ساعدهم الوقت توجه الجنرال لامورسير بن معه الى معسكر ومنها الى تاكدمت فلقيه الامير ووقعت بينهما وقائع تكافئوا فيها وتوجه الدوك دومال ابن الملك بمن معه الى النواحي الشرقية ونظره الى الزماله لانهم علموا ان قوة الامير المالية قد جعلها فيها فصارت مطمح انظارهم ومنتجع افكارهم فخاضوا لذلك بحر الاهوال واستعملوا الوسائل والوسائط حتى استمالوا قلوب بعض القبائل المتنصرة بالاموال الجسيمة والهدايا العظيمة وكان من جملة من تعهد لهم بترصدها ودلالتهم على موضعها المتنصر عمر العيادي فجعل يتبع مراحل الزمالة من موضع الى موضع حتى احتلت في كوجيله من نواحي الجنوب الشرقي من تاهرت فطير الخبر الى ابن الملك وكان اقرب ما يكون اليه فانتهز ابن الملك الفرصة لان الامير وقتئذ مقابل للجنرال لامورسير في نواحي السرسو فسار من بوغار في اثنين من المشاة وخمسمائة فارس من جنود فرنسا وخمسمائة من القبائل المتنصرة ووصل

سيره ليلاً ونهاراً الى ان احتل بكوجيلة فوجد الزمالة انتقلت الى القرب منها بمرحلة ونزلت في الموضع المعروف بطاكين وفي نهار السادس عشر من ربيع الثاني سنة تسع وخمسين ومائتين والخامس عشر من ايار سنة ثلاث واربعين وثمانمائة صبحها فاكتسحها واستف ما فيها ولم يكن وقتئذ من حاميتها سوى خمسمائة جندي من ضعفاء العسكر وقد اغتروا بالمكيدة العظيمة التي اجراها ابن الملاك باشارة عمر العيادي المرتد وهي الباس فرسانهم لباس الخيالة المسلمين فلما اطلعوا على الزمالة من بعيد ظن الناس انهم طلائع الامير فاستبشروا وخرجوا الى لقائهم بالتهليل والتكبير فما قربوا منهم حتي اظهرت جيوش العدو بشاراتهم المعروفة فحينئذ فطن الناس لمكيدة وحاولوا ان يتداركوا امرهم ففاتهم ما املوه ودافعوا ساعة زمانية ثم تكاثرت عليهم جيوش العدو وانتشرت على منازل الزمالة ودائرتها يقتلون وينهبون و يفعلون الفعائل الشنيعة التي يفعلها العدو بعدوه اذا هو غلبه وملك قياده ولم يجد من يدافعه عنه وتفرق الناس شذر مذر في الشعاب وشعب الجبال وبالجملة فانها كانت من اعظم الوقائع التي لا تؤدي العبارة تفصيلها ولا يدرك اللسان تحصيلها قال بعض المؤرخين ولذلك رسمها بعض مصوري فرانسا وقد نظرت صورتها في سراي فرساي ثم ان العدو استولى على اشياء نفيسة واموال جسيمة احتوت على صنوف وانواع من الجواهر التي يكل عن وصفها اللسان وخزائن كاية وآلات حربية ومكتبة الامير قيمتها خمسة آلاف ليرة والمحة بجوهرة وحلي بجوهر كان ملك فرنسا اهداه اليه ولوفور الاموال وكثرتها اقتسمت عساكر العدو الذهب والفضة بالبرانيط واسر من المسلمين ثلاثة آلاف نفس كان فيهم عيال الخليفة السيد محمد بن علال وكاتبه السيد محمد الخروبي والسيد قدور بن الرويله هذا ما كان من امر الزمالة ودائرتها واما ما كان من امر الامير فانه ما زال مقيماً في احراش السرسو حتى اخبره من فرَّ من اهل الزمالة بما جرى عليها فاثر فيه ذلك الخبر والحق به التاسف والكدر وفكر في تلك التقلبات الغريبة وصرف الناس واعتزل و بالصلاة والدعاء اشتغل وشاع الامر بين جيوشه فما منهم الا من تاوه وتحسر وتمنى ان يكون في تلك الواقعة حاضراً ليشفي عليل فؤاده ويطفي اواره ثم ان قواد العسكر اجتمعوا الى الامير وهم بادهتين حائرون لان عيالهم واموالهم استولى عليها العدوّ فخرج عليهم من خيمته فازدحموا عليه وحدقت ابصارهم اليه ولم يستطع احد منهم ان يبدأه بكلام او يصرّح بمرام ثم آنسهم وابتسم في وجوههم وقوى قلوبهم ولسان حاله ينشد

وما نبالي اذا ارواحنا سلمت بما فقدناه من مال ومن نشب

فالمال مكتسب والجاه مرتجع اذا النفوس وقاها الله من عطب

و بعد ان هدأت قلوبهم وسكن اضطرابهم قال لهم سبحان الله كل شيء كنا نحبه وتعلقت افكارنا به كان يعوق حركاتنا و يقف في صدورنا عن الوصول الى مطلوبنا والآن صرنا احرارًا متجردين لا شغل لنا الا مقارعة الاعداء ومصارعتهم ثم التفت الى بعض الاعيان وكانت شدة الحزن اخذت منه مأخذها وقال له على اي شيء تحزن ما فقدناه من الرجال فنحن نعلم انهم شهداء وهم الآن في الفردوس الاعلى واما الاموال فسيخلفها علينا الكريم الوهاب على ان هذا الخبر لم يبلغنا الا بعد وقوعه بثلاثة ايام وقد فات تداركه ولو كنا حاضرين لحاربنا عن نسائنا واولادنا واموالنا ودافعنا الاعداء عنهم وأرينا الفرنسيس ما لم يكن في حسابهم وامضينا عليهم يومًا مهولاً ولكن لا مفر من القدر وحكم الله لا بدّ من نفوذه وهذا الامر الذي وقع بنا مدخول عليه منتظر الوقوع منذ دخل العدوّ بلادنا ثم كتب الى خلفائه يخبرهم بما وقع وقال لهم حيث ان الله تعالى انفذ امره في الزمالة ينبغي لنا ان لا نجبن بل نكون من الآن فصاعدًا اشدما كنا عليه من قوة القلوب وكثرة الاستعداد للحرب ثم اخذ في النظر فيما تصلح به اموره و يرد قوة جيوشه فصار يشن الغارات و يقرع الكتائب و ينزل بمن خانه من قبائل العرب والبربر انواع البلاء والمصائب بعد ان ضم اليه خليفته السيد محمد بن علال بمن معه من الجند وقد انزل على الفرنساويين في هذه المدة ما فيه عبرة للمعتبرين واحل بهم من الويل ما تركهم في حيرة ثم جمعوا جيوشهم واكملوا استعدادهم وتهيئوا لتجديد الحروب

ذكر مهلك مصطفى اغا ابن اسماعيل رئيس قبيلة الدوائر

لما حل بالزمالة ما حل اجتمع فلُّها بالقرب من موضع الواقعة وتلاحق بها من كان اخذه الفرار الى الجهات فاتصل خبرها بالجنرال لامورسير وهو في نواحي تاكدمت فجهز فرقة من جيشه وجعل امرها لنظر المتنصر مصطفى اغا ابن اسماعيل رئيس قبيلة الدوائر فسار الى الزمالة فلما بلغ الخبر الى اهلها ارتحلوا وساروا على سمتهم الى جهة الصحراء فلحق ابن اسماعيل بمؤخرها وانتشب الحرب بينه وبين المسلمين ولما كانت جيوشه اكثر واقوى انهزم المسلمون بين ايدي الاعداء فاثخنوا فيهم قتلاً واسرًا ورجعوا فلقيهم جيش الامير ووقع القتال بينهم والتهبت نيران الحرب فانهزم الاعداء وولوا الادبار فلحقهم المسلمون يقتلون و ياسرون ويسلبون وكان فيمن قتل وشفا المسلمون منه انفسهم الرئيس ابن اسماعيل وكان قتله سببًا في الهزيمة ووقف عليه بعض المجاهدين فوجده يختبط في دمه

فاجهز عليه وقطع راسه واستمر العدوّ على هزيمته الى ان ابعد المفر واما المسلمون فانهم رجعوا الى الامير بالاسارى والغنائم واعظمها واحبها اليه والى كل مسلم رأس مصطفى بن اسماعيل قائد الفتنة وموقد نارها وعين الفرنساوية ولسانهم و يدهم ولما وضع الراس بين يدي الامير نظر اليه واستعاذ بالله تعالى من غضبه وعقوبته وعندما وصل الخبر الى الفرنسيس عظم عليهم الامر واشتد حزنهم وكدرهم على فقد اعز اصدقائهم عليهم واكبر حلفائهم وانصارهم واشد اعوانهم على المسلمين

ذكر واقعة الجعافرة

وكان الامير قد بلغه ما اوقعه ابن اسماعيل بالزمالة قبل مهلكه فلما رجعت اليه جيوشه ارتحل قاصدًا الزمالة وهي في بلاد الاحرار في الجنوب فاقام فيها اياما لتأنيس اهله واولاده ثم ارتحل بها الى الجهة الغربية وانزلها في اطراف بلاد الحساسنة واختار من جنده خمسمائة فارس وستمائة من العسكر المنظم المشاة وشرذمة من المتطوعة وسار قاصدًا نواحي معسكر فطار الخبر الى الاميرلاي جرى في معسكر فجمع جيوشه وزحف بها اليه وفي طريقه لقيه الجنرال بيدو والاميرالاي تاميور ومعهما الفرق التي كانت في تلمسان في الجهة الغربية ولحقت بهم الفرق التي كانت في قسنطينة ووهران واخبرهم بما عزم عليه من ملاقات الامير ومحاربته فاجابوه الى ذلك وساروا نحوه الى ان ادركوه وهو في قلة من الجيش وقلة من الذخيرة فلم يجد بدًا عن ملاقاتهم فاجتمع الفريقان واشتعلت نار الحرب فداهمهم الامير بمن معه ثم كاثروه واحاطوا به وباشر القتال بنفسه وابلى فيه بلاء حسنًا حتى ان ثيابه صارت مثل الغربال من كثرة وقع الرصاص عليه وقتل فرسه ووقع بين الصفوف فشد عليه مائة جندي من الجنود الفرنساوية كانوا من قبل هربوا اليه من معسكرهم مع ضباطهم وحسن اسلامهم ولا زالوا يدافعون عن الامير الى ان استشهدوا عن آخرهم وانتقل الامير الى فرس آخر ولم يزل الامر يتفاقم الى ان استولى العدو على المعسكر ونجا الامير في لمة من خيله وحال الليل بينه و بين باقي جنده فظنوا انه قتل ولحقوا بالدائرة واشاع المرجفون انه استشهد فركبت شقيقته السيدة خديجة واستقبلت العسكر واخذت تسليهم عن مصيبتهم وتقوّي قلوبهم و تشجعهم وقالت لهم ان فقد شقيقي وذهب فان مدافعتكم عن الدين والوطن باق ذكرها الى آخر الامد وهؤلاء اهله واولاده في كنف الله ثم كنفكم فحافظوا عليهم الى ان يظهر الله ما في غيبه ثم قدمت لهم ضيافة وبينما الناس غارقون في بحر التاسف والتحسر اذ وردت البشائر بقدوم

الامير عليهم فانقلب الحزن سرورًا قال بعض المؤرخين من الفرنسيس وكان من جملة ما عثر عليه الجيش الفرنساوي في المعركة سرج الامير على جواده المقتول مع مهمازه

ذكر واقعة الخليفة السيد محمد بن علال

وبعد رجوع العدوّ الى معسكر بلغه ان الزمالة نزلت في بلاد الحساسنة من الجهة الغربية وقاربت التل وكان الخليفة السيد محمد بن علال فيها فخرج تاميور من معسكر قاصدًا اليها فاجفلت الى بلاد الجعافرة والتقى الخليفة وتاميور بالقرب منها واشتد الحرب بينهما واتصل اياماً عديدة وفي اليوم الاخير منها استشهد الخليفة واختل مصافه وتمكن العدو من الاستيلاء على المعسكر وقتل من المسلمين في ذلك اليوم اربعمائة نفس واسر ثلاثمائة وستون وكان الخليفة السيد محمد بن علال من الشجاعة والسياسة بمكان لا يدرك احد شأوه فيه وله وقائع وحروب مع الفرنسيس في نواحي مليانة ومتيجة وشرشال تشهد له بذلك وناهيك برجل جمع الله له بين الجهاد والشهادة كما جمع له بين النسب والحسب ولما اتصل خبره بالامير جاء الى الزمالة وولي السيد قدور بن علال في مكان عمه الشهيد واصلح خلل العسكر ونظر في احوال الزمالة ثم امرها بالانتقال الى حدود المغرب الاقصى من الجهة الجنوبية فارتحل بها الموكلون بشأنها واقام هو بمن معه من الجند يتنقل في المحلات ويواصل الغارة على المتنصرة وينتهز الفرص التي تمكنه من قهر العدو وشفاء النفس منه قال بعض مؤرخيهم مفصلاً ما اجملناه ولما بلغ الامير خبر خليفته السيد محمد بن علال صعب عليه وكبر لديه وولى ابن اخيه خليفة في موضعه وهو السيد قدور بن علال ثم اخذ في التدبير لامره الخطير حيث ان اصحابه قد تبدد امرهم واكثر القبائل ارتدوا وصاروا له اعداء وبارزوه بالقتال واظهروا له صنوف العسف والاعتداء وغدت بلاده الواسعة الاطراف قريبة المأخذ لاعدائه ولا طاقة له على الدفاع عنها ومع هذا كله فانه كان على عزمه المعروف وحزمه المعلوم لم يلحقه ضعف فيهما ولا نقصه شيء من دواعيهما لا يبالي بالمصائب ولا يفزع من الشدائد والنوائب فجمع نحو الخمسة آلاف مقاتل واقبل يغزو بهم على القبائل والعرب المتنصرة ويذيقهم شديد النكال ويسطو على جيوش فرنسا فيوقع بهم البلاء المبين وكان يباشر القتال بنفسه ويخوض بحر المصاعب والشدائد حتى قمع بماضي عزمه كل معاند فقويت همة عسكره لذلك وخاضوا معه لظى الحروب والمهالك

ذكر واقعة سيدي يوسف

بعد انتقال الزمالة الى نواحي تخوم المغرب الاقصى عسكر الامير في الخط الفارق بين التل والصحراء في الثامن والعشرين من شعبان سنة تسع وخمسين ومائتين والثاني والعشرين من ايلول سنة ثلاث واربعين وثمانمائة ثم جرد من جيشه خمسمائة فارس ومثلها من العسكر النظامي وتقدم الى التل فاحس به بعض جواسيس لاموريسير فبادر بالمسير اليه في جيوشه من غير ان يشعر به الامير حتى نزل بالقرب منه بنحو ستة فراسخ فجعل الامير العيون عليه وفي احدى الليالي نام الحرس وكان العدو سار على مهله ينسل كالسارق فما انصدع الفجر حتى وصل الى معسكر الامير وكان الامير من عادته انه يصلي الصبح ثم ينام بقصد الراحة من تعب قيام الليل فبينما هو نائم اذ سمع صراخ جيشه الفرنسيس الفرنسيس فقام وامر العسكر بالمدافعة وحاول ان يركب فرسه فلم يسعه الحال ولم يمكنه من ذلك تفاقم الامر واشتباك العسكر بالعسكر وبعد ساعة انكشف العدو وتمكن الامير من الركوب وصالت فرسانه صولة الاسود وهجموا على العدو فهزموه اقبح هزيمة وغنموا منه غنائم عظيمة ورجع العدو الى معسكر ثم ارتحل الامير وقصد بجيوشه ارض بني عامر فوجد عندهم فرقة من عساكر الفرنسيس حرسًا لهم فصمدوا له ثم تقدم اليهم وصادمهم بمن معه من الفرسان والمشاة وكان في مقدمة العدو القائد بالحميدي الزائري فهجم على الامير فاخذ الامير البارودة من تابعه واقبل عليه بقوة ورماه بالرصاص فاصابه في صدره فوقع وبقيت رجله معلقة في الركاب وفرسه يجره فاخذ الامير بزمامه حتى لحقه الاتباع الاتباع فسلمه اليهم وكان هذا الرجل من صنائع الامير ولاه قيادة قبيلة اولاد الزاير ثم خان ودان بطاعة الفرنسيس وقاد قبيلته اليهم فلما رأى بنو عمه واخوته ما حل بقائدهم فشلوا واختل مصافهم وانهزموا فانهزم لهزيمتهم عسكر الفرنسيس الذي كان معهم وغنم الامير غنيمة عظيمة ورجع بها الى الزمالة وكانت في بلاد حميان الغرابة تجول في انحائها ثم اجمع امره على ان يدخل بها ارض المغرب الاقصى فسيرها امامه وبقي بعدها ردءا لها فاعترضه الجنرال لاموريسير بجيوشه ووقع بينهما حروب اخذ السيف فيها حظه واشتد الامر حتى صار النساء يشجعن الرجال ويحرضن الابطال على القتال واظهر الامير وجنده من الشجاعة في ذلك اليوم والبسالة ما يعجز القلم عن وصفه واللسان عن ذكره وسقط في يد لاموريسير ورجع خائبًا

مقهورًا وما زال الامير حارسًا للزمالة محافظًا عليها حتى ادخلها الى جبال بني زكرى ثم بلاد تكفايت قرب وجده في الجنوب الغربي ثم توغل بها الى عيون ملوك ثم الى عين زوره قرب الاطلس الاكبر الممتد على سواحل البحر المتوسط والذي حمل الامير على دخول بلاد المغرب الاقصى امران احدهما انه طمع في اهل البلاد ان يقوموا معه في امر الجهاد ويمجدوه بالطريف والتلاد لما كان يبلغه عنهم من القيام بامور الدين واتباع السنة والجماعة الثاني اطمئنان من كان يميل اليه من اهل وطنه لوجوده في امن وحرز من العدو وربما يكون ذلك وسيلة لهم في الهجرة اليه لما يعلمه من بغضهم للفرنسيس ونفورهم منهم وليامن على الزمالة حتى اذا اراد الغزو الى ارض العدو فانه يتركها في حرز حزيز ولما استقرت الزمالة في عين زوره كتب الامير الى عبد الرحمن سلطان المغرب الاقصى يخبره بما جرى عليه من الامور ويلح له بطلب المعونة والنجدة فكان من جملة جواب السلطان عبد الرحمن الى الامير في كتابه . وانا نتمنى الحضور بانفسنا في غمار المسلمين ومباشرة القتال بايدينا بين صفوف المجاهدين ولكن ما نحن فيه من قمع العتاة وكف البغاة جهاد بل افضل من جهاد النصارى حسبما نص على ذلك امامنا مالك رحمه الله ولو كمل قتالهم وانتظم على الاستقامة حالهم لسرنا واياكم لنصرة الدين وقمع الكفرة المعتدين وبذلك ينال الموفق غاية امله ونية المرء خير من عمله والسلام حرر في الخامس عشر من ربيع الاول سنه ستين ومائتين والف

قال شرشال الانكليزي لما حصل للامير الامن على الزمالة اخذ يحرض الناس على الجهاد ويدعوهم الى قتال اعدائه ويحمل على القبائل المنتصرة ويهجم على الفرنساويين فيملئوا قلوبهم رعبًا ثم بداله فزحف على القبائل الخارجة عن طاعة سلطان المغرب الاقصى منذ زمان طويل فاخضعها وكتب اليه يخبره بما اجراه ونيته في ذلك استنهاض همته في اعانته على الجهاد فلم يرد له جوابًا فعلم الامير ان هذه الوسائل لا تجديه نفعًا فجمع ما عنده من الجند وعين منهم حامية للزمالة وسار بالباقي الى الصحراء فاقام في ارجائها يتنقل شهورًا عديدة فلما نظر الفرنسيس قلة حركات الامير وانقطاع غزواته اعتقدوا ان شغلهم قد تم وان تردد الامير في الصحراء البعيدة عن الوطن دليل على ضعفه فهنا المارشال يبجو نفسه وكتب لدولته يقرر بعد الوقائع الاخيرة ان الجزائر قد غلبت وخضعت لا سيما وقد عدم الامير جنده من مشاة وفرسان وقتل خليفته الشهير المرعب فبناء على هذا اقول بجسارة ان الحروب المخيفة قد تناهت

ومن المحال ان يقتحم الامير امرًا ذا اهمية او يقيم شرذمة قليلة من الفرسان حربًا قوية حيث ان غبار خيله امسى كغبار شاة ضعيفة انتهى ثم بعد هذه المدة جرت محاربة عظيمة ومقتلة جسيمة بين السيد محمد بن السيد عقبة خليفة الامير في بسكرة و بين الجنرال بلرا كو الذي كان تقلد قيادة الجيوش الفرنساوية في عمالة قسنطينة واتصلت الحروب والوقائع الهائلة بينهم اياماً وليالي بدون فتور و بعد ذلك توجه الجنرال بجيوشه الى كولو في حدود تونس فاستولى عليها

﴿ ذكر ما كتبه الخليفة السيد احمد بن سالم من جبال جرجرة ﴾
« الى الامير وما اجابه به »

الحمد لله وحده بعد الثناء والدعاء واداء واجب الاعظام والافخام فاننا معاشر عبيدكم متعطشون الى مكاتيبكم ومن المعلوم ان ما تسطره يدكم الشريفة يحيي النفوس منا والآمال وقد اشاع المرجفون ما لا نقدر على ذكره ودخل الشك على الناس في وجودكم الشريف واشاعوا ان والدتكم تصدر المكتبات والتحارير اللازمة باسمكم الكريم وقد بلغني ان الفرنسيس عازمون على الزحف الى بلادنا وليس عندي ثقة اكيدة بطاعة القبائل وانقيادهم الى كلمتي وان كان تاخركم عنا لظان ان الخليفة السيد محمد البركاني يساعدني و ينجدني فهو مع ما هو عليه من مصادمة العدو بعيد ان يساعدني و يقوم بناصري كما انني لا قدرة عندي على مظاهرته وعلى كل حال فانا اسالكم بالله تعالى ان تردوا لي الجواب عن هذا المكتوب بخط يدكم الشريفة . فاجابه الامير بخطه اني اطلعت على مكتوبكم تخبرًا بان خبر موتي قد امتد في الشرق فاعلم ان الموت لا مفر منه ولا محيد عنه اذ هو من قضاء الله الذي لا يرد ولا يصد واني احمد الله اذ لم تات ساعتي بعد ولم يزل عندي من القوة والاقتدار ما اؤمل به مهاجمة اعداء ديننا فكن في راحة ساكن البال صبورًا ومتى استقر الامر لنا هنا نتوجه الى نواحيكم انتهى . وفي هذه الايام انتهز الجنرال بيجو الفرصة لتتميم اعماله في الشرق فجهز الدوك دومال ابن الملك في جيوش كثيرة وسيره الى نواحي بسكرة فالتقى مع الخليفة السيد محمد بن عقبة وجرت بينهما حروب عنيفة متوالية انتصر فيها العدو واستولى على بسكرة ثم بانته ووضع فيهما حامية وذخائر ثم سار الى نواحي قسنطينة وكان احمد باي معه له في جموع من العرب من نواحي الزيبان وناوشه الحرب ثم انكسر ورجع الى محل اقامته من الصحراء ولما توالى الخطب على المسلمين حارت العقول ووقفت الافكار و يئس كل من ملاقات

صاحبه في الحياة الدنيا حتى ان السيد قدور بن علال كان في الجهة الغربية مع الامير فكتب الى السيد احمد بن سالم وهو في محله من جبال زواوه شرقًا ان الخطوب المت بنا والمصائب انشبت اظفارها فينا فلذلك انقطع املي من اجتماع الشمل في الدنيا الا ان شاءه الله والحق تعالى يظهر العجائب والخوارق. فاجابه ايها الاخ ان الشدائد لا تدوم والليالي حبالى لا يدرى ما تلد واني اسأل الله تعالى ان ينصر امامنا ويومننا في اوطاننا ويرد علينا ما اخذ منا واعطاه لعدونا فكن ايها الاخ دائمًا في كل حال ملتجأ الى الله تعالى ولا تيأس فاني موقن باجتماعنا نحن الثلاثة مع ما نحن عليه الآن من مقاساة كثرة الاعداء وشدة الحروب . فاجابه ان ما ذكرته على حسب ما نشاهده من ضعف الحال وقلة المال والرجال غير مامول ان يكون . ثم ان الامير اخذ يتابع غزواته على البلاد ويسم اهلها بالخسف والدمار وفي اثناء ذلك حضر وفد من الخليفة ابن سالم الى الامير من الشرق فاكرم وفادتهم واطلعهم على سائر احواله وعند رجوعهم الى اوطانهم سير معهم مكتوبًا الى الخليفة هذا نصه . اما بعد فاني اوصيك بتقوى الله تعالى وشكره في الشدة وكن صبورًا على المصائب فالصبر مفتاح الفرج وكن جسورًا واجمع عساكرك وعضدهم برايك السديد وتحمل منهم هفواتهم ودبر امورهم حسبما يجب فان هذه الاحوال لا تدوم واني لارجو ان اكون عندكم ومن هناك تظهر لنا الجادة التي نتبعها ونسلك عليها وكتب الى جيوشه في تلك الجهات يتشوق اليهم ويمدحهم بقوله

يا ايها الريح الجنوب تحملي ... مني تحية مغرم وتجملي
واقرِ السلام اهيل ودي واثري ... من طيب ما حملت ريح قرنفل
حلي خيام بني الكرام وخبري ... اني ابيت بحرقة وتبلبل
جفني لقد الف السهاد لبينكم ... فلذا غدا طيب المنام بمعزل
كم ليلة قد بتها متحسرًا ... كئيبت ارمد في شقا وتململ
سهران ذو حزن تطاول ليله ... فمتى ارى ليلي بوصلي ينجلي
ماذا يضر احبتي لو ارسلوا ... طيف المنام يزورني بتخيل
كل الذي القاه في جنب الهوى ... سهل سوى بين الحبيب الافضل
أدِّ الامانة يا جنوب وغايتي ... في جمع شملي يا نسيم الشمأل
واهدي الى من بالرياض حديثهم ... اذكى واحلى من عبير قرنفل
تهديه الي طرائفًا وظرائفًا ... ولطائفًا بتعطر وتعسل
حاولت تأسي الصبر عنهم قبل لي ... مه ذا تعال ويك عنه تحول

كيف التصبر عنهم وهم هم ... ارباب عهدي بالعقود الكمل
ايحل ريب الدهر ما عقدوا وكم ... حلت عقود بالمنا المتخيل
نفديهم نفسي ونفديه ارضهم ... ازكى المنازل يا لها من منزل
افدي اناساً ليس يدعى غيرهم ... حاشا العصابة والطراز الاول
يكفيهم شرفاً وفخراً باقياً ... حمل اللواء الهاشمي الاطول
قد خصهم واختصهم واختارهم ... رب الانام لذا بغير تعمل
هم بالمديح احق لكن ربما ... ضاعت حقوق بالعدا والعذل
ان غيرهم بالمال شح وما سخى ... جادوا ببذل النفس دون تعلل
الباذلون نفوسهم ونفيسهم ... في حب مالكنا العظيم الاجلل
كم يضحك الرحمن من فعلاتهم ... يوم الكريهة نعم فعل الكمل
الصادقون الصابرون لدى الوغى ... الحاملون لكل ما لم يحمل
ان غيرهم ذاق اللذائذ مسرفا ... هم يبتغون قراع كتب الجحفل
والذ شيء عندهم لحم العدا ... ودماؤهم كزلال عذب المنهل
النازلون بكل ضنك ضيق ... رغما على الاعدا بغير تهول
لا يعرف الشكوى صغير منهم ... ابدا ولا البلوى اذا ما يبتلي
ما منهم الا شجاع قارع ... او بارع في كل شيء مجمل
كم نافسوا كم سارعوا كم سابقوا ... من سابق لفضائل وتفضل
كم حاربوا كم ضاربوا كم غالبوا ... اقوى العداة بكثرة وتمول
كم صابروا كم كابروا كم غادروا ... اقوى اعاديهم كعصف موكل
كم جاهدوا كم طاردوا وتجلدوا ... للنائبات بصارم وبقول
كم قاتلوا كم طاولوا كم ماحلوا ... من جيش كفر شبه موج يعتل
كم ثبتوا كم بتتوا كم شتتوا ... شمل الكوافر باقتحام الجحفل
كم ادلجوا كم ازعجوا كم اسرجوا ... بتسارع للموت لا بتمهل
كم شردوا كم بددوا وتعودوا ... تشتيت كل كتيبة بالصيقل
يوم الوغى يوم المسرة عندهم ... عند الصباح له مشوا بتهلل
فدماؤهم وسيوفهم مسفوحة ... ممسوحة بثياب كل مجندل
لا يحزنون لهالك بل عندهم ... موت الشهادة غبطة المتمول
ما الموت بالبيض الرقاق نقيصة ... والنقص عندهم بموت الممهل

يا رب انك في الجهاد اقمتهم ... فبكل خير عنهم فتفضل
يا رب يا رب البرايا زدهم ... صبرًا و نصرًا دائمًا بتكمل
وافتح لهم مولاي فتحًا بينًا ... واغفر وسامح يا الهي وعجل
يا رب يا مولاي وابقهم قذى ... في عين من هو كافر بالمرسل
وتجاوزن مولاي عن هفواتهم ... والطف بهم في كل امر منزل
يا رب واشملهم بعفو دائم ... كن راضيًا عنهم رضا المتفضل
يا رب لا تترك وضيعا فيهم ... يا رب واشملهم بخير تشمل
متوسلا مولاي في ذا كله ... متشفعًا بشفيع كل مكمل
وجهت وجهي في الامور جميعها ... بمحمد غيث الندا المترسل
صلى عليه الله ما سح الحيا ... والآل ما سيف سطا في الجحفل

ولما نظر بيجو اعمال الامير وتوالي غزواته على الوطن علم بانهم ان تغافلوا عنه وبقي مستمرًا على ماهو عليه لا بد ان ترجع اليه قوّته الاصلية فجمع اعوانه واهل مجلسه وقال لهم قد تعين علينا ان ننظر الى احوال الامير عبد القادر وما هو بصدده الآن فانه اقاق اهل البلاد بتتابع غزواته عليهم من سائر الجهات ولا يخفى ما انطوت عليه قلوب المغاربة المراكشيين من المحبة والتشيع له حتى انهم يودون ان يكونوا تحت طاعته وادارته لما راوه من اتباعه الشريعة الاسلامية وشاهدوه من حسن سياسته معهم التي تركت قوافلهم تسافر من فاس ومراكش الى الاقطار الجنوبية والشرقية في غاية الامن والسكون بعد ان كانت قبل ان تسلم والذي زادهم رغبة في طاعته ما كانوا يسمعونه عنه من حسن سيرته مع رعاياه فانه كان لا يقرر عليهم ضريبة ولا يجعل عليهم خراجًا وانما كان ياخذ من اموالهم ما امرت به شريعتهم الاسلامية فاجابه اهل المجلس لابد من الاستئذان من الدولة فكتب الى دولته فبعثت الى سلطان مراكش عبد الرحمن بن هشام وعرفته بما يلزم اجراؤه في هذا الشأن فاجابها ان بلاد الريف قد خرجت من يدي ودخلت في طاعة الامير عبد القادر فلا يمكنني اجراء شيء من مطالبكم فكان هذا هو الداعي الاكبر لفتح باب الخلاف بين سلطان مراكش ودولة فرنسا وجهز بيجو جيشًا كثيفًا لنظر الجنرال لامورسير والجنرال بيدو وامرهما بالنزول في تخوم مملكة مراكش في محل يعرف بمقام السيدة مغنية في شمال تلمسان وهذه السيدة كانت من العابدات دفنت هناك وكان مقامها معظمًا عند اهل تلك النواحي فعمدت جيوش فرنسا الى هدم

مقامها وابتذاله فوصل الخبر الى حاكم وجده من قبل سلطان مراكش وشاع في المغرب الاقصى فحصل من ذلك الهيجان ووقع سلطانهم بين امرين خطيرين اما الخوض في تيار الحروب واما انتقاض الرعايا عليه لما حصل لهم من الاضطراب لاهانة ذلك المقام المحترم فبعث الى عامله على وجده على بن الكناوي ان يخاطب الفرنسيس في هذا الامر ويشير عليهم بالارتحال من مقام السيدة مغنية فلما بلغهم رسول العامل استهزاءوا به وازدروه ولما وصلت جيوش المغرب الاقصى وجموعه الى وجده زحف بهم ابن الكناوى الى المعسكر الفرنساوي والتقى الجمعان واضطرمت نار الحرب بينهما فكانت الدبرة فيها على ابن الكناوي وجموعه فانهزموا هزيمة تفرقوا منها شذر مذر واستولت عساكر الفرنسيس على جميع اثقالهم وذخائرهم وهذه اول واقعة وقعت بين سلطان مراكش وفرنسا

❋ ذكر خروج بيجو من الجزائر الى جبال زواوة ❋

لما بعث الجنرال بيجو لامورسير وبيدو الى الجهة الغربية في الجيوش استكمل تعبيته وخرج الى جبال زواوة فلقيه الخليفة السيد احمد بن سالم في جموع المسلمين بارض فليسة وجرت بينهما حروب شديدة ووقائع متتابعة احتاج فيها بيجو الى النجدة فانجدته دولته بالجند والذخائر وقوي على المسلمين وكسرهم واحرق اربعين قرية ثم دان ابن زامون احد رؤساء القبائل بطاعة الفرنسيس فلما رأى الخليفة ذلك ترفع بجيوشه الى جبال اخرى ورجع بيجو الى الجزائر

❋ ذكر مسير بيجو الى الجهة الغربية وما جرى بينه وبين ❋
❋ حاكم وجدة ابن الكناوي ❋

بعد ان رجع بيجو من بلاد زواوة الى الجزائر توجه في المراكب الى وهران ثم سار الى مقام السيدة مغنية ولاول وصوله اليه دعا حاكم وجده للمخابرة في اتفاق الكلمة فاجابه الى ذلك مع عدم اركان كل منهما الى الآخر ولما تقاربا تقدم ابن الكناوي في لمة من خيله نحو الجيش الفرنساوي في صورة سلمية فامر الجنرال بيجو الجنرال بيدو بمقابلته فلقيه في شرذمة من خياله وبينما هما يتحادثان اذ هجمت فرقة من جيش ابن الكناوي على جناح الجيش الفرنساوى وابتداءوهم بالقتال خوفاً من ان يؤول امر المخابرة الى الصلح وعند ذلك وقع بين الفريقين حرب شديدة كانت الدبرة فيها على جيوش ابن الكناوي فانهزموا الى وجده . قال

بعض مؤرخي الافرنج وقد اندهل بيجو من تلك الاعمال الدالة على الخيانة وعزم على الاستيلاء على مدينة وجدة فكتب الى ابن الكناوي يستوضحه السبب الباعث على ما وقع فاجابه يعتذر اليه ويعترف بذنب جيشه ويتنصل من عهدة ما وقع فكتب اليه بيجو ان جل المقصود الاهم هو امر الامير عبد القادر وتحديد الحدود التي كانت بينكم وبين حكومة الاتراك الجزائرية وليس مقصودنا ما يختص بكم من البلاد واننا نلح عليكم ان لا تقبلوا اقامة عبد القادر في بلادكم وان لا تساعدوه علينا فان قبولكم لاقامته في ارضكم نعده حربًا لنا وعداوة لا صداقة وبالجملة فالذي تريده دولة فرنسا منكم ان تخرجوا عبد القادر من بلادكم الى الجنوب الغربي هذا اذا لم تقدروا على ان تشتتوا شمل جيوشه وتريد منكم ايضًا ان لا تقبلوا من ينتقل الى بلادكم من رعاياها فان اجبتم الى هذه الامور فنحن نرتبط معكم ونجري الصداقة بين امتين مختلفتين وبها نحافظ على شرف السلطان عبد الرحمن وان انتم لم تفعلوا ذلك فنحن اعداء لكم ولا بد ان تردوا الجواب سريعًا قال المؤرخ فلم تجد هذه المخابرة نفعًا ولذلك هجم بيجو على وجدة فدخلها بعد ان فر اهلها وتفرقوا في الجهات قال شرشل ثم ان دولة فرنسا لم تكتف بهذا حتى ارسلت مراكبها الحربية الى طنجة فاطلقت عليها نار مدافعها وهدمت قلاعها ونشأ عن ذلك هيجان في فاس عاصمة سلطان مراكش وفي الوقت جهز السلطان ابنه وولي عهده محمدًا في عشرين الف من الجند فارسل اليه الامير عبد القادر يحذره من مقارعة الفرنسيس وحربهم فلم يقنعه ذلك اعتمادًا على كثرة جيوشه واستمر سائرًا الى وادي ايسلي بالقرب من وجدة فزحفت العساكر الفرنساوية الى معسكر ابن السلطان في محله من ايسلي واشتبك الفريقان على النهر واشتعلت نيران الحرب وفي آخر النهار انكسر ابن السلطان وجيوشه ونحوا اكتافهم للعدو فعمل فيهم السيف اعماله واستولى الفرنسيس على سائر المعسكر بما فيه من اموال وذخائر ومؤن وكراع وعلى اثني عشر مدفعًا وخيمة ابن السلطان وشمسيته وآب المغاربة بها شناعة الى آخر الدهر وهذه آخر وقائعهم مع الفرنسيس ولم ينتصروا في واحدة منها ومن غريب الاتفاق ان في هذا النهار اطلق البرنس ذي جونوفيل الاميرال مدافعه على الصويرة وخرب اسوارها فكانت الغلبة على جيوش المغاربة برًا وبحرًا في يوم واحد قال بعض المؤرخين وبهذه الواقعة تلقب بيجو دوك دي ايسلي ثم قال ولما انحط لذلك شان سلطان المغرب الاقصى واجمع على المصالحة فالتمسها من القائد العام فاجابه

الى ذلك على هذه الشروط (الاول) سرعة ارتحال العساكر المراكشية من وجدة وما اليها في الحدود (الثاني) اجراء القصاص على الذين تعدوا الحدود الفرنساوية (الثالث) اخراج الامير عبد القادر من البلاد وان بقي فيها فلا يحصل له اسعاف من حكومة مراكش (الرابع) ان يصير تعيين حدود فاصلة بين حكومة فرنسا وحكومة مراكش فقبل سلطان مراكش هذه الشروط وتقرر الصلح ولما شاع هذا الامر في نواحي المغرب الاقصى وسارت الركبان بما وقع لجيوشهم وجموعهم مع الفرنسيس كبر عندهم ذلك ونسبوا المعرة فيه الى سلطانهم وقواد الجيوش وكثر القيل والقال واتفق اكثر القبائل على الانتقاض على السلطان واعطاء الطاعة الى الامير لما كانوا يسمعون عنه من الاقدام والشجاعة والقيام بامور الجهاد على ما ينبغي من اعاظم الملوك فكتبوه في ذلك فلم يقبله منهم وقال اني دخلت بلاد السلطان لا لاكون ضده او لنأخذ منه ملكه فهذا مما لا يقول به عاقل قال بعضهم ومن هنا يتبين ان الامير كان مقصوده فيما يعانيه من قتال الفرنسيس مقصورًا على الذب عن الدين والوطن لا تجرد الملك ولو كان كذلك لقبل من رعايا سلطان المغرب ما ندبوه اليه ولظفر به في اقرب وقت من غير كلفة وقال آخر ما كان الامير في جميع ما تكبده من المشاق ومعاناة الحروب الا حبًا في نصرة الدين وانقاذ وطنه من يد الاعداء ولا بذل نفسه وماله وحوله وقوته ولا صبر على تلك الاهوال التي يعجز عنها اكبر سلطان في العالم الا لاعلاء كلمة الله وانقاذ وطنه فتحمل لذلك من الامور التي تقصم الظهور وتدكدك الجبال وباع نفسه في رضى الله تعالى وحب وطنه بيع سماح قال شرشل الانكليزي قد آل امر بعض من كان الامير يؤمل مساعدتهم الى ان صاروا اكبر الاعداء له وعضدوا اعداءه ونصروهم عليه وحاربوه معهم واعانوهم في ذلك بالمال والرجال فكيف يقبل بعد هذا قول القائلين او يجيب دعوة الداعين ولما احس سلطان المغرب بما وقع من رعاياه من الاضطراب والتذمر منه ومن رجال دولته كتب الى الامير يختبر ما عنده ويسبر نيته فيما طلب اليه ويستميله اليه واكد عليه في زيارته في فاس ظنا منه انه ينخدع له او هو ممن يجهل مكره وغشه فاجابه ان الجيش منعوه من الاجابة الى ما طلبه منه واقبل على بعث الغزوات والسرايا على الوطن ووصلت جيوشه الى بالعباس من بلاد بني عامر فاهتز المغرب الاوسط باهله واشرأبت نفوس المرتدين الى التوبة من الردة وارجاع الطاعة والخضوع للامير واسبق الناس في هذا بنو عامر واتبعهم مجاوروهم واظهروا للفرنسيس العداوة فاضطربت حكام الجزائر ووهران لهذا الامر وبذلوا وسعهم في

منع الناس من الخروج من بلادهم وجعلوا عليهم العيون فارتحل الكثير من بني عامر ولحقوا بدائرة الامير في وادي ملوية فيما وراء جبل بني يزناسن غرباً قال المؤرخ روا واقام الامير يتابع الغزوات على بلاد الجزائر من اول الشتاء الى اواخر فصل الربيع وتوغلت بعوثه وغوازيه الى تيارت وتاكدمت وتلك النواحي فاضطرب الحكام الفرنساويون لذلك وكاتبوا سلطان مراكش في هذا الامر فارسل الى الامير يامره بالخروج من الحدود ولما وصل اليه الرسول بذلك وتحقق ان الامير لا نية له الا في الجهاد وتاديب رعاياه الذين تركوه واتبعوا دولة فرنسا وافق الامير على قصده واخبره بماله في قلوب اهل المغرب الاقصى من الميل والمحبة وحسن الاعتقاد ثم ان الامير ارسل رسله تترى على القبائل يدعوهم الى القيام بوظيفة الجهاد المفروضة عليهم فاجابه الى ذلك خلق كثير واظهروا الخروج عن طاعة الفرنسيس ونادوا بطاعة سلطانهم تملصاً مما لحقهم منهم من المظالم والتكاليف الشاقة وبينما الناس على ذلك اذ ظهر محمد بن عبد الله المعروف بابي معزه في نواحي شلف داعياً الى نفسه مدعياً انه محمد بن عبد الله المهدي المنتظر وطفق يدعو الناس الى الجهاد ويحثهم عليه نحو سنة ودخل الناس في طاعته لامور شعوذية كان يظهرها لهم ووقع بينه وبين الفرنسيس عدة حروب انتصر فيها فايد له ذلك دعواه ثم انهم رجعوا الكرة عليه وشتتوا شمله وفرقوا جموعه وفر ناجياً بنفسه الى نواحي الصحراء قال بعض المؤرخين ومن اين لمثل هذا الرجل المدعي ان يحوز بعضاً من الصفات التي امتاز بها الامير عبد القادر من حسن الادارة وعلو الهمة وقوة الفروسية والنشاط في الحروب والحزم والعزم في ادراك الامور لاسيما في الوقائع الشديدة الطويلة المدا التي كادت تضعف بها قوة اعظم امة على وجه الارض في هذا العصر

﴿ ذكر وقعة الغزوات ﴾

وفي الحادي عشر من شوال سنة ثلاث وستين ومائتين والحادي والعشرين من سبتمبر سنة سبع واربعين وثمانمائة سار الامير من الدائرة وكانت بوادي تافنا قاصداً الى الغزوات وهي مرسى صغير في الحدود وارسل في مقدمته بعض رؤساء جيشه فعلم بهم احد المرتدين واخبر القائمقام الفرنساوي دي مونتانيال فجمع جيوشه وقدم امامه طليعة ثم خرج بعساكره وسار الى الامير فالتقى الحرس بطليعة العدو فاوقعوا بها ثم زحفت الجيوش الاسلامية والفرنساوية والتقى الفريقان عند تل قرب الغزوات واشتد القتال بينهما والتحمت الجيوش الاسلامية بجيوش العدو وخالطوهم فتركوهم

حصيداً واذاقوهم كاس الدمار والبوار ولم يفلت منهم سوى ثمانين جندياً التجأوا الى مزار كان قريباً منهم واغلقوا بابه عليهم فاتبعهم المسلمون واحاطوا بهم وقتلوا منهم نحو السبعين والباقون سلموا انفسهم نقادوهم اسرى وفي هذه الواقعة اصيب الامير برصاصة مسحت طرفاً من اذنه اليمنى ولما احس بها نزل وصلى ركعتين شكراً لله تعالى على ما لحقه في سبيل الله وهذا اول جرح اصابه في الجهاد قال لي رضي الله عنه ان الذين كانوا معي ايام الجهاد يظنون اني كنت حاملاً حجباً لحفظ من رصاص العدو لما يرون من تاثيره في برنسي وعدم وصوله الى جسدي مع اني لم استعمل ذلك قط وانما كنت احفظ نفسي بالتعاويذ الواردة في السنة فقط قال تعالى فالله خير حافظاً وقال لي ايضاً ان العسكر الفرنساوي اذا انكسر يحصل له تلاشي ويختل نظامه وترتيبه ولا يلتفت لاوامر قواده لا سيما الخيالة فانهم اذا فروا لا يردون الكرة ابداً

ذكر وقعة تموشنت

وبعد فراغ الامير من وقعة الغزوات توجه بجيوشه الى بلاد بني عامر فالتقى بفرقة من الجيش الفرنساوي معها مهمات حربية قاصدة بها تلمسان فلما تراءت لها الجيوش الاسلامية رفعت علامة التسليم فتقدم اليهم الامير في لمة من خيله فاستأمنوا له والقوا اليه سلاحهم بدون قتال وكانت تلك الفرقة يزيد عددها على ستمائة جندي. وكانت المهمات الحربية كثيرة وافرة فانتشرت هذه الاخبار في سائر الاقطار الغربية وخفقت لها قلوب الفرنسيس والمرتدين وكتب الامير الى خلفائه في الجهات الشرقية يخبرهم بما اسنى الله له من الفتح والنصر ويعدهم بالمسير الى نواحيهم وهذا نص ما كتبه الى بعض خلفائه

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبيّ بعده من ناصر الدين عبدالقادر ابن محيي الدين الى خليفتنا حفظه الله ومكن سيوفه من رقاب عداه اما بعد فاني احمد الله على نصرة الدين القويم وشريعة نبيه عليه وعلى سائر الانبياء والمرسلين أفضل الصلاة وأتم التسليم واخبركم بما حبانا الله به من النصر المبين في جامع الغزوات وما ذاقته الجيوش الفرنساوية من الوبال والبليات فاننا قد حصدناهم في هذه الواقعة حصداً واذقناهم كاس الفنا والردى ولم ينج منهم أحد والذى نامركم به ونؤكد عليكم فيه أن تجمعوا جيوشكم وتتعهدوا امورهم وتندفعوا على العدو في نواحيكم وانهاكم عن

تخريب الديار فان ذلك مما يوءذي اهلها ويكون سبباً في تاخرهم عن الطاعة ثم ابشركم بعد ان فرغنا من قضية الغزوات دخلنا بلاد بني عامر فالتقينا بنحو الستمائة جندي من جنود الفرنسيس معهم مهمات حربية ولاول ما رأونا رفعوا اشارة التسليم وتقدم قوادهم الينا في طلب الامان فامناهم وسلموا لنا سلاحهم وجميع ما كان معهم واستولينا على الكل من غير قتال فكانت هذه النصرة نافلة على الانتصار العظيم في الغزوات نساله تعالى ان يمدنا بتأييده ويصلح العباد والبلاد والسلام عليكم وعلى من حواه ناديكم ورحمة الله وبركاته ولما بلغ الفرنساويين هذه الاخبار تكدر عيشهم واحسوا برجوع الكرة عليهم وعلموا انهم صاروا في خطر عظيم حيث انهم فقدوا ثمرة خمس سنين في بضع ساعات واجتمع مجلسهم في الجزائر فاتفقوا على ان يرفعوا هذه الاخبار وما آلت اليه الحال الى دولتهم فحرروا وطلبوا النجدة والامدادات والحوا عليها في ارجاع المارشال بيجو الى الجزائر في اسرع وقت ولما اتصل ذلك بدولتهم هالها الامر وعظم عندها فعزلت المارشال فالا من الجزائر وعينت مكانه المارشال بيجو وامرته بسرعة السفر وجهزت معه مائة الف من العساكر وما يلزمها من الذخائر والمهمات كذا نقل شرشل الانكليزي في تاريخه واما الامير فانه جمع جيوشه ودخل الى الساحل وجعل يتنقل فيه يميناً وشمالاً والقبائل تراجع الطاعة وتلوذ بها وتقدم اعذارها فيقبل ويعفو ويصفح ثم بلغ الخبر الجنرال لامورسير وهو في الجزائر فركب البحر في جيش كثيف الى وهران وتوجه الى تلمسان فاجتمع بكافنياك وخرجوا الى الحدود المراكشية يطلبون الدائرة لياخذوا منها الثار وكان رئيس حامية الدائرة بلغه خبرها فارتحل بالدائرة الى الاطلس في الجهة الشمالية من الريف ثم عدل كافنياك الى جهة الصحراء فاغار على اولاد سيدي يحيي فحصل على عشيرة منهم وكانوا لما راوا الجيش دخلوا في غار قريب منهم يعرف بغار العقبة البيضاء وكانو نحو الخمسمائة نفس بين رجال ونساء واطفال فجمع جيش الفرنسيس الحطب والتبن على فم الغار واضرموه ناراً فدخل الدخان الى داخل الغار فاختنق به كل من كان داخله وحسب الجنرال انه أخذ الثار بهذا القصاص المشين بالانسانية والمشعر بفقد الشفقة والرحمة والحمية واستمر الامير في جهات معسكر يجول فيها بجيوشه والقبائل تتوارد عليه لائذة بطاعته ولما رأى حاكم معسكر ان جميع القبائل التي كانت قدمت لهم الطاعة قد تركتهم ودخلت في يد الامير اهتز لذلك وجمع ماعنده من العسكر وخرج يطلب الامير فلقيه وجرت بينهما حروب شديدة واستمرت اياماً كثيرة ثم انكسر

حاكم معسكر ورجع اليها بخسارة جسيمة وأمست العساكر الفرنساوية محصورة من جميع الجهات واضطرب الوطن باهله واشتد الهيجان في نواحيه وأدمن الامير على الغارات وبعث البعوث والغوازي فلا يخلو يوم من هجوم عساكره على الجهات قال بعض مؤرخي الافرنج قد اضطربت القبائل والفرنساويون لسرعة الامير وتعاقب ظهوره وخفائه وحضوره وغيبته مع الايام لانه جعل دابه سرعة الحضور في سائر المقاطعات واهاجة روح الحصار في كل المحلات فشهاب حضوره السريع جعل الفرنساويين في حالة اضطراب وخيبة ظن وبذلك ثارت المنازعات واشتدت الحركات حتى ان الامير في اليوم الواحد يظهر في غدوته في مكان وفي عشيته وروحته يظهر في آخر بعيد المسافة عن الاول حتى انهم سموه ابا ليلة وابا نهار ومن حركاته انه سار في ستة آلاف من الفرسان الى تاكدمت ومنها الى وادي شلف فبلغه ان اولاد شعيب وهم قبيلة عظيمة كثيرة البطون والعشائر عازمة على الاتحاد مع الفرنسيس فعدل في طريقه عن التوجه الى وجهته التي كان قاصداً اليها وسار اليهم ثم هجم عليهم وكانوا في خمسة آلاف فارس فاخذهم اخذ عزيز مقتدر والقى القبض على رؤسائهم ومشايخهم واخذ جميع اموالهم ومواشيهم وغنم ماعندهم من الاثاث والامتعة

ذكر ابي معزة الثائر وما آل اليه امره

اصله من اولاد خويدم في جهة وادي شلف ادعى انه المهدي المنتظر وسبب هذه الدعوى الكاذبة انه جاء الى قبيلة سنجاس فوجدهم مغاضبين لرئيسهم فزين لهم ما اضمروه من قتله وقوى بصائرهم وقال لهم ان هذا كافر بالله تعالى وهو الذي ادخل الفرنسيس الى بلادكم وقادكم الى طاعتهم فاستحسنوا ما دلهم عليه وبيتوا رئيسهم وقتلوه ثم جمع كلمتهم وغزى بهم فرقة من جيوش الفرنسيس كانت مخيمة في وادي الفضة قريبة من وادي شلف فانتصر عليها وغنم ما عندها من الذخائر وأثخن فيها قتلا واسرا ثم اخبرهم انه المهدي المنتظر وان سلاح العدو ورصاصه لا يعمل فيه ولا في جموعه ودعاهم الى بذل الطاعة له فاطاعوه ثم ان الفرنسيس تجمعوا له وكسروه وفر بنفسه هاربا وما زال يجول في تلك الجبال ينتقل فيها من جبل الى جبل ويدعو الناس اليه فلا يجيبه الا الاوغاد منهم الى ان غدرت قبيلة صبيح بسانجي قائد الفرقة الحامية بتلك الجهة فقتلوه وقتلوا اصحابه معه فانتهز

ابو معزة الفرصة وآوى اليهم وقرر في عقولهم انه يقوم بامرهم ويحمي حوزتهم من عدوهم فهاجت العشائر والقبائل ونادى مناديهم بالجهاد فارسل حاكم الجزائر القومندار موريلون في جيش كثير الى قبيلة صبيح لينتقم منها وياخذ بثار الحاكم واصحابه فزحفوا اليه مع ابي معزة فلما التقى الجمعان وانتشب القتال انهزموا وفر رئيسهم ابو معزه فلم يلو على احد وسكن الجبال الى ان لحق بالامير مع اهله واولاده

ذكر اعمال الجنرال بيجو بعد رجوعه الى الجزائر في المرة الاخيرة وما آل اليه الامر

وبعد ان وصل بيجو الى الجزائر وتلاحقت به العساكر من فرنسا وعددها مائة الف جندي جمع مجلسه الحربي للمفاوضة فيما هم بصدده فقر القرار على اظهار الشدة والحزم وان هذه الجنود مع ما كان موجوداً في الجزائر وملحقاتها من العسكر تنقسم الى اربعة اقسام وتزحف دفعة واحدة على الداخلية كل قسم مما يليه وتعين لامورسير على القسم الاول وبيدو على الثاني ويوسف المتنصر العنابي على الثالث والقسم الرابع برأسه بيجو بنفسه ثم خرجوا جميعاً وفي ذلك الوقت كان الامير في جنوبي ايالة وهران فقصده لامورسير وطير الخبر الى بيجو ويوسف يخبرهم به لانهم تواعدوا على ان يجتمعوا عليه ويحولوا بينه وبين الصحراء قال بعض مؤرخيهم ولشدة عزمه وقوة حزمه وسرعة حركاته كان يوجد في المكان المعين ثم يفقد منه في اقرب وقت فلذا تركهم يجولون عدة اسابيع في نواحي شلف بدون طائل ثم بعد عناء وشدة اجتمع به بيجو ويوسف بجيوشهما في ابي الشطوط من بلاد اولاد شريف فوقع بينه وبينهما قتال شديد على وادي رهيو فقصدت فرقة من العدو الى مركزه فالجاته الى الوادي فشد على فرسه فارتمى به الى العدوة الاخرى وكانت المسافة بين العدوتين في مجرى النهر نحو الثلاثين ذراعاً هاشمياً ولم يلحقه انزعاج ولا لحق الفرس ضرر فاعدها الناس من اعظم خرق العوائد وفي آخر القتال انتصر على العدو مع كثرته وغنم منه نحو الخمسين فرساً ثم سار الى فليتة وبيجو يتاثره ثم ارتد عنه ليأسه من اللحاق به فلقيه يوسف في كوجيله في جيبته وكان الامير في نحو الفي فارس فاستجر له ليريه انه انكسر امامه ثم رد الكرة عليه ففرق شمل تلك الجيوش الكثيرة وبدد كتائبها وتحيز يوسف في ناحية من محل المعركة فقصده الامير ليبارزه فهرب وكان اليوم شديد المطر والرياح فلم يتمكن منه ولولا ذلك لاخذه اسيراً او اصماه بسيفه واعدمه الحياة ونعم الحارس الاجل وفي تلك

الليلة سار الامير من محل المحمعة غازيًا على قبيلة صدامة في وادي العبد غير ملتفت الى بيجو ولا الى لامورسير مع قربهما من بلاد صدامة ثم غزى قبيلة الاحرار فاكتسح من لحقه منها ثم توجه الى الجهة الشرقية فلاذت كافة قبائلها بطاعته ولم يزل ينتقل الى ان وصل الى جبال زواوة واحتل بجبل جرجرة وفيها التقى بخليفته السيد احمد بن سالم وفي اثناء مسيره الى تلك النواحي بلغه قرب العدو منه فخشي منه ان يتعرض له في طريقه فاغذ السير وقطع مسافة اربعة مراحل في ليلة واحدة وكان كلما وصل الى قوم ركبوا معه الى قوم آخرين الى ان وصل الى جرجرة ولذلك سمي بابي ليلة وبعد ان اخذ الراحة في تلك الجهة غزا بني هيدورة من القبائل الذين دانوا بطاعة الفرنسيس ومنازلهم بشرقي المدية ثم اجتمعت عليه قبائل زواوة وكانوا مستعدين للجهاد تحت رايته فانتخب منهم نحو الخمسة آلاف فارس وغزا بهم نحو متيجة فاكتسح الاموال وفعل في تلك النواحي النعائل وهرب الفرنساويون امامه الى مدينة الجزائر واستمر على فعله الى ان وصل قرب المدية كل ذلك وجيوش الفرنسيس تطلبه في ايالة وهران وايالة مليانة وبينما هم كذلك بلغتهم اخباره وفتكاته في بلاد متيجة وانحاء الجزائر فتعجبوا من امره وارتاعوا من بطشه وبعد ان بلغ مراده من غزاته تلك وامتلأت ايدي جيوشه بالغنائم رجع الى جرجرة ومنها ارتحل الى الجهة الشمالية ونزل بارض فليسة من قبائل زواوة بالقرب من دلس وتبتعد عن مدينة الجزائر بمرحلة وصار يشن الغارات المتتابعة على سهول متيجة وقد مضى له اكثر من سنة بعيدًا عن اهله فكتبت متشوقًا اليه متعطشًا للقائه فاجابني بقوله .

بنيّ لئن دعاك الشوق يومًا	وحنت للقا منا القلوب
ورمت بان تنال منا ووصلا	يصح بعيده القلب الكئيب
فاني منك اولى باشتياق	وناري في الفؤاد لها لهيب
وان اخفي اشتياقي في فؤادي	فان الشوق يكتمه الاريب

وقال يفتخر بنفسه وبجيشه

لنا في كل مكرمة مجال	ومن فوق السماك لنا رجال
ركبنا للمكارم كل هول	وخضنا ابحرًا ولها زجال
اذا عنها توانى الغير عجزًا	فنحن الراحلون لها عجال
سوانا ليس بالمقصود لما	ينادي المستغيث الا تعالوا

ولفظ الناس ليس له مسمى ... سوانا والمنى منا ينال
لنا الفخر العميم بكل عصر ... ومصر هل بهذا ما يقال
رفعنا ثوبنا عن كل لوم ... فاقوالي تصدقها الفعال
ولو ندري بماء المزن يزري ... لكان لنا على الظمأ احتمال
ذرى ذا المجد حقا قد تعالى ... وصدقا قد تطاول لابطال
فلا جزع ولا هلع مشين ... ومنا الغدر او كذب محال
ونحلم ان جنا السفهاء حقا ... ومن قبل السؤال لنا نوال
ورثنا سؤددا للعرب يبقى ... وما تبقى السماء ولا الجبال
فبالجد القديم علت قريش ... ومنا فوق ذا طابت فعال
وكان لنا دوام الدهر ذكر ... بذا نطق الكتاب ولا يزال
ومنا لم يزل في كل عصر ... رجال للرجال هم الرجال
لقد شادوا المؤسس من قديم ... بهم ترقى المكارم والخصال
لهم همم سمت فوق الثريا ... حماة الدين دأبهم النضال
لهم لسن العلوم لها احتجاج ... وبيض ما يثلمها النزال
سلوا عنا الفرانس تخبرنكم ... ويصدق اذ حكت منها المقال
فكم لي فيهمو من يوم حرب ... به افتخر الزمان ولا يزال

ومما وجدته مقيدا بخط السيد قدور بن رويله كاتب الامير قال ولما بلغ سيدي وسندي ومولاي الامير عبد القادر ابن سيدنا محيي الدين نصره الله اني وصلت المدينة المنورة كاتبني وهناني بهذه الابيات

اخي نلت الذي قد كنت تطلبه ... وفزت دوني بما ترجو وترغبه
وساعدتك الليالي لا شقيت فدم ... قرير عين بوصل لست تسلبه
قد طاب في طيبة الغرا مقامكم ... جوار محبوبنا من كنت ترقبه
يا هل ترى مثلما فزتم افوز وهل ... تعلو سعودي على نحسي فنقلبه

ثم انه نصره الله ذكر لي ابيات ابن المبارك المروزي للفضيل بن عياض كني بهما نصره الله عن امره لي بالقدوم الى حضرته العلية وكان حفظه الله جرح في بعض مغازيه برصاصة اصابت طرف اذنه فلطف الباري والحمد لله على سلامته وهي

يا عابد الحرمين لو ابصرتنا ... لعلمت انك في العبادة تلعب
من كان يخضب خده بدموعه ... فنحورنا بدمائنا تتخضب

او كان يتعب خيله في باطل ... نخيولنا يوم الصبيحة تتعب
ريح العبير لكم ونحن عبيرنا ... رهج السنابك والغبار الاطيب

فاجبته

بابي وامي افتديك من الردى ... وباحمد وباخته أتقرب
واحسرتي واضيعتي واخيبتي ... ان لم اكن بفدائكم اتلقب
وحياتكم فلانني بفراقكم ... لعلى لظي وجمارها اتقلب
هل من قطا يوماً يعير جناحه ... صباً غدا بفراقكم يتعذب
حتى اراني في حماكم واهباً ... روحي فداكم في رضاكم ارغب

﴿ ذكر واقعة نهر يسّر وما آل اليه امر الامير ورجوعه الى دائرته ﴾

ولما اتصل انتصار الامير في تلك الانحاء واشرأبت نفوس اهل الوطن اليه غص به حاكم الجزائر فجهز اليه الجنرال جانفيل بعسكر جرار وكان الامير معسكرًا على شاطئ نهر يسّر من العدوة اليمنى فدهمه العدو في محله على حين غفلة فركب الامير فرسه ودافع بمن حضره من العسكر واشتد القتال بين الفريقين واختلطوا هبرًا بالسيوف ووخزًا بالرماح ولا زال الامير يقاتل حتى وقع فرسه من تحته وركب فرساً آخر ثم رجع القهقرى بمن بقي من جيوشه وقصد جهة نهر سباو قال بعضهم وبهذه الواقعة انتهز بيجو الفرصة فوالى مسيره الى جرجرة واجتمع فيها بالجنرال جانفيل ثم زحفوا الى بلاد فليسة فاستولوا عليها ونحي الامير مع جيوشه من مصادمتهم مرة اخرى ثم سارت الجيوش الفرنساوية الى نواحي الجنوب وتفرقوا في كل جهة واخذت القبائل يلوذون بالطاعة والانقياد اليهم ورجع الذين كانوا هاجروا من بلادهم منهم اليها ثم ان الامير لما رأى اضطراب الاحوال مع كثرة جيش العدو وعجز المسلمين عن المدافعة والمهاجرة اعتزم على التوجه الى نواحي الصحراء مراقباً سنوح الفرص ولا زال في طريقه يشن الغارات ويبث البعوث والفوازي يميناً وشمالاً على مستعمرات الفرنسيس الى ان اجتمع عنده من الغنائم مالم يدخل تحت حساب فعمد بالجميع الى جبل العمور طالباً بلاد اولاد نائل وقدم اثقاله وعساكره وتاخر في نحو السبعين فارساً يستطلع اخبار العدو فطار الخبر الى الجنرال يوسف العنابي المتنصر فسار بجيشه يطوي الليل والنهار حتى ادركه فالتفت الامير الى العدو بمن معه وصدقوه القتال واستمرت نار الحرب تضطرم نحو اربع ساعات واستشهد من المسلمين نحو الاربعين فارساً

ولم يبق مع الامير الا نحو الثلاثين بجمعهم ورد الكرة على العدو فتطايروا امامه ثم اختفى بمن بقي معه في بعض الاودية القريبة من موضع القتال فطلبهم العدو فلم يجد لهم اثرًا قال شرشل فتعجب الفرنساويون من بسالته وشجاعته وسرعة اختفائه حيث انهم طلبوه فلم يجدوه فكانه طار في الهواء او خرق الارض هو ومن معه ثم قال وقد اوردت هذه القصة في باريس بين الاعيان في المحافل السياسية في معرض التعجب والحيرة فشهد الجنرال يوسف للامير بالفضل على كل من عرفت بسالته وحماسته من رجال الامم والذي اذهل العقول تواريه السريع عن اعين الجميع بعد ان كان بينهم قال الجنرال ولقد رأيت من ثبات الامير وشدة هجومه ما يحير الافكار ولما راى الامير كثرة الجيوش الفرنساوية وانتشارها في سائر نواحي البلاد ورأى القبائل الذين كانوا يمدونه بالذخيرة وسائر ما يلزم له ولجيوشه تركوا طاعته ولحقوا بالفرنسيس علم ان الوقت غير مساعد على الوصول الى اجتماع الكلمة عليه والعدول عن طاعة عدوه الى طاعته سار بجيشه مغربًا على طريق الصحراء فنزل على اولاد السيد الشيخ ابن الدين البكري في بلدتهم المعروفة بالابيض فتلقوه بالتعظيم والاحترام واكرموا نزله ثم تقدم اليه كبيرهم وقال ايها الامير المعظم انا نسألك بالله تعالى ان لا تعرضنا للحرب والبلاء مع عدو ديننا ودنيانا باقامتك عندنا في بلادنا فان الفرنسيس لا يخفى عنادهم وظلمهم ولولا انهم اشد الخلق عتوًا وظلما واعتداء ما تسلطوا علينا واين بلادنا من بلادهم فهم في بر ونحن في بر آخر ومع ذلك فانهم اعتدوا علينا وقصدوا ان يملكوا بلادنا ورقابنا فلما سمع الامير كلامهم رق لهم واشفق عليهم وارتحل عنهم مغربًا الى دائرته وكانت على نهر ملوية فيما وراء جبل بني يزناسن ولاول وصوله اخبره بقتل الاسارى الفرنساويين المستولى عليهم في واقعة الغزوات وتموشنت فاسف لذلك وتكدر ووبخ خليفته على الدائرة السيد الحاج مصطفى بن التهامي فاعتذر عن ذلك باعذار كثيرة اشدها دسائس السيد محمد البوحميدي وذلك ان الامير قبل واقعة الغزوات قد جعل امر الدائرة وما يتعلق بها الى خليفته البوحميدي فلما وقعت واقعة الغزوات واعتزم على المسير لحمل القبائل على الرجوع الى طاعته سلم الاسرى الى صهره وخليفته السيد مصطفى وعهد اليه بامر الدائرة والنيابة عنه وفوضه تفويضًا مطلقًا باجراء مايعود نفعه على الدائرة وان يمنع من اراد الخروج منها لان البعض وخصوصًا بني عامر اضمروا على الخروج منها والدخول الى مراكش لما نالهم من المشقة والتعب وامره ان يبلغ البوحميدي

ان يلحقه بنجدة الى جنوب اقليم الجزائر ولما بلغ البوحميدي ظن ذلك من عدم ثقة الامير به فاخذ يهيج بني عامر على العود الى اوطانهم او اللحوق بسلطان المغرب الاقصى ويمنعهم من تقديم الطاعة لابن التهامي لخنق اتهامي سيما من عدم توجهه بالنجدة للامير وامر بان الذي لا يريد ان يتوجه للنجدة يعطي فرسه الى من قتلت دابته في الحرب فحصل من ذلك قلق عظيم في قبيلة بني عامر لان العرب تعز خيولها اكثر من معزة نفوسها فاخذوا في الخروج من الدائرة الى بلاد مراكش فخرج في ليلتين مقدار مائتي خيمة والتجئوا الى القبائل المجاورة للدائرة وتبعهم الناس فافتكر السيد مصطفى لعمل واسطة تخوفهم من الخروج فلم يرَ بحسب فكره احسن من ذبح اسرى الفرنساوية الذين سلمهم الامير له واوصاه بحسن معاملتهم وظن ان ذلك الامر يؤخر العرب عن الخروج من الدائرة خيفة من الفرنساويين حيث انهم ارتكبوا امرًا فظيعًا في حقهم فمنعه الخوف من غضب الامير وعتابه له لما هو تحقق عنده من شدة اعتنائه بامر الاسرى وبذل الاكرام وحسن المعاملة لهم وصار يقدم رجلاً ويؤخر اخرى حتى ورد عليه الخبر بزحف جيوش السلطان عبد الرحمن لانقاذهم من يده فازداد حيرة لوقوعه بين امرين خطرين اما سفك الدماء بين المسلمين لاجلهم واما ان يسلمهم لهم اختيارًا ويصعب عليه الاعتذار عند مواجهة الامير ثم قوى عزمه على ما كان مصرًّا عليه وقتلهم وكانوا مائة وسبعة وثمانين اسيرًا وابقى احد عشر رئيسًا وكانت هذه الفعلة الشنيعة افظع شيء وقع من هذا الخليفة في جميع تلك الحوادث والمواقع والحق يقال ان هذا الفعل خارج عن العدل ولولا ما اشتهر به الامير من حسن المعاملة للاسرى لظن الناس ان له دخلاً في هذا الامر ولذا قال بعض مؤرخي الافرنج ان حسن المعاملة المألوفة من الامير رفعت هذا الظن لانه كان ينزل اسراه منزلة الضيوف ويأمر لهم بافخر الطعام واحسن الملبوس وكان مرتب كل واحد من خمس ريالات الى عشرين على حسب مراتبهم وقد افرد شرشل الانكليزي الفصل السادس عشر من تاريخه بذكر ما كان يعامل به الامير الاسرى الواقعين في يده من المعاملة الحسنة والرحمة والشفقة وايد ذلك بحكايات صدرت من الامير في حقهم تستحق ان تكتب على طروس المواقع بماء الذهب وملخص ما ذكره ان الاعتناء الموجود عند الامير عبد القادر لاسراه الزائد عن الحد لم يكن له مثال في اخبار الحرب ولذا يجب على كافة المسيحيين ان يخرّوا عند قدميه نظرًا لما ابداه من الرحمة والشفقة وحسن المعاملة لان الاسارى الذين يقعون في ايدي العرب المتوحشين كانوا معرّضين للتهديدات البربرية ولعدم فهم لفظة اسير عند القبائل المتوحشة كانوا لا

يبقون على كل من قبض عليه في ساحة الحرب وكان جل مرامهم تكثير عدد الرؤوس من الاعداء افتخارًا بحملها على جوانب الخيول وطمعًا بما ينالم على كل رأس من الجائزة حتى صار ذلك الفعل طبيعة لهم لا يمكنهم تركها فكيف وقد اضطرمت نيران غيظهم مما الم بهم من الفرنساويين بيد ان مرحمة الامير وشفقته وبديع الحكمة والسياسة التي ابداها بجعله لكل من اتى باسير سالمًا ضعفي ما كان ياخذ على الرأس او ثلاثة اضعافه وكل من اتى براس اسير يجازى بالجلد على رؤس الاشهاد واصدر الاوامر االازمة بهذا الشان في سائر مماكته وهذه المعاملة الحسنة واضرابها سرت في سائر خلفائه وعماله واثرت في العرب والبربر تأثيرًا غريبًا فغلبت مرحمتهم الانسانية على شدتهم البربرية غيرانه لم يفق احد ما كان لوالدته من كمال الحلم والمرحمة ولطف المعاملة والشفقة على اسرى النساء فقد اعتنت بهنّ اعتناء انساهنّ ما هنّ فيه وجعلت خيمتهنّ ملاصقة لخيمتها وعينت اثنتين من امائها خفرًا عليهنّ وفي كل صباح ترسل اليهنّ القهوة والشاي والسكر والزبد واللحم وكافة ما تدعوهنّ اليه حاجتهنّ ومن شدة حرص الامير على الاعتناء بشانهم كتب الى اسقف الجزائر ان يرسل اليهم كاهنًا ليسليهم ويخفف مصائب الاسر عليهم ويكتب لهم ما يريدون ان يكتبوه لعيالهم ويكون ذلك الكاهن امينًا على نفسه وضيفًا مكرمًا عنده ثم قال وان كان قلب الامير قاسيًا عند لقاء الخطر لكنه يلين ويذوب شفقة عند مشاهدة حزن الاسرى وكان اشد كراهة عنده ان يرى الاسرى من النساء ويضطرب عند تصوّره وقوعهن فرائس الحرب وقد جاء اليه احد اعوانه باربعة من النساء اسرى فحوّل وجهه وقال له متهكمًا الاسد يقنص الحيوانات القوية ويقع ابن آوى على الضعيفة واطلق مرةً اربعة وتسعين اسيرًا بلا فدية ولا عوض وارسل معهم خفرًا يوصلهم الى رفقائهم فقال احد قوادهم ينبغي لنا اخفاء هذا الامر وكتمه عن العسكر لانهم ان علموا به لا يتاتى لنا ان نحارب عبد القادر بالترتيب المناسب ولم يكتفِ بتحسين حالة الاسرى فقط بل كان يود المبادلة وقد طلب ذلك مرارًا عديدة من الفرنساويين واصرّ عليه فلم يجده نفعًا ومما يؤكد عدم اطلاعه على ما وقع بهم ما ذكره رُوا الفرنساوي في تاريخه من ان الضباط الباقين منهم ارسلوا الى اهليهم في فرنسا كتبًا يبرّؤنه بها ونص كتبهم ان معاملة الامير للاسارى لم تزل معاملة حسنة بل عديمة النظير وان اكرامه لهم لا يقاس عليه لعزته وجميع ما جرى على رفقائنا لم يكن باذنه ولا بعلمه بل لا يخطر في البال ان يصدر مثل هذا الامر منه لانه يخشى مقابلة الفرنسيس له بالمثل فيذبحون الاسرى من المسلمين الذين عندهم وهذا لا شك انه يهيج القبائل التي لها اسرى وعلى فرض انه امر به

صهره لما كان تأخر في انفاذ الامر تلك المدة الطويلة ولو قيل انه استشاره فيه بعد وصوله الى الدائرة فالوقت لا يقتضي ان يحصل على جواب في تلك المدة لان الدائرة كانت اذ ذاك في ملوية والامير في بلاد زواوة وبينهما مسافة ستمائة وثمانين كيلومترًا نعم ان الامير تغافل عن اظهار التهمة وتوجيه المسئولية على الروءساء الذين فعلوا تلك الفعلة الشنيعة وهم السيد مصطفى ومن وافقه ليبري ساحتهم خوفًا عليهم من وقوع الخطر على احدهم ان وقع في يد الفرنسيس كما هو مقتضى طباعه الكريمة انتهى. وبالجملة فان شرف نفس الامير وكرم اخلاقه مع ما عهد منه فيما مضى من المعاملة الامرى يحققان عدم صدور ذلك منه حتى ان المارشال بيجو قبل هذه الواقعة ارسل نيشان افتخار لبعض الاسارى الذين عند الامير اسمه اسكوفيه فلاول وصوله الى سموه امر باحضار اسكوفيه عنده وامر بعض اعيان العسكر ان يقلده النيشان بيده ثم احسن الى الاسير المذكور بما ملأ قلبه سرورًا وكتب اسقف الجزائر يسأله اطلاق اسير من اقاربه وقال في كتابه ليس لي مال افديه به بل اقابلك بالدعاء والثناء والراحمون يرحمهم الله فاجابه الامير الى مطلوبه واطلق له اسيره وكتب اليه حيث انك زعمت انك مشفق على اسيرك فكان ينبغي لك ان تعم باشفاقك سائر الاسرى فتطلب اطلاقهم وقال فاليوت في تاريخه ان الامير كان في صورة عدوّ كريم الاخلاق فان كل من كان اسيرًا في قبضة يده من الفرنسيس قد اثنى عليه الثناء الجميل وكان يامر باعفائهم من الخدمة يوم الاحد ملاحظًا في ذلك اعتبار الديانة المسيحية مع ان الفرنسيس لم يلاحظوا اعتبار يوم الاحد بل هو عندهم كسائر الايام فاذا كانت هذه احواله في مبدأ امره فكيف يكون على خلافها في منتهى امره انتهى. ثم ان الامير بدا له ان يفادي بالاسرى الباقين ولما لم يحصل على طائل اطلقهم وكتب الى ملك فرنسا ما نصه

الحمد لله وحده من ناصر الدين عبد القادر بن محيي الدين الى جلالة ملك فرنسا لويس فيليب احسن الله مقاصده في كل ما يؤول الى سعادته وجعله من الذين يتبعون سواء السبيل والمعروض لجلالتكم انني كنت مستعدًا لقبول شروط الصلح وطالما تعاطيت اسباب تقريره وسعيت وراءها فلم يجد ذلك نفعًا لشدة ما انطوت عليه بواطن عمال الجزائر من الفساد والعناد وتشبثهم بما يلقيه اليهم المنافقون من العرب والبربر الذين تردّوا في مهوى غيهم الداعي الى مكر الله تعالى بهم وغضبه عليهم وقد كتبت اليكم عدة مكاتيب فلم ياتني جواب منكم فقويت البواعث الردية في الجزائر على استمرار الحرب الى الآن وفي اثناء الوقائع بيننا وبين عساكركم

كان يقع في ايدينا اسرى كثيرة منكم فنفادي بها امرانا الذين في ايديكم وسيف السنة الماضية كتبت لنوابكم بمبادلة الاسرى فلم يردوا لي جوابًا فراجعتهم مرارًا فما افادت المراجعة شيئًا بل سجنوا رسلي واهانوهم وهذا اعظم دليل عند العرب بين المحاربين على نقض العهد من فاعله حيث ان الرسل شانها ان تعاد الى مرسلها بلا اهانة ولا ايذاء وبعد ذلك شاع ان الفرنسيس عازمون على انقاذ اسراهم جبرًا من ايدي العرب ثم فشا بين الناس ان سلطان مراكش عازم على انقاذهم من يد خليفتنا رغمًا عنه فكان هذا مع سوء سلوك نوابكم سببًا لما وقع بالاسرى من غير اذن منا ولا علم لنا والآن قد اطلقنا عشرة ضباط مع الرئيس كورلى دي كوفري وهم يعلمون بما اجريناه من الوسائل والتدبيرات الحسنة لاجل الوصول الى الندية بما عندكم من اسرى المسلمين ويعلمون حسن معاملتنا لسائر الاسرى الذين يقعون في ايدينا ويعرفون ان عدم رد جواب نوابكم عن مكاتيبنا في هذا الامر هو الذي عارض حسن المقاصد فيما بيننا وبينكم واوجب ما اوجب مما كان من غير اختيار ولا قصد انتهى . وبعد ان اطلق الضباط المذكورين ارسل معهم حرسًا يوصلونهم الى مليليه وهي مرفأ لاسبانيا فوصلوا على احسن الاحوال وبعد وصولهم كتب كل واحد منهم بخطه بصورة الحال ونص ما كتبوه . حينما كنا اسرى عند الامير عبد القادر كنا نعامل احسن معاملة وكانت جرايتنا اليومية الخبز الخالص واللحم الجيد والسمن والسكر والقهوة وما اشبه ذلك ولم يحصل لنا ادنى اهانة من سائر الوجوه وعندما كان الامير في الصحراء حرر خليفته البوحميدي الى المارشال في الجزائر في امر الفدا فلم يرد له جوابًا وعندما اخذ العرب يقتلون رفقاءنا من غير علم الامير سالنا عن السبب فاخبرونا انه قد عزم المراكشيون على اخذهم جبرًا وبعد هذا كله انعم الامير علينا باطلاق سراحنا وارسلنا الى مليليه وكان هذا منه احسانًا من غير عوض حرر في السادس من تشرين اول سنة ست وسبعين وثمانمائة والف كاتبه . توما . بار بوت . هابوس رئيس الفرقة الثامنة من معسكر اورليان . مينا كريتا . ماريسن . كورلى دي كوفري رئيس فرقة الفرسان . واطلاق هولاء الضباط لم تحتفل به فرنسا ولم تلتفت اليه وتمادت على غيها واغرائها لسلطان مراكش على الامير فارتاع السلطان عبد الرحمن وبعث الى الامير يامره بالخروج من الحدود ويذكر له انه لا سبيل الى خلاصك الا باحد امرين اما ان تسلم نفسك الينا واما ان تخرج من الحدود فان ابيت ان تجري احدهما طوعًا فنحن نجريه كرهًا ثم دس الى القبائل

القريبة من الدائرة في التضييق عليها وقطع الميرة عنها والتجافي عن مواصلتها بكل ما يعود بالنفع عليها فوجم الامير لهذا الامر وكتب الى السلطان ما نصه . اما بعد فاني كاتبتكم اولاً والتمست منكم كف ضرر قبائلكم المجاورة لنا وتعديها على من تبعني وسوء معاملتهم لهم لانهم كلهم اولاد دين واحد وشريعة واحدة فلم ياتني جواب عن ذلك ولم يحصل لهم ردع من طرفكم ومع هذا كله انا صابر ومتحمل لما يجرونه كراهة سفك دماء المسلمين مدة ستة اشهر طمعاً في رجوعهم عن البغي والطغيان الى العدل والاحسان مع قدرتي عليهم في كل آن فان لم تردعهم الآن عن افعالهم وتزجرهم عن قبيح تصرفاتهم التزم المحاماة عن حقوقي والمحافظة على شرف اتباعي ولذا بادرت باخباركم والسلام عليكم . ثم جمع اعيان جيشه ودائرته واطلعهم على حقيقة الحال فعلموا ان الرجل قد ضل رشده في التخلي عمن ينصره ويحمي حوزته وانه وافق العدو على اذلال المجاهدين في سبيل الله والغض من شانهم ثم قالوا للامير اننا قد بايعناك على السمع والطاعة والجهاد الى الموت ونحن مستعدون للوفاء بالعهد من اتباعك والكون معك في سائر احوالك ثم اتفقت كلمتهم على الاقامة في مواضعهم والدفاع عن حوزتهم . وكتب الامير الى علماء مصر يستفتيهم في ذلك ونصه . الحمد لله حمداً يوافي نعمه ويكافئ مزيده اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وارض اللهم عن الصحابة اجمعين وعن الائمة الراشدين من خديم المجاهدين والعلماء والصالحين عبد القادر بن محيي الدين الى سادتنا العلماء الابرار الافاضل الاخيار رضي الله عنكم وارضاكم وجعل الجنة منزلكم ومثواكم جوابكم عما فعله بنا سلطان المغرب من المنكرات الشرعية التي لا نتوقع من مطلق الناس فضلاً عن اعيانهم فامعنوا نظركم فيها شافياً واجيبونا جواباً كافياً خالياً عن الخلاف ليخلو قلب سامعه عن الاعتساف وذلك انه لما استولى عدو الله الفرنسيس على الجزائر وخلت الايالة عن الامير وانقطعت السبل وعطلت الاسباب وطالت شوكة الكافر اجتمع ذوو الرأي وتفاوضوا على ان يقدموا رجلاً من ساداتهم يؤمن السبل ويكف المظالم ويجمع المسلمين للجهاد لئلا يبقى الكافر في راحة فتمتد يده فاختاروا رجلاً منهم وقدموه لذلك فتقدم وعمل جهده فيما قدموه له فتامنت السبل بحمد الله وتيسرت الاسباب بعونه وجاهد في سبيله وذلك من لدن سنة الستة والاربعين الي سنة ثلاث وستين هذه ولن نزال كذلك ان شاء الله فاذا بسلطان المغرب فعل بنا الافعال التي تقوي حزب الكافر على الاسلام وتضعفنا واضر بنا الضرر الكثير ولم يلتفت الى قول رسول الله صلى الله

عليه وسلم المسلم اخو المسلم لا يسلمه ولا يظلمه ولا الى قوله عليه الصلاة والسلام المؤمن لاخيه كالبنيان المرصوص يشد بعضهم بعضاً ولا الى قوله عليه الصلاة والسلام المؤمنون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم ادناهم وهم يد على من سواهم الى غير ذلك من الاحاديث الشريفة فانظر ما فعل بنا انا لما كنا حاصرنا الكافر في جميع ثغوره نحواً من ثلاث سنين وقطعنا عليه السبل ومادة البر من الحب والحيوان وغيرهما تضييقاً عليه وتضعيفاً له خصوصاً من جهة الحيوان لان قانون عسكره انهم اذا لم ياكلوا اللحم يومين او ثلاثة يفرون عن طاغيتهم ولا يقاتلون ولا يلامون حتى بلغت قيمة الثور عندهم مائة ريال دورو فاذا بالسلطان المذكور امدهم وهم في الضيق الشديد بالوف من البقر وغيرها الثاني انه غصب من عاملنا الفاً وخمسمائة بندقية انكليزية الثالث انه غصب من وكيلنا اربعمائة كسوة جوخ اعددناها للمجاهدين الرابع ان بعض المحبين في الله ورسوله من رعيته قطع قطعة من ماله الخاص به ليعين به المجاهدين فاذا بالسلطان المذكور زجره ونزعها منه وقال انا احق بها والحال انه لم يجاهد الخامس ان بعض القبائل من رعيته عزموا على اعانتنا بانفسهم في سبيل الله فمنعهم من ذلك واعاننا آخر من رعيته بسيوف في سبيل الله فحبسه الى الآن زجراً له وردعاً لغيره السادس انه لما وقعت لهذا السلطان مقاتلة مع الفرنسيس اياماً قلائل ثم تصالحا واشترط عليه الفرنسيس ان لا يتم الصلح بينهما الا اذا حل امر هذه العصابة المحمدية المجاهدين ويقبض رئيسهم فاما ان يحبسه طول عمره واما ان يقتله واما ان يمكنه من يد الفرنسيس او يجليه من الارض فاجابه السلطان الى ذلك كله ثم امرني بترك الجهاد فابيت لانه ليس له علي ولاية ولا انا من رعيته ثم قطع عن المجاهدين الكيل حتى هام جوعاً من لم يجد صبراً واسقط من المجاهدين ركناً ثم اخذ يسعى في قبضي فحفظني الله منه ولو ظفر بي لقتلني او لفعل بي ما اشترطه عليه الفرنسيس ثم امر بعض القبائل من رعيته ان يقتلونا ويأخذوا اموالنا وكأنه استحل ذلك فابوا جزاهم الله خيراً فاذا تصورتم ايها السادات هذه الافعال التي تنفطر منها الاكباد وتتاثر عند سماعها العباد فهل يحرم عليه ذلك ويضمن ما غصب ويقتل بنا ان قتلنا حسبما نص عليه المعيار في اول باب الجهاد وزبدته انه اذا نزل الكافر بساحة المسلمين وقال لهم ان لم تعطوني فلاناً او ماله او يقتل استاصلتكم فانه لا يسعهم ذلك ولا يعطوه شيئاً مما طلب ولو خافوا استيصاله فان اعطى ماله ضمنه الآمر به ونقل ذلك عن نصوص

المالكية والشافعية وكما نص على ذلك ايضاً الشيخ مياره في شرح لامية الزقاق في آخر باب الإمامة الكبرى ونصه قال ابن رشد اذا امر الامام بعض اعوانه بقتل رجل ظلماً ففعل فلا خلاف انهما يقتلان معا نقله المواق عند قول خليل في باب الجنايات كمكره ومكره فان فعل المأمور ذلك خوفاً على نفسه فانه لا يعذر بذلك قال ابن رشد ايضاً الاكراه على الافعال ان كان يتعلق به حق لمخلوق كالقتل والغصب فلا خلاف ان الاكراه غير نافع نقله ايضاً عند قوله في الطلاق لا قتل مسلم وقطعه ونقله الحطاب في هذا المحل الثاني ونصه في آخر معين الحكام ومن هدد بقتل او غيره على ان يقتل رجلا او يقطع يده او ياخذ ماله او يزني بامراة او يبيع متاع رجل فلا يسعه ذلك وان وان علم انه ان عصى وقع به ذلك فان فعل فعليه القود ويغرم ما اتلف ويحد ان زنى ويضرب ان ضرب ويأثم اهـ وهل المهادنة التي اوقعها فاسدة ومنقوضة لان الجهاد تعين عليه قبل ان يفجأه العدو بسبب قربنا منه وعجزنا عن الجهاد ولان منفعتها عائدة على الكفار ووبالها على الاسلام كما هو مشاهد حسبما نص على ذلك في المعيار ايضاً في باب الجهاد في الجواب عن سؤال التلمساني وحاصله ان الخليفة اوقع الصلح مع النصارى والمسلمون لا يرون الا الجهاد فاجابه بما حاصله ان مهادنته منقوضة وفعله مردود ونقل على ذلك نصوصاً وهل يحمل بيع البقر لهم في وقت حصرهم المسلمين على حرمة بيع الخيل لهم والشعير وآلة الحرب ام لا وعلى انه لم تسعه مخالفة الفرنسيس فيما شرطه عليه من قتالنا وتفريق جماعتنا وما ينشاء عنه من ترك الجهاد بالكلية واقتحم الامر وشق العصا وجاءنا بالجيش ليقتلنا وياخذ اموالنا ويفرق جمعنا فهل يجوز لنا ان نقاتله بمقتضى ما نقله الشيخ ميارة ايضاً في شرحه المذكور في الباب ونصه انظر اذا خلا الوقت من الامير واجمع الناس رايهم على بعض كبراء الوقت ليمهد سبلهم ويرد قويهم عن ضعيفهم . فقام بذلك قدر جهده وطاقته . والظاهر ان القيام عليه لا يجوز . والمعترض له يريد شق عصى الاسلام وتفريق جماعته ففي صحيح مسلم رضي الله عنه عن زيادة بن علاقة قال سمعت عرفجة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول انها ستكون هنات وهنات فمن اراد ان يفرق امر هذه الامة وهو جميع فاقتلوه كائناً من كان وبسنده قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول. من اتاكم وامركم جميع على رجل واحد يريد تفريق جماعتكم فاقتلوه اهـ ام لا يجوز لنا ذلك ونترك الجهاد ليس الا جوابكم تؤجرون وتحمدون وعليكم السلام في البدأ

والختام والحمد لله رب العالمين

فاجابه العلامة الحجة الشيخ محمد عليش مفتي المالكية بالديار المصرية بقوله . الحمد لله رب العالمين . والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله المهتدين . نعم يحرم على السلطان المذكور اصلح الله احواله جميع ذلك الذي ذكرتم حرمته معلومة من الدين بالضرورة لا يشك فيها من في قلبه مثقال ذرة من الايمان . وما كان يخطر ببالنا ان يصدر من مولانا السلطان عبد الرحمن وفقه الله تعالى مثل هذه الامور مع مثلكم فانا لله وانا اليه راجعون وما قدر الله سبحانه وتعالى لا بد ان يكون خصوصاً وانتم جسر بينه وبين عدوه وان كنا في اطمئنان على اقليمه من استيلاء عدو الله عليه بما في الاحاديث الصحيحة من بقاء اهله على الحق حتى تقوم القيامة . منها ما وجد بخط الشيخ المقري ونصه من خط الفقيه المحدث العالم ابي القاسم العبدوسي حفظه الله تعالى ما نصه وجدت في ظهر تقييد الشيخ ابي الحسن الصغير على المدونة بخط من يقتدى به . قال ذكر صاحب كتاب نقط العروس عن ابي مطرف . قال حدثنا محمد بن المو ز . عن ابن القاسم . عن مالك بن انس . عن ابن شهاب . عن سعيد بن المسيب . عن ابي هريرة قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . ستكون بالمغرب مدينة يقال لها فاس . اقوم اهل المغرب قبلة واكثرهم صلاة . اهلها قائمون على الحق . لا يضرهم من خالفهم يدفع الله عنهم ما يكرهون الى يوم القيامة . اه وكذا ضمانه لما غصب ضروري لا يشك فيه مسلم . وكذا استحقاقه القصاص منه بقتله مومناً عمداً عدواناً مباشرة او باكراه غيره عليه معلوم من الدين بالضرورة والنصوص التي ذكرتم صحيحة صريحة لا تقبل التاويل والمهادنة التي اوقعها فاسدة منقوضة . وما نسبتم للمعيار هو كذلك فيه وبيع البقر وسائر الحيوان والطعام والعروض وكل ما ينتفعون به في النازلة المذكورة حرام قطعاً اجماعاً ضرورة لا يشك فيه مسلم سواء في حال حصر المسلمين اياهم وفي حال عدمه اذ قتالهم فرض عين على كل من فيه قدرة عليه ولو من النساء والصبيان من اهل تلك البلاد ومن قرب منهم كاهل عمل السلطان المذكور وفقه الله تعالى. فكيف يتخيل مسلم ان معاملتهم بما ينتفعون به ويتقوون به على البقاء في ارض الاسلام جائزة مع ذلك قال الحطاب واما بيع الطعام يعني للحربيين فقال ابن يونس عن ابن حبيب يجوز في الهدنة واما في غير الهدنة فلا قاله ابن الماجشون اه وظاهره ان هذا فيما يذهبون به لبلادهم واما ما يستعينون به على البقاء في ارض الاسلام وقتال اهله اولى بالمنع وان اقتحم الامر وشق العصا واتاكم بجيشه وجب عليكم قتاله وجوباً عينياً اذ هو حينئذ

كالعدو والبغاة المتغلبين الفاجئين القاصدين الانفس والحريم لعدوانه وتجاريه على ما اجمع المسلمون على تحريمه وهو انفسكم وحريمكم واموالكم ومنعكم مما هو متعين عليكم بالاجماع من جهاد الكفار الفاجئين لكم والمقتول منكم في قتاله كالمقتول في قتال الكفار ليس بينه و بين الجنة الا طلوع الروح فصمموا على قتاله واعدوا له ما استطعتم من قوة نصركم الله تعالى عليه وعلى اعداء الدين وبارك فيكم وفي كل من اعانكم من المسلمين وخذل كل من عاداكم وخذلكم كائنًا من كان وجعل كيده في نحره ونص ما في المعيار وسئل بعض فقهاء تلمسان جوابكم سيدي عما عمت به البلوى في بلادنا وعظم من اجله الخطب واتسعت فيه المقالات وذلك ان الخليفة اصلح الله حاله صالح هؤلاء النصارى الذين اخذوا سواحلنا الى اجل معلوم والمسلمون يرون ان جهادهم من اعظم القربات فصاروا يغيرون على اطراف بلادهم فيقتلون ويضيقون بهم هل ذلك طاعة او معصية والفرض ان الخليفة لا يوافق على ذلك ويعاقب عليه اجيبونا ارشدتم ووفقتم .

فاجاب الحمد لله الذي ايد الدين المحمدي بالجهاد . ووعد الساعي فيه بالوصول الى اسنى المراد . والشهيد بالحياة المحفوفة بالرزق والحسن في برزخ الموت والامداد . فما من ميت الا يتمنى العود الى الدنيا الا الشهيد . لما يرى من فضل الشهادة . من ذي العرش المجيد . فيطلبها ليزداد له من الكرامة ما لا عين رات ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر بعد المعاد فاعظم به من وصف لا تحصى فضائله اذ قدمت على نوافل الخير العلي نوافله عند اهل الاجتهاد وصلى الله على سيدنا محمد النبي المبعوث لجميع الخلائق المنعوت بجميل الخلائق القامع بلسانه وسيفه وبرهانه اهل الباطل والعناد وعلى آله واصحابه الذين وازروه على اظهار الحق عنه من الاضداد فجلبوا ببركته لامته المصالح و بذلوا لهم النصائح ودفعوا العناد صلاة وسلاما ننال ببركتهما من الخيرات والبركات ما يخرج عن المعتاد

اما بعد ايها الاخ الكريم محتده الجميل معتقده . فان جواب سؤالك يتوقف على تقرير مقدمة بتقريرها يتبين ما يتضح به المسئول عنه فنقول الصلح الواقع بين امام المسلمين واعداء الدين على ضربين الضرب الاول حيث يكون الجهاد فرض كفاية والثاني حيث يكون فرض عين اما الاول فحيث يكون المسلمون طالبين على الكافرين الحربيين فالصلح لمصلحة يراها الامام بحسب اجتهاده جائز عند المالكيين و نقل ابن عبد البر عن سحنون انه قال لا يعد في المدة ونقل ابن شاس عن ابي

عمران انه استحب ان لا تكون المدة اكثر من اربعة اشهر الا مع العجز واما الضرب الثاني فهما تعين الجهاد في موضع لم يجز فيه الصلح كما لو كان العدو طالبًا على المسلمين وقد يفجأ موضعهم وهو ضعف عدد المسلمين فاقل لاشدة وعدة على المشهور عند المحققين فيتعين على من نزل بهم ومن قاربهم دفعهم في الحين ونقل اللخمي عن الداوودي فرضية الجهاد على من يلي العدو و يسقط عمن بعد عنه وقرره المازرى بانه بيان لتعلق فرض الكفاية لمن حضر محل تعلقه قادرًا عليه دون من بعد عنه لعسره فان عصى الحاضر تعلق بمن يليه وحاصل كلام المازرى ان فرض الكفاية الذي هو حكم الجهاد قد يعرض له ما يوجبه على الاعيان في بعض الاحيان وفي تلقين القاضي عبد الوهاب قد يتعين في بعض الاوقات على من يفجأهم العدو وفي نوازل ابن ابي زيد عن سحنون ان نزل امر يحتاج فيه الى الجميع كان عليهم فرضًا ولو سبى المشركون النساء والذرية والاموال وجب استنقاذهم على من قوى عليه مالم يخافوا على انفسهم او على اهليهم بروءية سفن او خبر عنها فكل ما نقل في تعين فرض الجهاد مانع من الصلح لاستلزامه لابطال فرض العين الذي هو الجهاد المطلوب فيه الاستنقاذ وفي العتبية سئل مالك اواجب على المسلمين فداء من اسر منهم قال نعم اليس واجبًا عليهم ان يقاتلوا حتى يستنقذوهم قال بلى قال فكيف لا يفدونهم باموالهم وفي مثل هذا اعني حيث يتعين الجهاد حكى القاضي ابن رشد الاتفاق على انه اقوى من الذهاب الى حجة الفريضة لان الجهاد ان تعين كان على الفور والحج قد قيل فيه انه على التراخي ولما تقررت هذه المقدمة بما فيها من النصوص الائمة تعين بها ان الجهاد فرض عين في مسئلة السؤال فيمتنع فيه الصلح على كل حال لا سيما ان طالت مدته فقد عادت على العدو اهلكه الله مصلحته وعلى المسلمين مفسدته وان تخيلت فيه مصلحة فهي للعدو اعظم من وجوه مكملة فانه يتحصن في تلك المدة و يكثر من آلات الحرب والعدة فيتعذر على المسلمين الاستنقاذ و يصعب عليهم تحصيل المراد بعد تيسره لو ساعد التوفيق ولكن المولى جل جلاله المسئول في هدايته الى سواء الطريق فما وقع من الصلح هو مفسدة على الاسلام فلا يكون له في نفس الامر ابرام فالصلح المذكور يجب نقضه لانه بمقتضى الشرع غير مبرم فحكمه غير لازم عند كل من حقق اصول الشريعة قال في التلقين ولا يجوز ترك الجهاد لهدنة الا من عذر لا يقال الصلح المسئول عنه داخل في المستثنى من كلام القاضي عبد الوهاب والصلح من المسلمين لا يكون في الغالب الا من عذر على انه حكم اجتهادي من امام فلا سبيل الى نقضه لانا نقول وقع ذلك عقب الداهية الدهيا وهي انتهاز العدو دمره الله الفرصة في بلاد المغرب

مع توفر الاسلام والعدد والعدوّ ليس له فيها مدد والمسلمون لا يقصرون عن ضعف العدو فضلا عن ان يكون عدوهم ضعفهم فاما ان يكون الصلح لخوف استئصال الكافرين بقية المسلمين واما للخوف من المحاربين والاول باطل لمخالفته الفرض والثاني كذلك ايضاً لان الخوف من المحارب بالفرض لا يتأتى مع امكان انقسام العدو واتصال المسلمين بحصول المدد فالواجب القتال وان كان العدو ذا جلد ومعه كثرة العدد فلا يدخل الصلح في المستثنى من كلام القاضي عبد الوهاب وحكم الجهاد ينقض اذا تبين فيه الخطأ كما نقل عن سحنون وطول المدة في الصلح المذكور خطا فيه فينتقض الصلح وذلك ايضاً لان الصلح المذكور فيه ترك الجهاد المتعين وترك الجهاد المتعين ممتنع فالصلح المذكور ممتنع وكل ممتنع غير لازم والجهاد في الموضوع المذكور لم يزل متعينا من زمن الوخزة الى الآن وعن ابن القاسم ان طمع قوم في فرصة في عدو قربهم وخشوا ان اعلموا الامام يمنعهم فواسع خروجهم واحب اليّ ان يستاذنوه قال ابن حبيب سمعت اهل العلم يقولون ان نهى الامام عن القتال لمصلحة حرمت مخالفته الا ان يرحمهم العدو وقال ابن رشد طاعة الامام لازمة وان كان غير عدل ما لم يامر بمعصية ومن المعصية النهي عن الجهاد المتعين على ما تقدم والله سبحانه وتعالى اعلم . ومما ينبغي ان يذيل به ما وقع من جواب السوءال بيان حقيقة الصلح لغة وشرعاً و بيان الممتنع منه والجائز بمال او بغير مال وهو المعبر عنه في كتب الفقه بالمهادنة قال الجوهري هادنه صالحه والاسم الهدنة واما حقيقته في العرف الفقهى فهو عبارة عن توافق امام المسلمين والحربيين على ترك القتال بينهم مدة لا يكونون فيها تحت حكم الاسلام فقولنا الامام يخرج من سواه من المسلمين فاذا حصل منه فلا يتم ولو كان امير السرية وبقية الرسم تخرج الامان والاستئمان وذكر المدة غير مقيدة فيه اشارة الى انها موكولة الى اجتهاد الامام ما لم تطل و يفهم ذلك من تنكيرها فانها للنوعية واما حكمه فالجواز ان اقتضته مصلحة للمسلمين والمنع ان تضمن مفسدة عليهم قال ابن حبيب عن ابن الماجشون ان رجى الامام فتح حصون لم ينبغ له صلح اهله على مال وان على اياس منه فلا باس بصلحهم علي غير شيء كصلح الحديبية وان لم يتضمن مصلحة ولا مفسدة فهو مكروه لما فيه من توهيم الجهاد فان نزل مضى ما لم تتبين فيه مفسدة بعد عقده فينتقض قال الشيخ ابن ابي زيد عن سحنون ولو هادنهم الامام على مال ثم بان له انهم غروا بالمسلمين لم ينبذه حتى يرد ما اخذ منهم وكذلك ان بان ذلك لمن بعده ولا يحبس من المال بقدر ما مضى من الاجل قال سحنون وللامام نقض الصلح لغير بيان خطئه فيه ولو ردّ ما اخذ الا برضا

من عاقده ونقل الشيخ ابن ابي زيد عن ابن المواز انه قال كره علماؤنا المهادنة على ان يعطينا اهل الحرب مالاً كل عام قال محمد وانما هادن النبي صلى الله عليه وسلم اهل مكة لقلة المسلمين حينئذ هذا ما يتعلق بالصلح على مال ياخذه الامام او بغير مال واما لو وقع بمال يعطيه المسلمون لهم فقال المازري لا يهادن العدو باعطائه مالاً لانه عكس مصلحة اخذ الجزية منه الا لضرورة التخلص منه لخوف استيلائه على المسلمين وقد شاور النبي صلى الله عليه وسلم لما احاطت القبائل بالمدينة سعد بن معاذ وسعد بن عبادة في ان يبذل المسلمون ثلث الثمار لما خاف ان يكون الانصار ملت القتال فقالا ان كان هذا من الله سمعنا واطعنا وان كان رأياً فما اكلوا منها في الجاهلية تمرة الا بشراء فكيف وقد اعزنا الله تعالى بالاسلام فلما راى النبي صلى الله عليه وسلم عزمهم على القتال ترك ذلك فيوءخذ من هذه القضية جواز اعطاء المال على الوجه الموصوف للضرورة اذ لو لم يجز لم يشاور فيه الرسول عليه الصلاة والسلام لكنه قد شاور فيه فهو جائز وبيان الملازمة هو ان المشاورة في دفع المال ملزومة للهم بدفعه على تقدير الموافقة على اعطائه ولا يهم الرسول صلى الله عليه وسلم بممتنع واما بيان المقدمة الاستثنائية فيما ذكره اهل السير والله جل جلاله الموفق بفضله لا رب سواه

※ ذكر نكبة ابي معزة ووقوعه في قبضة الفرنسيس اسيراً ※

تقدم انه ظهر في نواحي شلف وادعى بانه المهدي المنتظر ثم انكشف عواره وتلاشى امره ولحق بالامير وانخرط في سلك قواده واقام معه في الدائرة مدة وفي سنة ثلاث وستين ومائتين وسبع واربعين وثمانمائة انفصل عنه في لمة من اصحابه ولحق بقبائل الصحراء ثم اظهر دعوته في قبيلة فليتة فقام بها رئيسهم ابن جلول واستفحل امره في تلك الجهة وبلغ حاكم الجزائر خبره فجهز لقتاله الجيوش تحت نظر الجنرال مونج والجنرال هربيلون وجرت بينهم وبينه في نواحي مينة حروب انكسر فيها ابو معزة ولحق باولاد نائل فشن مونج الغارة عليهم واكتسح اموالهم واستلحم منهم جموعاً كثيرة ثم انضم هربيلون الى مونج وساقوا جيوشهم الى ابي معزة فادركوه في نواحي تاهرت وشتتوا شمله ولما ضاقت به الارض واحس بالعجز من نفسه استامن الى القومندار سنت ارنو فلم يجبه واخذه اسيراً الى الجزائر ثم اشخصه المارشال بجو الى باريز فاقام بها مدة وفرّ هارباً الى مرسى برست فالقى عليه القبض وسجن في قلعة هام وفي ايام الامبراطور لويس نابليون الثالث اطلق سبيله ولم يزل يتجول في بلاد فرنسا الى ان جرت الحرب بين الدولة العلية والروسيا

المشهورة بحرب القريم سافر الى الاستانة ودخل في سلك الجيوش العثمانية المتطوعة و بعد انعقاد الصلح خرج من الاستانة ولحق بالعراق واقام ببغداد مدة ثم انتقل الى باطوم وفي سنة خمس وتسعين ومائتين جاء الى دمشق واقام عند الامير شهوراً ثم توجه الى بيروت ومنها الى طرابلس الغرب ودخل افريقية ودعا الناس الى الجهاد ثم رجع الى باطوم من غير طائل ٠

ذكر تسليم الخليفة السيد احمد بن سالم الى الفرنسيس

لما طال الامر على الخليفة السيد احمد بن سالم وعجز عن مدافعة العدو ويئس من الانتصار عليه استأمن الى الحاكم الفرنساوي في صور الغزلان وطلب منه تخلية سبيله الى المشرق فامنه ووعده باجابة دولته الى ما طلبه منه وفي الثاني عشر من ربيع الاول سنة ثلاث وستين ومائتين والتاسع والعشرين من شهر فبراير سنة سبع واربعين حضر في لمة من ذويه الى صور الغزلان معلناً بطاعته وتسليمه فتلقاه الحاكم بما يليق بمقامه من الاكرام لما عهد عنه واشتهر به من شدة البأس وقوة الجأش وحسن السياسة وطار الخبر الى الجزائر فاستعظم اهلها هذا الامر اكثر من امر ابي معزة ثم هاجر الى دمشق الشام وتوفي بها سنة ثلاث وسبعين ومائتين وبتسليم هذا الخليفة ضعف امر المسلمين في الجهة الشرقية وتلاشى عزمهم واشرأبت نفوس رؤساء القبائل الى الدخول في طاعة الفرنسيس وتقدمهم في ذلك قاسم بن قاسي الزواوي واقتدى به جم غفير من الرؤساء وانتهز المارشال بيجو الفرصة فخرج في الجيوش الى الجبال البربرية واوقع باهلها ثم سار في الجهات الجنوبية و وصل الى صطيف والزيبان وبسكره ونواحي الجفنة واولاد نائل وجبل العمور ووقعت في تلك النواحي حروب جسيمة كانت النصرة فيها لجيوشه وتمهدت له الطاعة في سائر الاعمال الشرقية ثم كتب الى القبائل الغربية ما ملخصه من المارشال بيجو والي مملكة الجزائر وسائر اعمالها الى كافة بني يزناسن واهل انكاد والاحلاف والمهاية والمطالسه وبني بويحيي والقامية وكافة اعراش نواحي الغربية بين الجزائر والايالة الغربية اعلموا اني اتكلم معكم بكلام يدل على الخير والمحبة البالغة ولولا المحبة لم اذكره وكنت افعل ما رمته فانصتوا لمقالتنا وتاملوها لانها نصيحة وارشاد وهي ان لكم مدة اربع سنين وانتم جادون في فعل الشر معنا ونحن نسامحكم حتى كثر العيب ووقع منكم ما وقع كما هو محقق لديكم وبعد الوقائع كلها الهمنا الله للسداد والرشاد

وكان اول الشروط التي وقعت بيننا ان لا يبقى الامير عبد القادر بين ايالتكم وايالتنا وان لا تقبلوه في ارضكم فلما ضاق عليه المجال في ارضنا فرّ منا وجر ذيله ببلادكم فقبلتموه واكرمتموه و بجلتموه وكان فعلكم هذا سبب الفساد الذي وقع بيننا و بين المعظم الارفع محبنا وصديق دولتنا صاحب السياسة والرياسة مولاي عبد الرحمن ابن هشام اعزه الله فانتبهوا من غفلتكم وفرقوا بين ضركم ونفعكم واعلموا بان الامير عبد القادر كالحية الرقطاء لمسها لين وهي قاتلة سماً وقد ذكر بعض الاوائل ان رجلاً وجد لنعة في سياق الموت من الم البرد فاشفق لحالها وادخلها بين ثوبه ولحمه فلما افاقت وتحركت لدغته فمات وصار هذا مثلاً يضرب لمثلكم ونحن جعلنا الحدود وسويناها ووضعناها بيننا وبينكم وبيناها ولم تتم اربعة اشهر حتى افسدتم الامر وصار الامير عبد القادر يسير بخيولكم ورجالكم اعانة له واعراش بلادنا فرت اليكم وتحزموا معه وقد وصل لنواحينا وغزا ولم يحصل على مراده ولما وقع ذلك عزمنا على الدخول لايالتكم بجيوشنا ولم يبق الا التحرك فاذا بصديقنا المعظم الارفع مولاي عبد الرحمن كتب لسعادة سلطاننا راي فرنسا وبعث له البشدور يقول له تربص ولا تعجل حتى ننظر امر هؤلاء الرعية ونكفهم عن فسادهم وربما ينصتون بعد النهي وقد مضى ستة اشهر ونحن نراقب ما يصدر من الخير لكم ولنا فاذا به نسمع جعجعة ولا نرى طحناً والآن انا طردنا الامير عبد القادر وافسدنا امره ودخل ارض الفلات وقرب منكم وصار البوحميدي بمده بخيل و رجال منكم ومن غيركم وهو يحكم بوسطكم ويصول عليكم مع امساكه الزكاة والعشور والمطالب المخزنية ولم تكفوه عن ذلك او تتجنبوا عنه وتتبرؤا منه ومن حلمنا وعدم عجلتنا بقي عسكرنا كانه في السجن منتظر لامرنا وهذا هو العجب وقد امتلأ القلب وفاض المكيال وكل شيء له نهاية وكمال وان هذا والله لم يقع بين الاجناس اصلاً في الماضي والمستقبل وصبرنا لم يكن عند ملك ابداً لانا مراقبون امر هذا الثغر وقد اردنا ابتسامه واطلعنا على جميع احواله وفهمنا مراد اناسه ونظن احد امرين اولهما ان السلطان مولاي عبد الرحمن امركم بالكف عن الفساد وخالفتم امره فليس لنا كلام مع السلطان المذكور ولكن ندخل بلادكم بالجند الموفور واما ان يكون امركم بهذا خفية منا فهو العدو حيث قبل عدونا وحاشاه من ذلك ولا سيما ان الملوك اذا عاهدوا انجزوا واعلموا ان هذا ليس خوفاً منكم انما هو الواقع وفعلكم هذا يوافق الشريعة وربما لم يوافق جميع الاديان لخروجكم عن طاعة اميركم وهو دليل شركم بلا فائدة فاشروا بخرابكم نطلب

من الله تعالى ان ينبهكم من غفلتكم ويعرفكم بطاعة اميركم ونطردوا الامير عبد القادر واتباعه وننسى كل ما فات ويتبدل الغضب بالرضى ترالجوار اوصى عليه الرسول وفي هذا كفاية والسلام في الرابع من جمادى الاولى سنة ثلاث وستين ومائتين. فمن نظر كتاب المارشال بيجو المرسل لهذه القبائل وتأمله ثم قابله مع الكتاب المرسل اليهم من السلطان عبد الرحمن الآتي ذكره وتامل تامل المنصف فعل كل من دواني فرانسه ومراكش وما اجرته ضد حركات الامير علم بداهة ما كان بينهما من المخادنة والمواطئة سرًا وعلنًا على ابطال حق الحق واطفاء نور الصدق وعند الله تجتمع الخصوم . ثم رجع بيجو الى الجزائر وامر حاكم وهران بالخروج في العسكر الى الصحراء الغربية فجال في جهاتها واوقع بقبائل حميان واولاد السيد الشيخ ابن الدين في التخوم لجهة الجنوب وصارت السلطة الفرنساوية متمكنة في النواحي الغربية والشرقية من حدود مراكش الى تخوم تونس

﴿ ذكر استعفاء المارشال بيجو من ولاية الجزائر وسفره الى فرنسا ﴾

قد تقدم انه كان جنرالاً وقائداً للعساكر الفرنساوية في وهران وهو الذي ابرم معاهدة تافنا مع الامير ولم يحسن الادارة بتلك المرة بيد انه تدرب مذ درس في مدرسة الامير الحربية احسن الادارة في المرة الثانية واظهر من الاقدام والشجاعة وتحمل من الخطوب ما لم يكن في حساب وكان في سن الشيخوخة فسماه الامير الاسد الهرم قال بعض مورخيهم ولذلك منحته دولته قوة لم تمنحها لاسلافه لا سيما انها اعتبرت عبد القادر بعد الحوادث الاخيرة رجلاً عظيماً في كل امر فامرت بتلاحق ارسال النجدات العسكرية والذخائر الحربية ولما تم الامر المقصود للمارشال بيجو في بلاد الجزائر وتمهدت فيها الطاعة لدولته قدم استعفاءه طلبًا لراحة نفسه مما لحقه من اتعاب الحروب ومعاناة الخطوب مدة تزيد على ست سنين متوالية لم يسكن فيها روعه ولم يهدأ في سائر اوقاتها فكره فاجابته الى مطلوبه فترك الجزائر وسافر في الحادي والعشرين من جمادى الثاني سنة ثلاث وستين ومائتين والرابع من مائة سنة سبع واربعين وثمانمائة واقام الجنرال بار وكيلا فيها ثم ابدل بالجنرال بيدو وفي الخامس والعشرين من شوال والخامس تشرين اول جاءها الدوك دومال بن الملك حاكمًا عامًا فضبط امورها واقر الجنرال لاموريسير على ولايته في وهران وعين الجنرال بيدو حاكمًا على قسنطينة والجنرال كافيناك على الجزائر ثم خرج يتفقد الحاميات والمسالح وخلا له الجو فلم يتعرض له احد ولله الامر من

قبل ومن بعد

ذكر وقعة تافرسيت من بلاد الريف الغربي

قد تقدم ان عبد الرحمن سلطان المغرب الاقصى تعرض للامير باقامته في تخوم مملكته وطلب منه الخروج منها فتغافل الامير ولم يلتفت اليه فاغتاظ لذلك وارسل الى الشيخ بزيان يامره باستعمال الوسائل الفعالة في اخراج الامير ودائرته من ايالة مراكش وكتب الى مشايخ بني يزناسن واهل انكاد ان يكونوا معه يداً واحدة في اخراجه منها وصورة ما كتبه اليهم

الحمد لله وحده

خدامنا بني يزناسن واهل انكاد وفقكم الله وارشدكم وسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد فقد بلغنا ان الامير عبد القادر نهض في قومه ومن انضاف اليه من اخوانكم الذي استنفرهم وخدعهم بتمويهه وابطاله حتى نزل بجامع الغزوات على من بها من النصارى وعمهم واوقع فيهم وقتل جلهم ولم ينج منهم الا من فر بنفسه وما مراده الا اثارة الفساد وجلب الشر والفتنة للمسلمين كما جلبها لايالة الجزائر وغيرها حتى اوقعهم في الكفر والعياذ بالله وانقادوا بسببه لاستيلاء الكفار واسلموا انفسهم لاحكامهم وعاد عليهم شؤم فعله بالدين الذي لا يرضاه مسلم ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم وقد خدعكم باظهار الدين واحوال الصالحين وما في ضميره الا الفساد وايقاد الفتنة بين العباد ومن يتبعه على ذلك الا هو من الاخسرين اعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعاً ونحن لا نكره الجهاد بشروطه ونكره ما يعود بالضرر والغلبة لجانب الاسلام ولكن هذا المشؤم اراد نقض ما اسسناه من الصلح الشرعي وايقاد الفتنة بعد اطفائها سعياً في هضم جانب عزكم وافساد دينكم ودنياكم وتكدير خاطرنا عليكم وانتم لا تشعرون فها نحن امرنا خانا الانجد الشيخ بزيان بالقيام على ساق الجد في اخراجه ودائرته من ايالتنا السعيدة طوعاً او كرهاً وحسم مادة فتنتهم وضلالهم فكونوا معه يداً واحدة وشدوا عضده على ذلك حتى يقضي الغرض ان شاء الله تعالى وكفوا اخوانكم عن متابعته ونهوضهم عن مقاطعته فان من قاطعه ونبذ متابعته فقد احاط نفسه ودينه ومن تبعه وشد عضده وكثر سواده فقد تعرض لسخط الله ورسوله وسخطنا لا ينجح له زرع ولا ضرع وقد اعذر من انذر اللهم اشهد وسيعلم الذين ظلموا اي منقلب ينقلبون وما عقدناه من الصلح مع العدو الكافر اسسناه على قواعد الشرع العزيز وبنيناه واقتدينا

فيه برسول الله صلى الله عليه وسلم فانه صالح كفار قريش صلح الحديبية حين صدوه عن البيت الحرام مع تدافع الصحابة وقوة عزمهم وقهر عدوهم ولم يكن ذلك غلبة وانما هو تشريع ولو شاء عليه الصلاة والسلام لامران ينكب عليهم الاخشبين حتى قال سيدنا عمر لرسول الله انعطي الدنية في ديننا السنا على الحق وهم على الباطل فقال بلى فقال ابو بكر الله ورسوله اعلم وقد صالحهم على ان من فر اليه يرده اليهم ففر اليه ابو هريرة ليلة فرده اليهم وفاء بعهده وامضاء لعقده وكان هذا الصلح هو الفتح بعينه فنحن برسول الله اقتدينا وبشريعته اهتدينا ونظرنا للمسلمين بما لم يضيقوا به رفقا بهم ليتهنوا ويتمتعوا في سعة وعافية ونحن على سنة الجهاد وعقده عارفون ما اعد الله لاهله من اجره فكيف يأتي هذا البداع يعلم احوال الجهاد واحكامه ونحن اعرف به منه وما ورد فيه وما اعد الله لاهله ولو رأينا الخير للمسلمين في غير الصلح ما ارتكبناه فلا يفيدهم الا ذلك فاسئلوا اهل العلم وما ورد في صحيح البخاري ومسلم في فضل الجهاد واحكامه والصلح واقسامه ليعلم حال عبدالقادر وجهله بالسنة وغيرها وان من تبعه فقد باء بالضلال والردى وحاد عن شريعة الهدى في الثالث من شهر رمضان سنة ثلاث وستين ومائتين والف من المولى عبد الرحمن ابن المولى هشام . فضاق الامير لذلك ذرعاً ولم يجد بدًا عن ان يحمي حوزته ويدوخ النواحي التي هو مقيم فيها فانذر واعذر واوعد وحذر ثم بطش باهل الفساد ومهد ما قرب منه من البلاد ومد يده الى اقامة الاحكام الشرعية فيهم واخذهم بالرهبة وبالغ في ذلك حتى لاذوا بالطاعة وتذرعوا بالخضوع فزال بذلك عن المهاجرين ما اهمهم وغمهم وادركوا من رخاء العيش وبعد الصيت ما حرك من سلطان مراكش السواكن واوقعه في الخوف على ملكه ثم بلغه ان اهل فاس قاعدة مملكته وغيرهم من اهل القاصية بعثوا الى الامير يدعونه الى الاستيلاء على بلادهم واخذهم بنصرته فازداد غضباً وجهز قائده الشهير بالاحمر في عسكر كثيف لقتال الامير واخراجه من البلاد وكان في تلك المدة وصل الى حضرة الامير مولاي عبد الرحمن بن سليمان سلطان المغرب الاقصى السابق ليكون في جملته فلما بلغ الامير خبر القائد الاحمر استعد للدفاع عن حماه وكان وقتئذ مخيما بين ارض بني توزين ومطالسه من قبائل الريف ولم يزل القائد الاحمر يطوي المراحل الى ان خيم بتافرسيت على مسافة مرحلة من الدائرة ثم بعث بعض لرؤساء في شرذمة من الجيش يستكشف احوال الدائرة ويستطلع اخبارها ولما تراءى الرئيس لها ركب بعض فرسانها اليه فلما رأى الخيل قد اقبلت عليه امتلأ قلبه رعباً ورجعوا الى معسكرهم لا يلوي احدهم على الآخر

وقبض على عدة خيالة منهم ثم ان الامير بعث الى القائد يدعوه الى المسالمة و يعتذر اليه بالعجز عن الخروج بضعفاء المهاجرين الى الصحراء لبعد المسافة و يظهر له سلامة صدره و يؤكد له انه لا يخطر في باله ما بلغ السلطان عنه وانه وانه لا يريد الا العافية واقامة المهاجرين تحت انظار السلطان فلم يجده ذلك نفعاً وابى القائد الا الخروج او القتال فحينئذ اخذ الامير حذره منه واستعد للمدافعة عن الاهل والاولاد ثم بدا له في مراجعة القائد ثانية فبعث اليه يقسم بالله تعالى انه ما اضمر للسلطان شراً قط ولا سعى في افساد القلوب عليه ثم حذره من قتال المسلمين المهاجرين في ارض لا تنالها الاحكام منذ احقاب فابى الا باجراء ما جاء لاجله وامر بتنفيذه فلما راى الامير انه لا محيد له عن المدافعة والنصوص الشرعية موافقة له بادر الى الاخذ بالاحتياط ثم اختار من فرسانه مائتي فارس وسار بهم غازياً على العدو وهو في تافرسيت فصبحه واستولى على معسكره بما فيه وهجم بعض رؤساء جيشه على القائد فقتله واحتز رأسه وجيء بحريمه واولاده الى الدائرة وبعد مدة عين الامير لهم حرساً وارسله معهم فاوصلهم الى فاس وقد قدر ما كان في المعسكر من المتاع والخيام والكراع والمهمات الحربية بالوف من الليرات وكان من جملة تلك الامتعة البسة فاخرة جاء بها القائد ليفرقها في رؤساء القبائل اذا اعانوه على الامير وقاموا بنصرته فسقط في يده وخاب امله واهتز المغرب الاقصى لهذه الوقعة وخطأ الشعب سلطانه ونقموا عليه حيث بعث جيوشه لقتال المسلمين المهاجرين الذين التجأوا الى بلاده طالبين حمايته لهم من عدوه وعدوهم

﴿ ذكر واقعة بني عامر في نواحي فاس ﴾

لما ترك المهاجرون من بني عامر الدائرة ووقع بينهم وبين ابن التهامي خليفة الامير عليها بدسائس الخليفة السيد محمد البوحميدي وارتحلوا الى فاس مغاضبين فاكرم سلطان المغرب نزلهم و قطعهم ارضاً تشتمل على حرث عظيم و بسائط خصبة فاستوطنوها ولما رجع الامير من الجهة الشرقية الى الدائرة اشرأبت نفوسهم الى الرجوع واقاموا ينتظرون سنوح الفرصة فلما تمكن الامير في ارض الريف وثبتت قدمه فيها اعتزموا على الرحلة الى سيدهم وولي نعمتهم وكتبوا اليه ان يراقبهم في بلاد مكناسه فاجابهم الى ذلك وارتحل بدائرته الى كرط قريباً من جبل كاميه ثم سار في نخبة من فرسانه الى بلاد مكناسه وكان بنو عامر ارتحلوا مشرقين ففطن بهم جيرانهم من اهل الوطن فطيروا الخبر الى سلطانهم فسير

في اثرم جيشاً كثيفاً من الشراره عليهم القائد ابراهيم بن احمد الاكحل ولما نزل بساحتهم ارسلوا الى رئيسه يقولون نحن قوم خرجنا من دائرة اميرنا لامر اقتضى ذلك والآن اردنا الرجوع الى اخواننا واهلينا فلا سبيل لكم الى منعنا شرعاً ولا قانونا فما كان جوابه الا انه اغار عليهم فدافعوه يوماً كاملاً ثم كاثرهم الجيش وحشود اهل الوطن واحاطوا بهم احاطة السوار بالساعد فاعتصموا بربوة وجعلوا يقاتلون عن حريمهم وكانوا رماة لا تسقط لهم رصاصة في الارض فكلما توجهت اليهم طائفة من الجيش استاصلوها بالرصاص وكانوا يجمعون موتاهم فينصبونهم اشباراً يتترسون به ويقاتلون من خلفه ولما اعيى الجيش امرهم حملوا عليهم حملة واحدة حتى خالطوهم في معتصمهم وجالدوهم بالسيوف وطاعنوهم بالرماح والتوافل وانقطع البارود فكانوا يقتلون بناتهم ونساءهم بايديهم فراراً من السبي والعار ثم جعلوا يقتلون انفسهم حين تحققوا انهم في قبضة الاسر ومن بقي منهم من النساء والاولاد اخذهم المراكشيون وباعوهم في اسواقهم بابخس ثمن وباؤا بها شنعاء الى آخر الدهر لانهم استحلوا دماء قوم مومنين مؤمنين باذلين انفسهم واموالهم في سبيل الله لاعلاء كلمة الدين لم يدخلوا بلاد هذا السلطان حتى اذن لهم وامنهم واجارهم فليت شعري بماذا استحل دماءهم على ان الشارع حرم قتل المؤمن من الحربيين فكيف به اذا كان من المومنين اما سمع قوله عليه الصلاة والسلام كل المسلم على المسلم حرام ماله وعرضه ودمه حسب المرء من الشرك ان يحقر اخاه المسلم اما بلغه ما روى ابن المبارك عن حمزة بن عبيد ما يحل لمؤمن ان يشتد على اخيه بنظرة تؤذيه وغاية مـا اقول « لقد تعدى » وعند الله تجتمع الخصوم ولما اتصل الخبر بالامير وهو بمخيمه في بلاد مكناسه رجع الى الدائرة ووجد قبيلة كعيه اغاروا على كراع الدائرة فاخذوا منه عدداً وافراً فاسرها بنفسه وبعد ان اقام للراحة اياماً ارتحل بدائرته ونزل على قبيلة كعية وبعث اليهم برد ما اختطفوه من الدائرة فابوا ذلك واصروا على بغيهم واعتدائهم فحينئذٍ سار اليهم في جموعه فاثخن فيهم بالقتل والاسر واذاقهم شديد النكال ورجع الى دائرته وكان اكثر الاسرى من اعيانهم فتعهدوا برد جميع ما اخذته قبيلتهم من الدائرة وبعد الوفاء بذلك اطلق سراحهم واشتهرت هذه الواقعة فكانت من اعظم الوسائل لردع الذعار والغوغاء من القبائل الغربية من منازل الدائرة وبعد مدة انتقل الامير الى زايو وهو موضع مطل على سهل تريفه فجاءه محمد بن عبد الرحمن رئيس قبيلة الاحلاف وفاوضه في بعث احد خلفائه الى حضرة سلطان مراكش ليعتذر اليه ويستعطف قلبه فاجابه الى ذلك وعين لهذه السفارة خليفته البوحميدي فسار ومعه الرئيس المذكور الى فاس فلم يحتفل بـه

السلطان ثم القي القبض عليه و بعد ايام قلائل اتلفه بسم اكرهه ناظر الحبس على شربه فمزق امعاءه ولما اتصل الخبر بالامير علم ما في نية صاحب المغرب من جهته قال بعضهم وبما فعله سلطان المغرب بالخليفة البوحميدي يئس الامير من مواصلته واعانته على عدوه وتبين له انه امسى وحيداً لا نصير له غريباً لا وطن له ومع ذلك فانه لم يلحقه جزع ولم ينله ضجر ولم يكن عنده وقتئذٍ من الجيش سوى الفي مشاة والف ومائتي فارس وهم من الابطال الذين شاركوه في اقتحام الشدائد وصبروا معه على مقاساة الخطوب والمكاره ولازموه في جميع مدته التي اظهر فيها من الشجاعة والاقدام ما بهر الافكار وخلد له الذكر الجميل مدى الدهور والاعصار وهم الذين عملوا باشاراته وفازوا في خاتمة امره بصالح دعواته ·

﴿ ذكر آخر الوقائع في المغرب وما آل اليه امر الامير بعدها ﴾

لما استحكمت العداوة بين الامير وصاحب المغرب وقوى ما عنده من الاحن والضغائن و بلغه ما لحق الامير من الضعف وقلة العدد والعدد جهز ولديه محمداً وهو ولي عهده واحمد في خمسين الف مقاتل وسيرهم اليه في الثاني من المحرم سنة اربع وستين ومائتين والعاشر من دسمبر سنة سبع واربعين وثمانمائة نزلا بجيشهما في قلعة سلوان على مسافة ثلاث ساعات من الدائرة فراى الامير ان يبادرهم بالهجوم ويأخذهم بالرهبة قبل ان يزحفوا اليه فجمع جيشه وشد عزائمهم واخبرهم بما عزم عليه من مهاجمة العدو فنشطوا لذلك وبايعوه على الثبات معه الى الموت واشار بكيدة يستعينون بها على ارهاب العدو فاحضر جملين وشد على كل منهما حزمتين من الحلفاء بعد ان لاشوهما بالقطران والزفت وامر ان يكون ايقاد النار في الحزمتين مقارناً للحمل على العدو في ليلة الرابع والثاني عشر من الشهرين المذكورين سار الامير بجيشه قاصداً سلوان ولما قرب منها رتب جيشه للهجوم وامر بتقدم الجملين امام الجيش ثم اضرمت النار في الحزمتين فنفر الجملان وذهبا يجوسان خلال خيام العدو وحمل الجيش بعدهما حملة رجل واحد فما راع القوم الا مشاعل النار تجول بين الخيام وامطار الرصاص تنزل عليهم من حيث لا يحتسبون فلم يسعهم الا الفرار وترك الخيام بما فيها من الامتعة والمهمات واستمر الامير وجيشه على هجومهم من غير ان يلتفت احد منهم الى الغنيمة حتى انتهوا الى سرادق اولاد السلطان فوجدوا العسكر قد احاطوا به واتخذوا الظهر والاثقال وقاية لهم من الرصاص واشتد القتال

على السرادق من نصف الليل الاخير الى ان لاح الفجر فحينئذٍ تاخر الامير بجنده ونزل غير بعيد من منازل العدو و بعد ان صلى الصبح ركب راجعاً الى الدائرة بعد اثخن فيهم وفرق جمعهم وفعل بهم الفعائل حتى انه لم يبق مع ولي العهد واخيه الا حاميتها وقد استولى القتل على اكثرها وفي وقت الظهر تراآى الامير جيش اكثرهم من اهل الوطن مغيرين في اثره يطلبونه فعطف عليهم في نحو المائتي فارس فكسرهم مع كثرتهم وشتت شملهم ولا زالوا منهزمين لا يلوي احد منهم على احد الى ان دخلوا معسكرهم ثم انقلب راجعاً الى الدائرة وارتحل بها من زايو مع نهر ملوية ونزل بالقرب من مصبه في البحر واقام العدو في سلوان الى ان تراجع من جموعه من فر الى الجبال القريبة منه واما الذين ابعدوا المرّ فاستمروا على فرارهم الى مواطنهم وارسل في جبال كامية وكيدانه ومن قاربهم من قبائل البربر وعرب تريفه حاشرين فانثالوا اليه افواجاً افواجاً معتذرين اليه في تخلفهم عنه حتى وقع بجموعه ما وقع من قوم غرباء لا ناصر لهم و بعد ان استكمل تعبيته ارتحل من سلوان ونزل بزايو فاتصل الخبر بالامير فاجاز بدائرته النهر ونزل بالعدوة الشرقية منه ثم جاء العدو فنزل في منازلها الاولى في العدوة الغربية فامر الامير ان ترتفع الدائرة الى ناحية عجرود وعين العسكر المشاة لمحافظتها وبقي فيمن معه من الفرسان ووقع المصاف على النهر وكان شائلاً وليس في تلك الجهة الا مجاز واحد فلما هجم العدو غرق منهم خلق كثير بخيلهم والذين اصطفوا على ضفته الغربية اشتد القتال بينهم وبين الامير كلٌّ من ناحيته واضطرمت نار الحرب وكثرت القتلى والجرحى من الجانبين واستمر القتال على النهر ساعات ثم تقدمت حشود البربر من اهل الوطن الى المجاز فاجازوا منه واتبعهم العدو واختلطت الجيوش وخاض بعضهم في بعض والتحما وكثر القتال قعصاً بالرماح وطعناً بالسيوف وكان القائد الشهير محمد بن يحيى قد استشهد في تلك المعمعة بعد ان ابلى بلاء حسناً فاختل مصافه واصيب فرس الامير فوقع من تحته وركب غيره وتكاثر العدو فتزحزح الامير عن النهر وصار القتال في السهل مناوشة ثم اصيب فرس الامير الثاني فنزل عنه وركب ثالثاً فاصيب ايضاً وركب رابعاً ولما تولى النهار اقبلت جموع بني يزناسن وغيرهم من الوطنيين نجدة لولدي السلطان فحمل الامير عليهم حملة صيرتهم فرقاً وملأت قلوبهم رعباً وما زال يوالي الكر عليهم الى ان ردهم الى النهر ثم انصرف وقد ايقن بانتشار سلكه وذهاب ملكه فلحقه العدو في الكتائب العديدة من الميمنة فانكشف جنده لقلته ونفاد ما بيدهم من البارود واخذ الامير باعقابهم

يدافع عنهم فكان ردأ لهم الى ان انتهوا الى عجرود ثم مال العدو الى الدائرة فدافعه العسكر المشاة بقوة وثبات الى ان اجازت الاثقال والحريم والاولاد وادي عجرود وقد قتل من العسكر في تلك العشية نحو المائة واسر مثلها واستمر الامير سائراً باهله وخاصته تلك الليلة مانعاً لحوزته دافعاً للذل بعزته الى ان بلغ جبل بني خالد من بني يزناسن ودخلت الدائرة وفيها بعض اخوته واقاربه في ارض الفرنسيس وبهذا انتهت خاتمة المحن وانطفت نار الحروب والفتن

هذا الذي سبق القضاء به والدهر في الانسان ذو دول
ما قرّ في ايدي قوابله حتى اذيق الصاب بالعسل

وكان الجنرال لاموريسير حاكم ولاية وهران لما بلغه سوق صاحب المغرب جموعه على الامير سار من وهران في نحو الخمسين الف جندي الى الحدود الغربية ليراقب اعمال المراكشية ويمنع الامير من التخطي الى الصحراء نخيم في عطيه من ارض مسيرده على مسافة بضع ساعات من وادي عجرود واقام هناك الى ان انتهى الامر بين الامير والمراكشية ولما اتصل به خبر دخول الدائرة في ارضهم بعث من قواد جيشه من ينظر في امرها ونصب العيون على الامير وفرق الجيوش فيما بين بني يزناسن ومعسكره وربط عليه الطرق حتى لا يتخطى تلك البلاد الى الصحراء وكان المطر سحاه متصلاً بالليل والنهار وعميت عنه اخبار الامير فاضطرب لذلك وارتبك في امره وخشي ان يفوته ما خرج لاجله واما الامير فانه لما وصل الى بني خالد نزل على استاذهم الشيخ مختار بودشيش في بلده تنجيرت وكان قبل ذلك من اصدقاء الامير فظن فيه انه يقوم بشأنه فاذا به رأى منه ما انكره وبلغه عن قومه ما انذره وحذره وتبين له انهم داخلون في الجملة المنحرفة والفئة المتطلعة الى الغالب جرت عادة الله في ارضه بذلك فلم يسعه حينئذ الا النظر في امره وانتهاز الفرصة في خلاصه من مكائد العدو ومكره فجمع خاصته وذويه وقال يا قوم ان الاحوال كما ترون والاخبار على ما تسمعون فما الرأي وما الحيلة فقالوا الراي لسيدنا فالذي يراه نحن معه فيه فقال لا ارى الا التسليم لقضاء الله تعالى والرضى به وقد اجهدت نفسي في الذب عن الدين والبلاد . وبذلت وسعي في طلب راحة الحاضر منها والباد . وذلك من حين اهتز غصن شبابي . وافترعن شباة الهندي نابي واقمت على ذلك ما ينيف على سبع عشرة سنة اقتحم المهالك . واملأ بالجيوش الجرارة الفجاج والمسالك . استحقر العدو على كثرته واستسهل استصعابه . وتوغل غير خائف اوديته

وشعابه . وأرتب له في طريقه الرصائد . وأنصب له فيها المكائد والمصائد . تارة انقض عليه انقضاض الجارح . واخرى انصب اليه انصباب الطير الى المدارح . وكثيراً ما كنت ابينه فافنيه . واصبحه فابرد غليلي منه واشفيه . ولا زلت في ايامي كلها ارى المنية ولا الدنية واشمر عن اقوى ساعد و بنان . واقضي حق الجهاد بالمهند والسنان . الى ان فقدت المعاضد والمساعد . وفني الطارف من اموالي والتالد ودبت اليّ من بني ديني الافاعي . واشتملت علي منهم المساعي . والآن بلغ السيل الربى . والحزام الضبنين . فسبحان من لا يكيده كائد . ولا يبيد ملكه وكل شيء بائد

ان يسلب القوم العدا ... ملكي وتسلمني الجموع
فالقلب بين ضلوعه ... لم تسلم القلب الضلوع
اجلي تاخر لم يكن ... بهواه ذلي والخضوع
ما سرت قط الى القتا ... ل وكان من املي الرجوع
شيم الاولى انا منهم ... والاصل تتبعه الفروع

فاستكان القوم لهذا الخطاب وتذكروا ايام الله فيهم وانما يتذكر اولو الالباب ثم اخذوا يتداولون الراي بينهم الى ان قر القرار على ان يكون التسليم الى الفرنسيس ثم ان الامير عاجله الحال ان يكتب كتاباً في ذلك الى الجنرال لامورسير رئيس الجيوش الفرنساوية فبعث رسولاً من حاشيته ليخبر الجنرال باللسان ولما وصل الرسول الى مناصب كيس وجد الدائرى الشهير بابن خوبه بالمرصاد فاطلعه على الامر وسار معه في لمة من خيله الى المعسكر الفرنساوي فبلغ الرسول الرسالة الشفاهية الى الجنرال فاهتز لذلك سروراً و بادر ببعث سيفه الى الامير مع ورقة ختمها بختمه على بياض ليشترط الامير ما اراد وارسلهم صحبة ابن خوبه وفي الوقت نفسه كتب الى ملكه انني بهذه الدقيقة ممتطياً جوادي للذهاب لدائرة عبد القادر ولا يوجد عندي فرصة لابعث اليكم بنسخة التحرير الذي اخذته منه اوجوابي له و يكفيني ان اقرر باني قد اتفقت معه بانه هو وعائلته يذهبان الى عكا او الاسكندرية وهذان المحلان هو الذي عينهما في شروطه وصادقت عليهما واني ملتزم بان اقوم بما اشترطه وقد عملت ذلك بكمال الاعتقاد من ان جلالتكم والحكومة تصادقون عليه ما دام عبد القادر اعتمد على قولي وخطي وبعث البريد الى الدوك دومال ابن الملك حاكم الجزائر فارتاح لذلك وركب من حينه بارجة وجاء الى مرسى جامع الغزوات ولاول وصوله اليها بعث الى الجنرال يخبره انه قد وافقه على قبول ما اشترطه الامير وامره ان يزيده في ذلك

تاكيداً ويعطيه ميثاقاً غليظاً يطمئن به قلبه والامير وان كان في حالة يأس الا انه لقوة جاشه وصبره لم يظهر اليأس والجزع واظهر غاية التربص والتأني ولذلك ترددت الرسل بينه وبين الجنرال في ربط الميثاق واحكام العهد ثلاثة ايام بلياليها وبعد ان تم الامر بينهما على شروط منها ان يحملوه مع جميع عائلته الى عكا او الاسكندرية وان لا يتعرضوا لمن يريد السفر معه من الضباط والعساكر وان الذي يبقى منهم في الوطن يكون آمناً على نفسه وماله ثم سار الامير باهله وخاصته واتباعه من تجبيرت قاصدا المرسى حيث ان ابن الملك والجنرال لامورسير والجنرال كافنياك ينتظرونه فيها وعند ما وصل في طريقه الى مقام المرابط سيدي ابرهيم وهو الموضع الذي كان الامير انتصر فيه على جنود فرنسا واوقع بهم الوقعة الشهيرة منذ سنتين قبل ذلك وجد الكولونيل مونتبان في خمسمائة فارس ينتظره فواجه الامير بكل اعتبار واحتفال وبعد ان نزل الامير وصلى في المقام ركعات ركب وسار في ذلك الموكب الى ان قرب من مرسى الغزوات فاستقبله ابن الملك وفي معيته الجنرال لامور سير وغيره من القواد والاعيان في الابهة والاحترام وبعد ان استقر بهم المجلس قال الامير لابن الملك هذه الساعة التي قدّر الله تعالى ان يكون فيها ما نحن فيه الان وقد اخذت على الجنرال لامورسير عهداً وميثاقاً فلا اخشى ان ينقضه ابن ملك فرنسا وعظيمها فاجابه الدوك ابن الملك بما يوافق قول الجنرال ويثبت عهده ثم قام الامير وقدم له سيفه وقال له اني احسب هذا شرفاً قدم لفرنسا وفخراً عظيماً حصل لها وفي غد تلك الليلة توجه ابن الملك نحو الجنود الفرنساوية المقبلة من مخيمها الى جامع الغزوات وعند رجوعه تلقاه الامير على جواده الادهم وبعد ان نزل عنه اهداه اليه مع طبانجته وساعته فقبلهم ثم اجتمعا اجتماعاً مخصوصاً جدد فيه ابن الملك العهد للامير وزاده وثوقاً واهدى الامير ايضاً طبانجته وساعته ثم سأله عمن يرافقه في غربته الى المشرق فسمى له اهله واولاده وخليفته السيد مصطفى ابن التهامي والسيد قدور ابن علال وغيرهما من حشمه واتباعه في مائتي نفس قال بعض مؤرخيهم ان مما يجب الحيرة ويستحق التعجب ان عسكر الامير عبد القادر كاد ان يصل عدده الى الفين من الخيالة وعشرة آلاف من المشاة وقد قاوم به جيشاً عظيماً من جيوش اكبر دولة من دول اوروبا يبلغ عدده مائة الف وستة الاف ما بين فارس وراجل مدة ست عشرة سنة واعجب من ذلك انهم كانوا يدخلون في معسكرنا ويقاتلوننا من ورائنا ومن ميمنتنا وميسرتنا ويهربون في الوقت الذي نتصور به القبض عليهم باليد والعجب كل العجب انهم كانوا يتعبون عسكرنا بتجاوزاتهم الدائمة ويظهرون بالامنية التامة غير مبالين بما كان ولا مهتمين بما

سيكون فليت شعري بماذا يجاب من سأل عن الفرق بيننا وبينهم ومن الذي يستحق المدح منا ومنهم اه قال الاديب صاحب الجامعة بعد ذكر ترجمة الامير في مشاهير المتقدمين والمتاخرين فلا يسع المؤرخ الشرقي غير الوقوف بازاء عظمته متفكرًا وباسباب سقوطها معتبرًا لان الصراع بينه وبين الجنود الفرنساوية كان بين مبدأين لا بين قوتين حربيتين احدهما استقلال الممالك الشرقية والثاني اطماع اوروبا الاستعمارية غير ان قوة الطمع زعزعت استقلال الشرق واستشعر اهله انهم مطحونون برحاه فازداد يأسهم ولو قوي المبدأ الاول لقوي رجاؤهم وزاد باسهم وليت شعري ما يقول المؤرخ الغربي بعد امعان النظر في دولة احكم اساسها منذ الف وار بعمائة سنة فقد استولت على مستعمرات امير عمر دولته سنة بعد ان قهر رجالها واباد ابطالها واشغلها خمسة عشر عامًا الى ان اراد الله انفاذ ما قدره وقضاه عاضدها اقرانه وساعدها عليه جيرانه فاستسلم لقضاء مولاه وسلم اليها نفسه برضاه على شروط موقع عليها من الجانبين وهذا هو سبب انهدام ملكه فليت شعري من يمدح ومن الذي يطعن فيه ويقدح وينبغي لكل شرقي وقف بقبر هذا الامير ان يخضع لعظمته ويمرغ وجهه في تربته ويعلم ان هذا الاسد الريبال محط رحال الآمال والانضال

سقى الرحمن قبرًا حلَّ فيه ... امير بالمفاخر لا يضاهى
همامٌ قد حمى الاوطان لما ... دهاها واقتدى بابيه طاها
به قرَّت عيون الشرق فخرًا ... واهل الغرب ما بلغت مناها
ولكنَّ الاله قضاه ماضٍ ... وكيفَ تردُّ اشياءٌ قضاها

و بتسليم سيفه انتهت سيرته السيفية وهي الجزء الاول و يليه الجزء الثاني في سيرته العلمية والله وليُّ التوفيق



فهرست

﴿ الجزء الاول من تحفة الزائر في مآثر الامير عبد القادر ﴾
﴿ واخبار الجزائر ﴾

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة



بيان الخطا والصواب الواقع في هذا الكتاب

صحيفة	سطر	خطا	صواب
٠٧	١٢	العلمية	القلمية
٠٨	١٧	القطة	القطعة
١٠	٠١	وبسيطة	وبسيطه
١٠	١١	للملكتين	للمماكتين
١٣	٠٢	شيدت	اشيدت
١٣	٠٦	الجداو	الجدار
١٤	١٣	النواي	النواحي
١٥	١٦	محلهم	محلها
١٦	١٠	النخيل فيها	النخيل لكثرته فيها
١٦	١١	بناها	بناها
١٦	٢٠	تنيرد	تنيره
١٦	٢٧	اودغ	آدوغ
١٧	١٠	المتل	التل
١٧	١٢	كله	كالمه
١٧	٢٥	الزرو	الذرو
٢٣	٠٥	ونقل	ونفل
٢٣	١٥	صقلبه	صقلية
٢٤	٠٤	السوس	سوس
٢٤	٢٧	البشار	اليشار
٢٥	٠١	ملغار	املغار
٢٦	١٢	ومنه	ومن
٢٧	٢٧	اليغرقي	اليغرني
٣١	٠٣	المعامد	المصامد
٣١	٢٢	في خطة	في خطته

صحيفة	سطر	خطا	صواب
٣٢	٢٥	العبذبين	العبيدبين
٣٣	٢١	يغض	يفص
٣٤	٥	من	ابن
٣٥	١١	نخذل	نجدل
٤٠	١٠	لمتونة	لمتونه
٤٢	١٨	غزواته	غزاته
٥٠	١٩	لمعروف	المعروف
٥١	١٣	تاورتت	تاودنت
٥١	١٦	تبلمست	تيلمست
٥٥	٠٧	بسلى	بسلا
٥٥	٠٧	السمارالى	أسملالى
٥٦	١٣	واخلافهم	واحلافهم
٥٦	١٤	عن عرب	من عرب
٥٦	١٧	وحروب	حروب
٥٧	١٩	واتحلوا	وارتحلوا
٥٨	٠٨	ويسر	وبشره
٥٩	١٥	المنتاني	المنتاتي
٦٢	٠٨	ينسوادى	تيسوادى
٦٣	٠٧	نازغا	نازغًا
٦٧	١٣	قسطنطينيه	قسنطينه
٧٢	٠٧	النجون	النجون
٧٤	٠٤	حرب	جرت
٧٤	١٥	محمود	محمد
٧٥	٠٣	وجمة	وجمه
٧٦	٠٧	البرتقال	البرلقتال
٧٧	٢٤	في معيشه	في معيته
٨٦	١٣	مرزاك	مزراك

صحيفة	سطر	خطا	صواب
٨٦	٢٠	الجائر	الجزائر
٩١	٢٦	في القيطينة	في القيطنة
٩٢	٢٢	مرارًا	ثمانٍ
٩٢	٢٦	دعاها الى النوى	عراها على النوى
٩٢	٢٧	غياهب	غيهب
٩٣	٠٩	فانا	فنحن
٩٣	١٦	وانا	ونحن
٩٣	١٧	لها	لهم
٩٣	١٩	مرارًا	ثمانٍ
٩٣	٢٤	يشتوي	قد شوى
٩٤	١٥	القيطينة	القيطنة
١٠١	١٧	الاتكالي	اتكالي
١٠٢	١٦	حيص وبيص	حيص بيص
١٠٢	٢٤	وجمعة	وجماعة
١٠٥	٠١	عيشهم	عيثهم
١٠٥	١٦	تب	رتب
١٠٩	٠٨	ارسلوه	راسلوه
١٠٩	١٨	في مسركين	من مسركين
١٠٩	١٨	فتتهم	فيثبتهم
١١١	٢٣	في الحرب لآذاننا	في الحرب احلى لآذاننا
١١٣	٢١	درك	ادراك
١١٥	٠٦	الميلود	المولود
١١٥	١٠	خلين	خلون
١١٥	٢٢	بترجيع	بارجاع
١١٦	١١	يسافر	ان يسافر
١٢١	٠٩	نصرالله	نصره الله
١٢٢	١	والسروال	والسراويل

صفحة	سطر	خطا	صواب
١٢٢	٢	وسرواله	وسراو يله
١٢٢	٢٥	وعن	وعين
١٢٤	١١	محل	محفظة
١٢٤	٢٥	احنج	احنيج
١٣٥	٩	حداها	احدها
١٤٣	٧	عراس	عراش
١٤٣	١٦	وبجيبه	بجيبه
١٤٤	١٢	الاقاليم	الاقليم
١٤٤	٢٦	اجزؤه	اجزاؤه
١٤٥	٧	علم	اعلم
١٤٦	٩	العرب	عرب
١٤٧	١	ال معسكر	الى معسكر
١٤٨	١٢	بعضهم	المؤرخ المذكور
١٥٥	١٠	العسكري	المعسكري
١٥٥	١٣	الىالآخره تجار	الى الآخر تجّاره
١٥٥	١٥	المحده	الحدود
١٦١	٥	الامر	الامير
١٦٢	٥	اوارى	الهوارى
١٦٣	١٠	ينجح	ينج
١٦٣	١٥	رداء	ردءا
١٦٥	٧	مغلولاً	مفلولاً
١٦٧	١٤	ذكر القائد	ذكر ان القائد
١٦٧	١٥	في قلعتها انه	في قلعتها كان
١٦٧	١٩	محمد	احمد
١٦٩	٢٧	واشفوا	واستفوا
١٧٢	١٨	حترامي	احترامي
١٧٢	٢٣	اشفاهاً	شفاهاً

صحيفة	سطر	خطا	صواب
١٧٤	٢٠	قلعتهما	قلعتها
١٧٤	٢١	التي بهما	التي بها
١٧٤	٢١	فيهما	فيها
١٧٥	٢٠	ويغود الشادر	ويعود الشارد
١٧٦	١١	المنية	النية
١٧٦	١١	امقاصد	المقاصد
١٧٦	١٦	مسا	مسلم
١٧٦	٢٧	حماده	حمادي
١٧٧	٠١	حضرة تلمسان	الحضر في تلمسان
١٧٧	٠٢	توسيع معين لحدود	التوسيع لحدود
١٧٧	٠٤	وعليه حررت	حصل الاتفاق على
١٧٩	٠٤	يتسربلين	متسربلين
١٧٩	٠٥	مسيره	يسيره
١٨١	٠٣	خاطر	خطر
١٨٢	١٦	كافيناك	كافيناك
١٨٣	١٢	صيدنا	سيدنا الامير
١٨٦	٠٢	السلطان	سلطان المغرب
١٩٢	١٠	المواصفة	الموصوفة
١٩٣	١٢	واقتبل	واقبل
١٩٥	٠٢	من الوف	مع الوف
١٩٥	١٨	والزواوده	والذواوده
١٩٩	٢٤	اربعه	رابعه
٢٠١	٠٩	الحاديه	الحاويه
٢٠١	١٥	والسيد	وعين السيد
٢٠٢	٢٧	والسيد عبدالله	والسيد ابن عبدالله
٢٠٣	٠١	الخرنوبى	الخروبى
٢٠٥	٢٣	ستة عشر	ست عشرة

صحيفة	سطر	خطا	صواب
٢٠٦	٠١	اظهر	ظهر
٢١٢	١٤	ابن صفره	بن ابي صفر
٢١٣	١٩	منظاوز	منصور
٢١٦	٢٦	يحبون	يحتسبون
٢١٨	١٠	مدينتكم	دينكم
٢١٩	٢٦	الجوال	الجدال
٢٢٢	٠٤	مطهامطه	مطهاطه
٢٢٢	١٤	محمد فاخه	محمد بن فاخا
٢٢٣	٠٢	بشاره	شاره
٢٢٣	١٢	طاغيتكم	طاغيتهم
٢٢٣	١٣	العدل	العدو
٢٢٦	٠٥	مخصوصه	مخوصه
٢٣٥	١١	واذاؤها	واراؤها
٢٥٤	٢٦	واقتدارا	واقتدار
٢٦٩	٠٧	فمن	فمن
٢٦٩	١٧	ردم	رداً
٢٧٢	٠٦	يبدلون	يستدلون
٢٧٢	١٧	البرازلي	البرزلي
٢٧٢	٢٣	ما	اما
٢٨٦	٠٣	ابن السيد	خادم السيد
٢٩٧	٢٥	وتحيز	وانحاز
٣٠٩	١٢	الموز	المواز
٣١٥	٠٢	البر	البرد
٣١٥	٢٧	يوافق	لا يوافق
٣١٧	٠٥	بزياده	بوزياده
٣١٧	١٠	الاميرعبدالقادر	عبد القادر الخشمي
٣١٨	٢٨	احدم	احدم

صحيفة	سطر	خطا	صواب
٣١٩	٢٧	كلعيه	قلعيه
٣٢١	١٩	لاشوهما	لا توهما
٣٢١	٢٠	في ليله	وفي ليلة
٣٢٢	٠٣	بعد اثخن	بعد ان اثخن
٣٢٢	٢٧	بانتشار	بانتثار
٣٢٣	١٠	سنار	سار
٣٢٤	٠٧	الضبنين	الضبتين
٣٢٤	١٧	خوبه	خويه

